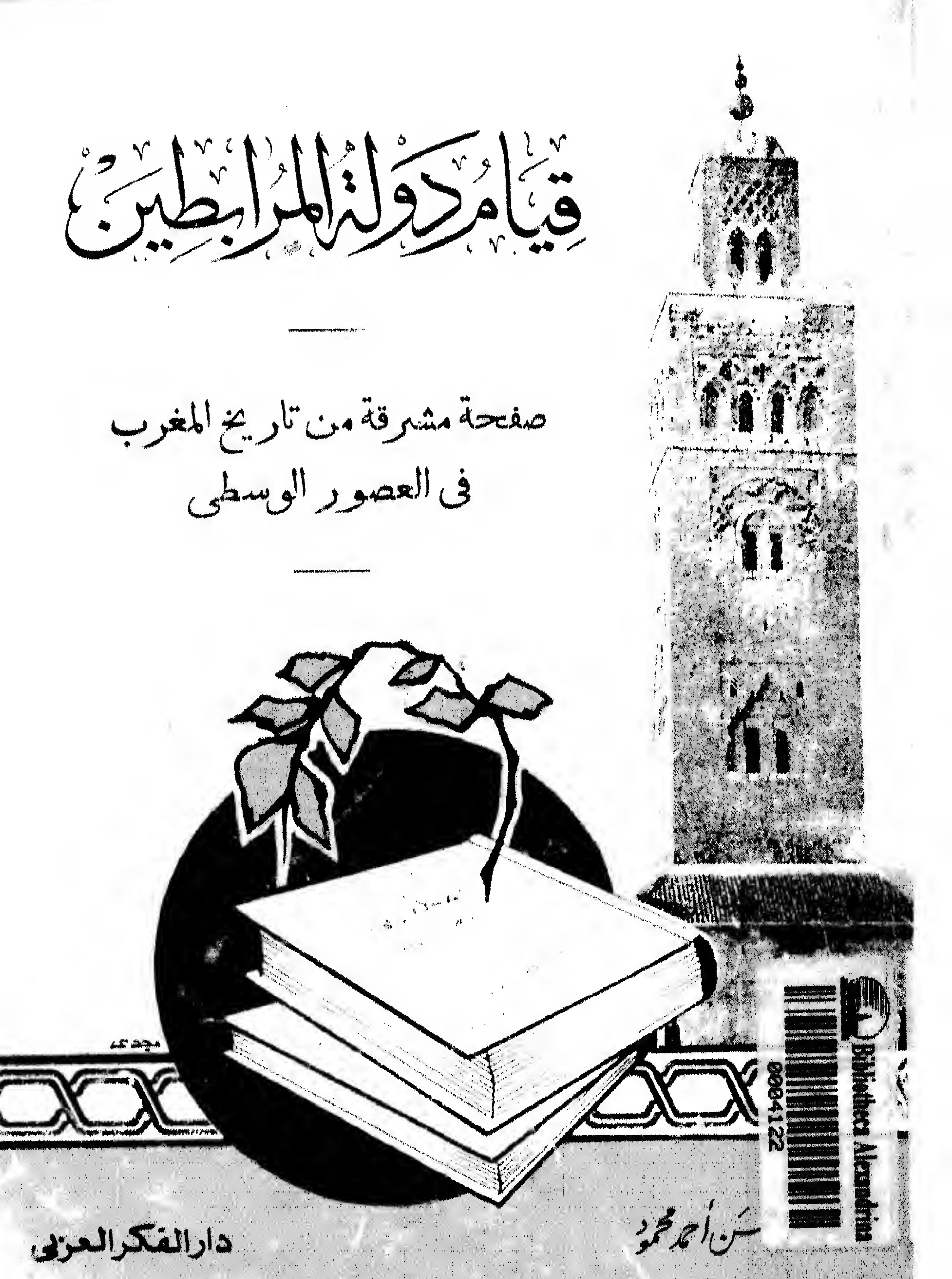

قيام دولة المرابطين
صفحة مشرقة من تاريخ المغرب
فى العصور الوسطى
سن أحمد محمود
دار الفكر العربى

قيام دولة المرابطين

صفحة مشرقة من تاريخ المغرب
فى العصور الوسطى

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

١١ شارع جواد حسنى - القاهرة

ص ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

محتويات الكتاب

صفحة


الأندلس
في عصر المرابطين
دولة المرابطين
الجزائر الشرقية
قطلونية
نبرة وأرغون
مملكة جليقية وقشتالة وليون
رجع المؤلف الى كتاب «السيد وعصره» لبيدال

مقدمـــة المؤلف

لعب المغرب فى تاريخ الإسلام دوراً رائعاً ، فقد أصبح بنوه بعد أن أسلموا ، وحسن إسلامهم ، من أشد جند الإسلام إخلاصاً ، وأوفرهم تحمساً لخدمة هذا الدين ، ورفع لوائه ، والدفاع عنه ، فقد فتحوا الأندلس ، و بسطوا ظل الإسلام حتى كاد يتخطى جبال البرانس ، وناوشــوا الفرنجة فى البر والبحر ، ووقفوا لهم بالمرصاد وذادوا عن حياض الإســلام بقدر ما وسعهم من قوة ، وتألق نجم أبطاله وأمجاده فى سماء الجهاد ، حتى اقترنت أسماؤهم بأسمـاء السلف الصالح ، صدق فى الجهاد و إخلاص للعقيدة . وقد أسهمت مدارس المغرب والأندلس فى بناء صرح الحضارة الإسلامية ، وأصبحت مدارس القيروان ، وقرطبة ، وفاس ينابيع متفجرة بالثقافة الإسلامية .

و برغم ذلك كله ، لم تظفر الدراسات المغربية من الباحثين العرب بما تستحقه من عناية واهتمام ، وخلا الميدان أمام الفرنسيين ، فبعثوا تراث المغرب . وأرخوا لشعوبه ، وكشفوا النقاب عن جوانب من حضارته ، ونشروا كثيراً من المخطوطات التى ظلت دهراً طويلاً حبيسة فى مكتبات المغرب الأقصى .

ومن حسن الحظ ، أن مصر أخذت فى السنوات الأخيرة تقدر ما للدراسات المغربية الأندلسية من أهمية وخطر ، و بدأت تقدر الدور الذى لعبه المغاربة فى تاريخ الحضارة الإسلامية . وكانت كلية الآداب بجامعة القاهرة سباقة فى هذا المضمار ، إذ وجهت بعض طلاب قسم التاريخ هذه الوجهة ، وشجعتهم على ارتياد هذا الميدان ومحاولة كشف النقاب عن هذا التراث المجيد ، و بلغ الاهتمام بالدراسات المغربية الأندلسية مداه فى السنوات الأخيرة .

وقد كنت أحد من اتجهوا هذه الوجهة ، وفرغوا لدراسة تاريخ المغرب وحضارته ، فأعددت بحثاً عام ١٩٤٨ موضوعه « تاريخ بنى زيرى وسياستهم الداخلية » . وقد رأيت إتماما للفائدة ، أن أنصرف إلى الدراسات المغربية ، لأنها تعد بحق ناحية من نواحى التاريخ الإسلامى ، كانت ولا تزال بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث ، لبيان الحقائق الغامضة فى تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامى الذى قام بدور هام فى تاريخ الحضارة الإسلامية .

وإذا كنت فى بحثى السابق قد أرخت لقبيلة صنهاجة الشمال ، الضاربة فى الجزائر وتونس ، والتى أسست دولة بنى زيرى ، وكانت ساعد الفاطميين الأيمن فى نضالهم من أجل السيادة على المغرب ، فقد رأيت أن أوجه عنايتى فى هذا البحث إلى فرع آخر من هذا الشعب العظيم ، الذى ينزل فى صحراء المغرب ، وتمتد دياره حتى تصاقب نهرى السنغال والنيجر ، وبذلك أكون قد أسهمت فى الإحاطة بتاريخ شعب صنهاجة ، الذى لعب دوراً ممتازاً فى تاريخ المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى .

وقد آثرت أن أؤرخ لدولة المرابطين ، التى أقامت صرحها قبيلة صنهاجة الجنوب ، والتى لعبت فى التاريخ الإسلامى دوراً رائعاً ، ونشرت الإسلام فى ربوع السودان الغربى ، وبثت الثقافة الإسلامية بين الشعوب الزنجية ، ثم توسعت صوب الشمال ، فاقتحمت ميدان المغرب والأندلس ، وشاركت فى معركة الجهاد ، فأنقذت الإسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه ، وناصبت الفرنجة العداء ، وجندت المجتمع كله لصد عدوانهم ، حتى روت دماء أهل المغرب بطاح الأندلس وسجل التاريخ أسماء أبطال المرابطين ، وفرسانهم فى سجل الخالدين ، وأصبح اسم يوسف بن تاشفين فاتح الأندلس ، وقاهر ألفونسو السادس والبابوية ، الناهضة ومبدد خرافة الاسترداد ، يقترن باسم صلاح الدين وغيره من أبطال المعارك الصليبية . وقد جاهدت دولة المرابطين الفتية فى البحر ، كما جاهدت فى البر ،

وراحت أساطيلها تجوس خلاله ، وتقف لسفن الفرنجة بالمرصاد ، وتنازعهم السيادة في هذا الميدان .

ولكن هذه الدولة ،رغم هذا الدور الرائع الذى لعبته فى تاريخ الإسلام ، لم تلق من المؤرخين المحدثين اهتماما يذكر ، حتى إنهم أصبحوا حين يعرضون لتاريخ المغرب الإسلامى ، يلمون بها إلمامة عابرة ، لا تروى غله ، ولا تنقع صدى ولا تكشف عن هذا الدور الخطير ، الذى قام به المرابطون فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، وإنما هى أخبار مبعثرة فى ثنايا هذه الكتب ، ولم ينفرد أحد من المؤرخين الأقدمين والمحدثين — فيما نعلم — ببحث تاريخ هذه الدولة فى كتاب واحد ، ولعل هؤلاء المؤرخين لم يدركوا ما لهذه الدولة من أهمية وخطر فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، وما خلفوه من تراث مجيد تليد ، يستحق منا العناية بتقصى أخبارهم، وتدوين تاريخهم ، بطريقةعلميه حديثة مبنية على النقد والتحليل والإدلاء بآراء شخصية تفيدالعلم فائدة محققة ،وتلقى ضوءاً براقاً على ما تركته من آثار تستحق العناية .

لا ننكر أن تاريخ المرابطين فى الأندلس لقى من عناية المؤرخين نصيباً غير قليل ، فقد ألف المستشرق يوسف أشباخ كتاباً عن تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذمحمد عبد الله عنان ، ولكن مؤلفهذا الكتاب لم يعتمد على وثائق هامة فى تاريخ الأندلس ، مثل كتاب الذخيرة ، أو كتاب التبيان للأمير عبد الله ، كما عقد دوزى فى كتابه **Histotre des Musulmanes d'Espagne** فصلا عن المرابطين . على أنه قد ظهرت فى هذا الموضوع وثائق جديدة ، مثل كتاب التبيان ،وغيره أوجبت أن يعاد النظر فى آرائه وأقواله ، أما بروفنسال فلم يتعرض فى الكتاب الذى ألفه فى تاريخ الأندلس للمرابطين ، إذ وقف عند سقوط الخلافة ،على حين نجد أن قديرة فى كتابه **Decadencia et disparacion de los Almoravides**،لم يعرض

إلا لانحلال دولة المرابطين فى الأندلس ، ثم سقوطها .. ولكن تاريخ المرابطين فى المغرب والسودان، ظل ميدانا لم يطرقه أحد من المؤرخين ، وأصبحت الخطوات الأولى التى سبقت ازدهار الدوله واتساعها تكاد تكون مجهولة إلى حد ما[1] .

وقد نلتمس للمؤرخين المحدثين بعض العذر فى إعراضهم عن الإفاضة فى تاريخ المرابطين ، والتوسع فى توضيح الدور الذى قاموا به ، وذلك بسبب قلة المادة التاريخية ، التى يمكن الاعتماد عليها فى أمثال هذه الدراسات ، فقد ضاعت مراجع معاصرة فى غاية الأهمية ، مثل : كتاب الأنوار الجليـة فى أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفى ، وكتاب تاريخ سبتة للقاضى عياض ، كما لا ننسى أن الموحدين أعداء المرابطين الألداء عملوا بقدر الطاقة على الإساءة إليهم ، فمحوا آثارهم ، وشوهوا تاريخهم ، ورموهم بكل نقيصة ، واتهموهم بالكفر والزندقة والمروق عن الدين ، لذلك أصبح الكتاب الذين عاشوا فى عصر الموحدين يخشون أن يتعرضوا لبحث تاريخ المرابطين فى إسهاب ، خشية أن يثيروا غضب الموحدين فعمد كثيرون منهم إلى تجريح المرابطين، وتشويه سمعتهم والإساءة إليهم ، ولولا أن بعض المؤرخين المتأخرين عثروا على مراجع معاصرة للمرابطين كانت موجودة فى عصرهم ، وأفادوا منها ، ونقلوا عنها ما طاب لهم ، لما استطعنا أن نعثر فى تاريخ المرابطين على مادة يمكن الإعتماد عليها فى تدوين تاريخهم .

(١) ظهرت بعض المقالات المتفرقة مثل

E. Lavust : L' habitation chez les transhumants du Maroc centrale, Hesperis, 1934 , t XVIII

M. Delafosse : Chronique du Fauta Senegalais , Revue du Monde Musulmane, tome 25, 1913.

Ismail Hamet : la civilisation arabe en Afrique Centrale, Revue du Monde Musulmane , avril, 1911, tome XIV.

Basset : Mélanges Afriqains et Orientaux

De la Chappelle : Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental , Hésperis année 1930 , tome XI.

Doutté : Notes sur L' islam Maghribin

Basset : Mission au Senegal

ورغم ذلك كله ، أقدمت على دراسة موضوع قيام الدولة المرابطية ، وكان إقبالى على هذا الموضوع ، لايخلو من مغامرة ، وكنت أخشى أن تصرفنى قلة المادة عن محاولة كشف النقاب عن تاريخ قيام هذه الدولة .

ولكنى مضيت فى سبيل البحث قدما ، وإستطعت أن أعثر على مادة تاريخية مهدت لى السبيل ، واستطعت أن أسهم بنصيب متواضع فى تدوين تاريخ قيام هذه الدولة ، وترسم الآثار التى تركتها فى حضارة المغرب والأندلس .

وقد ظفرت ببغيتى ، ووجدت طلبتى وثائق معاصرة بالغة الخطورة فى تاريخ هذه الفترة ، مثل كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، ولم يزل الشطر الأكبر من هذا الديوان العظيم مخطوطا لم ينشر بعد ، كان ابن بسام معاصرا للمرابطين ، وشهد ذلك الصراع المرير الذى نشب بين الإسلام والنصرانية فى بلاد الأندلس ، وأورد طائفة من الرسائل ، على جانب عظيم من الأهمية والخطر أعانتى على التأريخ لحركة جهاد المرابطين فى الأندلس ، كما كشف كتاب الذخيرة النقاب عن أثر المرابطين فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى هذه البلاد .

ومن هذه الوثائق أيضاً ، كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض اليحصبى ، وهو مخطوط لم ينشر بعد ، وقد عاصر عياض دولة المرابطين ، وولى القضاء فى عهدهم ، ولمس مقدار ما بذلوه من جهد ، وقد أرخ عياض لفقهاء مالك فى المشرق والمغرب ، وعرض لسيرة عبد الله بن ياسين ، وهى أول ترجمة نعثر عليها لذلك الرجل ، الذى كان له الفضل الأول فى قيام الدولة .

ومن هذه الوثائق أيضا كتاب التبيان للامير عبد الله بن بلكين ، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، وقد اشترك مع يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة وحصن لييط ، وسجل حوادث الجهاد البارزة تسجيلا يدعو إلى الإعجاب حقا

كما كشف النقاب عن سياسة يوسف فى بلاد الأندلس ، وقد نشره بروفنسال مع تعليق وترجمة بمجلة الأندلس[١] .

ومن هذه الوثائق الهامة نذكر كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى ، وكان معاصراً للأدوار الأولى من قيام هذه الدولة ، وأرخ للمرابطين فى صحراء المغرب والسودان ، قبل أن يتدفقوا إلى المغرب والأندلس ، كما عرض لعبدالله بن ياسين ، وعرف بشعوب الملثمين تعريفا طيبا حتى ليعتبر قوله فى هذه الناحية لايعلى عليه .

ومن هذه الوثائق كتاب مشيخة القاضى عياض ، الذى يلقى ضوءا على الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس فى عصر المرابطين ، وهومحفوظ بدار الكتب المصرية .

وقد وجدت فى كتب الطبقات ، مثل كتب بن الأبار[٢] ، وابن بشكوال[٣] وإبن الزبير[٤] ، والضبى[٥] ، والسيوطى[٦] ، وأحمد بابا التمبكتى[٧] ، وإبن فرحون[٨] ، وإبن المؤقت المراكشى[٩] ، وإبن القاضى ، [١٠] وإبن خير[١١] مادة غزيرة أعانتى على التأريخ للحركة الثقافية فى بلاد المغرب والأندلس ،

(١) Al Andalus : vol. III, Fasc. 2, Madrid, 1935
vol. VI, Fasc. 1 , 1941

(٢) التكملة لكتاب الصلة

(٣) كتاب الصلة

(٤) صلة الصلة

(٥) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس

(٦) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة

(٧) نيل الابتهاج بتطريز الديباج

(٨) الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب

(٩) السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

(١٠) جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس

(١١) الفهرست

واستعنت بها فى دحض الآراء التى انتهى دوزى اليها ، فيما يتعلق بالدور الذى لعبه المرابطون فى تاريخ الحضارة ؛ كما ألقت هذه الكتب ضوءاً على الحياة الإجتماعية فى ذلك العصر ،ووردت فى ثنايا الترجمة للعلماء ، والفقهاء أخبار تتعلق بتاريخ المرابطين ، على جانب عظيم من الأهمية .

وكذلك اعتمدت اعتماداً كبيراً على كتب الأدب ، التى أنارت السبيل لدراسة الحياة الثقافية والإجتماعية ؛ وناهيك بكتاب قلائد العقيان ، وكتاب المطمح للفتح بن خاقان ، الذى كان معاصراً للمرابطين ، وأرخ لأعلام الكتاب والشعراء ، ووصف ألواناً من الحياة الإجتماعية فى بلاد الأندلس . كما اعتمدت على كتب مخطوطة فى تاريخ الأدب . مثل كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية[1] ، وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى ، الجزء الحادى عشر . كما استعنت بدواوين الشعراء المعاصرين ، مثل ديوان ابن حمديس الصقلى ، وديوان ابن خفاجه الأندلسى ، وديوان الأعمى التطيلى . ورجعت إلى ماورد من شعر المعاصرين فى كتاب الذخيرة ، وكتاب الحلة السيراء لابن الأبار وفى كتاب بغية الملتمس للضبى . وقد استرعت معركة الجهاد بالأندلس إنتباه المعاصرين من الكتاب والشعراء ، فسجلوها فى شعرهم وترسيلهم ، ومدحوا المرابطين ، ووصفوا الدور الرائع الذى اضطلعوا به فى تاريخ الجهاد ، حتى نشأ حول معركة الزلاقة ما يمكن أن نسميه أدب الزلاقة . ناهيك بما للشعر من أهمية وخطر فى تصوير الحياة الإجتماعية ، وقد حوى ديوان ابن خفاجة بوجه خاص معلومات تاريخية وإجتماعية عظيمة الأثر ، ومن أسف ، أنى حاولت أن أقرأ ديوان ابن قزمان الذى حوى طائفة طيبة من الأزجال الأندلسية باللغة الدارجة فلم أوفق .

---

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً .

كذلك اعتمدت على كتب الحسبة ، كرسالة ابن عبدون التجيبى [١] الذى عاصر استيلاء المرابطين على أشبيلية ، ويعد هذا الكتاب بحق مرجعا عظيم الفائدة فى دراسة نظم الحكم والحياة الإجتماعية والإقتصادية فى ذلك العصر ، كما استعنت بكتاب السقطى فى الحسبة أيضا [٢] .

أما كتب النقود ، [٣] وغيرها من المراجع المادية ، فقد كشفت عما أحاط بقيام الدولة من غموض ، إذ استعنا بها فى تحديد كثير من التواريخ الهامة ، كوفاة أبى بكر بن عمر ، وتولى يوسف بن تاشفين ، كما استعنت بها فى دراسة نظم الحكم ، حين عرضنا للألقاب ، ولولاية العهد . كما استعنا بالنقود فى دراسة الحياة الإقتصادية فى البلاد ؛ إذ ليس من شك فى أن نقد الدولة مقياس لحالتها الإقتصادية ، كلما كان سليما متمتعا باحترام الناس وثقتهم ، دل ذلك على مقدار ما نعمت به الدولة من إستقرار وغنى ، أما أمكنة ضرب النقود ، فقد كشفت لنا النقاب عن التقسيمات الإدارية ، وكشفت عن مدى السلطة التى تمتع بها أمراء المرابطين ، وألقت ضوءا على ذلك النظام الإقطاعى الذى كان طابعا مميزا للدولة المرابطية .

---

(١) نشر بروفنسال هذه الرسالة وترجها وعلق عليها :

E. Levi-Provençal: Un document sur La vie Urbaine et les corps de metiers á Seville au debut du XII Siecle : Le traité d' Ibn Abdun. Pubilié avec une introduction et un glossaire J. . As. Avril-Juin. 1934

(٢) نشر بروفنسال هذا الكتاب أيضاً وترجه وعلق عليه :

Un manuel Hispanique de Hisba : Sur la Surveillance des corp — eration et la repression des fraudes en Espagne Musulmane Publié Pár Colin et Provençal.

(٣) Catalogo de Monedas Arabigo .... Monedas de las Dinastias ...
Cat. Des Monnaies Musul. de la Bib. Nat.
Katalog der Orient. Lane—Poole.

أما عن النقوش[1] ، فقد استعنا بكتاب النقوش الأندلسية الذى وضعه بروفنسال ، وقد استعنا ببعض هذه النقوش فى تحقيق بعض التواريخ والأنساب. ولم نغفل جانب الفن ، فقد اعتمدنا على أهم ما كتب فى تاريخ الفن الأندلسى المغربى فى عهد المرابطين ، مثل كتب تراس ومارسيه ، ولو أننا لم نعرض لتاريخ الفن عرض المتخصص الملم بدقائقه ، إنما ألممنا به المامة عابرة .

كذلك لم نغفل كتب الدين والفلسفة والفقه ، فقد اعتمدنا على موطأ الإمام مالك فى دراسة تعاليم الفقيه عبدالله بن ياسين ، ومحاولة التعرض لنظام الحكم التى وضعها المرابطون ، خصوصا مايتعلق بالشورى ، وأحكام الجزية والزكاة ، والخراج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولم نغفل كتب الملل والنحل ، مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، وكتاب الفصل فى الأهواء والملل والنحل لابن حزم ، وكتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ،وكتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، وذلك للرد على ما قاله الموحدون فى حق المرابطين .

وقد استعنا فى هذه الناحية ، بما كتبه المستشرق جولدتسيهر فى كتاب العقيدة والشريعة ، وفى مقدمته لكتاب محمد بن تومرت ، المسمى بأعز مايطلب ، حيث عرض لعقائد الموحدين عرضا طريفا ، كما اعتمدنا على بعض المواد المتفرقة بدائرة المعارف الإسلامية .

ولم نغفل أمر الجغرافية فى دراسة البيئة ، التى قامت فيها دولة المرابطين ، ودراسة أثر هذه البيئة فى توجيه الحوادث فى ذلك العصر ، الذى نحن بصدد التأريخ له . وقد اعتمدنا على ما كتبه الجغرافيون والرحالة المسلمون ، مثل ابن حوقل[2] ، والادريسى[3] وابن جبير[4] ، والدمشقى ، وابن فضل الله

(١) Provençal : Inscriptions Arabes d' Espagne.

(٢) المسالك والممالك

(٣) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس

(٤) رحلة ابن جبير

القمرى [١] ، والحميرى [٢] ، وإبن بطوطة [٣] . كما اعتمدنا على الرحالة المحدثين الذين جابوا أفريقية فى العصر الحاضر ، ووصفوا بيئة المغرب وشمو به وصفا دقيقاً وألموا بديار الطوارق أحفاد ضهاجة . إعتمدنا مثلا على كتاب الرحالة دى فر بيه حيث درس بيئة الطوارق ، ووصف الحياة الإجتماعية وصفا رائعاً ، وإنتهى إلى أن الطوارق المحدثين لايكادون يختلفون عن أحفادهم فى كثير أو قليل . وفى الباب الأول عقدنا موازنة بين الطوارق المحدثين والصنهاجيين القدماء ، وإهتدينا إلى هذه الحقيقة ؛ وهى أن التشابه بين الشعبين عظيم .

أما المصادر التى تناولت الكلام على النظم الإسلامية ، فقد اعتمدنا فيها على مقدمة ابن خلدون اعتماداً كبيراً ، إذ ليس من شك فى أن ابن خلدون من أئمة العلماء ، الذين عرضوا لهذه الناحية بالدراسة ، قضى شطراً كبيراً من حياته فى المغرب ، وكان يدرك روح مواطنيه إدراكا صادقاً ، فصور النظم السائدة فى تلك البلاد تصويراً رائعاً ، حتى إن أحكامه عن بيئة المغرب جاءت صادقة كل الصدق ، ولا سيما ما كتبه عن القبائل مؤسسة الدول ، والبدو المستقرين ، وإبراز أثر هذه النواحى القبلية فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كما رجعنا لكتاب سراج الملوك للطرطوشى ، وهو فقية أندلسى عاش فى الأسكندرية ، وعرض لنظم الحكم المألوفة فى بلاد الأندلس ، كما عاصر قيام الدولة المرابطية ، وروى أنه أتصل بيوسف بن تاشفين .

ولم تغفل ما كتبه المستشرقون عما يمت لهذه الدولة من سبب بعيد أو قريب ،

---

(١) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر

(٢) مسالك الأبصار

(٣) الروض المعطار فى خبر الأقطار

(٤) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

فقد استعنا بما كتبه دوزى[١] ، و بروفنسال[٢] ، وجورج مارسيه[٣] ، ووليم مرسيه[٤] ، وتراس[٥] ، وجوليان[٦] ، ورينيه باسيه[٧] ، والفريد بل[٨] ؛ كما اعتمدنا على بعض المقالات الهامة التى كتبها أعلام المستشرقين فى الموسوعات والدوريات، مثل مجلة الأندلس ، وموسوعة هسبريس ، والمجلة الأسيوية للملكية ، والمجلة الإفريقية ومجلة الوثائق المغربية ، ودائرة المعارف الإسلامية[٩] .

وقد حاولت أن ألقى ضوءاً على هذا العصر الغامض ، ولا أقول أنى بلغت من الأبداع الغاية ، إنما يكفى أن أقرر أنى أسهمت بنصيب فى تحقيق تاريخ قيام هذه الدولة ، كشف النقاب عن الدور الذى اضطلعت به فى تاريخ الحضارة، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه السداد .

الجيزة فى ديسمبر ١٩٥٦ .　　　　　حسن أحمد محمود

---

(١) Hist. des Musul. d' Espagne et Recherches.

(٢) بعض المقالات بمجلة Hespéris

(٣) G. Marçais : Manuel d' Art Musul.

(٤) G. Marçais : Les Arabes en Berbérie

(٥) Terrasse : Histoire du Maroc

(٦) Mission au Senegal

(٧) Les Benou Ghanya

(٨)

(٩) رجعت إلى دائرة المعارف الاسلامية فيما كتب عن
مراكش — لمتونة — لمطة — أغمات — صنهاجة — السيد — تشفية — جهاد — أدرار — عبد الله بن ياسين — لثام — السوس — على بن يوسف — المرابطون — رباط — سنغال .

الباب الأول

بلاد المغرب الأقصى
قبيل قيام الدولة

---

١ — بلاد المغرب بيئات ثلاث متباينة جغرافيا :

يطلق الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على البلاد الممتدة من برقة غربا حتى المحيط الأطلسى اسم المغرب(١) ، وهو فى الحق اصطلاح جغرافى عام ، يطلق على بلاد تضم بيئات جغرافية متباينة بعض الشىء . وقد كان الرومان حين أخضعوا هذه البلاد لسلطانهم يشعرون بهذا التنوع الجغرافى ، فكان جغرافيوهم يجعلون هذه البلاد أقساما ثلاثة : إفريقية ، ونوميديا(٢) ، وموريتانيا . ويبدو أن العرب قد شعروا بما شعر به الرومان من قبل ، فلاحظوا أن بلاد المغرب تتألف من بيئات ثلاث ، لكل واحدة منها طابعه الخاص الذى تتميز به ، وتختلف كل من حيث الموقع ، وظروف البيئة ، والتوجيه الجغرافى . نعم اصطلح الجغرافيون العرب على أن يجعلوا من بلاد المغرب أقساماً ثلاثة هى : إفريقية ، والمغرب الأوسط ، ثم المغرب الأقصى . وحدود إفريقية العربية تطابق حدود إفريقية البيزنطية ، على حين أن المغرب الأوسط يمتد من حدود إفريقية الغربية حتى مصب وادى

---

(١) انظر ابن حوقل : المسالك ، والبكرى : المغرب ، والإدريسى وابن خلدون العبر : ج ٦ ص ١٠٠ ؛ وانظر اسماعيل رأفت : التبيان فى تخطيط البلدان ، ص ٢١ وما بعدها .
André Julien : Hist. de L'Afrique du Nord, p. 4.

(٢) De Mas Latrie : Traités de paix et de Commerce, p. 6.

ملوية [١] ، ويمتد المغرب الأقصى من وادى ملوية حتى مدينة آسفى [٢] على البحر المحيط .

هذه إذن هى بيئات المغرب : افريقية ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى فكيف تم لهذه البيئة الأخيرة أن يتألق نجمها وترجح كفتها ، وتلعب فى تاريخ المغرب الإسلامى دوراً بارزاً ممتازاً ؟ .

٢ — ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها فى تاريخه :

تدفق العرب من مصر متجهين صوب المغرب ، فأوغلوا فى برقة ، ثم فى طرابلس ، ثم تدفقوا إلى افريقية ، وأسسوا مدينة القيروان ، واستطاعوا بعد جهود متواصلة ، من سنة ٤٩ هـ إلى سنة ٧٨ هـ ، أن يخضعوا هذه الولاية لسلطانهم ، فاستقامت أمورها لهم [٣] ، وأوغل نفوذهم فيها ، وأصبحت قاعدة حربية يتوسعون منها صوب المغرب لإتمام فتحه ، وأصبحت القيروان قبلة سكان المغرب جميعهم ، يضربون اليها آباط الإبل ، يطلبون العلم ، ويشاركون فى ما نعمت به افريقية من يسر ورخاء [٤] . هكذا استطاعت افريقية — بعيد الفتح — أن تلعب الدور الأول فى تاريخ المغرب ، وكانت لها قوة التوجيه ، وظهر تفوقها وامتيازها فى صورة جلية واضحة ، بسبب مواردها المتعددة ، وتراثها الجم ، وموانيها المشرفة على بحر الروم ، وموقعها الجغرافى الممتاز ، وقربها من مصر ، ووفرة تراثها الحضارى القديم [٥] .

(١) نهر ملوية آخر المغرب الأقصى من جهة الشرق ، نهر عظيم منبعه من فوهة فى جبال قبلة زازى ، ويصب فى البحر الرومى عند غساسة . انظر ابن خلدون جـ ٦ ص ١٠٢ .

(٢) آسفى آخر مرسى تصل اليه المراكب فى أقصى ساحل المغرب ، وكانت تنزل به قبيلة رجراجة . أنظر الأدريسى : صفة المغرب، ص ٧٤ .

(٣) الدباغ : معالم الايمان ، جـ ١ ص٦٣ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ ١ ص ٢١٥ ؛ والادريسى ص ١١٠ .

(٥) Gautier : Les Siecles obscurs, p. 350.

ثم استطاع العرب أن يتموا فتح المغرب ، وأوغل عقبة بن نافع الفهرى فى البلاد ، حتى أشرف على ساحل المحيط ، وهيأ العرب للمغرب نوعاً من الوحدة السياسية بزعامة القيروان . ولكن ما لبثت طبيعة البلاد أن ظهرت بوضوح وجلاء ، وأخذت تهدد هذه الوحدة تهديداً خطيراً ، وظهرت شخصية المغرب الأقصى ظهورا واضحا منذ البداية ، حين تزعم حركة مقاومة الفاتحين العرب بزعامة كسيلة بن لمزم الأوروبى ، الذى أوقع بعقبة بن نافع ؛ ولم ينجح العرب فى بسط نفوذهم على المغرب الأقصى ، إلا بعد أن استطاع موسى بن نصير ببعد نظره أن يقرب أهل البلاد من الفاتحين ، وأن يحببهم فى الإسلام .

ثم ظهرت أهمية المغرب الأقصى — بصورة أوضح — حين بدأ المسلمون يعبرون بحر الزقاق[1] ، بقصد فتح الأندلس ، فقد أصبح القاعدة الحربية لهذا الفتح يمد الفاتحين بما يحتاجون اليه من مؤن وذخائر ، يؤمن ظهورهم ، ويشد أزرهم ، وأصبح بربر المغرب الأقصى من أشد جنود طارق وموسى إخلاصا لفتح بلاد الأندلس ، ونشر الإسلام فيها[2] . لذلك لا نكون مغالين إذا قلنا إن فتح الأندلس يرجع الفضل فيه إلى أهل المغرب الأقصى إلى حد بعيد ، وإن هذا الفتح قد ساعد على تمكين الإسلام من نفوس البربر ، فرسخت قواعد هذا الدين ، وبدأوا يخلصون له كل الإخلاص[3] .

وظهرت شخصية المغرب الأقصى مرة أخرى فى هذه الثورة ، التى أشعل نارها ميسرة المطغرى بطنجة سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ، حينما خرج على عمرو بن عبدالله فقتله ، ثم بايع عبد الأعلى بن جريج أول الأمر ، ثم دعا لنفسه بالخلافة[4] ، وهبت قبائل المغرب الأقصى كلها تؤيده ، وتشد أزره ، وكادت بلاد الأندلس

---

(١) Fretum Gaditanum, Détroit de Gadés.

(٢) H. Terrasse : Hist. du Maroc, p. 84.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠

والمغرب الأقصى تنسلخ من الخلافة الإسلامية[١] ، بل إن جموع الخوارج غزت أفريقية ، وراحت تهدد القيروان نفسها . وقد وضعت هـذه الثورة حدا لنفوذ العرب فى بلاد للغرب الأقصى ، وبدأت منذ هـذا التاريخ بوادر الحضارة الإسلامية فى المغرب تنتعش بعد أن أسلم البربر ، وأخذوا يتذوقون التراث العربى . يفهمونه ،ويحاولون أن يضيفوا إليه ،أو يضفون عليه لوناً مغربيا[٢] .

ولم يرأب الصدع ،ويحقق للمغرب نوعاً من السلام يعيش فى كنفه إلا الأغالبة الذين أقروا السلام فى أفريقية وفى المغرب معاً[٣] . ولـكن شخصـية المغرب الأقصى وضحت وضوحا تاما ،وغدت لها قوة التوجيه فى مجريات الحوادث فى ظل دولة الأدارسـة ، التى قامت على أكتاف بربر المغرب الأقصى ، الذين بايعوا إدريس بن عبد الله ، وآووه ونصروه وشدوا أزره . وقد وحد الأدارسة البلاد تحت لواء واحد ، وهيأوا لهـا حكومة موحدة مستقرة ، وأسسوا مدينة فاس ، وجعلوها حاضرة للبلاد[٤] ، كما قضوا على فتنة الخوارج ، وأقروا السلام ، ونشروا الإسلام[٥] ، وهيأوا للبلاد حياة مستقرة هادئة ، وأخذت مدينـة فاس تنشر الثقافة الإسلامية بين البربر ، وتهيىء لقيام حضارة مغربية إسلامية يشتد ساعدها فى القرن الخامس الهجرى ؛ ولا نـكون مغالين إذا قلنا إن الأدارسة بدءوا فى هـذا الميدان ما أتمه المرابطون والموحدون من بعدهم[٦] . ثم كانت نـكبة أفريقية على يد عرب بنى هلال فى القرن الخـامس الهجرى مؤكدة لظهور

---

(١) مع ملاحظة أن ثورة ميسرة لم يكن مبعثها الأسباب السياسية أو اضطهاد البربر فحسب ، بل كان من أهم أسبابها الدعوة لمذهب الخوارج ونجاح هذا المذهب فى المغرب .

(٢) H. Terrasse : Hist. du Maroc. p. 109.

(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٣ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٦ .

(٥) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف، جـ ٢ ص ٦ .

(٦) Gautier (op. cit.) p. 350.

المغرب الأقصى ، واضطلاعه بالدور الأول فى تاريخ الإسلام فى هذا الجزء الغربى من العالم[١] . هـذه البيئة ، أعنى بيئة المغرب الأقصى ، هى التى تعنينا من دون بيئات المغرب ، ففيها قامت دولة المرابطين ، التى نحن بصدد التاريخ لقيامها ، ومنها تدفقت صوب الأندلس ففتحته .

٣ — جغرافية المغرب الأقصى :

وإذا كانت دراسة البيئـة الجغرافية لأى قطر من الأقطار ضرورية لفهم تاريخه ، فإن دراسة جغرافية المغرب أشد ضرورة وأكثر لزوما ، فى فترة العصور الوسطى على الخصوص ، لأن البيئة الجغرافية تؤثر فى الحياة القبلية تأثيراً عظيما ، والحياة القبلية هى عصب تاريخ المغرب الإسلامى ، ذلك أن القبائل المغربية ظفرت بعد أن تم إسلامها بالمساواة المطلقة بالفاتحين ، واستطاعت منذ القرن الثانى الهجرى فصاعداً أن تؤسس دولا لعبت فى تاريخ المغرب الإسلامى دوراً عظيما . فإذا لم نستعن بالجغرافية لم نستطع أن ندرس تنقلات القبائل ، وتحركاتهـا فوق صفحة المغرب ، إذ لابد مثلا من دراسة الطرق والمسالك التى سلـكتها ، ودراسة البيئات التى تأثرت بها وأثرت فيها . ولابد من التعرض للجغرافية الاجتماعية للبلاد فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة ، لتفهم النزاع الدائب بين سكان السهول ، الذين يجنحون إلى الاستقرار ، ويكلفون بنزول المدن ، ويأخذون ببعض أسباب الحضارة ، وبين البدو الضاربين فى الصحارى والسهوب ، الذين ينتجعون المراعى ، ويربون الإبل والأغنام ، ويغيرون إغارات منظمة على مناطق الخصب والاستقرار ، بغية الظفر بخيراتها وثرواتهـا[٢] ، فالطمع فى الأراضى

---

(١) الادريسى : صفة المغرب والسودان ، ص ١١٠ .
و Julien : Hist. de l'Afrique, p. 375.

(٢) Julien : Hist. de L'Afrique du Nord, p. 6.

الخصبة المليئة بالخيرات ، كان من أقوى الأسباب التى دفعت كثيراً من القبائل إلى التوسع ، والفتح ، وبسط النفوذ ، وإقامة الدول .

وقد فطن بعض المؤرخين الغربيين ، أمثال جوتييه[١] ، وجوليان[٢] ، وتراس[٣] لهـذه الحقائق ، وأولوها من اهتمامهم نصيبا موفورا ، واستطاعوا بعد أن اصطنعوا هـذا المنهج الجغرافى ، أن يفسروا أحداث التاريخ فى المغرب تفسيرا معقولا ، ناهيك بدراسة الموقع ، وأثره فى تشكيل التاريخ لبيئة كبـلاد المغرب الأقصى ، يرتبط تاريخها بموقعها إلى حد كبير ، فقد اتصلت اتصالا مباشراً بقلب أفريقية ، وبحوض البحر الأبيض المتوسط ، والشرق الأدنى ، كما اتصلت ببلاد الأندلس عبر المضيق ، واتصلت بغرب أفريقية عن طريق الواحات[٤] .

لهذا كله ، سأعمد إلى دراسة موقع المغرب الأقصى ، وأثره فى تاريخه فى العصور الوسطى ، كما سأعرض فى إيجاز لمعالم الجغرافية الطبيعية ، لنستطيع على ضوء الأسس التى سنقررها أن نفهم بعض الظواهر التاريخية ، التى سنعرض لهـا بالدراسة فى البحث .

وأهم ما يلاحظ على إقليم المغرب الأقصى ، أنه يمثل ما يطلق عليه الجغرافيون اسم «منطقة أطراف» . أى أنه النهاية القصوى لهـذه الوحدة الجغرافية العامة المسماة بالمغرب ، فلن تجد وراء هذا الإقليم إلا البحر المحيط ، الذى كان يعتبر — إذ ذاك — حاجزاً منيعا . ويعتبر المغرب الأقصى أيضاً منطقة عزلة ، فالطرق الموصلة إليه لا تكاد تتجاوز ثلاثة عددا : أولها طريق بحرى عبر المضيق الذى يصله بالأندلس ، ثم طريق برى آخر طويل لا يؤدى إلا إلى الجنوب الأقصى ،

---

(١) Gautier : Les Siécles obscurs du Maghreb.

(٢) Julien : Hist. de L'Afrique du Nord.

(٣) Terrasse : Histoire du Maroc.

(٤) H. Terrasse : Hist du Maroc, p. 10.

كما يؤدى إلى صحراء السودان الغربى [١] ، وفى الجنوب تحيط به سلسلة جبال درن ، التى تعد بحق حاجزا حسر كل التيارات الجنسية التى كان يجب أن تتدفق إلى هذا الإقليم من جوف الصحراء ، وتؤثر فى سكانه تأثيراً كبيرا [٢] .
وكان من أثر ذلك كله ، أن أصبح هـذا الإقليم فى العصور الوسطى — على الأقل — آخر أقاليم المغرب تأثيراً بالهزات العنيفة [٣] التى تجتاح أفريقية ، وبالمؤثرات التى تتدفق إلى أفريقية من الشرق ، سواء أكانت بشرية أم حضارية .
فالغزوات القادمة من الشرق تدخل هذا الإقليم بعد إنهاك قواها ، والحضارات تأتى اليه متأخرة نوعا ما ، بعـــد أن تكون بلاد أفريقية والمغرب الأوسط قد تشبعت منها .

فلما غزا العرب بلاد المغرب ، أصبحت هذه البلاد معقل المقاومة ، وكانت الغزوات الغربية الموجهة اليها منهكة القوى فعلا بعد طول السفر ومشقة الطريق . ولم يستطع العرب إخضاع هذه البلاد بقوة السيف فحسب ، إنما أخضعت بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام ، فدخلوا فيه طواعية واختيارا ، فاستكانوا للعرب ودانوا لهم بالطاعة . وفى القرن الخامس الهجرى منيت أفريقية بغارات الأعراب فلم تصب بلاد المغرب الأقصى بمثل ما أصيبت به أفريقية من الدمار والخراب ، بل إن عرب بنى هلال لم يدخلوا أرض المغرب الأقصى إلا حين استقدمهم الموحدون فيما بعد ، فنجت هذه البلاد من هذه الكارثة بحكم موقعها المتطرف .

ومما يلفت النظر ، أن نهضة المغرب الأقصى فى العصر الإسلامى جاءت تالية لنهضة أفريقية والمغرب الأوسط [٤] . ولم يقدر للحضارة الإسلامية أن يتألق

---

(١) Terrasse: (op. cit.) p. 10.

(٢) عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف أعلام الناس ، جـ١ ص٦٣ .

(٣) Terrasse : (op. cit.) p. 7.

(٤) Ibid. p. 7.

نجمها وتنفق سوقها، إلا بعد أن أتى الهلاليون على تراث القيروان ، فظهرت أهمية مدن المغرب الأقصى ، كفاس وأغمات وسبتة وغيرها . وقد مكنت هذه العزلة لبعض الحركات السياسية والدينية من أن تنمو ، وتشب عن الطوق ، بعيدة عن أى تهديد حتى كتب لها النجاح ، كحركة المرابطين التى تبلورت فى صحراء المغرب الأقصى ، وكحركة ابن تومرت المهدى، التى نمت وترعرت فى جبال درن ، وديار المصامدة .

وقد لعبت هـذه الحقائق الجغرافية دوراً عظيما فى تاريخ غرب أفريقية والسودان الغربى ، ذلك أن المؤثرات العربية الإسلامية التى جاءت مراكش كانت تصطدم بالبحر المحيط ، ولا تستطيع إلا التسرب عبر هذا الساحل المنحدر نحو الجنوب ، فتتدفق إلى غرب أفريقية ، ومنطقه السنغال والنيجر (١) . وعن هذا الطريق — على ما نعلم — انتشر الإسلام فى السودان الغربى ، ونشطت حركة المتاجرة مع شعوب وادى السنغال والنيجر وقلب أفريقية ، بعد أن أصبح الطريق الذى يصـل بين السودان الغربى والواحات المصرية معطلا ، بسبب العواطف الرملية الهوجاء ، التى اجتاحته زمن ابن حوقل صاحب الرحلة المعروفة (٢) .

وهناك حقيقة أخرى كانت بالغة الأثر فى تاريخ هذه البلاد فى العصور الوسطى ، وهى أن أقليم الريف يكاد يتصل اتصالا مباشراً بشبه جزيرة أسبانيا عند مضيق جبل طارق ، فأصبحت الصلات قوية بين مدن اقليم الريف ومدن الأندلس، وانتشرت المؤثرات الحضارية الأندلسية فى بلاد اقليم الساحل ،وغلبت عليها (٣) . وكانت أهمية هذا المضيق كبيرة، حتى لقد كان تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتمم بعضه بعضا ، وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين .

---

(١) Terrasse: (op. cit.) p. 10.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك

(٣) Julien : Hist. de l'Afriqre, p. 17.

فكانت كفة المغرب الأقصى لا تكاد ترجح حتى ينبسط ظله على بلاد الأندلس ، كما حدث فى عهد موسى بن نصير ، وعهد يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، حين عبرت قواته المضيق لإنقاذ بلاد الأندلس مما كانت توشك أن تتردى فيه ، كما حدث مثل هـذا فى عهد الموحدين . وفى كثير من الأحيان ، كان يحدث العـكس ، حين تشتد شوكة أهل الأندلس ، كما حدث فى عهد ازدهار الخلافة الأموية ، زمن الناصر والمستنصر ، حين غزت قواتها هذه البلاد ، و بسطت نفوذها هناك .

هذا عن ساحل الريف ، أما ساحل المحيط الأطلسى فهو لا يشجع على قيام موانى ناجحة بسبب رداءة خلجانه [١] ، وقد ظل طوال العصور الوسطى يكاد يكون مغلقاً فى وجه الأساطيل ، فـكأن بلاد المغرب الأقصى كانت محمية الظهر من ناحية المغرب ، وأصبح من الميسور على الدول التى قامت فيه التفرغ لمدافعة الحركات العدوانية القادمة من المغرب الأوسط . ويتصـل المغرب الأقصى بالمغرب الأوسط عن طريق تازا [٢] ، ذلك الطريق الذى يعتبر بحق مفتاح البلاد ، إذا استطاع الغازى اجتيازه فى يسر ، استطاع الاستيلاء على مدينة فاس دون عناء [٣] ، ثم تدفق إلى قلب البلاد ، ولـكنه يمر بمنطقة رعوية ترتادها قبائل من البدو صنبة المراس [٤] ، تتحكم فى هذا الطريق ، وتهدد الصلة التى تربط القطرين تهديداً كبيرا .

---

(١) أنظر ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص٥٦ وما بعدها . و Terrasse. p. 5

(٢) موضع من أعمال بنى العافية . وهى مدينـة كانت تفصل بين المغربين الأوسط والأقصى وتقع على مسيرة مائة كيلو متر الى الشمال الشرقى من مدينـة فاس . (دائرة المعارف الإسلامية مادة تازا) . والبـكرى : المغرب ص ٩٢٨ .

(٣) Terrasse: (op. cit.) p. 7.

(٤) Gautier :(op. cit.) p. 290.

أما من ناحية الجنوب ، فإن جبال درن ، التي تمتد من البحر المحيط ، متجهة صوب الشرق حاجز طبيعي يمكن لقبائل المغرب الأقصى ، إذا تآلفت واتحدت ، أن ترد عنها عدوان القبائل الضاربة إلى الجنوب . أما إذا تفرقت كلمتها ، وضعف شأنها لم تستطع هذه الجبال أن تعصمها من الخطر (١) .

أما عن طبيعة البلاد ، وأثرها فى توجيه تاريخها فى العصور الوسطى ، فأهم ما نلاحظه ، أنه قد ازدوجت فيها مؤثرات البحر الأبيض المتوسط ، ومؤثرات أفريقية . تمثل ذلك فى كل شىء ، فى مناخها وحضارتها (٢) . ففى المنطقة الساحلية تسود المؤثرات الأوروبية ، التى تقف عند حدود جبال الأطلس الصغرى : على حين توغل المؤثرات الافريقية فى الجنوب ، متجاوزة جبال درن ، ثم مخترقة الهضبة الواقعة بين سلسلتى جبال الأطلس ، حتى تقف تقريبا عند سلسلة جبال الريف ، فاذا استطاعت دولة أن تجمع بين هاتين المنطقتين ، أصبحت من القوة بمكان عظيم ، لأنها تجمع بين هذين المنبعين الحضاريين . فدولة الأدارسة مثلا ، لم تستطع أن تتفوق تفوقا ساحقا ، لأنها لم تبسط نفوذها إلا على المنطقة الأولى مستمدة التأييد من قبائل البربر ، التى تأثرت بالحضارة الرومانية (٣) . فلما تدفق المرابطون من الجنوب ، من المنطقة التى تسود فيها المؤثرات الافريقية ، واستولوا على المنطقة الشمالية ذات المؤثرات الحضارية الأندلسية ، استطاعوا أن يقيموا صرح دولة قوية عزيزة الجانب جمعت هذه العناصر المختلفة .

أما الطرق والسهول ، فانها تمتد من الشرق إلى الغرب متوازية . فتيسر للغزوات القادمة من الشرق أن تتسرب فى البلاد بسرعة كبيرة حتى المحيط ، عن طريق ذلك الوادى الشهير المسمى بوادى سبوا (٤) . حتى إذا تم ذلك

---

(١) Terrasse : (op. cit.) p. 10.

(٢) Julien : (op. cit.) p. 16.

(٣) Ibid. p. 17.

(٤) هو النهر الذى تقع عليه مدينة فاس

انفضت القبائل من مضار بها فى الجبال أو الهضاب ، فدهمت الغزاة ، فشتت شملهم ، أو على الأقل عرضتهم لخطر جسيم [١] ، فأصبح من الصعب التوحيد بين المغرب الأقصى وغيره من بيئات المغرب ، ولو تمت الوحدة لما كتب لها أن تدوم . فالدولة الأموية لم تستطع أن تحتفظ بوحدة المغرب كله مدة طويلة ، اما القبائل مؤسسة الدول الكبرى ، فإنها ما تكاد تنجح فى توحيد البلاد ، حتى تستنزف المعارك ، التى تخوضها دفاعا عن تراثها ، و إبقاء على كيانها دماء أبنائها ، فيدهمها الضعف والانحلال ، فتطل عوامل الفرقة ، فتقوض صرح الوحدة ، وتأتى عليه .

أما الطرق المؤدية من الموانى الساحلية إلى الجهات الداخلية ، فهى قليلة تعترضها عقبات كأداء [٢] ، فلا تستطيع أن تتم توحيد المغرب الأقصى إلا قوة متفوقة ، عليها أن تحرس الطرق والمسالك الصعبة ، و إلا انتقضت القبائل الجبلية المستكينة ، ورفعت علم الثورة ، لذلك اضطر المرابطون والموحدون من بعدهم إلى إقامة سلسلة من الحصون للسيطرة على هذه الطرق ، وكبح جماح القبائل المعادية [٣] .

وتضم بلاد المغرب الأقصى فى الواقع أقاليم طبيعية مختلفة ، فإقليم التل ، الذى يشمل سفوح الجبال الشمالية والسهول الساحلية ، تربته خصبة جداً ، تخترقه نهيرات تصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وتقوم فيه زراعة ناجحة [٤] ، فلا عجب إذا وجدنا هذا الإقليم فى العصور الوسطى تتألق حضارتها ، وتزداد ثروتها وتعم خيراتها .

---

(١) Julien :(op. cit.) p. 14. ; Gautier (op. cit.) p. 3.

(٢) Julien :(op. cit.) p. 3.

(٣) Terrasse :(op. cit.) p. 4.

(٤) Terrasse (op. cit.) p. 12.

وقد كانت هذه البلاد، طوال العصور الوسطى، مطمح أنظار القبائل البدوية. فما كادت قبائل زناتة ترحل من المغرب الأوسط، حتى احتلت هـذه البلاد، وبسطت ظلها عليها، ونعمت بما توفر لها من خير عميم؛ وما كاد المرابطون ينفذون من الهضبة الوسطى، حتى استولوا على ذلك الإقليم الخصب، وسخروا موارده الوفيرة لصالحهم، وأفادوا منها فائدة جمة.

خلاصة القول، أنه لا يمكن أن تقوم حكومة مركزية ناجحة فى المغرب الأقصى، إلا إذا سيطرت على ذلك الإقليم الغنى[1]. أما الإقليم الذى يقع فى ما وراء الأطلس، فهو إقليم رعوى، أو شبه صحراوى تنتشر به المراعى، التى تكسو الهضاب المرتفعة، وبه طائفة من الواحات الغنية، كما تنتشر به القبائل وتجوس فيه متنقلة بين رحلة الشتاء والصيف[2]. فهو إقليم فقير فى موارده، سواء فى هضابه أو واحاته، لا يستطيع أن يعول إلا عدداً محدوداً، وبات من الضرورى أن تحاول هذه القبائل البدوية باستمرار أن تغير على مواطن الخصب، وقد لعبت العلاقة بين المنطقة الرعوية، والمنطقة السهلية، دوراً عظيماً فى تاريخ البـلاد فى العصور الوسطى.

أما مرتفعات مراكش الشمالية، التى تحف بالبحر الأبيض المتوسط وإقليم الأطلس، الذى يفصل مراكش الخارجية عن مراكش الداخلية، فقد نزلت به قبائل من البربر، شديدة المراس، تمتاز بالروح الحربية العالية[3]. كانت طوال العصور الوسطى فى طليعة القبائل، التى لا تفتأ تهدد البلاد بالثورات المتلاحقة. هذه البيئات المتنوعة، السهلية والرعوية والجبلية، كانت ذات أثر فى حياة السكان الضاربين فيها، وفى تاريخ هذه البلاد فى العصور الوسطى[4].

(١) Terrasse : (op. cit.) p. 12.

(٢) Ibid, p. 12.

(٣) Ibid p. 13.

(٤) Gautier : (op. cit.) p 21.

٤ — الحياة القبلية فى بلاد المغرب الأقصى :

تسود الهضاب الفسيحة ظاهرة اجتماعيـة إقتصادية معاً ، نعنى بها ظاهرة البداوة[١]. ذلك أن سكان هذه المناطق لا يستطيعون الإعتماد على موارد الإقليم النازلين فيه ، فيضطرون إلى النقلة ، والترحال انتجاعاً للكلأ ، وطلباً للعيش الميسور الذى يتوفر فى جهات أخرى أوفر ثراء . فإذا أقبل الصيف اشتد الجفاف فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية ، وجف العشب ، وقل الماء ، فلا يجد السكان مفراً من شد الرحال صوب الشمال ، حيث يتوفر المطر ، ويطيب المرعى ، وتتيسر الحياة[٢] . فإذا أقبل الخريف ، وأوشكت الأمطار أن تندى بطاح الهضاب بالمطر المنبت للكلأ ، عادت جموع المهاجرين مرة أخرى إلى ديارها لقضاء فصل الشتاء[٣] . ويقضى السكان هكذا حياتهم بين رحلتى الشتاء والصيف .

هذه ظاهرة تحدث فى كل بيئة مشابهة وفى كل عصر ، ولكنها كانت أكثر انتشاراً فى بيئة المغرب الأقصى فى العصور الوسطى[٤] . إذ كانت القبائل المغربية كثيرة الترحال من الشرق إلى الغرب ، أو من الغرب إلى الشرق ، أو من الشمال إلى الجنوب ، فلم تكن القيود الحالية المفروضة على سكان هـذه البلاد معروفة إذ ذاك ، كما أن وسائل الإنتاج الزراعى والصناعى كانت محدودة ؛ ليست كما هى عليه الآن من تقدم ورقى نسبياً . أمعنت القبائل الغربية فى طلب النقلة والارتحال ، بعد أن شاع استخدام الإبل فى أواخر العصر الرومانى ، هذه الإبل التى أحدثت بحق ثورة فى حياة المغرب ، كما أحدثت انقلابا فى الحياة الاجتماعية بعيد المدى ،

---

(١) G. Marcais : Les Arabes en Berbérie, du XIe au XIV. S. p. 39.

(٢) Ibid, p. 42.

(٣) البكرى : المغرب ص ١٤٥ .

(٤) F. de la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hésperis, Année, 1939, Tome XI, p. 54.

فقد قربت المسافات البعيدة ، ولم تعد مناطق الصحراء ، وهضاب الاستبس صعبة العبور[١] ، لذلك لا ندهش إذا وجدنا بعض القبائل فى العصر الذى نتصدى له بالدراسة الآن تتوغل فى نقلتها ، حتى تدرك نهرى السنغال والنيجر ، فأن بطونا من قبيلة زنانة أوغلت فى قلب أفريقية ، حتى أدركت هذه البلاد[٢] .

وهنالك فريق آخر من أهل البلاد ، ينزلون فى السهول الساحلية المعتدلة المناخ الوفيرة المطر العامر بالخصب والنماء ، يجنحون إلى الاستقرار والتعلق بالأرض ، ويميلون إلى الهدوء ، ويتوفرون على الإنتاج الصناعى والزراعى[٣] . وفى البيئات الجبلية التى تتوفر فيها الأمطار ، وتصلح أرضها للزراعة تنزل طائفة من السكان تجنح أيضاً إلى حياة الاستقرار والهدوء ، وتعزف عن النقلة والترحال من وطن إلى وطن آخر . وقد كان هؤلاء القوم أشد سكان المغرب اتصالا بالحضارات القديمة ، اتصلوا بالقرطاجنيين واللاتينيين ، وبحضارات البحر الأبيض المتوسط ، وهم الذين قاوموا بدو صنهاجة مؤسسى دولة المرابطين مقاومة عنيفة .

وقد اشتد الصراع بين هذين اللونين من الحياة ، أو بين هذين الفريقين من السكان ، فكانت القبائل البدوية لا تفتأ تغير على بلاد المستقرين ، بقصد الاستيلاء على هذه الأرض الخصبة الوفيرة الإنتاج[٤] ، وكانت تنجح فى بعض الأحيان فى اجتياز الحواجز الطبيعية ؛ والتطرق إلى السهول ، وإخضاع أهلها ، وكان ذلك النزاع بعيد الأثر فى تاريخ المغرب الأقصى[٥] ، فقد كانت القبائل المستقرة تتآلف وتتآزر أحيانا فى صد التيار المتدفق من الجنوب ، وكانت تصاب بالفرقة

---

(١) Gautier : Les Sciécle Obscus, p. 183.

(٢) W. D. Cooley : The Negroland of the Arabs, pp. 47—48.
Ch. de la Ronciére : La decouverte de l'Afrique au Moyen Age, I, p. 81 suiv.

(٣) Gautier :(op. cit.) p. 38.

(٤) Terrasse, p 24.

(٥) Julién: (op. cit.) p. 16.

فى بعض الأحيان ، فتضعف فيتغلب عليها البدو ، و يستولون على ما بيدها من أرض طيبة خصبة ، كما فعل بدو الملثمين .

فى هذا المجتمع الذى يشتد التناحر فيه بين السكان ، وتكثر الهجرات ، وتثور الفتن ، وتنتشر الإغارات ، لا يتعلق السكان بالأرض ، على الصورة التى نجدها فى البيئات السهلية ، ولا يدافع الناس عن وطن معين ينزلون فيه ، بقدر ما يدافعون عن الأسرة والعشيرة والقبيلة . أصبحت القبيلة محور الحياة فى المجتمع[1]. لا يستطيع الفرد أن يعيش فيه إلا منتمياً إليها ، تشد أزره وتحميه من شر عدوان المجتمعات الأخرى[2]، بقدر ما يتآزر أفرادها ، و يتعاونون ، و يطيعون زعيمها طاعة عمياء ، و ينتضون السيف ذوداً عنها ، و يجودون بأرواحهم دفاعا عن كيانها ، بقدر ما تصبح قادرة على البقاء[3]، ولو أنها وهنت ، أو ضعفت ، أو تقاعس أفرادها عن تلبية نداء الدم ، تفرق شملها ، والتهمتها القبائل الأخرى القوية .

وكما أن الفرد لا يستطيع أن يحيا منفرداً عن القبيلة ، كذلك القبيلة نفسها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها ، فلا بد من أن تنضوى تحت لواء حلف أكبر يضم القبائل ذات الأصل الواحد ، التى تدعى الانتساب إلى جد مشترك ، وقد تضطر القبائل إلى ذلك دفعاً لظروف اقتصادية أو حربية[4] ، فاذا عزت الحياة فى وطن ما ، ووضحت الحاجة إلى الإغارة على إقليم أوفر إنتاجاً ، اضطرت القبائل إلى الدخول فى حلف للتآزر ، بقصد تحقيق ذلك الهدف المشترك ، وقد تنمو القوة الحربية لقبيلة من القبائل ، فتخضع القبائل الأخرى لنفوذها بحد السيف ، وتحملها على الدخول فى طاعتها ، والسير فى ركابها لتحقيق الغرض المنشود ، وقد

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠ ، ١٢١ و Marçais : Les Arabes p 42.

(٢) Terrasse : (op. cit.) p.32.

(٣) Gautier : (op. cit.) p.253, & Julién, pp. 21—22

(٤) Marçais : Les Arabes p. 20.

تكتب السيادة لقبيلة بسبب دعوة دينية تنشرها بين القبائل الأخرى ، فيتم التآزر المنشود[١]، كما حدث لقبائل الملثمين والمصامدة . .

وقد تستعين هذه القبائل بالناحية السياسية لتحقيق أهدافها ، فتنتمى إلى خليفة، أو إلى أسرة عربية تشد أزرها [٢]، فقد أيدت أحلاف قبائل البتر الدعوة الأموية ، كما أيدوا الفاتحين العرب من قبل ، على حين أيدت صنهاجه دعوة العلويين، ثم دعوة الاسماعيلية فيما بعد . بهذه الوسائل يخرج الحلف المنشود إلى حيز الوجود ، ثم تخرج القبائل المتحالفة غازية أو مغيرة لتحقيق أهداف القوة السياسية المؤيدة لها ، فينتهى أمرها — إذا أفلحت — بإقامة دولة ،والتغلب على الأحلاف الأخرى ، وإخضاعها لسلطانها . وتؤلف القبائل المنتصرة غالبية الجيش ، وتحتكر ثمار النصر وتحوز الأرض ، وتفرض الضرائب على الشعوب المغلوبة ، وتؤلف حكومة مركزية ، أعنى تعيش القبيلة من الدولة وللدولة [٣] .

والدولة التى تقوم نتيجة لهذه الحركات لا تستطيع أبداً أن تتحرر من الروح القبليــة ، فالغالبون لا يفهمون إلا منطق القوة ، يستغلون العناصر المسودة وينكلون بهم ، ويظل هؤلاء يتحينون الفرص ، فإذا استنفدت الفتوح قوى القبائل الحليفة ، وضعف شأنها ، هبت القبائل المسودة من مضاربها، فقضت على الدولة القديمة ، وأقامت على أنقاضها دولة جديدة[٤].

هذه الحقائق تتمثل فى ما كتبه العلامة ابن خلدون فى مقدمتـه[٥]، وقد استقى ما وصل إليه من نتائج من واقع الحياة فى بلاد المغرب ، وهو يرى أنه

---

(١) ابن خلدون : المقـدمة ص ١٥٠

(٢) Marçais : Les Arabes, p. 20.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤) Terrasse : (op. cit.) pP. 25–26.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، الصفحات: ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ — ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

الدولة قد تؤسسها قبيلة ، ثم تشب الدولة ، وتزدهر ، ثم تشيخ إذا ضعفت القبيلة أو تفرق شملها ، ثم تسقط ، وتقوم دولة أخرى تؤسسها قبيلة أخرى ، وهكذا دواليك. وهو يرى أن الدول كالأشخاص ، تولد ، ثم تشب عن الطوق ، ثم تشيخ، ثم تفنى.[١] وقد يحدث أن يتفرق شمل الحلف ، وتضرب القبائل فى البلاد مهاجرة ، ولكن هذه الهجرة لا تفصم رابطة الدم أبدا[٢] ، وتظل هذه القبائل قريبة رغم تباعدها ، تحس إحساسا قويا بالأصل المشترك ، وقد يجتمع شملها مرة أخرى ، فتتقارب وتتحد من جديد ، فتغدو أوفر ، وأشد قدرة على مواصلة الكفاح .

٥ — شعوب البتر والبرانس :

وكان الرومان والبيزنطيون من بعدهم لا يهتمون — على ما نعلم — بهذا النظام القبلى السائد فى بلاد المغرب اهتماما كبيرا[٣] ، إنما كانوا يطلقون على أهل البلاد اسم (Barbari[٤]) ، لأنهم لم يهتموا بهذه القبائل كثيرا ، لأن نفوذهم لم يجاوز الساحل ، ولم يوغل إلى الداخل ، إلا فى نطاق محدود ، كما أنهم لم يفهموا المجتمع على أساس قبلى ، إذ كانوا يقسمونه تقسيما جغرافيا . أما العرب فما كاد يتم لهم فتح المغرب ، حتى فهموا الحياة فيه فهما صادقا ، فهى لا تكاد تختلف عن الحياة ، التى كانوا يألفونها فى شبه الجزيرة ، كما أنهم جاوزوا النطاق الساحلى ، وأوغلوا فى الداخل ، وخالطوا القبائل ، وحرروها ، بعد أن اعتنقت الإسلام ، وظفرت بالمساواة .

وقد رأوا البربر طائفتين عظيمتين ، أطلقوا على إحداها اسم البتر ، وعلى الأخرى

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦١ .

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 32.

(٣) Gautier : (op. cit) p. 23

(٤) Julién (op cit.) p. 2. ؛ واسماعيل رأفت: التبيان فى تخطيط البلدان ، ج١ ، ص ١٦٩ — ١٧١ .

اسم البرانس ، وأرجعوها لجد مشترك . وذلك يشبه إلى حد كبير قسمة الشعب العربي إلى عدنان وقحطان[١] ، وقد نقل ابن خلدون هذه النظرية فى أنساب البربر عن نسابة العرب ، أمثال أيوب بن أبى زيد ، و يوسف الوراق، وابن حزم . وقد التزم هـذا التقسيم الـكتاب العرب المتقدمون ، أمثال ابن عبد الحـكم[٢] وصاحب رياض النفوس[٣] ، ومعالم الإيمان فى طبقات فقهاء القيروان[٤] ، وكثيرون غيرهم . ولـكن ابن خلدون فصل ذلك تفصيلا عظيما ، فإنه أفرد لتاريخ البربر الجزء السادس من تاريخه ، وأفاض فى ذكر أنسابهم ، وأنساب قبيلة زناتة ، وفى ذلك يقول : « أما شعوب هذا الجيل ، و بطونهم ، فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان ، وهما برنس ، ومادغيس ، و يلقب مادغيس بالأبتر ، فلذلك يقال لشعوبه البتر ، و يقال لشعوب برنس البرانس ، وهما معا ابنا بر . و بين النسابين خلاف ، هل هما لأب واحد ؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبى زيد أنهما لأب واحد ، على ما حدثه عنه يوسف الوراق . قال سالم بن سليم المطماطى ، وطاهر بن سرور الـكومى ، وكهلان بن أبى لوا ، وهم نسابة البربر أن البرانس من نسل مازيغ بن كنعان ، والبتر بنو بر بن قيس ابن عيلان ، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبى زيد ، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق »[٥] .

---

(١) من الغريب أن هذا التقسيم الى بتر و برانس لا تزال آثاره موجودة حتى اليوم ، ففى بعض قرى البربر ينقسم السكان الى مجموعتين تحسبان أنهما مختلفتين .

أنظر Rodd : The People of the Vail, p. 338.

(٢) ابن عبد الحـكم : فتوح مصر والمغرب، ص ٢٠ .

(٣) المالـكى : رياض النفوس، ص ٣٥ .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان، جـ ١ ص ٦٠ .

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٨٩ ؛ مفاخر البربر ص ٦٤ .

لكن على أى أساس قسم النسابون البربر هذين القسمين ، وميزوا بين طائفتين مختلفتين ؟ ؟ هل لا حظوا اختلافا بين الفرعين فى الحياة الاجتماعية مثلا ؟ الواقع إنا إذا أمعنا النظر ، وجدنا أن أغلب قبائل البتر بدوية ، ولكنا نجد بعض قبائل زناتة بعد أن انتقلت إلى المغرب الأقصى مثلا ، قد استقرت وامتهنت الزراعة ، وسكنت المدن ، ونعمت بما ينعم به المستقرون . أما البرانس فقد كانت بعض قبائلهم مستقرة فعلا ، مثل صنهاجة الشمال ، التى كانت تنزل فى سهول الجزائر ، وكذلك كتامة . ولكنا نجد فى الوقت نفسه بعض قبائل البرانس عريقة فى البداوة ، مثل قبائل الملثمين ، التى تضرب فى بوادي المغرب . . . إذن لا يمكن أن تكون الناحية الاجتماعية أساس هذا التقسيم[١]. ألا يكون الأساس ثقافياً مثلا ؛ تأثرت بعض القبائل ببعض مظاهر الحضارة اللاتينية ، و بقيت بعضها بمعزل عنها ؟ فقد ذكر صاحب الأعلاق النفيسة « أن البرانس أصحاب عمارة وزع وضرع[٢] » ؛ كما ذكر غيره أن البربر النازلين فى السهول ، قد تأثروا بالحضارة الرومانية ، على حين بقيت عوالم جمة من البربر بعيدة عن هذه التأثيرات ، لكن يخيل إلينا أن العرب لم يضعوا هذه الاعتبارات نصب أعينهم حين قسموا البربر هذا التقسيم ، خصوصاً بعد أن أسلموا وجبوا ما بينهم ، و بين ماضيهم القديم .

وقد لاحظ رُدْ (Rodd[٣]) ، الذى أرخ للطوارق فى العصر الحاضر ، أن هذا التقسيم باق إلى اليوم ، وأن فى القرية عنصرين متباغضين أبدا ، أولئك بتر ، وهؤلاء برانس ؛ وقد علل ذلك بأن الخلافات لا بد وأن تكون جنسية ،

---

(١) Gautier : (op. cit.), pp. 190—214.

(٢) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٣٥٥ ؛ والبيان المغرب ، ج ٢ ص ٥٨ ؛ وزهرة الآس ص ٦ ؛ وجذوة الاقتباس ص ٥ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) Rodd : People of the Vail p. 338.

والواقع أن الخلاف بين الطائفتين عميق الجذور إلى درجة بعيدة ، فقد شكل تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، وأثر في مجراه ، وكانت العداوة واضحة شديدة طوال العصور الوسطى بين البتر والبرانس ، جعلت كل طائفة تقف للأخرى بالمرصاد تريد أن تنتقم منها ، وتتربص بها الدوائر ، لتنتقم منها ، فليس ببعيد أن يكون القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين ، والأخرى تمثل الوافدين الجدد ، الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم ، وخصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون إن صنهاجة البرنسية تنسب إلى العرب ، إلى حمير .

ومن ناحية أخرى نرى ابن خلدون يطلق على البتر اسم أولاد مادغيس ، ويذكر أن الطائفتين تنتسبان إلى مازيغ بن كنعان[١] ، وقد لاحظ رُدْ (Rodd[٢]) أن كلمة مازيغ تتألف من ثلاثة حروف جامدة : م — ز — غ ، وأن هذه الحروف الثلاثة تنتشر انتشارا عجيباً في لغات البربر كلهم ، حتى بين الطوارق ، مما يدل على أن الخلاف بين البرانس ، و بين أولاد مادغيس خلاف لغوى محض ، وخصوصا أن الادريسى يذكر أن قبائل العرب (صنهاجة) نزلت على قبائل البربر ، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المجاورة[٣] » .

ويخيل إلى أن الاختلاف بين هاتين الطائفتين اختلاف جنسى ولغوى معا ، كل كتلة تكون أمة قائمة بذاتها ، تحس برغم تفرقها وانتشارها برابطة الدم والقرابة ، أما الخلافات الاجتماعية فهى اعتبارية ، إذ من الممكن أن يستقر البدو ويتبدى المستقرون .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٩٩ .

(٢) Rodd : (op. cit.) p. 339.

(٣) الادريسى : أرض المغرب ص ٥٧

ومهما يكن من أمر هذا التقسيم ، فإنه أكثر دلالة على أحوال البلاد ، وأكثر اتفاقا مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعى ، وأن التزامه ينير لنا السبل ، لتفهم تاريخ البربر فى القرون الوسطى[١] ، وفى هذه الفترة التى سنعرض لها بالدراسة على الخصوص . ذلك أن النزاع بين البرانس والبتر شكل تاريخ الإسلام فى المغرب ، وأثر فيه تأثيرا بعيد المدى ، بل امتد أثره إلى الأندلس ، واحتدم النزاع بعد سقوط الخلافة الأموية بين زناتة و بين صنهاجة ، مما هدد الوحدة الإسلامية بالخطر الجسيم[٢] . أما فى بلاد المغرب ، فقد وضح ذلك الخلاف بُعَيْدَ الفتح العربى ، فقد حالفت زناتة البترية الفاتحين منذ البداية ، وحمل البرانس عبء المقاومة ، فلما تم إخضاع البربر لسطان الخلافة الإسلامية ، حالف البتر بنى أمية[٣] ، ووالى الصنهاجيون البرنسيون العلويين ، وتعصبوا لهم ، وأيدوا ادريس بن عبد الله ، حين لجأ إلى المغرب الأقصى . فلما استتب الأمر للفاطميين كان البرانس من كتامة وصنهاجة من أشد جنودهم إخلاصاً ، ولذلك أمعنوا فى الفتك بالزناتيين واضطهادهم ، فاضطروا إلى الاعتصام بالخلافة مرة أخرى . وأصبح الصراع فى المغرب الأقصى بين الأمويين والفاطميين ثم الزيريين ، فى الواقع ، مجرد نزاع بين زناته وصنهاجة ، أو بين البتر والبرانس ، وكان بلكين بن زيرى أمير صنهاجة يقول « لا أمان عندى لبربرى ركب فرسا أو نتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد[٤] » . وكان الكره لزناتة من بين الأسباب التى جعلت صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين ، تخف إلى التدفق صوب المغرب الأقصى للنيل من ذلك العدو التقليدى .

---

(١) Terrasse : (op cit) p. 21.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) مفاخر البربر فى القرون الوسطى ، ص ٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٨ .

٦ — قبائل البتر ومضاربهم :

وطائفة البتر من البربر تتألف من قبائل ، أهمها زناتة ، وزواغة ، وزواوة ، ونفزة ولواته ، ومزاتة ، ونفوسة ، ومغيلة ، ومطماطة ، ومطغرة ، ومديونة ، وصدينة ؛ ولكل قبيلة بطون وأفخاذ لا تحصى . وهم ينزلون بهذه السلسلة من الوديان العالية أو الوطيئة الصحراوية أو الرعوية ، أو شبه الرعوية ، التي تمتد امتداداً متصلا من طرابلس إلى تازا[1] . كما ينتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس[2] الأقصى ، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية ، كما توجد بطون من البتر في أقاليم التل قرب طرابلس ، وفي قلب سهول أفريقية ، وجبال أوراس[3] ، وتنزل قبيلة نفوسة بجبل نفوسة جنوب طرابلس ، وتنزل مطماطة في أقليم الجريد .

أما زناتة فتنزل عشائرها و بطونها إقليم المغرب الأوسط ، حتى لقد أطلق على هذا الإقليم اسم أرض زناتة . وينتشرون في إقليم الصحراء جنوب تونس ، وكذلك سفوح الأوراس والهضاب العليا ، ونطاق الاستبس والمراعي ؛ وقد أصبحوا بحكم هذه الأوطان التي نزلوا فيها من أهم قبائل البدو في المغرب ؛ وأكثرها نقلة وترحالا[4] ، وأهم قبائل البتر التي كان لها شأن عظيم في تاريخ المغرب في العصور الوسطى قبيلة زناتة[5] ، التي كانت تمتاز بالروح الحربية

---

(١) Gautier : (op. cit.) p. 195.

(٢) De la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental Hésp. Année 1930, T. X.

(٣) Idem

(٤) الادريسى : أرض المغرب ، ص ٨٨ .

(٥) Gautier; (op. cit.) p. 184.

العالية ، والتفوق فى القتال[1] ، وكان رجالها دائماً من أشجع فرسان البربر ، وقد لعبوا فى تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبى عامر دوراً عظيماً ، إذ استقدم إلى الأندلس أعداداً غفيرة منهم ، قامت بدور هام فى حركة الجهاد المقدس[2] .

٧ — المصامدة :

ومن أهم الأحلاف القبلية الأخرى ، الضاربة فى المغرب الأقصى ، حلف مصمودة ، وقبائله وفيرة العدد ، تحتل قبائله المناطق الجبلية من المغرب الأقصى وتحتل بعض بطونها سهول الساحل الأطلسى ، وكانت قبيلة غمارة تنزل باقليم المضايق ، كما كانت برغواطة تضرب ما بين بورجرج وأم ربيع[3] ، وكانت بعض بطون من مصمودة تحتل إقليم أطلس الكبرى ، وأطلس الصغرى[4] . والمصامدة زراع مستقرون ، ينزلون بالمدن والقرى ، ويلتصقون بالأرض ؛ لم يشاهدوا مهاجرين طوال العصور الوسطى ، تحملوا عبء هجرات القبائل الأخرى فى شجاعة وثبات[5] ، ودافعوا عن الأرض التى يحتلونها شبراً شبراً . وقد ظلت مصمودة حتى القرن الثالث الهجرى صاحبة الكلمة الأولى فى المغرب الأقصى ، حتى أخذت زناتة تفر من المغرب الأوسط ، وتغير على ما بيدهم من أرض جيدة ، وقد ظلت فى صراع معها حتى أغارت قبائل صنهاجة أهل اللثام على ديارهم ، وأخضعوهم لسلطانهم[6] ، ولكن المصامدة يؤلفون كتلة

---

(١) Terrasse : (op. cit) p. 23.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠١ .

(٣) مفاخر البربر ص ٧٥ .

(٤) وادى أم ربيع نهر بالمغرب الأقصى يصب فى البحر المحيط ، وعليه قرية يقال لها أم ربيع . أنظر الادريس ص ٧٠ — ٧٢ .

(٥) Terrasse : (op. cit.) p. 23.

(٦) De la Chapelle : Hésperis, 1930, T. XI, p. 54.

بشرية مستقلة لها ظروفها ومقوماتها ، ولا تمت لصنهاجة بسبب من قرابة أو نسب[١].

٨ — قبائل البرانس ومضاربهم :

أما الفرع الآخر من فروع شجرة النسب البربرية فهم البرانس ، الذين ينتشرون فوق صفحـة المغرب من أفريقية حتى المغرب الأقصى ، وتوغل بعض قبائلهم فى غرب أفريقية حتى تدرك منحنى نهر النيجر ؛ وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال بن خلدون « من أوفر قبائل البربر ، وهم أكثر أهـل المغرب لهـذا العهد ، وما بعده ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم ، فى جبـل أو بسيط ، حتى لقـد زعم كثير من الناس أنهم الثلثان من البربر ، وكان لهم فى الحروب ذكر ، وفى الخروج على الأمر شأن[٢] » .

نزلت هذه القبائل فى النواحى الشمالية ، والسفوح الجبلية الصالحة للزراعة ، كما كانت تضرب فى النواحى الخصبة المحيطة بجبال أوراس ،وفى الجهات الجنوبية والوسطى من إقليم الجزائر ، وأوغلوا فى مراكش ، ونزلوا بالجزء الشرقى من جبال أطلس الكبرى[٣] ؛ بل تجاوزوا ذلك النطاق الجبلى فاحتلوا ساحـل المحيط الأطلسى ، حتى مصب نهر السنغال ، ومنحنى النيجر ، وجاست بعض قبائلهم فى صحراء المغرب القريبة من مراكش .

إذن فالغالبية العظمى من هـذا الفرع العظيم تنزل فى المناطق السهلية ، التى تحف بساحل البحر ، وفى المناطق الجبلية الممتدة عبر المغرب ، هـذه المناطق التى تتوفر أمطارها ، وتجود تربتها ، ويصبح من الميسور زراعتهـا[٤] ، فـكانت

---

(١) Terrasse (op. cit.) p. 21.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٢ .

(٣) Gautier : (op. cit.) p. 282.

(٤) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٣٥٥ و Gautier : p. 354.

بحكم انتشارها هـذا أقرب القبائل من مناطق الحضارة الرومانية ، اغترفت من منهلها ، وتأثرت بما نشره الرومان من حضـارة زاهرة ، وحالفتهم ووقفت إلى جانبهم زمن الفتح ، وناضلت العرب نضالا مراً [١] . وأهم قبائل البرانس . أزداجة وأوربة ، وعجيسة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وأوريغة ، ولمطة وهسكورة ، وكزولة [٢] وكانت الزعامة زمن الفتح لقبيلة أوربة [٣] ، ثم آلت إلى صنهاجة الشمال مؤسسة دولة بني زيري ، ثم إلى صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين .

ولم تـكن صنهاجة فى الواقع مجرد قبيلة ، بل كانت شعباً عظيما [٤] ، يتألف من قبائل قيل أنها بلغت السبعين عـدداً [٥] ، وانتشرت فوق صفحـة المغرب انتشاراً بعيـد المدى [٦] ، حتى كتبت الغلبة لشعوب أخرى لعلها شعوب البتر ، فأغارت على مواطنها وقسمت الـكتلة الصنهاجية قسمين : قسم شرقى فى أفريقية والمغرب الأوسط ، وقسم غربى فى المغرب الأقصى . كانت بطون صنهاجـــة فى الواقع تنتشر بأقاليم الجزائر ، فى ما بين المسيلة [٧] ، وتترى ، وميله ، وكانت تسيطر على ذلك الطريق الموصل بين مرطانية السطيفية [٨] ، ومرطانية القيصرية [٩] ..

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٨ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص٨٩ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٥) ابن خلدون ، جـ ٦ ، ص ١٠٢ ، دائرة المعارف الإسلاميـة (مادة صنهاجة) (G. Marçais) و Fournel : Les Berberes, Vol. I. p. 204.

(٦) مدينة بالمغرب الأوسط على الطريق الى تنس ؛ (الادريسى) ص ٨٤ .

(٧) Gautier, pp. 334, 335 مدينة ميـلة بكسر الميم من مدن المغرب الأقصى على أربعـة مراحـل من الشرق ، من قلعـة بنى حماد ، وبينها وبين قسنطينة ١٠ ميلا . أنظر ياقوت : البلدان جـ ٤ ص ١١٧ .

(٨) قسم من أقسام Mauritania فى العهد الرومانى ، Mauritania Sitiflenne .

(٩) قسم من أقسام Mauritania فى العهد الرومانى Mauritania Caesarienne .

كما كانت بعض بطون أخرى [1] تضرب فى منطقـة الأطلس الوسطى من تازا إلى إقليم بنى هلال [2] ، وتحتل منحدرات الأطلس الكبرى الجنوبية وتوغل جنوبا محتلة الواحات الواقعـــة على أطراف الصحراء [3] وتوغل فى المغرب الأقصى فى إقليم الريف [4] حتى طنجة [5] ، كما كان بعضهـا [6] ينزل حول آزمورة [7] « كانت بلادهم فى القبلة [8] مسيرة سبعة أشهر طولا ، ومسيرة أربعة أشهر عرضا ، من نول لمطة فى أقصى المغرب ، إلى قبلة أفريقية ، وقبلة القيروان من بلاد أفريقية [9] » .

ومن الغريب أن تنتسب هذه القبائل المغربية إلى العرب [10] ، ولا نستطيع أن نعلل ذلك إلا بأنها أرادت بعد أن تم إسلامها ، أن تـكون على قدم المساواة مع القبائل العربية ، حتى تستطيع المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة التى أظلت المغرب بمجىء العرب ، فاصطنعت لنفسها أنسابا عربيـة . ويرى جوتييه [11]

---

(١) Gautier: (op. cit.) p. 335.

(٢) Terrasse: (op.cit) p. 23.

(٣) Idem.

(٤) مفاخر البربر ص ٦٦ .

(٥) مشيخة القاضى عياش ورقة ٢٤ ب .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠ .

(٧) ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم والواو ساكنة وراء مهملة مـدينة بالمغرب الأقصى . ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٧ .

(٨) Terrasse : p. 23.

(٩) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٥ .

(١٠) الحلل الموشية ص ٧ ؛ جامع تواريخ فاس ص ٢٧ ؛ روض القرطاس ص ٧٥ ؛ الذخيرة فى محاسن أهـل الجزيرة (مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٢) ؛ المطرب لابن دحية ورقة ٤٩ أ ، الخريدة ج ١١ ص ٦٠ ، الدمشقى ص ٢٦٧ ، مفاخر البربر ص ٥١ ، السعادة الأبدية ج٢ ص٨٨ — ابن خلدون ج٦ ص٩٤ ، ٩٧ . و Fournel (op. cit.) V. I, p. 36

(١١) Gautier: (op. cit.) p. 116—119.

فى إنتساب صنهاجة إلى حمير ظلا من تأثيرات فينيقية وفدت على المغرب فى العصور القديمة ، على إعتبار أن الحميريين هم فينيقو البحر الأحمر ، وأن بعض اللهجات الفينيقية ظلت باقية فى البلاد إبان العصر الرومانى ، فليس ببعيد أن تكون القبائل البرنسية قد خضعت لمؤثرات فينيقية قديمة ظلت ذكراها ماثلة لدى النسابين ، فربطوا بين صنهاجة و بين الحميريين ، وقد أقره فورنل [١] ، ودى لاشابل [٢] وجوتييه على هذا الرأى ، بل أن جوتييه يرى أن التأثيرات الفينيقية قد هيأت المغرب لإستقبال العرب ، عن طريق بثها المؤثرات السامية فى البلاد [٣] . إذا صح هذا الرأى تكون صنهاجة قد خضعت لمؤثرات سامية فينيقية ولأخرى رومانية [٤] ، هيأتها لتلعب ذلك الدور الزاهر الذى اضطلعت به فى تاريخ البلاد .

وقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها أن تتنوع حياتها الإجتماعية ، فقد كانت بعض القبائل تحيا حياة الاستقرار على النحو الذى عرضنا له ، كما كانت بعض القبائل الجبلية الأخرى تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طلباً للمرعى ، وكانت بعض البطون الأخرى تحيا حياة بدوية عريقة فى صحراء المغرب [٥] .

ومن الغريب أنه رغم تفرق شعب صنهاجة على هذه الصورة ، ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين أشتاته ، وتجعله يتحد عند وقوع الخطر لدفعه ، وقد تمكنت صنهاجة بفضل هـــذه الحضارة التى أصابت منها بعض الشىء ، و بفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية ، وهذه الرابطة الأسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخاً مجيدا « فشرف صنهاجة أصيل ومجدهم أثيل » .

---

(١) Fournel: Les Berbéres. Vol. I, p. 36, 38.

(٢) De la Chapelle : Hésperis, T. XI, p. 49, 1930.

(٣) Gautier : (op. cit.) p. 122.

(٤) Ibid p. 334.

(٥) Terrasse: (op. cit.) p. 22.

ورياستهم قديمة[١] » أسست صنهاجة الجيل الأول دولة بنى زيرى ، وأسست صنهاجة الجيل الثانى دولة المرابطين :

٩ — قبائل الملثمين مؤسسوا دولة المرابطين :

أما القبائل التى تستحق أن نوليها نصيباً كبيراً من عنايتنا ، فهى تلك التى أطلق عليها المؤرخون إسم قبائل الملثمين ، لاتخاذها اللثام شعاراً يميزها عن سائر قبائل المغرب ، فإنها فى الواقع صاحبة اليد الطولى على الدولة المرابطية ، بل يرجع إليها الفضل فى نشر لواء الاسلام فى ربوع إفريقية ، والسودان الغربى ، لأنها ظلت بعد أن تم إسلامها قرونا طويلة تجاهد قبائل السودان ، وتحملها على الإسلام حملا ، حتى توجت جهودها بالنجاح ، ولا تزال آثارها باقيةحتى اليوم .

نعم استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب مالك فى أقاصى الصحراء وأن تخرج عن ديارها مجاهدة عاملة على إحياء الاسلام ، ونشر لوائه ، فتم لها ما أرادت من سؤدد ، وتأسست دولة المرابطين التى انبسط ظلها من منحنى النيجر فى الجنوب حتى البحر الأبيض فى الشمال ، بل جاوزته إلى الأندلس ، على النحو الذى سنفصله فيما بعد . فمن حقها علينا أن نطيل الكلام عنها بعض الشىء ، وأن نعرف بها ، تمهيداً لتوضيح ذلك الدور الرائع الذى اضطلعت به فى تاريخ البشرية .

هذه القبائل وفيرة العدد ، قيل أنها تجاوز السبعين عدداً ، وقد ذكر المؤرخون أن من أهمها قبيلة لمطة[٢] ، وترغة[٣] ، وسرته[٤] ، وجزولة[٥] ، ولمشتونة[٦] ،

---

(١) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ورقة ٤٩ (أ) .

(٢) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٣ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٥ الحلل الموشية ص ٧ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، Terrasse p 213 .

(٣) ابن حوقل : المسالك ص ٨٧ ، Terrasse : (op. cit.) p. 196. .

(٤) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٠٢ .

(٥) الدمشقى ص ٢٢٨ — ٢٣٩ .

(٦) الدمشقى ص ٢٢٨ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٥ .

وجدالة[١] ،ومسطة[٢] ، وتازكاغت[٣] ، وكاكدم[٤] ، وتندغ[٥] ، ومسوفة[٦] ، وانتصر[٧] ، و بنو نيتسر[٨] ، وتريكة[٩] ، وزغاوة[١٠] ، وواشان[١١] ، وتمالة[١٢] و إيتوارى[١٣] ، ومداسة[١٤] ، ودكالة[١٥] ، وهسكورة[١٦] . ولكن أهم هذه القبائل جميعها لمتونة ، ثم جدالة ، ثم مسوفة[١٧] . وقد كانت الرياسة فى قبائل الملثمين على العموم للمتونة ، التى كانت تنازع جدالة هذه الزعامة باستمرار[١٨] حتى كتب لها الظفر آخر الأمر ، كما كانت الرياسة فى لمتونة معقودة لبنى ورتنطق ، الذين أنجبوا ذلك الزعيم المغربى الكبير يوسف بن تاشفين[١٩] .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ؛ وجامع تواريخ فاس ص ٢٧ ؛ الحلل الموشية ص ٧ .

(٢) ابن حوقل ص ٧٨ ؛ الادريسى ص ٥٧ — ٥٩ .

(٣) الدمشقى ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

(٥) R. Basset : Mission au Senegal p. 447,

(٦) النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٢ ص ٧٣ ؛ ابن حوقل ص ٧٨ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

(٧) البكرى : المغرب ص ١٨٠ .

(٨) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ .

(٩) نفس المرجع والصفحة .

(١٠) الادريسى ص ٥٧ — ٥٩ .

(١١) نفس المرجع والصفحة .

(١٢) البيذق : كتاب أخبار المهدى ص ١٠٧ ؛ الدمشقى ص ١٣٨ — ١٣٩ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ص ٦٨ .

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية : مادة لمطة (G.S. Colin) .

(١٤) الدمشقى ص ٢٣٨ ؛ Bel : Les Benou Ghanya p. 7., Julién p. 376. G Demombynes : Masalik El Absar p. 60. ودائرة المعارف الإسلامية : مادة لمتونة (Colin) .

(١٥) الحلل الموشية ص ٦ .

(١٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ .

(١٧) الدمشقى ص ٢٣٨ .

(١٨) الحلل الموشية ص ٦ .

(١٩) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ .

وقد حاول جوتييه [١] أن يشكك فى إنتساب هذه القبائل كلها إلى الفرع الصنهاجى الأكبر ، بحجة إختلاف البيئة ، والحياة الإجتماعية . فقد تساءل عن الرابطة التى تربط بين هذه القبائل المستقرة المتحضرة النازلة بإقليم الجزائر ، و بين هذه القبائل الملثمة التى تضرب فى الصحراء . والواقع أنه ما من مؤرخ معاصر لهذه الحوادث ، أو شبه معاصر لها ، إلا وقد نسب قبائل الملثمين لصنهاجة ، بل إن المراجع [٢] التى تعرضت لهذا الأمر تكاد تؤكد هذا النسب ، وتعترف به حقيقة مؤكدة لاشية فيها ولا ريب .

بل إن مرجعاً ماديا معاصراً ينهض لتأييد ما نذهب اليه ، فقد ذكر بروفنسال فى مجموعة النقوش الأندلسية شاهد قبر لأميرة مرابطية من سنة ٤٩٦ ، هذا نصه « هذا قبر بدر بنت الأمير أبى الحسن على بن تاشا ... (فين) الصنهاجى توفيت رحمها الله . [٣] » بل إن شاعرا معاصراً مثل ابن خفاجه الأندلسى مدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم ، وأبا بكر بن الحاج ، وأبا اسحق بن أمير المسلمين وتعرض لإنتسابهم لصنهاجة والعرب . [٤]

كما أن أميرا زيريا هو عبد الله بن بلكين أمير غرناطة يقول فى مذكراته التى نشرها ليفى بروفنسال فى مجلة الأندلس . حين علم بقدوم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس « وظننا أن إقباله الى الأندلس منة من الله عظمت لدينا لا سيما خاصة من أجل القرابة [٥] » .

---

(١) Gautier p. 214.

(٢) روض القرطاس ص ٧٥ ؛ أبو الفدا ص ١٨٣ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٢ ، الحلل الموشية ص ٩ ، جذوة الاقتباس ص ٣٤٢ ، السيوطى المغربى ص ٢ و Terrasse p. 203.

(٣) E-Lévi-Provençal : Inscriptions Arabes c'Espagne No. 24. p. 31.

(٤) ابن خفاجة الأندلسى ص ٢٠ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ٩٢ قال :

تنميهم الدنيا إلى صنهاجة ... والدين ينميهم الى الأنصار
شادت يد العلياء فى عرصاتهم ... أعلى منارا فى أعز ديار

(٥) Al-Andalus Vol. II, Fasc 2, 1935, p. 338.

كما أن المؤرخ جيانجوس ترجم نصا من كتاب الإكتفاء ، جاء فيه على لسان أم عبد الله بن بلكين تحضه على لقاء يوسف بن تاشفين « اخرج لتحيي عمك يوسف » (١) .

كما أن جوتييه نفسه قد ذكر أن المرابطين لما غزوا تلمسان كانت أميرة من صنهاجة أفريقية تزور المدينة ، فلما خافت على نفسها تقدمت للفاتحين ، ونوهت بالقرابة القائمة بين الفرعين ، فردوها إلى بلدها مكرمة (٢) . ولعل مما يؤيد هذا الرأى ما ذكره بعض المؤرخين المحدثين (٣) من أن هذه القبائل كانت تضرب فى شمال أفريقيـــة فى بوادى المغرب وسهوله ، شأنها شأن أخواتها من قبائل صنهاجة ، ولكنها أخـذت منذ القرن الثالث الميلادى تهجر مواطنها متجهـة صوب المغرب ، ثم ما لبثت أن انحـدرت نحو الجنوب . ويخيل الينا أن السبب فى ذلك يرجع كما بينا من قبل إلى أن استخـدام الابل فى العصر الرومانى ، قد أدى إلى هـذه النتيجة ، فإن قبائل البتر كانت سباقة إلى إستخدامها ، فأخـذت تدفع قبائل صنهاجة أمامها دفعاً ، فصمد بعضها ، وفر البعض الآخر إلى المغرب الأقصى (٤) ، ثم استخدموا الإبل بدورهم ، و بدأو يرتادون الصحراء و يستقرون فى بعض جهاتها منذ وقت بعيد . وكانت هذه القبائل فى الواقع تدفع إلى الصحراء موجة فى أثر موجة ، لاتـكاد الموجة الأول تستقر فى وطنها الجديد ، حتى تغادره نحو الجنوب ليحل محلها فوج آخر (٥) ، وهكذا دواليك .

---

(١) Gayangos Vol. II, ap c. p. XL.

(٢) Gautier, p. 377.

(٣) Terrasse p. 211, De la Chapelle, Hesper p 49 وكذلك بعض المؤرخين القدماء ، أنظر الحلل الموشية ص ٧ — الادريسى ص ٥٧ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ .

(٤) Gautier : (op. cit.) p 184—185.

(٥) De la Chapelle, Hespéris 1930, T. XI., p 49.

وقد أذكت الغزوات العربية تيار الهجرة ، ففرت بعض القبائل الصنهاجية أمام الفاتحين إلى المغرب الأقصى ، فلما أوغل الفاتحون فى هـــذه البلاد فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء [١] ، حتى أن موسى بن نصير لما أوغل فى بلاد السوس فى طلب البربر ، وجد فريقاً من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن [٢] .

وقد كانت ديار قبائل السودان تتخطى منحنى النيجر موغلة نحو الشمال ، وكانت تقف حجر عثرة أمام هجرة هـــذه القبائل الصنهاجية ، فلما انتشر الإسلام فى ديار صنهاجة ، أخذت تعمل على نشره بين قبائل السودان [٣] واتخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس ، فأخذت تدفع السود نحو الجنوب [٤] دفعاً حتى تم لها إدراك منحنى النيجر فى هجرتها .

وقد بلغت هذه الحركات الذروة فى القرن الخامس الهجرى ، وسنرى كيف أنه بعد أن تم توحيد هذه القبائل تحت لواء عبد الله بن ياسين ، أخذت تتدفق إلى الشمال مرة أخرى ، مساهمة فى تأسيس الدولة الجديدة ، وأخلت ديارها لتحتلها بعض القبائل الزناتية المغلوبة على أمرها ، مثل قبيلة مغراوة ، بل أن الطوارق — أحفاد صنهاجة — لا زالوا حتى اليوم يعتقدون أنهم انحدروا إلى ديارهم من الشمال [٥] .

ودراسة توزيع هذه القبائل ، وتحديد مواطنها ، أمر لابد منه ، إذا أردنا أن نضع أسساً صالحة لفهم تحركات هـــذه القبائل صوب الشمال ، إبان تأسيسها

---

(١) De la Chapelle, p. 57.

(٢) ابن عذارى : البيـــان المغرب ح ١ ص ٢٧ .

(٣) Arnold; The Preaching of Islam, p. 317 suiv.

(٤) De la Chapelle p. 49.

(٥) Rodd : People of the Vail p. 364.

لدولة المرابطين ، ثم غزوها لبلاد المغرب ، ثم الأندلس ، واعتمادنا فى هذه الدراسة على البكرى الذى وصف مضارب تلك القبائل فى القرن الخامس الهجرى ، قبل أن تتدفق صوب الشمال ، ذلك التدفق الشامل المعروف ، والادريسى الذى ألم بتلك البلاد بُعَيْدَ سقوط دولة المرابطين ، وتفرق شمل هـذه القبائل القوية ، وعودتها إلى حياتها القديمة من البداوة ، والتجول فى الصحراء . أما ما كتبه الرحالة والمؤرخون المتأخرون فاعتمادنا عليهم ليس كبيراً .

وأهم ما نلاحظه فى هذا التوزيع ، أن المؤرخين يحددون لهذه القبائل وطناً عاما يمتد من غدامس[1] جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسى ، فى المناطق الصحراوية ، التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن ، كما يمتد هذا الوطن العام من جبال درن فى الشمال ، حتى مصب نهر السنغال[2] ، بل يمتد إلى منحنى النيجر أو يجاوزه بقليل ، بل تتخطى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق بمراحل عديدة ، فتصل إلى تادمكه[3] فى قلب الصحراء الكبرى[4] .

هذا هو الوطن العام أو المجال الحيوى الذى تجوس فيه قبائل الملثمين طليقة من كل قيد . أما الأوطان الخاصة فإن لكل قبيلة مضاربها المعلومة ، ومجالها الذى تجوس فيه ، فقبيلة لمطة ، وجزوله ، تحتل المنطقة الممتدة من جبال درن ، حتى وادنول[5] القريبة من المحيط الأطلسى[6] ، على حين تنتشر ترغة فى وادى

---

(١) بضم أوله أو بفتحه مدينة بالمغرب ، ثم فى جنوبيه ضاربة فى بلاد السودان بإقليم الواحات ، ياقوت البلدان ج ٣ ٧٧٤ .

(٢) الحلل الموشية ص ٧ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٧ ، روض القرطاس ص ٧٥ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٠ .

(٣) مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوماً من غانة إلى الشرق ـ البكرى ١٨١ .

(٤) البكرى : المغرب ص ١٨١ ، الدمشقى : نخب الدهر ص ٢٣٨ ٢٣٩ .

(٥) مدينة نول آخر مدن الإسلام ، وهى أول صحراء المغرب ونهرها يسمى وادى نول يصب فى البحر المحيط البكرى ١٦٢ .

(٦) البكرى : المغرب ص ١٦٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة سوس . Terrasse p 196 Provencal 196

درعة[1] ، وقد تمتد مضار بها غربا فتجاوز مضارب هاتين القبيلتين . و يبدو أن هذه القبائل جميعها تتصل ديارها إلى مدينة سجلماسة ، والمناطق القريبة منها[2] .

أما قبيلة لمتونه أهم هـذه القبائل وأقواها ، فهى تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة وجزولة ، وتمتد من وادى نون على المحيط الأطلسى ، حتى رأس بوجادور الحالية . و إلى الشرق من وادى نون تقع مدينة أركى[3] على مسيرة سبعة أيام من وادى نون ، وهى حصن لمتونة[4] ومعقلها . و يبدو أن هـذه القبيلة ، توغل فى الصحراء شرقا ، حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة ، وسجلماسة[5] ، حتى لقد قيل إن ديارهم تمتد مسيرة شهرين طولا وعرضا ، ولـكنها لم توغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال ، كما يقول البعض ، ولا يبعد أن تـكون بعض بطونها قد رحلت حتى أصبحت على مقربة من غانة ، بدليل أن الأدريسى يذكر أن تـكرور من بلاد لمتونة . مع أن تـكرور هـذه فى وادى النيجر[6] فى الجنوب .

مهما يكن من شىء ، فإن هذه القبيلة كانت تحتل موقعا ممتازا ، فقد سيطرت على ذلك الطريق التجارى الهام ، الذى يسير بحذاء البحر المحيط ، كما كان طريق غانة ـ سجلماسة قاب قوسين من ديارها ، فليس بغريب أن تـكتسب لها السيادة على هذه القبائل جميعها . وفرة من المال ووفرة فى العدد وموقع ممتاز[7] .

---

(١) De la Chapelle : Hésp. 1930, T. XI, p. 24. — Terrasse p. 196.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٧٢ .

(٣) البـكرى : المغرب ص ١٦١ ، الادريسى ص ٥٧ ، ٥٩ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة (سوس) .

(٤) البـكرى : المغرب ص ١٦٤ .

(٥) الادريسى : أرض المغرب ص ٣ .

(٦) Cooley : The Negroland of the Arabs, P. 19.

(٧) idem .

وإلى الجنوب من مضارب لمتونة ، تمتد صحراء تيسر ، أو أزواد ، فتصاقب رمالها البحر المحيط ، ثم تمتد نحو الجنوب[١] ، وتضرب قبيلة جدالة القوية جنوب ذلك النطاق ، حتى مصب نهر السنغال ، متخذة مدينة أوليل مركزا لها ، حيث يكثر الملح الذى تحمله القوافل إلى الشمال والجنوب[٢] . وهذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقرارا ، فهى من ناحية ، قريبة من غانة ، وشعب صنغانة ، الواقع على الضفة اليسرى من منحنى النيجر ، وقريبة من أود غشت ، وطريق سجلماسة ، لذلك استطاعت أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق ، وأن تجنى من وراء ذلك مالا وفيرا[٣] . كما يذكر المؤرخون أنها أقرب قبائل الملثمين من بلاد السودان[٤] .
أما قبيلة مسوفة فتمتد مضاربها فى منطقة قاحلة مجدبة ، تقع بين سجلماسة فى الشمال وأودغشت غشت فى الجنوب ، وكانت بعض بطونها توغل شرقا حتى تصل إلى تادمكه ، وكوكو[٥] ؛ وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة السودانية حتى زمن ابن بطوطه[٦] . كما أن ابن حوقل وهو يسبق ابن بطوطه بمدة قرون وجد هذه القبائل فى مضاربها تلك ، تسيطر على التجارة المارة بين أود غشت فى الجنوب ، وسجلماسة فى الشمال[٧] .

من ذلك يتبين كيف أن هذه القبائل الثلاث ، قد سيطرت على هذه المساحات الشاسعة من الصحراء ، وكيف تحكمت فى طرق التجارة العالمية ، فكثر ما لها ، وازداد جاهها ، ونعمت بحياة ليست جافية ولا غليظة .

---

(١) البكرى : — المغرب ص ١٧٢ .Cooley, P. 19 .
(٢) Cooley, p. 25. .
(٣) Ibid. p. 25. .
(٤) البكرى : المغرب ص ١٧٢ .
(٥) البكرى ص ١٨١ ، الدمشقى ص ٢٣٨ — ٢٣٩ . تقع على ساحل البحر فى منطقة السنغال (البكرى ص ٢٨٣) .
(٦) ابن بطوطه جـ ٤ ص ٣٧٨ ، ٤٣٠ .
(٧) ابن حوقل : المسالك ص ٧٨ .

وهنالك ناحية أخرى يجدر بنا أن نتعرض لدراستها ، ونعنى بهـا دراسة الشخصية الجماعية لهذه القبائل ، ودراسة صفاتها ومميزاتها ، التى أهلتهـا للظهور فى ميدان الصراع القبلى فى المغرب الأقصى ، ودراسة الحياة الاجتماعية الداخلية لهذه القبائل الهامة ، حتى نستعين بهذه الدراسة على تفهم ما غمض من أحداث تاريخ المرابطين . والمؤرخين القدماء لم يعرضوا لهذه الناحية بالتفصيل ، و إن كانوا قد عرضوا لها ، فقد فعلوا ذلك فى شىء كثير من الايجاز ، لذلك سنعمد إلى الاستعانة بما كتبه المحدثون عن شعوب الملثمين فى العصر الحاضر ، أو من يطلق عليهم اسم الطوارق .

قد يقال ما هى الصلة التى تربط بين الملثمين فى العصور الوسطى والطوارق فى العصر الحـاضر ؟ ؟ لـكن يرد على ذلك بالقول بأن الروابط بينهما كثيرة ومتعددة . منها أن الطوارق فى العصر الحاضر لا يزالون يحتلون نفس البقاع ، التى كانت تحتلها شعوب الملثمين فى العصور الوسطى ، فهم يحتلون المناطق الممتدة من الطرف الشرقى لصحراء المغرب عند فزان[1] ، حتى منطقة المحيط الأطلسى فى غرب أفريقية[2] . وهذه البيئة بيئة عزلة تمكن لهذه القبائل الضاربة فى فيافى الصحراء من أن تعيش مستقلة ، بعيدة عن أية مؤثرات ، قد تغير من الحياة التى ألفها أجدادهم فى العصور الوسطى . فقد ظلت الصحراء الـكبرى على الأقل فى معزل عن التيارات الأجنبية الوافدة على المغرب فى العصور الحديثة ؛ فالنفوذ التركى لم يجاوز المناطق الساحلية ، فلما تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم فى المغرب ، بدءوا يوغلون فى الصحراء ، و يسجلون ما يشاهدون ، و يعنون بهذه القبائل الملثمة الضاربة فيها ، وقد استطاعوا بعد دراسة هذه البيئة الخاصة أن يثبتوا أن الملثمين فى العصر الحاضر

---

(١) فزان بفتح أوله وتشديد ثانيـة وآخره نون ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس المغرب . ياقوت : البلدان جـ ٣ ص ٨٩٠ .

(٢) Rodd : People of the Vail, p. 8.

لا يختلفون كثيرا عنهم فى العصور الوسطى . حتى إن بعض أسماء القبائل ظلت كما هى دون أن تتغير ، ولا زال الأحفاد يحسون بصلتهم بالأجداد .

وهنالك ناحية أخرى تسند الرأى القائل بالصلة بين الملثمين القدماء ، والملثمين المحدثين ، وهى أن إسم الطوارق الذى خلع على الملثمين فى الوقت الحاضر مشتق من ترغه ، وترغه كما قلنا قبيلة من قبائل الملثمين فى العصور الوسطى ، كانت تضرب فى المنطقة الواقعة فى وادى درعة فى المغرب الأقصى . فلما تفرق حلف المرابطين بعد سقوط دولتهم ، تشتت شمل القبائل وأخذت تضرب فى الصحراء بحثاً عن وطن تأوى إليه ، كما أن دولة الزنوج فى الجنوب قد توسعت صوب الشمال ، وأخضعت هؤلاء البربر لسلطانها ، فهاجرت قبيلة ترغة صوب الشرق ، وظلت باقية حتى اليوم ، وقد عم هذا الإسم حتى أصبح عاما على شعوب الملثمين كلهم ، لأن القبائل فى المغرب كما نعلم كانت تتداول السلسطة والنفوذ ، فإذا تمت السيادة لقبيلة فرضت سلطانها وأخضعت القبائل الأخرى . فقد سادت لمتونة وأسست دولة المرابطين ، فلما سقطت الدولة ضعفت لمتونة وسادتها قبائل أخرى من مجموعة الملثمين ، وخلفتها فى زعامة صنهاجة الجنوب قبيلة ترغة ، فأخضعت القبائل لصولتها ، وخلعت اسمها على الشعب كله ، فأصبح يعرف باسم الطوارق . لذلك نستطيع ـ إلى حد ما ـ أن نستعين ببعض ما كتبه الرحالة المحدثون عن الطوارق ، أمثال دى فرييه[1] ، وبارت[2] ، ورود[3] . على أن نعقد مقارنة بين ما رواه القدماء ، وما وصفه المحدثون ، علنا نوفق إلى إعطاء صورة صادقة لهـذه القبائل مؤسسة دولة المرابطين .

---

(١) H. Duveyrier : Les Touareg du Nord.

(٢) H Barth : Travels and discoveries in north and central Africa in the years 1849—1855.

(٣) F. R. Rodd : People of the vail.

وأهم ما يتميز به رجال هذه القبائل ارتداء لثام يستر الوجه كله ، فلا تبدو إلا محاجر العينين[١] ، فسميت القبائل قبائل الملثمين ، وانفردوا بهذا دون سائر قبائل البربر ، حتى غدا ذلك الإسم علما عليهم[٢] . ولم يشر القدماء إلى هذا التلثم ، إنما المؤرخون العرب ، أو الفاتحون العرب ، هم الذين خلعوا عليهم ذلك الإسم لأول مرة[٣] ، ومن الغريب أن اللثام لا زال الطوارق يستعملونه حتى اليوم[٤] ، والواقع أن بدو الصحراء في شبه جزيرة العرب يتلثمون لاتقاء الحر والبرد ودفع الغبار ، الذى تثيره العواصف الرملية ، التى تثور فى الصحراء[٥] . ولكن اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب ، اتخذ طابعاً غريباً فريدا ، فهم يرتدون اللثام بالليل وبالنهار[٦] ، فى أثناء الراحة ، أو العمل . بل ينامون وهم متنقبون ، ويأكلون وهم متلثمون[٧] ، لا يعرف الرجل الرجل إذا أماط اللثام عن وجهه « بل إن إبداء الوجه كإبداء العورة فى التأنف والحياء[٨] » . لا يعرف الشيخ من الشاب[٩] ، لا يعرف الرجل الرجل إلا إذا انتقب ، وإذا قتل منهم رجل فى معركة وزال قناعه لم يعرف من هو إلا إذا وضع القناع على وجهه . « صار القناع ألزم من جلودهم ، وهم يسمون من خالف زيهم هذا فى جميع الناس

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٧٠ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٧٠ ؛ ابن خلدون ص ١٨٩ ودائرة المعارف الإسلامية . مادة (لثام) W. Bjorkmann.

(٣) H. Duveyrier: Les Touaregs du nord p. 290 ; Rodd : People of the Veil, p. 286.

(٤) Duveyrier p. 298.

(٥) الدمشقى : نخب الدهر ص ٢٦٧ ؛ النويرى جـ ٢٢ ص ١٧٩ ؛ ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٦٠ ؛ أبو الفدا جـ ٢ ص ١٨٤ .

(٦) ابن الأثير جـ٩ ص٢٦٠ .

(٧) Duveyrier p. 290.

(٨) الدمشقى ص ٢٦٧ .

(٩) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧٠ .

« أفواه الذبان بلفظهم[١] » ، وهى عادة توارثها الأبناء عن الآباء[٢] ، لم يتحولوا عنها حتى فى العصر الحاضر[٣] ، فإن أحدهم قد زار باريس فلم يشأ أن يخلع نقابه ، وقد أشار النويرى[٤] إلى مثل ذلك فقال « كان لى صديق فى دمشق فأتيت يوما إلى زيارته فدخلت إليه وقد غسل عمامته ؛ وسراويله مشدودة على رأسه ، وقد تلثم بخلخاله » ، ولم يزل الطوارق المحدثون على هذه الحال ، فقد ذكر رُود[٥] أن الرجل منهم « إذا أراد أن يربط لثامه ، اختفى عن الأنظار ، حتى عن أهله ». ويعد لبس اللثام فى نظرهم مفخرة يتمدحون به ، كما يتمدح العربى بسيفه. لا يعتبر الفرد مكتمل الرجولة إلا إذا ارتدى لثامه ، لذلك تحتفل الأسر عند بلوغ الأولاد سن الرشد بارتداء اللثام ويقيمون احتفالا كبيراً ، هو نذير باستكمال الفرد لحقوقه المدنية ، واعتباره عضوا عاملا فى المجتمع الملثم[٦] .

وقد ذهب المؤرخون والرحالة مذاهب شتى فى تفسير هذه العادة الغريبة الفريدة ، فقالوا إنها كانت خدعة ، يتنقب الرجال فى وقت الحرب ، حتى يظن العدو أنهم النساء ، فإذا أدبر انقضوا عليه فأفنوه[٧] ، ويقول آخرون أن لذلك أسباب صحية لاتقاء الغبار والحر[٨] ، ولكن لماذا يخلع عند الأكل ، ولماذا لاتنتقب النساء ولماذا ينامون به . وقال البعض أنه نوع من السحر ، أو أنه قد اتخذ صفة العقيدة ، أو أن له أسبابا سياسية[٩] . وليس من شك فى أن اللثام قد

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٧٠ .

(٢) الإدريسى : أرض المغرب ص ٣٩ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٣) Duveyrier p. 290.

(٤) النويرى ج ٢٢ ص ١٧٩ .

(٥) Rodd : People of the Veil p. 288.

(٦) Ibid p. 289.

(٧) الحلل الموشية ص ٢٨ ، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

(٩) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

اتخذ أول الأمر لاتقاء منغصات جو الصحراء ، توارثه الأبناء عن الآباء ، فأصبح بمضى الزمن عادة متغلغلة فى النفس ، سمت إلى مرتبة العقيدة .

واللثام فى العصر الحاضر قطعة من قماش مصبوغ ، يصنع فى السودان ، ويحمل إلى ديار الطوارق[١] ، ويبدو أنه كان هنالك نوعان من اللثم ، نوع يسمى « الريط » لونه أخضر ، وآخر يسمى « السامرى » لونه قرمزى[٢] ؛ وكان الرجال يلبسون إلى جانب ذلك المقندرات من الصوف[٣] ، والعمائم ذوات الذوائب[٤] .

والطوارق فى العصر الحاضر صنفان ، صنف يرتدى اللثم السوداء ، وهؤلاء غالباً من النبلاء ، وصنف يرتدون اللثم البيضاء ، وهؤلاء من العبيد ، ولعل هذا يفسر ما ذكره المؤرخون من أن المرابطين كان شعارهم السواد ، وأن المعتصم ابن صمادح أراد أن يتقرب من المرابطين ، فارتدى زيهم الأسود[٥] ، وهذا موضوع سنناقشه بالتفصيل عند ما نبحث نظم الحكم ونتناول الأشعرة والبنود .

ومما يؤيد ما قيل من أن النبلاء كانوا يتخذون لثاماً مغايراً للثام العبيد ، أن ابن عبدون[٦] صاحب رسالة الحسبة قد اشترط ألا يلتثم إلا صنهاجى ، أو لمتونى ،

---

(١) Rodd : People of the Veil p. 286.

(٢) ابن دحية : المطرب ورقة ٧٣ ب ، ديوان ابن خفاجة ص ٨٤ — ٨٥ .

(٣) الأدريسى : أرض المغرب ص ٣٩ ، مقندرات (pl.) chemises (voir) Le Glossaire Joint a la Description de l'Afrique et de l'Espagne, par Edresi, publiée par Dozy et de Goeje, Leyede 1866, 364. Dozy : Supplément aux Dictionnaire Arabes, II, p. 410.

(٤) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف ج ١ ص ٦٨ .

(٥) Levi-Provençâl : Le Traité d'Ibn Abdun (Journal Asiatique 1934 pp. 177—299) & Lévi-Provençal : Seville musulmane au Début du XII Siécle : Le Traité d'Ibn Abdoun (Paris 1947) pp. 61—62.

(٦) محمد بن أحمد بن عبدون التجيبى : رسالة فى الحسبة ص٢١٨ .

أو لمطى « فان الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم ويأتون أبواناً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام ، وأوصى بألا يلثم الحشم ، والعبيد حتى لا يحسبهم الناس نبلاء فيخدعون » . وقال « إن عبيد المرابطين إذا تلثموا وجب أن يكون ذلك بعلامة يعرفون بها مثل أن يتلثموا بخمار أو بمئزر » .

ومن أغرب ما تمتاز به هــذه القبائل ، أن مكانة المرأة فى المجتمع مكانة رفيعة ، بل تعتبر نداً للرجل ، وتتمتع بالمساواة التامة [١] ، وهن يقتنين أغلب الثروات [٢] ، ويتمتعن بنفوذ لا حد له ، ولا يباشرن أعمالهن البيتية [٣] ، بل يقوم العبيد بأدائها [٤] . وقد بلغ من اتساع نفوذ المرأة ، أنها كانت تشترك فى مجلس القبيلة ، وتشارك فى الأمور الهامة. ولقد لعبت زينب زوج يوسف بن تاشفين دوراً عظيما فى إدارة دفة الأمور فى الدولة فى حياة زوجها [٥] ، ويبدو أن أهل الأندلس لم يكونوا يألفون ذلك ، فأخذوا على المرابطين اصغاءهم لرأى النســاء ، واعتبروا ذلك من نقائصهم ، وكان من أثر هذا المركز الممتاز ، الذى تمتعت به المرأة ، أن الرجل كان ينسب إلى أمه فى بعض الأحيان [٦] ، كما لم يعرف المجتمع الملثم — على ما نعلم — عادة تعدد الزوجات .

وهنالك أمر آخر جدير بألا نغفله ، ذلك أن الرحالة الفرنسى دى فرييه [٧] ، الذى درس بيئة الطوارق دراسة وافية ، لاحظ أن المجتمع الطوارقى أو القبائل الطوارقية صنفان : قبائل سيدة ، وقبائل مسودة ، قبائل من النبلاء ، وقبائل من

(١) ابن بطوطة جـ ٤ ص ٣٨٧ .

(٢) ابن حوقل : المسالك ص ٧١ Duveyrier : Les Touaregs du Nord p. 339

(٣) Rodd : People of the Veil p. 168.

(٤) Duveyrier: (op. cit.) p. 339.

(٥) النويرى : نهــاية الأرب ص ١٨٠ .

(٦) النويرى : نهــاية الأرب ص ١٨٠ ؛ ابن بطوطه جـ ٤ ص ٣٨٧ .

(٧) Duveyrier: (op. cit.) pp. 329—338.

الأقنان (مع التحفظ فى إطلاق هذا الإسم) . والنبلاء يحتكرون الحياة السياسية ، ويؤلفون مجالس القبيلة ، ويتولون القيادة فى الحروب ، ويديرون دفة الحياة العامة ، ويسيرون أمور القبيلة . وفق مشيئتهم ، كما يحتكرون التجارة ، ويهبون للدفاع عن الشعب إذا حاق به الخطر ، أما الأقنان فان لهم وضعاً غريباً بعض الشيء ، فهم لا يباعون ولا يشترون كما يباع العبيد أو يشترون ، ولكنهم يورثون كما يورث المتاع . ولا يعتقون كما يعتق العبيد لأن من يعتق ، لا يستطيع أن يحيا بمفرده فى الصحراء ، والا حاقت به الهلكة ، فهو يرضى بهذا الوضع عن طيب خاطر ، بل يفتخرون بهذا الوضع الشاذ ، ولا يقلون عن النبلاء تفانياً فى الدفاع عن القبيلة ، وإعلاء لكلمتها ، وهم يقتنون الثروات كيفما طاب لهم وكثيرون منهم قد بذوا سادتهم فى الثروة والجاه . ولكن هذه الأموال يرثها السيد بعد وفاتهم ، وعبء الأعمال اليومية يقع على عواتقهم . يرعون الماشية ويؤدون كل ما تحتاجه القبيلة من عمل يدوى ، ويشتركون فى القتال [١] ، ويؤدون لأسيادهم نصيباً معلوماً كل عام من الابل ونتاجها [٢] .

هـذه الأوضاع التى عرض لها دى ثم بيه ، توارثها الطوارق المحدثون عن أجدادهم القدماء ، وليس من شك فى أن قبائل الملثمين فى العصور الوسطى كانت تعرف ذلك النظام . فنحن نعرف مثلا أن قبيلة لمتونة كانت لها الرئاسة زمن المرابطين ، وكان رجالها يديرون دفة الدولة ، ويحتكرون أغلب الحقوق السياسية ، كما كانت الرئاسة فى لمتونة فى بيت (ورتانطق) ، الذى أنجب يوسف بن تاشفين . وابن خلدون [٣] يشير إلى ظاهرة طالما تكررت فى مجتمع القبائل البربرية ، وهى أن القبيلة التى كانت تكتب لها السيادة ، كانت تخضع القبائل الأخرى بحد

---

(١) Duvéyriés : (op. cit.) pp. 329—338.

(٢) I dem

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦

السيف ، وتستعبدها استعباداً ، فتصبح القبيلة المنتصرة قبيلة السادة ، والقبائل الأخرى قبائل المسودين . فلمتونة مثلا التى سادت فى القرن الخامس الهجرى أصبحت فى المجتمع الطوارق الحديث قبيلة مسودة[١] ، وانتقلت السيادة إلى قبيلة ترغة .

ويبدو أن ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة [٢] أشار إلى مثل هذه الأوضاع ، حينما أشار إلى الحشم والعبيد ، وطلب ألا يلتثموا حتى لا يختلط الأمر على أهل أشبيلية فلا يميزون النبلاء من غيرهم ؛ وقد يحدث فى كثير من الأحيان أن تخشى القبيلة أن تتفرق كلمتها ، ويعتدى عليها جيرانها ، فتختار العبودية (أو التبعية) طوعا ، حتى تنجو بنفسها من الأخطار المحدقة بها ، وقد أشار دى فريبيه نفسه إلى أن هذا النظام قديم لم يغير اسلام الملثمين منه شيئاً .

وتمتاز هذه القبائل مؤسسة الدولة أيضاً بما يمتاز به البدو عادة من الشجاعة الفائقة ، والقدرة على تحمل المشاق ووفرة النشاط ، وليس من شك فى أن البدو أكثر من المستقرين جلدا على الكفاح والمقاومة ، وأشد منهم صبراً على الحروب ، كما أنهم أصلح الشعوب للقيام بفتوحات على نطاق واسع ، لأن حياتهم فى الغالب حياة نقلة وترحال ، يستطيعون التحرك بجموعهم فى سرعة غريبة ، فينقضون على أعدائهم من المستقرين انقضاض السهم[٣] ؛ كما أنهم لا يتعلقون بوطن معروف يذبون عنه ، ويدفعون عنه المعتدين ، بل هم دائماً تجذبهم مواطن الخصب والاستقرار بخيراتها وحضارتها ، ولعل ذلك مما دفع ابن خلدون فى مقدمته إلى الاشادة بالبداوة [٤] ، حتى نسب إليها كل الفضائل ، قال بأن البدو أقدم من

---

(١) Duveyrier: (op. cit.) pp. 329—339.

(٢) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢١٨ .

(٣) Ramon Menendez Pidal : The Cid And his Spain, p. II.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١١٤ — ١١٩ .

الحضر وأن البادية أهل العمران ؛ وأن البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر وأقرب إلى الشجاعة من غيرهم .

والملثمون فى صحرائهم يعتمدون على الابل فى كل شىء ، وفى كل ناحية [١] من حياتهم ، فمنها مأكلهم وكساؤهم ، وهى مطيتهم التى تقرب المسافات وتعين على سلوك الصحراء ، بل استخدموا الابل فى القتال حتى برعوا فى ذلك الفن « كانوا يقاتلون على النجب أكثر من الخيل [٢] » . وكانوا يقيمون صفاً من الإبل فى مقدمة الجيوش يجعلون عليها ظعائنهم ، فيحتمون خلف الإبل من ناحية ، ويذكى منظر الحرائر من حيتهم من ناحية أخرى ، فيستميتون فى القتال دفاعاً من أعراضهم [٣] ، فجمعوا بذلك بين الشجاعة الفائقة ، والقوة البدنيـة ، وحسن استخدام الإبل فى القتال . وقد امتازت هذه القبائل فوق ذلك بحب الاستقلال والشعور بالعزة والأنفة ، فقد عاشت فى ديارها فى الصحراء ، لم تذق بأس الهزيمة ولم تخضع لما يخضع له المستقرون من غزو وفتح [٤] ، بل كانوا فى ديارهم تلك بمأمن من كل عدو ، لذلك لا نعجب إذا رأيناهم «يختارون الموت على الانهزام، ولم يحفظ لهم فرار من زحف [٥] » أو على حد قول صاحب الحلل « لم تفسدهم مخالطة الأسافل [٦] » .

وإلى جانب هذه الصفات الجسمية النادرة ، من طول قامة ، ووفرة قوة وصلابة عود ، امتازوا بصفات خلقية عالية ؛ فقد روى درى فرييه [٧] أن الطواق

(١) Deveyrier :(op. cit.) p. 218.

(٢) الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ص ١١ .

(٣) ابن خلدون : ٨ المقدمة ص ٢٥٩ .

(٤) Duveyrier :(op. cit.) p 384.

(٥) الحلل الموشية ص ١١ .

(٦) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٧) Duveyrier :(op. cit.) pp. 382—385.

فى العصر الحاضر يمتازون بالإخلاص الشديد والوفاء بالوعد لدرجة الإسراف ، وبنوع من الفروسية غريب ، فهم لا يستعملون الأسلحة النارية ، لاعتقادهم أنها أسلحة الغــدر ، كما لا يطعنون عدوهم من الخلف ، ولا يسممون سهامهم أو رماحهم ، بل يربأون بشجاعتهم أن تنحدر إلى هذا الدرك . وإذا كان هذا هو حال الملثمين فى العصر الحاضر ، فكيف كانوا إذن فى القرن الخامس الهجرى وقد أذكى عبد الله بن ياسين فى نفوسهم شعلة الإخلاص للإسلام ، وطهر نفوسهم من أدران الشر وحببهم فى الجهاد فى سبيل الله ، والعمل على إحياء كلمة الدين ، فأخلصوا فى جهادهم ، ودافعوا عن دار الإسلام ، وردوا عدوان الفرنجة ، بل قضت الدولة نحبها دفاعا عن تراث الإسلام ، لم تقعدها عن ذلك أنانيــة أو إيثار لعافية ، أو عزوف عن تضحية .

وهنالك سؤال لا بد من أن نجيب عليه ، قبل أن نختم هــذه الدراسة الاجتماعية للقبائل مؤسسة الدولة ، وهو هل كانت هذه القبائل تحيا حياة بدوية جافية ، لم تدركها مؤثرات حضارية ، تشع من مراكز الثقافة فى شمال إفريقية ، فينفذ شعاعها إلى أعماق الصحراء ، إلى مضارب هذه القبائل المتبدية ؟ . وهل هى مجرد قبائل تهيم فى الصحراء ، وتتكلف بالنقلة والترحال ، دون أن يكون لها تراث حضارى معروف ؟ الواقع أنه إذا صح ما قلنا من أنها انحدرت من مواطن فى شمال أفريقية ، فلا بد أن تكون قد أصابت من الحضارات الوافدة على المغرب بنصيب ، قبل أن توغل فى الصحراء على هذا النحو ، كما أن المؤثرات الحضارية لا بد أن تكون قد نفذت إليها فى ديارها الجديدة . فقد وجد عقبة ابن نافع فى بلاد السوس حضارة محلية متأثرة بالحضارة الفينيقية[1] . كما أن قبائل صنهاجة والبرانس بالذات بزعامة كسيلة الأوربى ، وعبد الملك بن سكرديد

(١) De la Chapelle : Hespéria 1930, T. XI.

الصنهاجى ، قد نالحت العرب ، وحالفت الرومان ، كما كان هؤلاء الزعماء يدينون بالنصرانية[١]، فقد انتشرت النصرانية فى المغرب الأقصى ، كما انتشرت اليهودية من قبل ، بل إن اليهودية انتشرت فى توات ، وتافللت ، ووادى درعة ووادى نون ، وظلت باقية هناك حتى القرن الخامس الهجرى[٢]. كما أن بلدة أوليلى ، التى اتخذها الأدارسة حاضرة لهم ، هى بلدة (Volubilis) الرومانيـة القديمة[٣]، مما يدل على أن حضارات حوض البحر الأبيض تدفقت إلى المغرب الأقصى ، ونفذت إلى الصحراء وتركت فى هذه القبائل آثارا يقول الرحالة أنها لا تزال حتى اليوم[٤].

وإذا لم تـكن هذه القبائل على جانب من الحضارة غير قليل ، فلم احتفظت حتى اليوم بالقلم المغربى القديم ، وانفردت به دون سائر قبائل البربر ، حتى قيل أنهم حفظة التراث البربرى القديم[٥]؟ لا بد إذن أن هذه المؤثرات قد نفذت إلى بيئة الملثمين فتركت فيهم آثارا ، كما يجب ألا يظن أن قبائل الملثمين كانت بدوية صرفة ، فقد رأينا كيف أن بعضها كان يحيا حياة الاستقرار فى واحات مراكش ، وأن قبيلة لمتونة كانت تنعم بلون من الاستقرار ، وكذلك قبيلة جدالة كانت ذات طابع مستقر نوعا ما ، ولم تحتفظ بالصبغة البدوية الخالصة إلا قبيلة مسوفة .

ويجب ألا تفوتنا الإشارة إلى هذه الثروات الضخمة ، التى كانت تؤول إلى قبيلتى لمتونة ، وجدالة ، بعد تحول طريق التجارة إلى ديارها منذ القرن العاشر

---

(١) Gautier : (op. cit.) p. 242.

(٢) De La Chapelle: Hespéris 1930, T. XI.

M. delafosse : Chroniques du Fouta Sénegalais : Revue du Monde Musulmane, 1913, tome 25 p. 105.

(٣) Gautier p. 28.

(٤) Rodd : People of the Veil p. 275.

(٥) Terrasse p. 17, Duveyrier p. 391.

الميلادى[١]. كانت طرق القوافل تمر بديار لمتونة ، ثم جدالة ، ثم تذهب إلى أودغشت ، ثم إلى سجلماسة حاملة الملح ، والتبر ، والصمغ ، ومنتجات السودان[٢] والرقيق[٣]. لذلك كانت سجلماسة ، وأودغشت بمثابة موانى هذه الصحراء الكبرى[٤]. كانت سوق سجلماسة ، وأودغشت من أنفق الأسواق الصحراوية[٥]. فإذا كانت هذه القبائل قد نعمت بلون من الرخاء المادى ، ولون من ألوان الاستقرار ، أفنعجب بعد ذلك إذا كانت قد اتخذت لها لونا من ألوان الحضارة ، وأن حياتها لم تكن بدوية جافية . ومما يؤيد ذلك أن هذه القبائل كان دورها فى تاريخ المغرب دور بناء ، ولم تكن أبدا معول هدم للحضارات القائمة . فإذا نظرنا مثلا إلى قبائل البدو من عرب بنى هلال التى غزت المغرب فى القرن الخامس الهجرى ، ورأينا الخراب الذى أصاب أفريقية على يديها ، حين انتهت القيروان كحاضرة سياسية ، وثقافية للمغرب ، وأصيبت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة ، ولم تفلح قبيلة من هذه القبائل فى إقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة بنصيب . وإذا لاحظنا أيضا أن قبائل زناتة عرفت فى تاريخ المغرب بمثل هذا اللون من الحياة غير المستقرة ، فلم تؤسس دولة ناجحة مستقرة حتى القرن الخامس الهجرى ، بل عرفوا بالجفوة والغلظة وكراهة الاستقرار . كانت قبائل الملثمين مؤسسة الدولة ذات طابع بدوى معروف ، ولكنها كانت على النقيض من قبائل بنى هلال ، وزناتة ، قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة قبائل بناءة غير هدامة .

---

(١) Terrasse. (op. cit.) p. 23.

(٢) Cooley : The Negroland p. 25.

(٣) الادريسى : المغرب وأرض السودان ص ٦ .

(٤) Demombynes : Masalik El-Absar p. 20.

(٥) البكرى : المغرب ص ١٥٨ .

١٠ — دور الملثمين فى تاريخ الإسلام حتى قيام دولة المرابطين :

بعد أن أتممنا دراسة بيئة المغرب الأقصى ، وعرفنا بالقبائل مؤسسة الدولة تعريفا مفصلا ، يحق لنا أن نتساءل قائلين كيف أسلمت هذه القبائل ، وكيف أتيح لها أن تلعب فى تاريخ غرب إفريقية دورا رائعا فى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ، وما هو موقفها من الأحداث ، التى وقعت بالمغرب الأقصى حتى بداية القرن الخامس الهجرى ؟ .

أقبل العرب من مصر بعد أن تم لهم فتحها إلى إفريقية غازين فاتحين . أوغلوا فى برقة ، وطرابلس ، ثم تدفقوا إلى إفريقية ، بقصد الاستيلاء عليها ، ولم يقدر للعرب أن تتوطد أقدامهم فى إفريقية ، إلا بعد أن استطاع عقبة بن نافع الفهرى أن ينشىء مدينة القيروان ، ويتخذها قاعدة حربية تتجمع فيها قوات العرب وتتدفق منها صوب الجهات الباقية من إفريقية والمغرب . ولكن حملة عقبة الأولى لم تتمخض عن إتمام فتح إفريقية ، ذلك أن طائفة البرانس كانت تتحصن فى جبال الأوراس ، متخذة إياها معقلا يعصمها من غارات العرب ، وبدأ الصراع يحتدم بين العرب ، والبرانس ، وخصوصا بعد أن أيدت زناتة والبتر العرب من أول الأمر بالرغم من أن أبا المهاجر دينار أوغل بجيوش أهل الشام ومصر ، وإفريقية ، حتى قرطاجنة[١] ، وهادن البربر أو هادن البرانس بقيادة كسيلة[٢] ، لأنه لم يكن فى استطاعته إذ ذاك أن يقاتل عدوين فى وقت واحد ، الروم والبربر . ويبدو أن سياسة أبى المهاجر السلمية آتت أكلها ، فقد انتشر الإسلام فى صنهاجة إفريقية ، واشترك بعضهم فى الجيش ، الذى وجهه إلى فتح

---

(١) المالكى : رياض النفوس ص ٢٠ ، أنظر كذلك — أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) الدباغ . معالم الإيمان ج ١ ص ٤٢ .

الجزائر[١] . وقد تمكن أبو المهاجر بسياسته تلك أن يوغل حتى تلمسان[٢] قاعدة المغرب الأوسط ، ولم تستطع قوات العرب أن تجاوزها .

فلما آلت قيادة حملة المغرب إلى عقبة بن نافع الفهري للمرة الثانية ، استطاع أن يقضى على مقاومة البرانس فى المغرب الأوسط ، ففرت قبائلها أمامه معتصمة بجبال المغرب الأقصى ، متهيئة لرد العدوان ، فلم يجد عقبة مفرا من أن يجاوز تلمسان[٣] ، ويتدفق بقوات العرب إلى المغرب الأقصى ، فكان أول فاتح عربى تطأ أقدامه هذا الإقليم .

وقد أوغل عقبة فى إقليم الساحل ، حتى أدرك طنجة ولم يلق كيدا ، ويبدو أن الجهود التى بذلها فى نشر الاسلام فى إقليم الريف كللت بالنجاح ، فقد قال أبو المهاجر لعقبة « ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا »[٤] ، وإذا كان الاسلام قد بدأ ينتشر بين صنهاجة إفريقية فى عهد أبى المهاجر ، فلا بد أن صنهاجة المغرب الأقصى الضاربة فى منطقة طنجة قد أسلمت بدورها ، واتصلت بالفاتحين الجدد .

وانحدر عقبة بعد ذلك إلى إقليم السوس[٥] الأدنى ، وانقض على مصمودة الساحل ، واستطاع بفضل معاونة زناتة أن يقضى على مقاومتهم ، ثم مضى قدما حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى[٦] . وغزا مدينة نفيس[٧] قرب أغمات

---

(١) المالكى : رياض النفوس ص ٢٠ .

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٤٢ .

(٣) المالكى : رياض النفوس ص ٢٣ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٤٤ .

(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٢٣ .

(٥) المالكى : رياض النفوس ص ٢٤ ، الدباغ : المعالم ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٦) المالكى : رياض النفوس ص ٢٦ .

(٧) نفيس مدينة بالمغرب الأقصى تبعد عن أغمات وريكة بمقدار خمسة وثلاثين ميلا . انظر البكرى ص ١٥٣ .

وريكه[1] . بل تذهب بعض الروايات إلى أنه أدرك مدينة نول على ساحل المحيط فى أقصى بلاد المغرب ، وإذا كنا نعرف أن قبائل الملثمين كانت تنتشر من جبال درن حتى نهر السنغال ، وأن لمتونة تنزل فى المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادى نون ، وان ترغة كانت تحتل وادى درعة ، وأن جزولة كانت تنزل بالقرب منها ، وأن بعض بطون مسوفة كانت فى أحواز سجلماسة ، إذا عرفنا ذلك أدركنا أن عقبة بن نافع قد أوغل فى ديار الملثمين .

ويبدو أن صنهاجة الجنوب ، لم تذعن لعقبة من أول جولة ، فقد قاومته مسوفة[2] ، ولا بد أن لمتونة وغيرها من القبائل ، قد اشتركت فى هذا القتال دفاعا عن كيانها ، ولكن عقبة استطاع أن يدرك مدينة تارودونت[3] ، وأن يهزم مسوفة من وراء السوس ، وأن يخضع صنهاجة اللثام لسلطان الإسلام ، ولا نعرف شيئا عن السياسة التى انتهجها عقبة فى ديار أهل اللثام . وكل ما نعرفه أنه ابتنى مسجدا فى مدينة ماسة[4] ، ولا يبعد أن يكون قد ترك من يعلم القوم مبادىء الاسلام ، وليس ببعيد أيضا أن يكون قد أقر بعض شيوخهم على ما بأيديهم من سلطة .

ولكن بعض الروايات تذهب إلى أبعد من هذا ، تذهب إلى أنه أوغل فى بلاد السودان ، وفتح بلاد التكرور وغانة[5] ، بل إن الرحالة بارت[6] ذكر

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٠ . أغمات مدينتان سهيتان إحداها تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة وبينهما ثمانية أميال . أنظر البكرى ص ١٠٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة . تارودنت من أهم مدن السوس الأقصى على بعد أربعة أيام من درعة . الادريسى ص ٦١ .

(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٢٦ .

(٥) De la Chapelle: Hesperis 1930 T. XI, p. 24.

(٦) Barth : Travels and discoveries in north and central Africa, Vol. IV, p. 579.

أن بعض الروايات المحلية تقول أنه كانت بغانة فى عام ٦٠ هـ جالية إسلامية ، وأنه قد ابتنى بهـا عدد من المساجد ، وإذا علمنا أن غانه تقع عند منحنى النيجر فى المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال ، أدركنا كيف غلا الرواة فى تقدير حملة عقبة فى بلاد السودان ، ولم يكن من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان ، ومصب السنغال ، ومنحنى النيجر. على كل حال نستطيع أن نقبل هذه الرواية بشىء من التحفظ ، إذا عرفنا أن ديار السود كانت أكثر امتدادا نحو الشمال[1] ، وأن قبائل الملثمين لم تكن قد أوغلت فى ساحل المحيط بعد ، فليس ببعيد أن تكون مملكة غانة الزنجية قد بسطت ظلها شمالا حتى وادى نون ، فيكون عقبة حين غزا وادى نون — على ما بينا — قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان .

ومهما يكن من شىء ، فإن عقبة كان أول من حمل أهل اللثام على الاسلام ، وأول من ارتاد هذه الديار النائية من العرب ، وأول من فتح هذا الطريق أمام تجار العرب الذين بدءوا يتدفقون إلى هذه الديار ، واتخذوا مدينة[2] أزقى قاعدة لهم ، وبدأوا يخترقون الصحراء إلى أودغشت حاضرة مسوفة ، ولعلهم كانوا ينظمون حملات مسلحة تعاونهم صنهاجة بقصد جلب الرقيق من بلاد السودان ، وحمله إلى المغرب الأقصى للاتجار فيه ، نعم لقد مهد عقبة الطريق أمام خلفائه لينشروا الاسلام ، حتى أدرك الاسلام أواسط أفريقية[3] .

ولكن عقبة ما كاد يدرك تهودة فى طريق عودته ، حتى انقضت عليه جموع البرانس بقيادة كسيلة الأوربى ، فأوقعت به ، واستشهد عقبة ومن معه

---

(١) R. Basset: Mission au Senégal p. 446.

(٢) آزقى من بلاد مسوفة ولمطة وهى أول مراقى الصحراء ومنها إلى سجلماسة ١٣ مرحلة ومنها إلى نول ٧ مراحل . الادريسى ص ٦٠ .

(٣) De la Chapelle ; Hésperis 1930, tome XI, p. 24.
Demombyne : Masalik p. 311.

من جند المسلمين ، وكادت تضيع الجهود التى أنفقها ، وارتدت قبائل البربر ، وزحف كسيلة إلى الشرق متجاوزا المغرب الأقصى ، وانقض على افريقية ودخل القيروان[1] .

ولم يستطع حسان بن النعمان أن يهزم كسيلة نهائيا ، إنما أقصاه عن القيروان وعن افريقية ، ولم يشأ أن يجاوزها مغربا خوفا من أن يصيبه ما أصاب عقبة ، ولكنه أصلح الأحوال بافريقية ، وتقرب من أهل البلاد ، وعمل على نشر الإسلام وبدأت القيروان تظهر ، وتعلو كلمتهـا ، وتوطدت دعائم الإسلام فى أفريقية نهائيا[2] . ولم يستطع العرب أن يوغلوا فى المغرب الأقصى مرة أخرى ، إلا بعد أن استطاع زهير بن قيس أن يهزم كسيلة عند ممس ، وأمعن العرب فى تعقب البربر المهزومين حتى وادى ملوية ، بل أوغلوا حتى طنجة[3] فكأن زهير بن قيس قد أخضع البرانس ، وقتل كسيلة ، وفتح الطريق للاسلام ليعيد الكرة فى المغرب الأقصى .

فلما استقامت الأحوال لخلفاء بنى أمية ، واستطاعوا فى عهد عبد الملك إبن مروان ، أن يقضوا على الفتنة المفرقة لصفوف المسلمين ، استأنفت الفتوح فى إفريقية ، وراح موسى بن نصير يترسم خطا عقبة بن نافع ، ويتم الرسالة التى كان قد بدأها ، فقاد جحافل المسلمين إلى المغرب الأقصى مرة أخرى ، وقد سلك نفس الطريق الذى سلكه عقبة ، أوغل فى إقليم الريف حتى أدرك طنجة ثم انحدر إلى سبتة ، ثم انحدر إلى إقليم السوس الأدنى ، ثم انحد على ساحل المحيط الأطلسى ، كما فعل عقبة تماما ، حتى أدرك وادى درعة ، وتافللت[4] ، وراح يعمل على إخضاع القبائل التى تنكرت للاسلام غب مصرع عقبة .

---

(١) ابن عذارى : البيـان المغرب جـ ١ ص ١٥ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ص ٣٦ ، ابن عذارى : ــ البيان جـ ١ ص ٢٣ .

(٣) المالكى : الرياض ص ٣٠ ، ابن عـذارى : ــ البيان جـ ص ١٧ .

(٤) ابن عذارى : البيـان جـ ١ ص ٢٧ .

وقد نجح موسى حيث أخفق عقبة ، وذلك بسبب ما بذل الولاة السابقون من منالفة البرانس ، ومقتل كسيلة الأوروبى ، وتفرق شمل القبائل التى أيدته فى نضال العرب ومقاومتهم[١] . فلم يلق قبائل متحدة متساندة تقف أمامه صفا واحدا إنما وجد قبائل مبعثرة متفرقة أمكنه أن يقضى عليها ، أو يخضعها ، واحدة فواحدة ، هذا إلى أن إقليم الساحل كان قد تم إخضاعه من قبل ، وانتشر الاسلام فى ربوعه وقضى على آثار المقاومة البزنطية فيه ، كما أن إفريقية كانت قد تمهد أمرها ، وتم إسلامها وأخذت قبائلها تشترك فى جند الفاتحين ، وتظفر بما يظفرون به من أسلاب وغنائم .

ولكن موسى بن نصير كان أبعد نظرا من عقبة بن نافع ، فلم يكن قائدا فحسب ، إنما كان مصلحا وسياسيا فى نفس الوقت ؛ فقد قرب البربر إليه وحببهم فى الحكومة الجديدة ؛ فولاهم الأعمال ؛ وأشركهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد[٢] ؛ فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالفتهم قد يتمخض عن مكاسب مادية جمة ؛ فبدءوا يقبلون على الاسلام إقبالا عظيما . وكان نشر الاسلام يسير مع الفتح جنبا لجنب ، لأن موسى أحب ألا يكون إسلام البربر خوفا أو رهبة ، بل اقتناعا وحبا ، فأخذ يفقههم فى الدين وينشىء المساجد فى البلاد التى افتتحها ، حتى لقد أنشأ مسجدا فى أغمات هيلانة[٣] فى أقصى بلاد المغرب ، وقد بدأت بذور الثقافة الاسلامية تنبت فى هذه البيئة الجديدة ، وبدأ نبتها يزكو ؛ ويشب عن الطوق ، وأتيح للبربر أن يجنوا ثماره الطيبة بعد وقت غير طويل . وقد نجحت سياسة موسى نجاحا بعيد المدى ، فقد أصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوع يمينه . فما كاد يشرع فى فتح الأندلس حتى وجد البربر إلى جانبه ،

---

(١) Gautier :(op. cit.) p. 254.

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ص ١٢ .

يؤيدونه ، ويشدون أزره ، ويشاركون المسلمين فى هذا الجهاد المقدس . فلما تم فتح هذه البلاد تدفقت جماعات البربر اليها طمعاً فى الغنم أو حبا فى الجهاد ، ومنذ هذا الوقت نستطيع أن نقول دون تردد إن الإسلام قد توطدت أركانه فى بلاد المغرب الأقصى ، وبدأ يبسط ظله على السكان ، كما أن التحالف قد تم بين العرب والبربر بعد إسلامهم .

وإذا كان موسى قد أوغل فى فتوحه ، حتى بلغ وادى درعة ، وبلاد السوس ، فقد أوغل فى الأطراف الشمالية لمواطن الملثمين ، واتصل بهم ، ولعله قد ردهم إلى الإسلام بعد أن ارتدوا عنه عقب موت عقبة . ولكى يوطد للاسلام فى ربوع هذه القبائل أنشأ مسجداً فى أغمات ، هذه المدينة التى ستصبح من أهم مراكز الثقافة الاسلامية فى المغرب الأقصى ، وستلعب دوراً لا يقل عن دور مدينة فاس. وإذا كان موسى قد ولى البربر على الأعمال ، فهل يبعد أن يكون قد ولى بعض زعماء الملثمين أعمالا فى ديارهم على الأقل ، ويخيل إلينا أن الملثمين قد أقبلوا على الاسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعا فى المشاركة فى ما ينعم به العرب الفاتحون ، فلما تهيأ المسلمون لفتح الأندلس اشتركت فرق من صنهاجة فى جيش الفاتحين . لذلك لا يسعنا إلا قبول ما يذكره المؤرخون [1] من أن إسلام لمتونة تم فى هذا الوقت بالذات ، وأنهم أخذوا منذئذ يقبلون على الإسلام شأنهم شأن القبائل الأخرى .

وقد تابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة ، التى اتبعها من بث الدعوة إلى الإسلام بين صفوف البربر ، فان اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى ولى افريقية من قبل عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأقصى

---

(١) ابن الأثير ج٩ ص٢٥٩ ، ابن خلدون ج٦ ص١٨١ ، النويرى ج ٢٢ ص١٧٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٨ .

«ولم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم» على حد قول ابن عبد الحكم[1]. وأمده عمر بطائفة من خيار التابعين انتشروا فى البلاد يحضون الناس على الإسلام ، ويبصرونهم بشئون دينهم ، يقيمون الحدود ، ويحرمون الخمر ، ويحاربون المفاسد ، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا[2] .

ولم يغفل العرب أمر التوسع الحربى أيضا ، فان عبيد الله بن الحبحاب قد سير حبيبا بن أبى عبيدة ، فأوغل فى المغرب الأقصى ، حتى أدرك بلاد السوس الأقصى[3] ، بل قيل إنه أشرف على ديار الزنوج ، وقاتل مسوفة[4] . ولا ندرى لم حمل حبيب هذه الحملة الشعواء على قبائل الملثمين بالمغرب الأقصى ، هل كان ذلك لارتدادهم عن الإسلام مرة أخرى؟ يخيل إلينا أن هذا الأمر لم يكن الباعث الحقيقى على هذه الغزاة ، إنما أراد حبيب أن يرضى خلفاء المشرق وذوى الرأى فيه ، بطلب السبى والعبيد ، فقد روى المؤرخون أنه حمل من ديار الملثمين سبياً كثيراً[5] ، وأنه كان يثخن فيهم ليحمل عدداً كبيراً من الأسرى ، وكانت هذه السياسة الخرقاء مما ألب هذه القبائل وغيرها من قبائل المغرب الأقصى على عمال الخلفاء ، إلى جانب سوء سياسة عمر بن عبد الله المرادى عامل طنجة[6] ، الذى لم يحكم بين الناس بالسوية ، فساعد من حيث لا يدرى على إذكاء نار الثورة .

---

(١) ص ١٠٦ من طبعة (A. Gateau) بالفرنسية والعربية
"Ibn Abd Al-Hakam : Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne (Texte Arabe et Traduction Française avec une introduction et des notes).

(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٥٤ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٣٤ . دائرة المعارف: مادة السوس (Levi-Provençal) .

(٣) البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية — مادة « السوس » (E. Lévi - Provencal).

(٤) البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٠ .

(٥) ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٠ .

(٦) ابن عذارى : — البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨ .

وقد انبعثت شرارة الثورة من طنجة أول الأمر : أذكى الخوارج نارها ، وحملوا لواء المقاومة ، وحببوا بعض القبائل فى عقائدهم ، التى تنادى بالخروج على ولى الأمر . وهـذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن بلاد المغرب الأقصى قد اكتملت شخصيتها الإسلامية ، فأخذت تشارك الشعوب الإسلامية الأخرى فيما منيت به من فرقة مذهبية ، ففشت مذاهب الصُّفْرية التى تنادى بأن الامامة ليست مقصورة على العرب بل يشترك المسلمون فيها على السواء ؛ حتى أن جمهور الثوار قد بايعوا ميسرة السقاء المطغرى [1] بالخلافة فى مدينة طنجة .

وعمت الثورة بلاد السوس الأدنى أول الأمر ، ولـكن ما لبثت أن عمت سائر جهات المغرب الأقصى ، ويخيل الينا أن قبائل الملثمين التى كانت حانقة على ما اقترفه حبيب بن أبى عبيدة ، قد أيدت جمهرة الثوار ، ولم تستطع الخلافة الأموية أن تحسم هذا الداء العضال ، الذى أخذ يستشرى يوماً بعد يوم . فان جند الأندلس لم يستطيعوا العبور إلى العدوة المغربية للمشاركة فى إخماد الفتنة ، كما أن الجهود التى بذلها خالد بن حامد الفهمى، وكلثوم بن عياض باءت بالإخفاق، وامتد لهب الثورة إلى افريقية ،واشترك فيها البرانس بزعامة عبد الملك بن سكرديد ، وسقطت القيروان ، وعمت الفرقة ، وكاد سلطان العرب فى المغرب أن يقضى عليه قضاء مبرما .

وعلى الرغم من أن حنظلة بن صفوان قد استطاع أن يسترد القيروان [2] ، ويؤمن افريقية ، ويقر السكينة والهدوء فى ربوعها ، لم يستطع أن يرد الوحدة إلى ربوع المغرب ، فقد وضحت شخصية المغرب الأقصى وضوحا تاما ، وخرج عن طاعة القيروان ، وبدأ يقرر مصيره بنفسه ، وبعد أن اختفى نفوذ العرب من المغرب الأقصى أو كاد ، أخذ البربر يعتمدون على أنفسهم فى حل مشاكلهم حسب الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الدينية .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

فقامت في بلاد المغرب دويلات مستقلة ، تبسط كل نفوذها على منطقة معينة محاولة أن تقر السكينة في ربوعها ، وأن تؤمن أهليها ، حتى يستطيعوا أن يعيشوا في سلام وطمأنينة [١] ، فأقامت صنهاجة امارة باجة [٢] ، وأقامت هوارة صرح دولة بطرابلس [٣] ، واستقلت نفوسة بمدينة قابس ، واستولى بنو واسول على سجلماسة [٤] ، وأقاموا فيها امارة ظفرت بتأييد قبائل الملثمين الضاربة في نواحيها ، أما برغواطة الساحل فقد أقامت إمارة على رأسها صالح بن طريف . وبرغم هذه الفرقة ظلت الوحدة الثقافية على أشدها ، كما ظلت القيروان على اتصال بمدن المغرب الأقصى ، وظل العلماء يجوبون هذه الأقطار رافعين لواء العلم .

ورغم أن ولاة القيروان قد فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى فقد ظلوا يهتمون بشئونه ، ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات ، التي تربطه بافريقية ، فقد عمل عبد الرحمن بن حبيب على إقامة سلسلة من الآبار تصل بين واحات افريقية وبين أودغشت بصحراء المغرب الأقصى [٥] ، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة الحكيمة أن يعبروا الصحراء لأول مرة ، وأن يمعنوا في نشر الإسلام في ربوع صنهاجة الجنوب أهل اللثام الضاربين في جوف هذه الصحراء . واستطاع حفيد عقبة هذا أن يتم ما بدأه جده منذ نصف قرن تقريباً ، فأصبح التجار يتصلون بديار الملثمين ، وبلاد السودان عن طريقين : طريق ساحل المحيط ، وطريق الصحراء ، الذي أصلحه عبد الرحمن بن حبيب ، وأصبحت القوافل أكثر جرأة على ارتياد هذا الطريق ميممة شطر غرب افريقية ، وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة ، إذ عملت على تسرب الاسلام إلى ديار صنهاجة عن طريق آخر غير الطرق المألوفة من قبل .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ .
(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .
(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٥ .
(٥) De la Chapelle : Hesp. 1930, T. XI, pp. 56—57.

واستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يضمد جروح افريقية بعد أن أثخنت فيها ثورة الخوارج حتى كادت تأكل الأخضر واليابس ، فنشر السلام والطمأنينة فى ربوع البلاد[1] ، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر ، كما بسط سلطانه غربا حتى تلسمان بل حاول غزو صقلية[2] ، وأغارت قواته على جزيرة سردانية . وبرغم ما انتاب العالم الإسلامى من فتن بعد سقوط الخلافة الأموية ، وقيام الخلافة العباسية ، ظلت السكينة ضاربة بجرانها فى ربوع البلاد ، بفضل سياسة هذا الوالى الحكيم . وقد استطاع الأغالبة من بعده أن يتموا الجهود التى بذلها ، فتألق نجم الحضارة فى افريقية[3] ، وغدت القيروان كعبة القصاد من كل فج . وقد استطاعت الإمارات التى انتشرت فى المغرب الأقصى أن تتعاون فيما بينها : فأظلت المغرب السكينة التى أظلت أفريقية ، ومضى تيار الثقافة الإسلامية فى طريقه المرسوم .

وقامت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى بنفس الدور الذى قام به الأغالبة فى أفريقية ، فاستطاعوا أن يوحدوا البلاد تحت لوائهم ، وأن يقروا السكينة والطمأنينة فى ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شمله ، وتأتى على ما بذل من جهد فى سبيل تنظيم شئونه وإتمام إسلامه ، وكان لانتساب الأدارسة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة الضاربة فى المغرب الأقصى ، فظفروا بتأييد السكان على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ، فقد أيدهم البتر ، وأيدهم البرانس[4] ، وأيدهم المصامدة ، ونجح إدريس حيث أخفق غيره من العرب ، واستطاع لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول وإقليم المراعى ، وبين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة . فلما نجح فى ذلك اطمأن أهل

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) ابن خلدون ج ٥ ص ٢١٣ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٣ ، Terrasse (op. cit.) p. 211

السهول ، واطمأن البدو ، وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل .

وقد نجح الأدارسة فى إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنباً إلى جنب[١] ، واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة ، والجهود المتضاربة أن يوجهوا أبصارهم إلى حركة جهاد مقدس ، بقصد إتمام إسلام البلاد ومحاربة العقائد الشاذة ، والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية المنتشرة بين قبائل المغرب الأقصى[٢] ، فانقضوا على المصامدة يردونهم إلى حظيرة الإسلام ، وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان ، و بسطوا نفوذهم على إقليم الريف ، وعلى إقليم مكناس وفاس حتى منطقة الأطلس الوسطى ، كما فتحت بلاد نفيس ، وتامسنا[٣] ، وشالة[٤] ، وماسة ، وتادلة[٥] ، وأوغلوا فى كل فج يحاربون الشرك أينما كان .

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد فى تاريخ البلاد ، فقد أصبحت حاضرة للمغرب الأقصى ، يقصدها العلماء والتجار من كل صوب[٦] ، و بدأت مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان ، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة ، وتبث العلم فى ربوع ذلك القطر النائى ، وكان الأدارسة أنفسهم يذكون هذه الحركة المباركة بتأييدهم ، إذ لهم الفضل فى نشر اللغة العربية فى البلاد و إحلالها محل لغة البربر[٧] .

---

(١) Terrasse : (op. cit.) p. 11.

(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٢ ، الكتانى : الأزهار العاطرة الأنفاس ص ٢٨ ، الاتحاف ج ٢ ص ٢٦ ، ابن خلدون ج ٦ ص ٧ - ٩ .

(٣) بلدة برغواطة بالمغرب الأقصى . البكرى ص ٧٨ .

(٤) هى مدينة سلا الحديثة وهى من المواني الساحلية . الادريسى ص ٧٣ .

(٥) مدينة من مدن المغرب الأقصى قرب أغمات من بلاد السوس . الادريسى ص ٧٤ .

(٦) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف ج ٢ ص ٦ .

(٧) نفس المرجع والصفحة .

ماهو موقف الملثمين من هذه الأحداث الخطيرة ، التي بدأت تشكل تاريخ المغرب الأقصى ، وتكسبه الصبغة الإسلامية البحتة ؟. ذكر كثير من المؤرخين أن صنهاجة المغرب الأقصى بايعت إدريس ، وشدت أزره ، وأيدته[1] ، فليس ببعيد أن يكون الأدارسة قد ظفروا بتأييد صنهاجة الجنوب أهل اللثام ، ولعلهم اشتركوا في بيعة إدريس بن عبد الله ، وأيدوه حتى ظفروا بما ظفرت به القبائل الأخرى من نعمة الدولة الجديدة . ويذهب ابن خلدون[2] إلى القول بأن الإسلام ظهر في ربوع هذه القبائل لعهد المائة الثالثة ، وقد بينا كيف أن الجهود المتصلة التي بذلها عقبة وموسى وخلفاؤهما نشرت الإسلام في ربوع صنهاجة اللثام منذ عهد بعيد ، وإذا كان للأدارسة فضل فإنما يرجع هذا الفضل إلى إذكاء حركة الإسلام في بلاد المغرب الأقصى عامة ، فاشتد ساعد الإسلام ، وتمكن من نفوس هؤلاء القوم ، ولعل الثقافة العربية التي كانت تشع من مدينة فاس قد أصابت ديار الملثمين بقبس من نورها ، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريبا ، كما بسطوا نفوذهم أيضاً على النواحي الشمالية من ديار الملثمين ، وتخطى نفوذهم جبال درن ، وانتشر في إقليم الواحات ، وروى المؤرخون أن عبد الله بن إدريس أخضع لمطة الضاربة على ساحل المحيط ، وتولى عمل أغمات والسوس الأقصى ، وبلاد نفيس ، وصنهاجة الرمال[3] ، أعني صنهاجة اللثام الضاربة في منطقة سجلماسة . أما عمر بن إدريس بن إدريس فقد تولى تيجنساس وترغة[4] ، وخلفه ولده على في حكم هذه المناطق[5] .

---

(١) الجزنائي : ـ زهرة الآس ص ١٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣) أبو بكر بن محمد السيوطي المغربي : نسب بعض الصحابة الادريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة ـ ورقة ٩ (ب).

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢١٩ ، الروض الهتون ص ٢٨ .

(٥) روض القرطاس ص ٤٧ .

من ذلك يتبين أن مضارب الملثمين القريبة من جبال درن انضوت تحت لواء الأدارسة ، وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، يولون عليها الولاة ، ويخضعونها للحكومة المركزية فى فاس ، ولذلك لن نتردد فى القول بأن إسلام صنهاجة اللثام الذى بدأ فى عهد عقبة قد اشتد وتأكد فى عهد الأدارسة ، ووضح إسلام أهل اللثام وضوحاً تاما فى القرن الثالث الهجرى ، على ما ذهب إليه ابن خلدون[1] .

وكان إسلام قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى ذا أثر بالغ فى تاريخ هذه القبائل ، وتاريخ المغرب والسودان . فقد تمخض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل الملثمين جميعها بزعامة لمتونة ، وذلك بفضل الجهود التى بذلها الزعيم اللمتونى تيولوتان بن تيكلان[2] ، الذى أسلم وحسن إسلامه ، وأكسبه دينه الجديد القوة التى مكنته من إتمام هذا التوحيد ، فلما تم هذا التحالف كان على القبائل المتحالفة أن تعد العدة لتوسع جديد ، إما صوب الشمال باختراق نطاق جبال درن ، والإغارة على سهول المغرب الأقصى الخصبة ، أو بالتقدم صوب الجنوب .

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها ، فإن دولة الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى كانت لا تزال بحيث تستطيع الاحتفاظ بما فى يدها ، ورد أى عدوان يأتى من الجنوب ، كما أن قبائل زناتة المؤيدة للدولة الإدريسية كانت تجوس فى هضاب المغرب الأقصى وتقف لقبائل الملثمين بالمرصاد لتحول بينها وبين التقدم صوب الشمال[3] ، هذا إلى جانب قبائل مصمودة القوية المحاربة التى كانت لا تزال فى أوج قوتها ، وكانت مستعدة للدفاع عما بيدها من

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ . Julien p. 376. De la Chapelle p. 50

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨١ — ١٨٢ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٧ .

(٣) Terrasse : (op. cit.) p. 211.

أرض خصبة ، وأن ترد أى عدوان يفكر فيه البدو الضار بين جنوب جبال درن ، فلم يبق أمام الحلف الجديد إلا أن يتوسع صوب الجنوب ، وقد حدث هذا فعلا . ومما أذكى تيار هذا التوسع أنه كان بقصد الجهاد فى سبيل الإسلام ، والعمل على نشره فى ربوع القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب[١] ، وكأن القبائل الملثمة حديثة العهد بالإسلام أرادت أن تسهم فى حركة الجهاد المقدس ، وأن تدلى بدلوها فى الدلاء .

وفى هذا العصر كانت مملكة غانة الزنجية قد بلغت أوج قوتها ، وعنفوان توسعها ، حتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله « كانوا أعظم أمة وأضخم ملك[٢] » امتدت منطقة نفوذهم من منحنى النيجر جنوبا حتى مدينة أركى فى الشمال ، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة قرب وادى نون[٣] . ولكن كان من حسن طالع هذا الحلف الصنهاجى الوليد ، أن دبت عوامل الضعف فى هذه المملكة الزنجية الضخمة فى هذا الوقت بالذات ، فقد روى المؤرخون[٤] أن هذا البناء الضخم انهار فجأة أمام ضربات الملثمين المتقدمين من الشمال ، ويقال فى تعليل ذلك ، أن شعب صوصو[٥] النازل إلى الجنوب من ديار غانة أفلح فى طعن هذه المملكة من الخلف ، والإغارة عليها فى الوقت الذى أثخنتهم سيوف الملثمين من الشمال .

ويقال فى تعليل ذلك أيضا أن المعركة كانت بين الاسلام والشرك ، بين شعب ألهب الإسلام حماسته ، وجد فى طلب الاستشهاد ، دفاعا عن الدين الجديد

---

(١) Terrasse : (op. cit) p. 211.

(٢) ابن خلدون : ــ العبر جـ ٦ ص ١٩٩ .

(٣) Cooley : Negroland p. 19.

(٤) الأدريسى ص ٢٩ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ١٩٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٣ . Cooley, p. 71

(٥) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٣ . Cooley, p. 71.

وشعب زنجي من عبدة الأصنام ، فلم يكن مستغرباً أن ينجح الحلف الملثم نجاحا بعيد المدى ، وأن يثخن فى ديار غانة ، وأن يردهم صوب الجنوب ، وأن يمضى قدما فى توسعه حتى أصبح على مسيرة أيام من منحنى النيجر ، كما وضع يده على مدينة أودغشت ، وفرض الجزية على الشعب المغلوب على أمره [١] ، واتخذ هذه المدينة حاضرة له [٢] .

ويفيض المؤرخون فى وصف هذا الملك العريض ، الذى حققه زعيم صنهاجة اللمتونى ، فيقولون أنه كان مسيرة ثلاثة أشهر ، ويدللون على قوة هذا الملك الصنهاجي فيقولون أنه كان يركب فى مائة ألف نجيب [٣] . وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على هذه القوة الجبارة ، التى تمخضت عن هذا الحلف الملثم القوى. ويروى المؤرخون أن هذا الزعيم توفى عام ٢٢٢هـ ، وأن الملك قد استمر فى أعقابه حتى عام ٣٠٦هـ ، حين تفرق شمل الحلف ، وعملت عوامل الفرقة عملها ، فعدت صنهاجة على تميم خليفة تيولوتان ، فقتلته ، وتفرقت القبائل أيدي سبا [٤] .

ويخيل إلينا أن قبيلة جدالة كانت فى طليعة الفاتحين ، بدليل أن مضاربها أقرب مضارب الملثمين من دولة الزنوج . ولم تكد غانة تتحرر من ربقة قبائل الملثمين بعد تفرقها ، حتى عادت تبسط ظلها على مدينة أودغشت مرة أخرى ، [٥] ولكنها لم تستطع أن تسترد أملاكها السابقة بعد استقرار القبائل الملثمة فى البلاد التى تم فتحها ، ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت ، لأن ذلك معناه التحكم فى طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب وفى ذلك ربح طائل وثراء عريض .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٩ .

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 213.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٧ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ — ١٨٢ ، De la Chapelle 1930, t.XI., p. 29

Barth (op. cit.) Vol. IV, pp. 580—581.

(٥) Terrasse : (op. cit.) p. 213.

١١ — ظهور الزناتيين فى المغرب الأقصى :

فى الوقت الذى شغلت فيه صنهاجة الجنوب بمدافعة غانة ، كانت الأمور فى بلاد المغرب تجرى فى صالح صنهاجة الجيل الأول ، النازلة فى افريقية ، فقد قامت الدولة الفاطمية ، وحالفتها كتامة ، وصنهاجة من أول الأمر ، وسارتا فى ركابها ، وبدأت الدولة الجديدة تتوسع صوب المغرب ، كما تحفزت الدولة الأموية فى الأندلس للنزال ، وبدأ الفريقان يتخذان المغرب الأقصى ميدانا للصراع فيما بينهما طمعاً فى الغلبة والسيادة .

وفى الوقت الذى كان هذا الصراع على أشدة بين الفاطميين ، وأحلافهم من زناتة ، استطاعت صنهاجة الجنوب أن تتحد مرة أخرى ، ولا ندرى الظروف التى أدت إلى هذه الوحدة ، إنما يخيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن قبائل الملثمين شعرت بأنها بين خطرين داهمين ، خطر فى الشمال بسبب اصطراع القوى السياسية فى المغرب ، وخطر فى الجنوب ناجم عن سيطرة غانة على طرق التجارة ، التى هى عصب الحياة لهذه القبائل ، فقد ذكر المؤرخون[١] أن لمتونة استطاعت بزعامة الأميرتين يروتان بن ويسنو أن تلم شعث الملثمين مرة أخرى ، ويخيل إلينا أن ذلك تم حول سنة ٣٥٠ هـ ، فإن ابن حوقل[٢] طوف بديار الملثمين فى ذلك الوقت تقريبا ، ودخل مدينة أودغشت ، ووصف مبلغ قوة ذلك الحلف الجديد ، الذى عاد يتخذ هذه المدينة حاضرة له مرة أخرى ، بعد أن أقصى عنها عدوان غانة ، وعادت صنهاجة اللثام تبسط ظلها من جديد على الأقاليم الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر فى الجنوب . ولكن الصراع لم تهدأ ثائرته ، إذ كانت غانة بالمرصاد ، فاستردت أودغشت مرة أخرى ، وتفرقت قبائل

---

(١) ابن حوقل : المسالك ص ٧١ ، البكرى : المغرب ص ١٥٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) ابن حوقل : المسالك ص ٧١ ، Barth : (op. cit.) Vol. IV, p. 580

الملثمين[١] ، وأظلها القرن الخامس وهى متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان ، حتى قدر لها أن تستعيد وحدتها ، وتسترد مكانتها تحدوها آمال جديدة ، وتدفعها بواعث أخرى ، وأهداف سامية .

وفى ذلك الوقت بالذات كانت زناتة وأحلافها من قبائل البُتْر صاحبة السيادة على المغرب الأقصى ، فقد كان بنو خزرون ينزلون بسجلماسة ، ويتحكمون فى مسالك الصحراء وكان المغراويون يسيطرون على إقليم فاس ، ويمدون نفوذهم إلى إقليم الساحل ، أما بنو يَفرْن فكانوا يبسطون ظلهم على منطقة سلا[٢] ، عدا كثير من البطون البترية التى كانت تنتشر فى هذا الإقليم وتظفر بمعونة هذه الإمارات الثلاث .

ويحق لنا أن نسأل ، كيف تم لزناتة وأحلافها من البتر السيطرة على المغرب الأقصى على هذا النحو ؟ . نحن نعرف أن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنا لها ، ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها ، وكانت فى الواقع تشطر الوطن الصنهاجى شطرين : شطر شرقى ، وآخر غربى ، كما كانت بطونها تضرب فى صحراء افريقية جنوب تونس وسفوح الأوراس والهضاب العليا ونطاق المراعى[٣] .

كانت أوطان صنهاجة وزناتة متجاورة مختلطة ، والعداء بينهما معروف ، وهو صورة من ذلك العداء التقليدى بين البرانس والبُتْر ، ذلك العداء الذى عرفه تاريخ المغرب منذ القدم ، عرفه الرومان[٤] ، وعرفه العرب بعد فتحهم المغرب ، ولعب فى التاريخ الإسلامى فى العصرين الأموى والعباسى دورا كبيرا ،

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٤ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣ ، الحلل الموشية ص ١٢ .

(٣) Gautier : (op. cit.) p. 197.

(٤) Ibid. pp. 234—239.

وترك فى حياة المغرب آثارا واضحة . ويرى جوتييه «أن البتر قتلوا المغرب ولعبوا دورهم المحزن كأتم ما يكون[1] » .

ولكن الأحداث التى وقعت بالمغرب فى القرن الرابع الهجرى قدر لها أن تبرز أهمية هذا النزاع ، وتخرج به من نطاق النزاع المحلى بين شعبين متعادين متباغضين إلى نطاق أوسع ، حين أكسبته صفة عالمية دولية ، فقد قامت الدولة الفاطمية فى أفريقية بمعونة قبيلتى كتامة وصنهاجة ، وظفرت هذه الدول الناشئة بتأييد البرانس ، ذلك التأييد الذى حقق أحلام المهدى كاملة ، وأتاح لجنود الفاطميين أن تتوسع إن شرقا وإن غربا ، كيفما طاب لهـا ، ولم تنظر القبائل الزناتية النازلة بالمغرب الأوسط إلى ذلك التأييد بعين الارتياح ، فارتابت فى الدولة الجديدة التى قامت على أكتاف البرانس ، ووقفت منهـا موقف الحذر ، ثم تجاوزت الحذر إلى الموقف الإيجابى ، فأغار محمد بن خزر الزناتى على مدينة تيهرت فى عهد المهدى[2] ، الذى استطاع أن يرد عدوانه ، وينزل به الهزيمة ، فلاذ بأذيال الفرار معتصما بالصحراء ، كما شق أبو هارون الهوارى عصـا الطاعة بطرابلس ، فحوصر وقضى عليه ، ولم تستطع زناتة أن تصمد طويلا أمام قوات هذه الدولة الفتية ، لأنها كانت تعتمد فى نضالها على مواردها المحدودة[3] ، وهى ليست شيئا إذا قيست بموارد الدولة الجديدة .

وما لبثت الدولة الفاطمية أن ناصبت الدولة الأموية بالأندلس العـداء من أول الأمر ، بسـبب العداء المعروف بين الشيعة وبين الأمويين[4] . فاعتقـد الأمويون بالأندلس أن الفاطميين بافريقية يريدون بهم شراً ، ويتربصون للايقاع بهم[5] ، والأخذ بذلك الثأر القديم . كما أن اتجاه الفاطميين إلى بسط سيادتهم

(١) Gautier : (op. cit.) p. 402.

(٢) Fournel : Les Berbéres, Vol. II, p. 95.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطـاس ص ٥٢ .

(٤) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, Vol. III, p. 14—21.

(٥) Ibid pp. 14—21.

على المغرب أول الأمر ، أشعر الأمويين بأن الخطر الذى كان بعيداً بافريقية أخذ يقترب من ديارهم ، زد على ذلك أن عبيد الله المهدى أرسل يؤيد ابن حفصون الثائر بالأندلس[1]، و يشد أزره نكاية فى أعدائه الأمويين .

ولم يكن عبد الرحمن الناصر يستطيع فى ذلك الوقت أن يتدخل فى شئون المغرب تدخلا مباشرا بسبب مشاغله فى الأندلس ، واشتغاله بمدافعة الفرنجة فى الشمال[2]، فلم يجد بداً من أن يؤيد الأمراء المغاربة الخارجين على الفاطميين ، فوجد فى الزناتيين والبتر أحلافا يطيعون ، وكأن البتر كانوا يتلهفون على مثل هذه الفرصة النادرة للثأر من الفاطميين وحلفائهم من البرانس ، فأقبلوا على الدعوة الأموية إقبالا منقطع النظير ، وأيدوها تأييداً مطلقاً ، ولبوا نداء عبد الرحمن الناصر عن طيب خاطر ، فدخل موسى بن أبى العافية فى طاعته وخطب له على منابر بلاده[3] .

وأحس الفاطميون أن الزناتيين أصبحوا خطراً جليل الشأن ، حين عمد عبد الرحمن الناصر إلى الاستيلاء على سبتة ، واتخاذها قاعدة لأعماله الحربية ، فأرسلوا إلى المغرب الأقصى حملة بقيادة ميسور الفتى ، استعادت فاس سنة ٣٢٣[4]هـ وهزم ابن أبى العافية هزيمة ساحقة ، ففر معتصما بالصحراء . كما أن الخليفة القائم ابن عبيد الله ، انقض على محمد بن خزر المغراوى فهزمه أيضاً ، واتخذ العداء بين الفاطميين والزناتيين صورة جديدة عنيفة ستترك أبلغ الأثر فى تاريخ البرانس والبتر معاً .

وأصبح واضحاً كل الوضوح أن البرانس فاطميون والبتر أمويون[5] ، وأمعن

---

(١) Dozy : Hist. des Musl. Vol. III, p. 17.

(٢) Fournel : Les Berbéres. Vol. II, p. 199.

(٣) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢١٧ ، روض القرطاس ص ٥٦ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٥٨ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص٢٦٣ ، مفاخر البربر ص٤ .

الصنهاجيون بدورهم فى تأييد الفاطميين أكثر من ذى قبـل ، فأقام مناد بن منقوش زعيم صنهاجة سلسلة من الحصون من أملاكه ، فاستطاع أن يرد عدوان الزناتيين عن إفريقيـة ، وكانت زناتة بالمغرب الأوسط لا تزال قوية ، وكانت تتربص بالغزوات الفاطمية العائدة من المغرب الأقصى ، فتنزل بها خسائر فادحة .

وقد بلغ الخطر الزناتى أشده فى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، الذى كاد يأتى على ملك الفاطميين بإفريقية ، والذى كان يرسل إلى بلاط قرطبة أنبـاء انتصاراته المتتالية ، يطلب العون والمساعدة . لـكن الفاطميين انتصروا وهزم الزناتيون ، ولاذت قبائل بنى يفرن ومغراوة بأذيال القرار[1] حين تلاشت قوة أبى يزيد ، ولم يعد يستطيع المقاومة .

وما كادت ذيول ثورة أبى يزيد تنتهى ، حتى عادت كتائب الفاطميـين إلى المغرب الأوسط ، غازية بقيادة جوهر ونـكلوا بالزناتيين شر منـكل ، وأصيبت الجبهة الزناتية بتصدع كبير ، فقتل موسى بن أبى العافيـة[2] ، وهزم جوهر بنى يفرن ، واسترد تيهرت ، وخرب مدينة أفـكان[3] حاضرة زناتة[4] ، فتفرق شمل بنى يفرن ، وتقلص نفوذهم ، وبدأت جموع زناتة بالمغرب الأوسط ترحل تدريجياً إلى المغرب الأقصى ، تلوذ به من غضب الفاطميين ، وانتقامهم ، وأمعن جوهر فى طلبهم ، ودخل المغرب الأقصى ، واستولى على فاس وسجلماسة وشتت جموعهم : وما كاد محمد بن خزر المغراوى يلم شعثه ، ويعاود الـكرة حتى تصدى له زيرى بن مناد الصنهاجى ، والتقى به فى موضع بين أشير وتلمسان[5] ، فأحرز نصراً عظيما ، فاضطر محمد بن خزر إلى أن يقتل نفسه بسبب عار الهزيمة

---

(١) Gautier : (op. cit.) p. 263

(٢) السلاوى : الاستقصا ص ٨٢ .

(٣) أفـكان من مدن المغرب الاوسط قرب تيهرت . الادريسى ص ٨٣ .

(٤) نبذ تاريخية جامعة ص٥ .

(٥) Gautier: (op. cit.) p. 375

واخترق الخط المغراوى ، وحوصر العدو ، وذاق اليأس والشدة ، وبذلك تمت السيادة البرنسية على المغرب الأوسط ، إذ لولا ذلك النصر ، لما بايع المعز صنهاجة ، ولما قدر لها أن تخلف الفاطميين فى ملك المغرب .

ولما حاول جعفر بن على الأندلسى أن يحيى موات مغراوة ، ويقودها للقاء البرانس من جديد ، خف إليه بلكين ، فهزمت زناتة ، وولت الأدبار متجهة صوب سجلماسة ، ولم يترك بلكين للعدو المنهزم فرصة يلتقط فيها أنفاسه ، بل راح ينتزع مدن المغرب الأوسط واحدة واحدة ، فاسترد طبنة[١] ، وبغاية[٢] ، والمسيلة[٣] ، وبسكرة[٤] ، وانقض على تلمسان فخربها[٥] ، وقتل من زناتة فى هذه المعارك جموعا لا تحصى ، وبلغ من شدة إمعان بلكين فى التنكيل بأعدائه من البتر أنه كان يقول : « لا أمان عندى لبربرى ركب فرساً أو نتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد[٦] » .

ولما كانت قبيلة بنى يفرن قد تفرق شملها بعد أن قتل جوهر زعيمها ، فإن مغراوة أيضاً ذهبت ريحها ، وأصبح المغرب الأوسط لأول مرة منذ الفتح الإسلامى ، خلوا من زناتة ، وتم بذلك القضاء على زناتة الجيل الأول بالمغرب الأوسط ، هاجرت فلولها إلى المغرب الأقصى ، مثل بنى يفرن ، ومغراوة ، وانتقل بعضهم إلى الأندلس[٧] ، ونستطيع أن نقول إن سيطرة صنهاجة على نواحى المغرب الأقصى قد بدأت من ذلك الوقت .

---

(١) طبنة بلدة فى طرف أفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب . أنظر : ياقوت ج٣ ص٥١٥ .

(٢) مدينة كبيرة فى أقصى أفريقية بين مجانة وقسنطينة . ياقوت ج ١ ص ٤٧٣ .

(٣) بالتفح ثم الكسر والياء ساكنة ولام .

(٤) بسكرة بكسر الباء بلدة فى المغرب من نواحى الزاب بينها وبين قلعة حماد مرحلتان . ياقوت ج ٣ ص ٦٢٥ .

(٥) نبذ تاريخية جامعة ص ٨ .

(٦) مفاخر البربر ص ٨ .

(٧) Terrasse : (op. cit.) p. 159.

وفى ذلك الوقت أيضاً كانت الدولة الأموية فى عهد الحكم المستنصر قد تخلصت من أكثر متاعبها ، بحيث تستطيع التدخل فى شئون المغرب الأقصى ، لمد يد العون لزناتة والبتر ، التى كادت أن تفنيها جهود الفاطميين والزيريين . وقد انتهز الحكم المستنصر فرصة اشتغال بلكين بشئون المغرب الأوسط ، فقضى على الحسن بن كنون الإدريسى حليف الفاطميين ، وبذلك عاد المغرب الأقصى إلى طاعة الأمويين ، وراحت جموع زناتة الفارة من المغرب الأوسط تمعن فى تأييد حلفائهم الأمويين ، وتتهيأ للقاء البرانس إذا حدثتهم نفسهم بالعدوان على المغرب الأقصى .

ولم تخن بلكين شجاعته ، بل انقض على المغرب الأقصى ، لينال من زناته فى عقر دارها الجديدة ، فلعله يستطيع القضاء عليهــا ، فيستريح من شرها ، وقد استرد فاس ، وسجلماسة[1] . هزم البتر أقبح هزيمة ، ولاذوا بالفرار معتصمين بسبتة ، ليكونوا على مقربة من القاعدة الأموية ، لتحمى ظهرهم ، وتقيهم شر الصنهاجيين . وكان الأسطول الأموى على استعداد للدفاع عن سبتة ، إذا هم بلكين بالانقضاض عليها ، ولكن جهود بلكين لم تستطع أن تستأصل الخطر الزناتى من المغرب الأقصى تماما ، فلم يكد يعود أدراجه حتى علم أن بنى خزرون قد استولوا على سجلماسة ، وتوفى قبل أن ينجح فى ردهم على أعقابهم .

وقد استطاع المنصور بن أبى عامر بعد وفاة بلكين أن يتحلل من الاتفاق ، الذى كان قد أبرم بينهما ، وأصبحت الدولة الأموية مطلقة اليد فى شئون المغرب الأقصى ، وأصبح ميدان المغرب هو الميدان الذى يستطيع المنصور فيه أن يبدى نشاطه ، ويظهر مقدرته ، ويعمل على تأييد حلفائه من زناتة ، بقدر ما يستطيع .

ويبدو أن جهود المنصور بن عامر كللت بالنجاح ، فقد استطاع رجل من بيت محمد بن خزر أن يجمع كلمة مغراوة ، وأن يلم شعثهــا ، واتجه صوب فاس

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٦٧ .

واستولى عليها[1] ، كما حاول خليفة بلكين أن يدفع معراوة عما أرادته بفاس ، وسجلماسة ، ولكنه ارتد على أعقابه مهزوما ، وتأكدت سيطرة المغراويين بفاس ، وراحوا يدعون للخليفة هشام المؤيد ، بينما عمل زيرى بن عطية على بسط سلطانه على المغرب الأقصى دون منازع .

ولكن يبدو أن المنصور بن أبى عامر رأى أن الوقت قد حان ليعمل فى المغرب الأقصى بحرية تامة ، دون أن يعتمد على تأييد زناتة ، وحلفائها ، ويخضع هذه البلاد لاحتلال أندلسى مباشر ، لأن سياسة تأييد الزناتيين كانت تكلفه أموالا طائلة ، ولأن الخطر الصنهاجى على المغرب الأقصى بعد وفاة المنصور قد زال أو كاد ، وانشغل الزيريون بمشا كلهم الخاصة ، وانصرفوا عن استعادة سيادتهم على المغرب الأقصى ، هذا إلى ما كان من أمر تدخل زيرى ابن عطية فى شئون السيدة صبح زوج المستنصر ، وعمله على إحباط خطط المنصور ، فسير المنصور واضحاً الفتى عام ٣٨٧ هـ لقتال زيرى ، واحتدم النضال بين الزعيمين ، فكان شعار جند زيرى « هشام يامنصور » ، وشعار العامريين « يا منصور[2] » .

ولكن واضحاً هزم وارتد إلى سبتة ، فأرسل المنصور ولده عبد الملك لينضم إلى واضح ، واستطاعا أن يوقعا بزيرى بن عطية ، ودخل العامريون مدينة فاس ، ودعى للأمويين على منابرها . وأصبحت القوات الأندلسية نفسها تحتل المغرب ، وتوغل فيه ، وفر ابن عطية إلى الصحراء ، وحاول أن يغير على المغرب الأوسط ، ولكن الصنهاجيين كانوا له بالمرصاد ، فردوه على أعقابه خاسرا ، فلما توفى المنصور بن أبى عامر وخلفه ولده عبد الملك ، رد إلى المعز بن زيرى بن

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٤

(٢) ابن عذارى . البيان جـ ١ ص ٢٦٣

عطية حكم فاس عام ٣٠٧ﻫ على «أن يعطيه عدة من الخيل والسلاح يحملهـا كل سنة إلى قرطبة[١]».

ثم انقسم الصنهاجيون على أنفسهم فى عهد باديس بن المنصور، واستقل حماد بن بلكين بالمغرب الأوسط، وأمن المغرب الأقصى عادية بنى زيرى الصنهاجيين؛ واستطاع المعز بن زيرى بن عطية المغراوى وحلفاؤه الزناتيون أن يمكنوا لأنفسهم فى السيادة على المغرب كيفما طاب لهم، وخصوصا بعد أن شغل أهل الأندلس عن المغرب نهائياً فى حجابة عبد الرحمن بن أبى عامر، وأصبح المغرب الأقصى للبتر وشيعتهم لا ينازعهم فيه منـازع، وأصبح النضال بين صنهاجة البرنسية وزناتة البترية نضالا لا تحركه المطامع الأجنبية.

وكانت هذه الحروب الطاحنة مما أضعف من قوة الزناتيين وفت فى عضد البتر. فإن جهود الفاطميين، ثم الزيريين من بعدهم مزقت شملهم وشتت قبائلهم، وأقصتهم عن المغرب الأوسط، ولاحقتهم إلى المغرب الأقصى، فقضت على زهرة فرسانهم، ونخبة رجالهم، نعم خاض الزناتيون حربا استمرت قرناً من الزمان، لم يحالفهم النصر إلا قليلا، بل كانت الغلبة للبرانس، الذين استطاعوا أن يأخذوا ثأرهم كاملا.

وقد وصف ابن حوقل آثار هذه الفتن الطاحنة فى صفوف الزناتيين فقال «جميع هؤلاء البربر فى وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن ودوام القحط وكثرة القتل والموت[٢]». كما أن محالفتهم الأمويين كانت ذات نتائج بعيدة فى تاريخ الأندلس، فقد أخذوا يفدون إلى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى، وكان البرانس كلما هزموهم، أو نكلوا بهم، هاجرت بعض بطونهم إلى الأندلس، ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يغدقون عليهم الأعطيات، ويرحبون بمقدمهم، ويولونهم

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٦٨ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٦٨ .

الأعمال ، و يشجعونهم بكل الطرق الممكنة على الوفود إلى الأندلس . أشركوهم في الجيش ، واعتمدوا عليهم اعتماداً كبيرا فى حركة الجهاد المقدس فى الأندلس ، بل أصبحت قبائل البتر فى المغرب معينا لا ينضب يستمد منه الجيش الأندلسى حاجته بين الحين والحين ، لأن الخلفاء لم يكونوا يستطيعون الاعتماد على الجند المرتزقة اعتمادا تاما ، فأضعفت الهجرة قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى اضعافا كبيراً ، على حين صد الأمويين عن البرانس ، فأبقوا على قوتهم بالمغرب لم تمس بسوء .

وقد أمعن المنصور بن أبى عامر فى اصطناع البربر [1] ، لأنه كان يريد فى الواقع أن يجمع السلطة فى يديه ، فجند من البتر جموعا غفيرة ،وأغدق على زعمائهم وفرسانهم ، فوفدوا على الأندلس زرافات ، وشاركوا فى الحملات المتعددة التى قام بها ، والتى أبلى فيها البلاء الحسن . كل هذه الظروف قد فتت فى عضد البتر ، وأنقصت جموعهم ، وأصابت وحدتهم فى المغرب الأقصى بخطر جسيم .

أفنعجب بعـد ذلك ، إذا رأينا قبضة زناتة على المغرب الأقصى فى القرن الخامس الهجرى يصيبها الضعف ، وأن هذه القبائل عصفت بها الفرقة ، و بدت حكومتها بالمغرب ضعيفة هزيلة ؟؟ على أن هناك سبباً آخر يعزى إليه ضعف شأن البتر بالمغرب الأقصى فى ذلك العصر ، وهو سـقوط الخلافة الأموية ، وافتراق أمر الأندلس ، وضياع الوحدة الإسلامية فى شبه الجزيرة ، حين أصبح المسلمون شيعا وأحزابا متنافرين متحاربين متباغضين . فقد كانت الدولة الأموية تبسط ظلها على المغرب ، وتمد يد العون للقبائل الزناتية ، تجزل لها العطاء ، وتمد لها يد العون وتمنحها ما تحتاج من مال لتنفيذ مشاريعها ، وتقف إلى جانبها إذا عدا عليها البرانس ، فكأن هذه القبائل المتنافرة كانت توحدها وحدة الولاء للخليفة الأموى ، والدخول فى طاعته ، فكانت هذه الأمارات فى الواقع تدعو لهشام على منابرها ، وتدين بالطاعة والولاء للبيت الأموى .

---

(١) Dozy : Histoire, Vol. III, p. 184.

فلما سقطت الخلافة تفرق شمل المغرب[١] ، كما تفرق شمل الأندلس ، وعدمت الوحدة ، التى كانت تمد رواقها على هذه البلاد ، ووجدت القبائل الزناتية نفسها حرة طليقة تعاود سياستها القديمة ، سياسة الاغارة والعدوان ، فانقسمت السلطة على نحو ما بينا بين امارات بترية ثلاث متباغضة متحاربة فيما بينها . وقد صور المؤرخون مدى افتراق الكلمة فى المغرب الأقصى غب تدهور الخلافة الأموية بعد هشام المؤيد أصدق تصوير ، ووصفوها أبلغ وصف ، فقد قيل « انخرمت الامامة ، وتفرقت الجماعة ، وانهدمت الدولة المروانية ، وصار أمر الناس بجزيرة الأندلس شيعا ، ولما كانت الطاعة بالأندلس واحدة ، و إمامتهم واحدة ، تشتت الناس بالمغرب كفعلهم بالأندلس ، وانتزى بعضهم على بعض[٢] » .

يضاف إلى ذلك ، ما عرف به البتر فى تاريخهم الطويل من حب النقلة والترحال وافتراق الكلمة ، فلم تستطع القبائل البترية أن تتحد فيما بينها لتكون حلفا قويا يستطيع أن يصمد أمام الأخطار ، أو تكتسب له صفة الدوام[٣] ، هذا على النقيض مما عرفت به صنهاجة من حب الاستقرار ، والتعلق بأسباب الحضارة ، والوحدة التامة بين قبائل الحلف الواحد ، بل إن الوحدة والتفاهم كانا على أتم ما يكون بين صنهاجة افريقية ، وصنهاجة الصحراء ، رغم بعد الشقة ، واختلاف الظروف . فلم تستطع قبائل البتر فى المغرب الأقصى والحاله هذه أن تتحد لمواجهة الخطر المشترك ، بل سادتها شرعة الأسماك ، وعدا القوى على الضعيف ، فقد أغار أمراء فاس على سجلماسة ، وأغار أمراء سجلماسة على فاس[٤] ، ولم تستطع زناتة

---

(١) Marçais : Les Arabes pp. 20–21.

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٦٤ ، مفاخر البربر ص ٤١ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧٨ .

(٣) Marçais : Les Arabes p. 21.

(٤) مفاخر البربر ص ٤٠ — ٤٢ .

أن تنتهج سياسة بربرية ذات شخصية مستقلة . بل كانت دائما صنيعة غيرها ، وألعوبة فى أيدى الدول المتنافسة على السيادة بالمغرب [(١)] .

ويبدو أن روح البداوة ، غلبت على الإمارات التى كونتها زناتة بالمغرب الأقصى ، فلم تنجح فى إقامة نوع من الحكومة المنظمة المستقرة ، التى تؤلف بين طبقات السكان على اختلاف مشاربهم ، فتضمن تعاونهم فى سبيل المصلحة العامة [(٢)] ، بل كان كره الزناتيين الاستقرار أكبر عقبة فى سبيل إقامة نوع من الحكومة المنظمة ، فهم من هذه الناحية أكثر شبها بعرب بنى هلال ، الذين قوضوا بناء الدولة الصنهاجية ، وأخفقوا فى إقامة نوع من الوحدة ، بل أقاموا امارات متنازعة متنافرة . لم يستطع الزناتيون إذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار ، والبدو أصحاب المناطق الرعوية ، كما فعل الأدارسة من قبل ، انما أفلحوا فى إقامة حكومات تتسم بميسم الضعف والقسوة ، حتى رماهم المؤرخون [(٣)] بكل نقيصة ، فقال صاحب البيان « جرت أمور وخطوب لا يحسن ذكرها لشناعتها ، إن الدول إذا أدبرت فكل ما يجرى فيها يقبح ذكره [(٤)] » .

١٢ — اضطراب الأحوال الاقتصادية :

وقد اضطربت الأحوال الاقتصادية فى المغرب الأقصى ، إلى جانب اضطراب الحياة السياسية على النحو الذى عرضنا له . ذلك أن الفتن المستمرة ، والثورات المتصلة ، والحروب غير المنقطعة ، لم تتح للبلاد نوعا من الهدوء

---

(١) Terrasse : (op. cit) p 175.

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 177.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٦٨ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٩٧ .

(٤) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٦٤ .

والاستقرار ؛ والاستقرار كما نعلم لا بد منه ليتوفر السكان الانتاج ، ويطمئن الزارع إلى زراعته ، والصانع إلى صناعته ، والتاجر إلى تجارته ؛ فلما عدم الاستقرار على هذا النحو قل الانتاج ، واضطربت الأوضاع الاقتصادية فى البلاد ؛ لأن محور الحياة الاقتصادية فى هذه البيئة هو حسن التعاون بين المناطق البدوية والمستقرة[١] ، لا يعتدى البدو على المستقرين الآمنين ، فيصرفونهم عن أداء رسالتهم وزيادة إنتاجهم .

وقد زال هذا التعاون فى القرن الخامس الهجرى ، بل ساد التنافر بين مناطق السهول، ومناطق الرعى ، ولم يستطع الزناتيون حماية أهل السهول زراع الأرض من عدوان البدو وغاراتهم[٢] ، فما بالك إذا كان الحاكمون أنفسهم هم مصدر هذه الاغارات على الرعية الآمنة المستقرة ، وهذا عكس ما حدث فى افريقية فى عهد بنى زيرى ، الذين أفلحوا فى إقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة من أن يزكوا نبتها ، وتؤتى الثمرات المرجوة ، فلما أغار عرب بنى هلال على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

وهنالك أسباب أخرى عملت على إشاعة الاضطراب فى الحياة الاقتصادية فى البلاد ، وهى أن التجارة بين أفريقية والسودان كانت تسلك طريقين : طريق فزان، و برنو ، وكانم ؛ وطريق سجلماسة ، وأودغشت ، ومنحنى النيجر[٣] . وقد حدث أن هجر الطريق الأول بسبب العواصف الرملية ، التى بدأت تجتاحه ، فخاف التجار على أنفسهم، وعدلوا عن سلوك هذا الطريق؛ فازدادت أهمية الطريق

---

(١) Terrasse : (op. cit.) pp. 203—205.

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 203.

(٣) اقرأ عن تجارة الصحراء فى العصور الوسطى

Charles de la Roncière : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age, C. I., pp. 71—108.

Cooley : The Negroland of the Arabs

الثانى[1]، وأصبحت سجلماسة على طرف الصحراء من الشمال ، وأودغشت على طرف الصحراء من الجنوب من أهم مدن المغرب وأوفرها مالا[2] ؛ فقصدها التجار من كافة الآفاق ؛ وكان هذا الطريق يمر بديار قبائل الملثمين فاحتكروه ، وفرضوا أنفسهم لحماية المتاجر التى تعبره من المغرب إلى السودان ، كما أن طريق المحيط الأطلسى زادت أهميته ، و بدأت القوافل تسلكه ، وهو يمر بديار جدالة ، ولمتونه ، فكانت النتيجة أن تحكمت قبائل الملثمين فى هذا الطريق الحيوى ، واحتكرت التجارة بين المغرب والسودان .

وكان هذا الاحتكار أول الأمر من نصيب زناتة ، التى استطاعت بعد أن حالفت العرب أن تضع يدها على هذه التجارة الرابحة ، ولكن الملثمين نازعوها هذا الأمر ، وانتزعوا هذه الموارد الضخمة من أيدى الزناتيين ؛ بل ناضلوا مملكة غانه ؛ وغيرها من الممالك الزنجية دفاعا عن هذه الثروة الضخمة ، ووضعوا أيديهم على مدينة أودغشت ؛ كما أن قبيلة لمطة بسطت نفوذها على المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادى نون ، وأنشأت مدينة نول لمطة التى أصبحت فى الواقع من أهم المراكز التجارية فى غرب أفريقية[3] ؛ وكان الملح من أهم السلع المتبادلة بين السودان والمغرب ، كان يحمل من بلدة أوليل بديار[4] جدالة إلى المغرب والسودان على السواء، وكانت القوافل تحمل من بلاد السودان التبر والصمغ والصوف والخرز[5] .

---

(١) Terrasse: (op. cit.) pp. 203—205.

(٢) De le Chapelle : Hésperis, 1930, T. XI, p. 59.

(٣) Demombyne : Masalik p. 200.

(٤) البكرى : المغرب ص ١٧١ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ ، أبو حامد الغرناطى : تحفة الألباب ص ٤١ — ٤٢ .

وكانت هـذه المتاجر تحمل إلى موانى المغرب ، ومنها تنقل إلى الشرق ، أو تحمل إلى أسواق أوربا [١] ، فلما وجدت زناتة أن هذه الموارد الغنية قد ضاعت منها ، فرضت المكوس الجائرة على تجار سجلماسة ، وعلى غيرهم من التجار [٢] ، الذين كانوا يجتازون أقليم المغرب الأقصى ، فأدى ذلك كله إلى اضطراب الحياة الاقتصادية ، وقلت موارد بيت المال فى الوقت الذى لم تعد فيه زناتة تعتمد على معونة بنى أمية فى الأندلس .

وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد ، وانقطعت المواد ، وكثر الخوف ، وتبدل الرخاء بالشدة ، فاتصل الجوع ، والغلاء ، وعدمت الأقوات [٣] ؛ حتى لقد قيل أن أوقية البر كانت تباع بدرهم [٤] . وقد روى المؤرخون [٥] صوراً غريبة لهذه الضائقة ، التى اجتاحت البلاد فى ذلك الوقت ، إذ قيل أن الزناتيين كانوا يقتحمون الدور ليستولوا على الطعام ، و يمثلوا بالنساء والأطفال ؛ وكانوا يستولون على أموال التجار بالقوة ، بل قيل أيضاً أنهم كانوا يقفون على جبل قريب من فاس ، فإذا رأوا دخاناً منبعثاً من منزل انقضوا عليه بحثاً عن الطعام [٦] ، فاتخذ الناس لأجل ذلك « مطامر تحت الأرض يطبخون فيها وغرفاً من غير أدراج تصعد بالسلاليم خوفا منهم » [٧] .

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٨٠ .

(٢) De la Chapelle : Hespéris 1930, T. XI., p 69.

(٣) ابن القاضى : جذوة الإقتباس ص ٢٠٩ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٢ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٢ ، جذوة الإقتباس ص ٢٠٩ ، جامع تواريخ فاس ص ٢١ .

(٦) المراجع السابقة .

(٧) المراجع السابقة .

وليس من شك فى أن هذه صورة قاتمة قد تكون فيها مبالغة ، لكنها على كل حال تصور لنا اضطراب الحياة الاقتصادية فى البلاد ، وتبرم الناس بالضائقة التى حلت بهم ، والمجاعة التى انتابتهم ، فليس بعجيب أن يتطلع الناس إلى الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء ، بتأييد أية قوة جديدة تخلصهم مما هم فيه من ضنك وشدة ، وقد جاء الخلاص من ديار الملثمين على النحو الذى سنعرض له فيما بعد .

١٣ — انتصار المالكية على الشيعة :

وقد تمخض القرن الخامس الهجرى أيضا عن أحداث أخـــرى هامة كانت ذات آثار بعيدة المدى فى تاريخ المغرب بوجه عام ، وفى تاريخ الدولة التى نحن بصدد التأريخ لها ، ذلك أن المالكية قد انتصرت ، وصمدت لما أريد بها وعمت المغرب بأسره ، وأصبحت فى نظر المغاربة مذهباً وعقيدة ووطنية . ولم تستطع المالكية أن تحرز هذا النصر ، وتظفر بهذا الفوز إلا بعد جهاد شاق وكفاح مرير ، ذلك أن الجهود التى بذلها العرب فى نشر الإسلام فى أفريقية والمغرب فى عهد حسان بن النعمان ، وخليفته اسماعيل بن أبى المهاجر[1] قد آتت أكلها ، فغدت القيروان عاصمة المغرب السياسية والثقافية ، وفد إليها التابعون والفقهاء والعلماء وتتلمذ عليهم كثيرون .

وأخذ البربر بعد أن انتهى دور الكفاح ، وجاء دور الاستقرار يقبلون على تفهم ذلك الدين ، الذى اعتنقوه ويفسرونه تفسيرا تقبله عقولهم ، وترضى عنه أفهامهم ، وكانت الجهود التى بذلها الولاة المتعاقبون ذات أثر بعيد فى شد أزر هذه الحركة المباركة وإذكاء جذوتها ، وأخذ نجم القيروان يتألق بمضى الزمن ، حتى غدت قبلة القصاد من كل فج ، وأخذت تنتشر ثمار نهضتها الجديدة فى أرجاء

(١) المالكى : رياض النفوس ص٣٦ ، الدباغ : معالم الإيمان جـ١ ص٦١ — ٦٢ ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٨، ٣٢، ٣٤ .

المغرب الأقصى قاصية ودانية ، فقامت حركة إسلامية مغربية مباركة[١] ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الناس رويدا رويدا .

ولكن الوافدين على المغرب من العرب جلبوا معهم العقائد الشاذة ، فوفدت جماعة من الخوارج أخذت تبث فى نفوس البربر بذور الخلاف والخروج ، وأخذ الإسلام فى بعض نواحى المغرب يجرى فى اتجاهات خطرة كادت أن تشوهه فى نظر المسلمين من البربر ؛ وكانت حركات خالد بن حميد الزناتى ، وثورة ورفجومة[٢] على عبد الرحمن بن حبيب ، وثورة أبى قرة اليفرنى فى تلمسان ، وأبى ميسرة البرغواطى استجابة لهذه العقائد الغريبة على أفهام المغاربة[٣] ، ووفدت المذاهب المختلفة إلى القيروان ، فقد غلب عليها مذهب الكوفيين ، ثم وفدت عليها الشافعية[٤] ، ومذهب داود ، ثم آوى إليها فريق من المعتزلة أهل الرأى ، والمغاربة أمام ذلك كله فى حيرة من أمرهم .

وقد وفد مذهب مالك إلى القيروان ، شأنه شأن غيره من المذاهب ، إذ رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقى مالك[٥] ، كما وفد عليها على بن زياد التونسى وابن أشرس ، والبهلول بن راشد[٦] ، ولكن لم يكن لهم القضاء أو الفتيا حتى جاء أسد بن الفرات ؛ أمام العراقيين بالقيروان كافة[٧] ، ووفد على ابن القاسم أمام المالكية بمصر ، فسمع منه ، ودون ما سمع فى كتاب سماه « الأسدية[٨] » ،

---

(١) Terrasse : (op. cit.) p. 109.

(٢) قبيلة من قبائل البربر .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٨ .

(٤) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥٢ .

(٦) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١ .

(٧) المالكى : رياض النفوس ص ١٨١ .

(٨) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٨ .

وعاد به إلى المغرب ، فانتشر ذكره فى الآفاق ، ورحل إليه الناس ، وتوافد عليه الكوفيون[1] أنفسهم ، ينهلون من علم مالك الذى رواه أسد ، ولكن أسد لم ينصرف إلى مذهب مالك وحده ، بل كان « يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وافق الحق لتبحره فى العلوم[2] » ، وكان يفسر المذهبين معاً ، ولكنه كان أكثر ميلا لمذهب مالك فقد قال « إن أردت الله ورسوله والدار الآخرة فعليك بقول مالك ، وإذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق[3] » .

ولكن المغاربة وإن أعجبوا بالأسدية ، وكلفوا بمذهب مالك ، إلا أنهم لم يقنعوا بما رواه أسد ، بل طلبوا المزيد حتى قيض الله لهم أبا سعيد سحنون بن سعيد ، الذى قدم القيروان سنة ١٩١ هـ[4] . ذلك الرجل الذى جمع فضل الدين والورع والعفاف والانقباض ، فمالت إليه الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ[5] ، وقد رحل إلى مصر ، ولقى أبا القاسم ، وسمع منه فقه مالك ، وقابل الأسدية عليه ، وجمع ذلك كله فى كتاب سماه « المدونة » طار ذكرها فى الآفاق ، وتناقلها الناس وحملت إلى الأندلس[6] ، وكان لها فضل توطيد دعائم مذهب مالك فى المغرب والأندلس ، بل أصبحت فى قوتها تضارع موطأ مالك .

وقد أصيب مذهب أبى حنيفة من جراء سحنون وفقهه وعلمه فى الصميم ، حتى قيل « ومحى الله عز وجل كتب أبى حنيفة من أفريقية ، محاها سحنون[7] ،

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٦٨٣ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ص ١٨١ ، وانظر M. Vonderheyden : La Berbérie Orientale sous la Dynastie de Benou-l-Arlab pp. 133-135.

(٣) القاضى عياض : المدارك جـ ١ ص ٦٨٣ .

(٤) الدباغ : المعالم جـ ٢ ص ٥٠ .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٦) المالكى : رياض النفوس ص ٢٦٧ ، ابن خير : الفهرسة ص ٢٤٠ .

(٧) المالكى : رياض النفوس ص ١٦٥ .

واستقر مذهب مالك بعد سحنون ، وشاع فى المغرب جميعه . نعم كان الصراع محتد ما بين مذهبين : مذهب أبى حنيفة ، الذى يعطى الرأى أهمية كبيرة ، ولا ينكر الاجتهاد ، ولا يحرم محبة السلطان ، أو تولى القضاء والفتيا[١] ، أو كما يقول أسد بن الفرات « إذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق[٢] » ، ومذهب آخر وهو مذهب مالك ، الذى كان أبغض الناس للمتكلمين والعراقيين ، وأشد الناس التزاماً لكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة الصحابة والتابعين[٣] ، وأكثرهم حرباً على القدرية ، حتى لقد روى عنه أنه أفتى بألا يصلى عليهم ، ولا تشهد جنائزهم ، ولا يناكحون ، ولا يصلى خلفهم ، ولا يحمل عنهم الحديث ، ولا يسلم عليهم ، ولا يعاد مرضاهم ، ولا تجوز مشاهدتهم[٤] ، أو بعبارة أخرى مقاطعتهم سلبياً و إيجابيا ، ومذهب مالك هو أكثر المذاهب عزوفا عن السلطان[٥] ، و بغضاً فى القضاء ، وزهداً فى الفتيا ، فقد كان مالك يقول « يجب على أهل العلم والفقه أن يدخل إلى ذى سلطان يأمره بالمعروف و ينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العلم على غيره لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك[٦] » .

فلما امتحن أهل المغرب بمحنة خلق القرآن ، وتفشت آراء المعتزلة والقدرية كان المالكيون أشد الناس لهم حربا ، وأكثرهم عنفاً فى مقاومتهم ، وامتحنوا فى سبيل ذلك ، فصبروا على الإيذاء[٧] ، وتمسكوا بالكتاب والسنة ، ونافحوا عنهما منافحة الأبطال ، حتى كتب الله لهم الظفر وأعز الله بهم الإسلام ورفع

---

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٧٩ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٦٨٣ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٥ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٦٩ — ٧٣ .

(٦) ترتيب المدارك ج ١ ص ٢٥٤ .

(٧) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٣٢ .

كتابه ، وسنة نبيه ، وهزمت المعتزلة ، حتى لم يبق لها بالقيروان رأى ولا أتباع ولم يجد الأمراء مفراً من النزول على رأى المالكية ، فلما أحبوا أن يولوهم القضاء والفتيا أعرضوا ، فأمعنوا ، حتى لقد كان الأمراء يشهرون فى وجوهم السيوف ، ويهددونهم بالقتل فى سبيل الرضا بالقضاء طمئنان الناس إلى عدالتهم ، أفنعجب بعد ذلك ، إذ كانت هذه السنة الحميدة ، وهذه التقاليد القويمة ، وهذا التمسك الشديد بالكتاب والسنة ، والتزام نصوص القرآن ، قد تردد صداها فى المغرب كله ، وفى السودان[1] ، بل فى الأندلس أيضاً . حتى لقد قال الحكم المستنصر ، وهو العالم الفذ — فى تفضل مذهب مالك « نظرنا طويلا فى أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنف فى أخبارهم إلى يومنا هذا ، فلم نر فى مذهب من المذاهب أسلم منه ، كان فيهم الجهمية والرافضة ، والخوارج ، والشيعة إلا مذهب مالك رحمه الله ، فأنا ما سمعنا أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشىء من هذه البدع ، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله[2] » .

ولكن المالكية ما كادوا ينتصرون فى هذه المعركة الأولى ، حتى خاضوا غمار معركة أخرى أعنف وأقسى ، فقد نجح الفاطميون فى إقامة دولة بإفريقية ، وراحوا يبسطون ظل عقائدهم فى كل ناحية[3] ، يسبون الصحابة ، ويفرضون على الناس أن يؤذنوا بحى على خير العمل ؛ حتى إذا تمكن نفوذهم من القيروان ناصبوا مذهب مالك العداء من أول الأمر ، وأعلنوها على فقهاء المالكية حربا شعواء ، لأن المالكية يفضلون الصحابة على على بن أبى طالب ، فقد روى أن هارون الرشيد سأل مالكا فقال « هل لمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفىء حتى قال لا « ولا كرامة ، قال من أين قلت ذلك قال

---

(١) الدباغ : المعالم ج ٣ ص ١٣٩ .

(٢) عياض : المدارك ج ١ ص ١٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨ .

قال الله تعالى « ليغيظ بهم الكفار » فمن عابهم فهو كافر ، ولا حق لكافر في فيء[1] ، فلم يجد القاطميون بدا من تحريم الإفتاء بمذهب مالك ، والحيلولة بين فقهاء المذهب و بين القضاء والفتيا[2] .

وقد توسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم ، ورفع لواء مذهبهم ، توسلوا بالمناظرة ، فعقدوا المجالس ، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان ، وأخذوا يناقشونهم الحجة ، ويقارعونهم بالرأى ، فما ازدادوا إلا تمسكا برأيهم ، حتى لقد قيل لأبي سعيد بن محمد الحداد ، اتق الله في نفسك فقال « حسبي من له غضبت وعن دينه ذببت »[3] ، حتى لقد شبهه أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة ، وعمد الفاطميون إلى إغداق المال والجاه ، فلم يجد ذلك النداء إلى قلوب المالكية سبيلا ، فلم يجدوا بداً من التنكيل والتعذيب ، فقد قال فقهاؤهم « إن من انتقص واحدا من نسل فاطمة فإنه مباح الدم[4] » فجلسوا في المساجد ومعهم الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم إلى التشريق ، فمن أجاب أحسنوا إليه ومن أبى حبسوه[5] ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك ؛ ضربوا الفقهاء والمؤذنين بالسياط[6] ، بل قطعوا لسان مؤذن نسى أن يقول حى على خير العمل[7] ، وضربوا الرقاب ، وصلبوا بعض الفقهاء أحياء[8] ، وصادروا الأموال ، وأخذوا

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٠٠ ، الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ٢٠٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٩٤ .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٥) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٢٥٠ (عن ابن الأثير) .

(٦) الدباغ : المعالم جـ ٢ ص ١٣٧ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٩٣ .

(٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٨٦ .

(٨) الدباغ : المعالم جـ ٢ ص ٢٤٤ .

أموال الأحباس[١] ، وأجلوا أهل الربط والحصون[٢] المتعبدين المنقطعين إلى الله بل افتنوا فى التعذيب ، فكانوا يبطحون الناس على ظهورهم ، ثم يأمرون السودان أن يدوسوهم بالأقدام ، حتى تزهق أرواحهم[٣] ، و بثوا العيون على الناس فى صلاتهم ينكلون بكل من لا ينصاع لأوامرهم أو يدخل فى دعوتهم[٤] . قد تكون هذه الروايات التى اعتمدنا عليها قد انتحلها أهل السنة المبغضون لبنى عبيد ، ولكنها على كل حال تبين كيف أن القاطميين أخذوا الناس بالشدة ، وعملوا بكل وسيلة على التنكيل بالفقهاء المالكيين .

وقد وقف المالكيون فى وجه بنى عبيد وقفة رجل واحد ، أفتوا بتكفيرهم لا تخطب لهم جمعة ، بل كل من خطب لهم على منبر يعتبر كافرا ، يقتل ولا يستتاب وتحرم عليه زوجه ، ولا يرث ولا يورث[٥] اعتبروا الفاطميين زنادقة لما أظهروه من خلاف الشريعة ، ونادوا بقتلهم حيث وجدوهم ، كما يقتل الزنادقة[٦] ، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا أيضاً ، نادوا بالمقاطعة السلبية ، وأشهروا فى وجوههم ذلك السلاح الماضى ، لا يؤمون لهم صلاة ، منعوا الناس من حضور صلاة الجماعة ، وقاطعوا الجنائز[٧] ، فأقفرت المساجد من المصلين ، وقاطع الناس قضاة الشيعة وعمالهم[٨] ، ورفضوا دفع الأموال ، بل إن فقيهاً ألف كتاباً فى تصحيح نسب بنى عبيد ، فقاطعه الناس ، فهـ من القيروان يلتمس النجاة بنفسه[٩] .

---

(١) الدباغ : المعالم جـ ٢ ص ٢٤٤ جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٢) عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٣٥٩ .
(٣) الدباغ : المعالم جـ ٢ ص ١٩٨ .
(٤) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤٣٩ .
(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٦) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥١٣ .
(٧) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٨٦ .
(٨) المالكى : رياض النفوس ص ٢١٧ .
(٩) عياض ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤٢٥ .

وقد انتشر تيار المقاومة فى المغرب كله ، وشق الفقهـاء فى كل مكان عصا الطاعة على الفاطميين ، وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية مطمئنة ، لأن قتيل الخوارج فى رأيهم خير قتيل [١] . قيل لأحدهم إن السيف ينتظرك ، فقال « الصراط أحد من من السيف ومن السلطان [٢] » ، يخير الواحد منهم بين الدخول فى طاعة العبيديين ، أو القتل فيختار القتل [٣] ، قال ابن التبان لدعاة بنى عبيد « شيخ ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه و يرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا ، لو نشرت اثنين ما فارقت مذهب مالك [٤] » . كانوا يفرون بمـذهبهم إذا استطاعو ، يعتصمون بالمقابر [٥] ، و يؤيدون كل ثائر ، انضموا إلى أبى يزيد مخلد بن كيداد حين خرج على الفاطميين برغم أنه خارجى النحلة ، لأنه من أهل القبلة ، على حين أن الفاطميين فى نظرهم زنادقة كفرة [٦] .

أمعن الفقهاء فى اصطناع هذه الروح العالية ، فلم يضعفوا أو يلينوا ، لم ينل منهم التعذيب أو القتل ، بل تركوا جيلا يعجب بهم ، و يتفانى فى الاقتداء بهم ، سموا فى نفوس الناس إلى مرتبة الشهداء والقديسين ، فنسبت إليهم الخوارق ، ونسجت حولهم أساطير وخيالات تمجد أفعالهم ، وتتغنى بجهادهم . وقد قدر لهم أن يظفروا آخر الأمر ، وأن تعلوا كلمتهم ، و يرتفع علم مذهب مالك فى عهـد المعز بن باديس الصنهاجى ، حين قتـل الشيعة بالقيروان وافريقية ، قتلوا أينما

---

(١) الدباغ : المعـالم ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٣١ .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٨ .

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٥١ .

(٥) الدباغ : المعـالم ج ٣ ص ٤٧ .

(٦) عياض : ترتيب المـدارك ج ٣ ص ٥٦٤ ، الدباغ : المعـالم ج ٣ ص ٣٧ ، ابن عـذارى : البيان ج ١ ص ٢٠٠ .

وجدوا [١] ، فى المغرب الأوسط ، أو فى المغرب الأقصى [٢] . فإمحت دعوة الإسماعيلية ، وتغلب مذهب مالك نهائيا ، لجب القدرية ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والإباضية ، والزندقة . كما تغلب على مذهب أبى حنيفة ، فأوغل إلى قلوب المغاربة ، فأقبلوا عليه إقبالا عظيما .

حدث هـذا فى القرن الخامس الهجرى ، فهل من أسباب نلتمسها لذلك النجاح العظيم ؟ هل من أسباب توضح لنا كيف أصبح هذا المذهب للمغاربة وطنيه وعقيدة ؟ كانت المالكية المعقل الذى عصم أهل المغرب من شرور الفتنة فى عصر كادت ريح الشر تعصف بالمجتمع ، صمدت المالكية للخارجية فأتت عليها ، وصارعت المعتزلة ، وانتصرت على العبيدين ، وحفظت على المجتمع وحدته وقوته ، وسلمته للأجيال التالية سليما معافى ، ومصداق ذلك ما رواه الرحالة ابن جبير حين قال « إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة وما سوى ذلك بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة أو شيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها [٣] » .

كما أن مقاطعة المالكية للسلطان وعزوفهم عن السير فى ركابه ، بل معارضتهم له فى كثير من الأحيان ، وأخذهم بالبأس والشدة صار نغمة محببة إلى قلوب أهل المغرب المعروفين فى طول تاريخهم بالنزعة الإستقلالية ، وميلهم إلى الانتقاض من كل سلطان أجنبى يفرض نفسه عليهم ، فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محبباً يرتاحون إليه ، كما أن الفقهاء المالكيين سموا فى نفوس المغاربة إلى

---

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٢٩٦ ، الرحلة التيجانية ص ١١٥ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٥ ، ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١ .

(٣) ابن جبير ص ٧٨ .

مرتبة الزعماء ، الذين يدافعون عن الضعفاء والمغلوبين ، ويعارضون الحكام في سبيل إعلاء كلمة الحق ، ويستشهدون في سبيل عقيدتهم ، فآمنوا بزعامتهم ، وارتبط في أذهانهم معنى الولاية بصورة الزعيم القومى ، والدفاع عن الحق ، وحماية الرعية من عدوان الحكام ، وإصلاح المفاسد ، فانتشرت فكرة الإيمان بالزهاد ، والأولياء ، ذلك الإيمان الذى مهد لقيام دولة المرابطين والموحدين [١] .

نعم اختفت الزعامة السياسية الحربية ، وحلت محلها زعامة أخرى دينية شعبية ، ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان . والمغاربة بطبعهم معروفون بالعصبية يتعصبون للشىء ، فيخلصون ، ويصلون إلى حد التضحية بأنفسهم في سبيل المبدأ الذى يؤمنون به ، كما عرفوا طوال تاريخهم بالشدة والتزمت والصلابة في الحق ، والمالكية تمتاز بالشدة في الحق ، والتزمت ، والتزام الجادة ، فكأنها وافقت طبيعة المغاربة ، ووجدت فيهم بيئة صالحة ، تنشر تعاليمها فيهم ، بل أمعن المغاربة في تعصبهم لمذهبهم المحبب ، فمن كان مالكيا قبلوه وأحبوه ، ومالوا إليه ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة [٢] ، وقد بلغ من شدة تعصبهم أن مغربياً جمعه الطريق بالحجاز برجل بغدادى ، وكان إذ ذاك يرى رأى مالك فقال البغدادى «روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كذا» فقال له المغربى «فيما أذكر مالك لا يرى ذلك» فقال البغدادى «شاهدت وجوهكم يا أهل المغرب تعارضون قول النبي بقول مالك [٣] » .

وبعد ، هذه قبائل قوية محاربة مفترقة الكلمة في انتظار زعيم يرد الوحدة إلى صفوفها ، وهذا مغرب سرت فيه الفوضى ، وأساء حكامه من زناتة السيرة

---

(١) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ١٤ م .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ م .

(٣) الخشنى : كتاب طبقات علماء أفريقية ص ٢١٤ .

حتى تبرم الناس ، وضاقوا ، وتاقوا إلى أن يغير الله أحوالهم ، وهذا مذهب مالك قد تألق نجمه ، و بسط رواقه على المغرب كله ، وسترى فى الباب التالى كيف اتحدت هذه القبائل ، لتقيم دولة عظيمة ، وكيف سقط المغرب الضعيف المتهاوى أمام ضرباتها القوية ، وكيف توطد مـــذهب مالك و بسط ظله حتى أدرك حوض النيجر .

الباب الثانى

توحيــــد صنهاجة

بزعامة عبد الله بن ياسين

(الدور الصحراوى)

---

١ — الظروف التى أدت إلى إنشاء الحلف الصنهاجى الثانى .

ذكرنا فى البـاب السابق كيف أن القرن الخامس الهجرى أظل صنهاجة الجنوب وكلمتها مفترقة ووحدتها مشتتة بعد سقوط الحلف الثانى ، وكيف أن ملك غانة عاد يبسط ظله على مدينة أودغست ذات التجارة الرابحة والموقع الجغرافى الممتاز ، ولم تـكن صنهاجة الجنوب تستطيع أن تعيش فى ظل هذه الفرقة المتفشية بين قبائلها والأعداء يحفون بها و يتربصون بها الدوائر . فقد كانت أحلاف زناتة والمصامدة فى الشمال لا تزال تسد مسالك المغرب ، وكانت مملكة غانة تهدد تجارة السودان تهديداً خطيراً ، هذه التجارة التى كانت مصدر يسر وغنى للقبائل الصنهاجية الضاربة فى الصحراء ، أو على ساحل المحيط . نعم لا يمكن أن يستقيم لأهل اللثام حال إلا إذا اتحدت كلمتهم وقويت شوكتهم ، لذلك تم نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة[١] ، بفضل الجهود التى بذلتها قبيلة لمتونة القوية ، التى كانت تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب منذ وقت بعيد[٢] .

---

(١) Terrasse : Hist. du Maroc, vol. I, p. 214

(٢) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٩١ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٨ .

ويبدو مما ذكره المؤرخون أن أهداف هذا الحلف كانت مدافعة ملك غانة في الجنوب ، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب ، واسترداد ما فقده الحلف من تجارة ونفوذ . والمراجع حين تتحدث عن هذا الحلف غامضة أشد الغموض متضاربة في أقوالها أشد التضارب ، فهي تختلف حتى في صحة اسم زعيم هذا الحلف ، فمن قائل أن اسمه أبو عبد الله بن تيفات[١] ، أو أبو عبيد الله بن تيفاوت[٢] ، أو أبو عبد الله بن نارشت اللمتوني[٣] . وتختلف الرواية أيضاً في تحديد سنة اتمام هذا التحالف ، وفي مدة حكم أبي أعبد الله هذا ، فيذكر بعض المؤرخين أنه تولى سنة ٤٢٦[٤] هـ ، وحكم خمس سنوات[٥] ، أو ثلاثاً في رواية أخرى[٦] ، ومعنى ذلك أنه توفي سنة ٤٣٠ هـ أو ٤٣٢ هـ . لكن أغلب المراجع تتفق على أن خليفة هذا الزعيم تولى سنة ٤٢٩ هـ ، وأنه حج ولقي أبا عمران الفاسي فقيه القيروان قبل وفاته سنة ٤٣٠ هـ[٧] ، مما يدفعنا إلى القول بأن أبا عبد الله تزعم حلف صنهاجة عام ٤٢٤ على الأكثر ، وإذا كان قد حكم خمس سنوات ، فلا بد أنه توفي سنة ٤٢٩ هـ ، وهي السنة التي حددها المؤرخون لبيعة خليفته .

ومهما يكن من شيء ، فإن سياسة هذا الحلف الجديد كانت واضحة أشد الوضوح ، إذ كانت تقضي بمواصلة الجهود التي بذلت منذ إسلام صنهاجة ، التي تقضي بالجهاد في الجنوب ، ومدافعة ممالك السودان ، والمحافظة على طرق التجارة السودانية بأية وسيلة ، ولم تفكر صنهاجة في ذلك الوقت في إنتهاج سياسة

---

(١) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٢ .
(٣) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٩ .
(٤) Barth : Travels and discbyeries in North and central Africa ap . p. 582.
(٥) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .
(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٢ .
(٧) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

مغربية بالإتجاه صوب الشمال ومنازلة زناتة وأحلافها الضاربة فى المغرب الأقصى بل كانت سياسة الحلف الجديد محلية صرفة ، ويبدو أن هـذا الحلف لم يحقق الغرض المعقود عليه ، ولم يكتب له أن تطول مدته ، فقد قتل زعيمه وهو يحارب ملك غانة ، وهزمت لمتونة وأخفقت فى الاستيلاء على مدينة أودغشت والسيطرة على تجارة السودان [١] .

وكانت هزيمة لمتونة فى معركة السودان هذه بعيدة المدى فى سير الحوادث ، التى تمخضت عن قيام دولة المرابطين . فقد تخلت عن زعامة الملثمين فى هـذا الوقت العصيب من تاريخهم ، بعد أن ظلت الزعامة فى بنيها أكثر من قرنين ، ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن مضارب لمتونة كانت فى أقاصى الشمال ، قرب حدود المغرب الأقصى ، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض السنغال لمدافعة السودان يتطلب جهوداً شاقة وأموالا طائلة ، فلم تستطع أن تمضى فى هذا الجهاد حتى تبلغ نهايته ، وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة أخرى هى قبيلة جدالة [٢] فخفت إلى المعركة التى كانت لاتزال دائرة الرحى [٣] ، إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت ريح الملثمين ، وعادت مملكة غانة توغل صوب الشمال من جديد فتقضى على الجهود التى بذلت فى نشر الاسلام فى ربوع صحراء المغرب ، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان من أية قبيلة أخرى ، فكانت ديارها مصاقبة لديارهم ، وكانت أعرف بهم وبطبائعهم ، ثم أنها كانت من أغنى القبائل وأقواها بسبب إشتغالها بتجارة الملح والتبر والرقيق [٤] .

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٧٥ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٦ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٤ ، ابن الأثير ج٩ ص٢٥٩ ، الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٩٠ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٧ ، مفاخر البربر ص ٥٢ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٢ ، روض القرطاس ص ٧٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢ .

٢ — الظروف التي مهدت لإختيار عبدالله بن ياسين :

وقد قدر لجدالة هذه القبيلة القوية الفتية أن تتبنى الحركة الدينية التي انتهت بقيام دولة المرابطين ، فكانت صاحبة فضل على الملثمين بوجه خاص ، وعلى قبائل البربر بوجه عام ، لذلك يجدر بنا أن نعمد إلى تقصي إسم ذلك الأمير الجدالي الذي أمسك براية الملثمين غب إستشهاد الزعيم اللمتوني السابق ، لأن تحقيق إسمه وتحديد سنة حكمه يعيننا على كشف الغموض الذي أحاط بأول خطوة تمت في سبيل إقامة الدولة . يذكر بعض المؤرخين أن هذا الأمير يدعى الجوهر ،(١) كما نسبه بعضهم خطأ إلى قبيلة جزولة(٢) ، وجزولة كما نعلم كانت تنزل قرب جبال درن في قاصية المغرب ، ولكن البكري (٣) يذكر أن الجوهر هذا كان من الخارجين على الفقيه عبد الله بن ياسين فيما بعد ، وأن زعيم جدالة في ذلك الوقت كان يدعى يحيى بن إبراهيم (٤) ، وقد أيد البكري في روايته تلك كثير من المؤرخين الثقات .

وقد أوتي هذا الزعيم الجدالي من رجاحة العقل و بعد النظر وصدق الايمان بدينه ومستقبل أمته ، ما جعله يدرك أنه آن لأمراء الملثمين أن لا يتخذوا سياسة محلية صرفة ، بل أن يتخذوا سياسة عالمية ، عن طريق وصل مجتمعهم بسائر المجتمعات المغربية الأخرى ، أعني وصل تاريخ صنهاجة الجنوب لا بتاريخ السودان فحسب ، بل بتاريخ العالم الاسلامي في المغرب والمشرق ، كما أدرك أن هذه الأحلاف التي تمت بين قبائل صنهاجة الجنوب كانت أحلافا ذات أهداف

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٥٣٢ ، ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٧٩ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧٢ .
(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٥٣٢ .
(٣) البكري : المغرب ص ١٦٤ .
(٤) نفس المرجع ص ١٦٤ .

مادية صرفة ، وأنه قد آن لهـــذه القبائل القوية الفتية أن تتآلف وتتآزر على سياسة جديدة روحية صرفة بتقويم المعوج من الأخلاق والتمسك بأهداب الدين ، لأنه أدرك أن وحدة هذا أساسها ستكون وحدة قوية باقية الأثر .

وليس ببعيـــد أن يكون يحيى بن ابراهيم الجدالى قد ارتاد أسواق المغرب الأقصى متاجراً أو زائرا ، فأحس بذلك البون الشاسع بين البيئتين ، بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة ، و بيئة الصحراء التى يظلها الجهــل وتقفر سوقها من العلماء المتضلعين فى العلم ، بسبب طول السفر ومشقة الطريق . نعم كانت الحياة العقلية فى المغرب الأقصى قد بلغت الأوج فى القرن الخامس الهجرى ذلك أن العلماء بعد أن وردوا مورد القيروان والأندلس والمشرق بدوًا يستقرون و ينتجون و يجودون ، و بدا المغرب الأقصى فى ذلك العصر بالذات حافـــــلا بالمدارس والعلماء الذين قصدهم الناس من كل فج .

كانت مدرســة فاس أكثر مدارس المغرب الأقصى تفوقا وتجويداً ، حتى قصدها الناس من كل حدب [1] ، فأصبحت دار فقه وعلم وحديث وعربية ، فقهاؤها يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب، [2] شبهها المؤرخون بالأسكندرية « فى المحافظه على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس [3] » . زادت شهرة جامعة فاس بعد إضطراب أمر قرطبة والقيروان [4] ، حتى لقد قصـــدها أحد البابوات طلبا للعلم [5] ، وانتشرت المدارس بدوكالة ، [6] وأصيـــــلا وسبتة

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) القلقشندى : الصبح جـ ٥ ص ١٥٧ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٥) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف جـ ٢ ص ٧ .

(٦) التادلى : التشوف ص ١٥٥ .

وطنجة [١] وأغمات وريكة ، واشتهر من علمائها أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن المواري [٢] ، ويوسف بن موسى الكلبي ، وهو أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى [٣] ، كذلك اشتهرت مدرسة سجلماسة وغدت من قواعد فقه مالك بن أنس ، ومن أشهر علمائها فى ذلك العصر الفقيه أبو عبد الله مروان ابن عبد الملك بن كنون زعيم المغرب وشيخه [٤] ، وابن الغرديس الذى قصده الطلاب من الأندلس [٥] ، ولم تكن مدرسة تلمسان بأقل من مدرسة سجلماسة فقد غدت « دارا للعلماء والمحدثين ، وحملة الرأى على مذهب مالك [٦] » . وأخذ علماء البربر ، بعد أن نهلوا من موارد العلم بالأندلس وإفريقية يذيع صيتهم ويقصدهم الناس من كل صوب ، مثل عبد الكريم بن عبد الرحيم الصنهاجى [٧] وأبو زكريا يحيى يسولان [٨] وزاوى بن مناد بن عطية بن المنصور [٩] ، وأحمد ابن موسى بن عطاء الله الصنهاجى [١٠] ، وميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى الذى سكن المرية وذاع علمه فى الأندلس [١١] ، بل شارك المصامدة فى هذه النهضة المباركة فنبغ منهم تونارت بن تبدى [١٢] .

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٣٠١ .
(٢) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ ١ ص ٦٥ .
(٣) التشوف ص ١٠٤ .
(٤) مشيخة عياض : ورقة ٦٦ ب .
(٥) المرجع السابق ورقة ٢٠ ب .
(٦) البكرى : المغرب ص ٧٧ .
(٧) ابن الأبار : المعجم ص ٢٦٦ .
(٨) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ ١ ص ٦٥ .
(٩) ابن الأبار : المعجم ص ٨٩ .
(١٠) المصدر السابق ص١٨ .
(١١) المصدر السابق والتكملة جـ١ ص٣٩٥ .
(١٢) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٥٣٢ .

حدث هذا كله ، وتفوق المغرب الأقصى على هذه الصورة ، على حين خيم الظلام على ربوع الصحراء وفى ديار الملثمين ، ولم تستطع هذه المدارس أن تحيل هذه الظلمة نوراً . نعم صور المؤرخون المجتمع الملثمى فى ذلك الوقت تصويراً قاتما ، فذكروا أن الملثمين لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه ، لم يقلعوا عما اعتادوه فى جاهليتهم من مساوىء [1] قضى عليها الإسلام فى كل مكان حل فيه ، ولم يجرؤ العلماء على المخاطرة باختراق البوادى وتعليم الناس مبادىء دينهم القويم ، أو كما قال يحيي بن ابراهيم « اننا فى الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم و يرغبون فى الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلا [2] » .

أفنعجب بعد ذلك كله إذا رأينا يحيى بن ابراهيم الجدالى يعهد بالأمر إلى إبنه ، ويخرج من ديار الملثمين لا طلباً للحج كما يذكر المؤرخون [3] ، وإنما بحثا عن الحقيقة ، يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم و إرواء لروحه المتعطشة للاستزادة من أمور الدين ، أو بحثاً عن فقيه يثق به و يطمئن إليه فيعود به إلى قومه مبشراً ونذيرا ، عله يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الإسلام .

وهنا يحق لنا أن نسأل فى أى وقت خرج يحيي بن ابراهيم من ديار الملثمين بقصد ارتياد مدارس المغرب و إشباع رغبته فى العلم ، والإجابة على هذا السؤال وتحديد التاريخ الذى قام فيه الزعيم الجدالى برحلته تلك فى غاية الأهميـــة ، إذ ستترتب عليه نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ الدعوة المرابطية ، فهو يعيننا على التعرف

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٥ ، عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٩ .

(٣) البكرى: المغرب ١٦٤ ، الحلل الموشية ص ٩ ، روض القرطاس ص ٧٦ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

إلى الفقهاء الذين قصدهم وتتلمذ عليهم ، و إذا عرفنا العصر الذى يعيش فيه الفقيه استطعنا بعد دراسة ترجمته أن نعرف شيوخه فى الشرق أو الغرب أو الأندلس ، وأن نعرف التيارات العلمية المختلفة التى أثرت فى الدعوة المرابطية أهى مشرقية أم هى مغربية أو أندلسية .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى تحديد هذا التاريخ ، وذهبوا فيه مذاهب شتى ، فقد ذكر كل من ابن عذارى [(١)] ، والنويرى [(٢)] أنه خرج سنة ٤٤٥ هـ ، وذكر صاحب الحلل الموشية [(٣)] ، والقلقشندى [(٤)] أن ذلك كان سنة ٤٤٠ هـ ، بل إن ابن الأثير [(٥)] يذهب أبعد من هذا ، فيقرر أنه خرج سنة ٤٤٨ هـ ، فى الوقت الذى يروى فيه ابن أبى زرع [(٦)] وصاحب جامع تواريخ فاس [(٧)] أن الرحلة قد تمت عام ٤٢٧ أو ٤٢٩ هـ . والرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة من الرواية الأولى لأن المراجع كلها المؤيدة أو المعارضة أجمعت على أن الجدالى تتلمذ على الفقيه أبى عمران الفاسى بمدينة القيروان ، ولما كانت كتب التراجم وكتب التاريخ وكتب الطبقات [(٨)] تجمع على أن أبا عمران قد توفى عام ٤٣٠ هـ ، فلا بد أن تكون الرحلة قد تمت قبل هذا التاريخ ، وإلا لما استطاع أن يحضر مجالس أبى عمران الفاسى و يتتلمذ عليه ، وفى هذه الحالة تصبح رواية ابن أبى زرع أقرب

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧٢ .

(٣) الحلل الموشية ص ٩ ، القلقشندى جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٥٨ .

(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٦ .

(٧) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

(٨) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤٢٠ ، معالم الإيمان جـ ٣ ص ٢٠٤ ، روض القرطاس ص ٧٤ ، التشوف ص ٨١ ، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٤٧ ، البيان المغرب جـ ١ ص ٢٧٥ ، التكملة لابن الأبار جـ ١ ص ٢٥١ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ ، جذوة الاقتباس ص ٢٣٠ ، الديباج المذهب ص ٣٤٤ .

هذه الروايات من الحقيقة ، وليس ببعيد أن تـكون الرحلة قد تمت سـنة ٤٢٧ أو ٤٢٩ على الأكثر .

ومهما يكن من شيء ، فقد يمم يحيى بن ابراهيم شطر القيروان حاضرة المغرب الثقافية ، وكعبة القصاد من قاصية المغرب والأندلس ، وكانت القيروان في ذلك الوقت بالذات قد تحررت من نير الشيعة ، واستردت حريتها كاملة ، وانتصرت فقهاء المالـكية في معركة الفاطميين والزيريين نصرا عظيما ، أعاد إلى هذه الحاضرة شهرتها السابقة ومجدها القديم ، وذلك عقب هذه الثورة الجامحة التي قضت على الشيعة بأفريقية والمغرب عام ٤٠٩ هـ ، في عهد المعز بن باديس الصنهاجي[١] . قصد الزعيم الجدالي القيروان لأنه مالـكي المذهب والقيروان عاصمة المالـكية وعلماؤها أقطاب الفقه وأئمة المذهب ، كما أحب أن يقصد إمام المالـكية في المغرب قاطبة في ذلك الوقت ، ونعني به ذلك الفقيه الذائع الصيت أبا عمران الفاسي الذي تألق نجمه وذاع صيته ، وقصده الطلاب من فاس وأغمات ومن الأندلس من سرقسطة[٢] وأشبيلية[٣] ، كما قصده فقهاء المصامدة[٤] وأهل وشـقة[٥] وعلمـاء من بجانة[٦] والمرية[٧] وطليطلة[٨] وقرطبـة[٩] وصقلية[١٠] أيضاً .

---

(١) الرحلة التيجانية ص ٨ ، ابن بشكوال : الصلة ص ٤٩٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨٨ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٨٦ ، ابن الأبار جـ ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن الأبار جـ ٢ ص ٤٤٦ .

(٤) التادلي : التشوف ص ٨٦ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٠ .

(٦) التـكملة لابن الأبار جـ ١ ص ٥٢ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ص ١٧٢ ، ٢٧٧ ، ٤٣٠ .

(٨) المصدر السابق ص ٣٣٤ ، ٣٩١ .

(٩) الديباج المذهب ص ١١٠ ،

(١٠) المصدر السابق ص ١٧٤

ولم يصل أبو عمران إلى هذه المكانة الرفيعة فى ذلك العصر إلا بعد دراسات عميقة وسفر طويل ودأب على التحصيل ، فقد خرج من المغرب مُشَرِّقا فسمع من علماء مصر[١] ، ورحل إلى الحجاز[٢] ، وسمع بمكة[٣] ، ثم قصد مدارس العراق فسمع من أبى الفتح بن أبى الفوارس ، وأبى الحسن المستملى ، وأبى الحسين بن الحماس المغربى[٤] ، وتتلمذ على الفقيه أبى بكر بن الطيب المعروف بالباقلاني المتكلم على مذهب أهل الحديث وطريقة الأشعرية[٥] ، وتلقى عليه علم الأصول[٦] ، وظل يلازمه ببغداد فترة طويلة[٧] ، وكان قبل رحيله إلى المشرق قد تتلمذ على الفقيه المالكى الذائع الصيت أبى الحسن القابسى[٨] ، واختلف إلى مدارس الأندلس ونهل من علمها ما طاب له ، فأخذ عن عبد الوارث بن سفيان[٩] وأبى الحسن أحمد بن محمد بن الصلت القرشى[١٠] ، وسمع بقرطبة[١١] وأشبيلية[١٢] ، وعاد إلى القيروان بعد ذلك ليلقن علمه للناس الذين جاؤا من كل صوب .

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ١٤٥ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٥٢ .

(٤) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤١٣ ، الديباج المذهب ص ٣١٤ .

(٥) النباهى : المرقبة العليا ص ٣٧ ، الجذوة ص ٢٣٠ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢
شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٤٧ ، روض القرطاس ٧٩ .

(٦) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ، الديباج المذهب ٣٤٤ .

(٧) النباهى : المرقبة العليا ص ٣٧ .

(٨) المدارك جـ ٤ ص ٤١٣ ، الروض ص ٧٦ .

(٩) شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٤٧ .

(١٠) ابن الأبار : المعجم ص ٣٨ .

(١١) المدارك جـ ٤ ص ٤٣ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ .

(١٢) ابن بشكوال ص ٧٦ .

كان أبو عمران قد برع فى علم الأصول وعلم الـكلام والمناظرة[١] ، « وكان من أحفظ الناس وأعلمهم جمع حفظ المذهب المالـكى والحديث وعلوم القرآن[٢] » وقد شهد له الباقلانى بذلك كله فقال « لواجتمعت فى مدرستى أنت وعبد الوهاب لاجتمع علم مالك[٣] » ، شب أبو عمران فى هده البيئة الزاهدة فى متاع الحياة ، بيئة الفقهاء المالـكية فى القيروان الذين عرفوا بالشدة فى الحق والتزمت والميل إلى التقشف ، وأطراح حياة التنعم والميل إلى التأمل والعبادة ، وقد بث أبو عمران هذه التقاليد فيمن قصـده من تلاميذ المغرب ومنهم ذلك الفقيه الزاهد المتعبد عبد العزيز التونسى[٤] وفقيه السوس وناسكها ومتعبدها وجاج بن زلّو اللمطى .

تتلمذ الزعيم على ابن عمران بالقيروان ، ولم يكن يقصد أن يختص نفسه بمـا يحصل من علم أو يسمع من درس ، إنما كان يتألم لحال قومه ، ويريد أن ينقذهم مما يهيمون فيه من جهل ، يريد أن يرد إليهم دينهم كاملا نقياً ، وأن يجمعهم على هذه التقاليد الحميدة التى أثلت لها مدرسة القيروان ، أو بمعنى آخر يريد أن يقيم وحدة صنهاجية من نوع جديد ، فـكان أول ما فعله بعد أن لقى أبا عمران أن طلب من الإمام فقيهاً من تلاميذه المالـكيين ليصحبه إلى بلاده[٥] ، ليعينه فى هذه المهمة الشاقة التى وضع نصب عينيه أن يضطلع بها إعلاء لشأن قومه .

والمؤرخون[٦] يضفون على هذه القصة لوناً طريفاً ، فيصورون كيف أن

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٢ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٣٠ ابن خير : الفهرسة ص ٤٤٠ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٤ :

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٣٧٠ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٧ ، الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٩ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٨ ، البـكرى ص ١٦٥ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ .

(٦) المراجع السابقة .

أبا عمران جمع تلاميذه وانتدبهم لهذه المهمة الشاقة ، وأنهم أحجموا جميعاً خوفاً من بعد الدار ومشقة السفر ، وأنهم أشفقوا على أنفسهم ممـا سيلقون هناك من مشاق ، وهو فى الواقع تصوير يفسد الصورة الرائعة التى رسمتهـا كتب الطبقات لفقهاء المـالـكية فى المغرب ، فقد عرفنا عنهم الحرص على رفع لواء المذهب لا يهمهم اغتراب ولا تثنيهم مشاق ، والوقع إن فى رواية المؤرخين اسرافاً كثيراً . ويخيل إلى أن هؤلاء الفقهاء أو التلاميذ لم ينتدبهم الإمام لهذه المهمة ، وبالطبع لم يرفضوا ، وإنمـا رأى الإمام أنه لا بد لتحقيق هذه المهمة على الوجه الأكمل من فقيه من البربر يعرف البيئة الملثمة معرفة تامة ، ويلم بلسانهـا إلماماً تاماً ، حتى يستطيع فى أقصر وقت أن يهدى هؤلاء القوم سواء السبيل ، فلمـا لم يجد فى تلاميذه من يحقق هذه الرغبة ، سير الجدالى إلى أحد تلاميذه فقهاء المغرب الأقصى ، إلى رجل يدعى وجاج بن زللو فقيه مالـكى مشهور تتلمذ على أبى عمران[1] ونهل من علم القيروان وتقاليدها وتلقن زهدها وتقشفهـا وأطراحها لحياة اللهو . لذلك نراه يتخذ بلاد نفيس أو قرية ملـكوس[2] مكاناً يأوى إليـه بعيداً عن الناس ، يتزهد فيه ، ويتقشف ويتعبد ، وقد بنى رابطة من أجل ذلك ، وكان مريدوه وتلاميذه يفدون عليه من كل فج ، ويتلقون عنه هذه التقاليد فيرضون عنها ، ويتعصبون لها . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن تقاليد المالـكية بالقيروان نفذت إلى قاصية المغرب، فأحيت موات الأمل ، وقومت دين البربر ، ورسمت لهم الجادة المستقيمة الواضحة ، كما أن هذا الفقيه لمطى صنهاجى من قبائل الملثمين أعرف الناس بطبائع قومه ، وأكثرهم خبرة بما ينفعهم ويضرهم .

---

(١) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ٩ ، وروض القرطاس ص ٧٧ .

(٢) البـكرى . المغرب ١٦٥

هذه إذن هى جذور هذه الحركة الدينية التى سنعرض لها بالتفصيل بعد قليل . بدأت خيوطها الأولى فى القيروان على يد أبى عمران الفاسى ، ثم تناهت إلى فقيه السوس وزاهدها وجاج بن زللو اللمطى ، وكانت رسالة إمام القيروان إلى هذا الفقيه الورع المتزهد أن « أبعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ، ليعلمهم القرآن وشرائع الاسلام ويفقههم فى الدين[1] » . وبذلك يكون الزعيم الجدالى قد أرضى رغبته فى التفقه فى الدين ، وأوشك أن يحقق ذلك الأمل الذى طالما ساروه ، وهو هداية شعب الملثمين ولم شعثه وجمعه على الهدى والتوحيد ، فقد ذكر المؤرخون أن فقيه السوس ما كاد يتلقى رسالة أستاذه أبى عمران حتى جمع مريديه رواد رابطته ، وأطلعهم على رغبة إمام القيروان. وقد أضاف المؤرخون إلى ذلك قولهم أنه قد وقع اختياره على ابن أخيه ليمضى إلى الصحراء ، غير أنه خشى المغبة ، ونكص على عقبيه ، لكن يخيل إلينا أن وجاج ابن زللو اللمطى هذا أراد أن يحقق رغبة أستاذه ، فوقع اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجى الأصل يدعى عبد الله بن ياسين ، فلم يتردد عبد الله فى الاضطلاع بهذا الأمر ، بل أقبل عليه ، وتحمس له ورأى فيه لونا من الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الاسلام .

٣ — التعريف بعبد الله بن ياسين :

وباختيار عبد الله بن ياسين يبتدىء عهد جديد فى تاريخ شعوب الملثمين[2] ، بل فى تاريخ الإسلام فى السودان وتاريخ المغرب ، بل فى تاريخ العالم الاسلامى . فقد استطاع بفضل ما توفر له من صفات ، وما وهبه الله من إخلاص أن يحقق الآمال التى ساورت يحيى بن ابراهيم الجدالى وغيره من المخلصين من

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٥ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٢ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .

زعماء هذا الشعب ، فاليه يرجع الفضل فى جمع كلمة الملثمين ولم شعثهم ، وإقامة حلف قوى ، بل إقامة دولة مبسوطة الأطراف عزيزة الجانب . ألهب النفوس بالحمية الاسلامية ، فخرجت القبائل التى كانت منذ عهد غير بعيد يقاتل بعضها بعضا فاتحة غازية مجاهدة . أتت على ملك زناتة ، واحتلت المغرب وخفت إلى الأندلس ترد عادية المسيحيين ، وتشارك فى حركة الجهاد المقدس ، وتحمى تراث الحضارة الاسلامية الذى كادت أن تذهب ريحه فى عصر المحنة . فمن حقه علينا بل من حقه على التاريخ أن نترجم له ونعرف به ونكشف عن الأحوال التى هيأته ليقوم بذلك الدور الممتاز ، ونبين الصفات التى توافرت فيه ، وأهلته لحياة الكفاح والجهاد .

ولد عبد الله من أب صنهاجى يدعى ياسين بن مكوك بن سير على . وقد اختلف المؤرخون فى إسم القبيلة التى ينتسب إليها ، فذكر فريق[1] أنه ينتسب إلى قبيلة جزولة الضاربة كما أشرنا فى أقصى المغرب قرب جبال درن ، ولكن البكرى[2] انفرد برواية غريبة بعض الشىء ، فقال أنه ولد فى قرية تيامامناوت فى طرف صحراء مدينة غانة ، أعنى فى أحواز مدينة أودغشت . فلا يبعد إذن أن يكون قد انحدر من هذه القبائل الملثمة التى تضرب فى تلك النواحى . ويخيل إلينا أن ذلك يرجح نسبته إلى قبيلة جدالة التى تضرب قرب منطقة السنغال ، وتوغل جنوبا حتى منحنى نهر النيجر . ومن السهل جدا أن يحرف الرواة اسم الجدالى فيصبح الجزولى بسبب خطأ النسخ أو عدم التحقيق . وهـذا فى رأينا أقرب إلى الحقيقة ، لأنه يفسر لنا لماذا أقبل عبد الله على التطوع لهذه المهمة دون تردد ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الفقهاء ، فإذا صحت نسبة عبد الله إلى

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ ، جامع تواريخ فاس ٧٨ ، مفاخر البربر ص ٤٢ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٥

جدالة يكون أعرف الناس بأحوال قومه ، وأكثرهم اطلاعا على مواطن الضعف فيهم ،وأقدرهم على رأب الصدع وتقويم المعوج .

والمراجع لا تذكر لنا عن نشأة ذلك الزعيم الدينى شيئا يشفى الغلة ، ولم نجد فى كتب الطبقات — للأسف — أية ترجمة لذلك الفقيه الجرىء والمصلح الفذ، اللهم إلا ترجمة واحـدة فى كتاب ترتيب المدارك[1] للقاضى عياض اليحصبى ، لـكنها ترجمة مقتضبة مضطربة لم تلق ضوءاً كافيا لدراسة حياة هذا الرجل الذى شـكل تاريخ الملثمين ، واستطاع بمعونة أميرهم أن يحقق ما يشبه المعجزة .

ومن أسف ، أن القاضى عياض ترجم له ترجمة مفصلة فى كتاب له عن تاريخ سبتة لا زال مفقودا حتى اليوم لم يعثر له على أثر ، لأن عياض وهو من أئمـة المالـكية فى المغرب أولع بتقصى أخبار فقهاء هذا المذهب ، فلم يترك فقيها دون أن يترجم له أو يعرف به ، ومن الطبيعى أن يفرد لابن ياسين فصلا طويلا ،لأنه كان قريبا من عصره ، إذ توفى عياض فى القرن السادس الهجرى ، وكان يعرف تلك الجهود الشاقة التى بذلهـا لرفع لواء مذهب مالك فى صحراء الجنوب وفى السودان .

مهما يكن من شىء ، فانه يخيل إلينا أن الفتى عبد الله خرج من مسقط رأسه فى فجر شبابه ليشبع رغبته فى العلم ، و يرد مناهل الثقافة فى المغرب الأقصى ، و يتتلمذ على أئمة الفقهاء فى المدارس التى انتشرت فى المغرب كله ، ولا ندرى كيف اتصل بفقيه السوس وجاج ، أتتلمذ عليه قبل ذهابه إلى الأندلس أم بعـد عودته منه ؟ . فقـد ذكر المؤرخون[2] أن الفتى الملثم شـد الرحال إلى الأندلس فى طلب العـلم والمعرفة ، ولا بد أنه تردد على أئمة العصر وأعلام الفكر فى الأندلس .

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٥٣٢ وما بعدها .
(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٠ .

ومن الغريب أن كتب الطبقات الأندلسية سكتت عن هذا الأمر سكوتاً ليس من العسير تعليله ، فإن أغلب هذه الكتب ألف فى عصر الموحدين الذين كرهوا المرابطين ، واعتبروهم زنادقة كفرة ، وجهدوا فى إخفاء آثارهم وطمس معالم تاريخهم ، فلا يبعد أن يكون كتاب الطبقات قد خافوا البطش فسكتت أقلامهم عن ذكره . وقد انفرد صاحب الحلل بذكر قصة ذهاب عبد الله بن ياسين[1] إلى الأندلس ، فقال أنه رحل إليها فى عهد ملوك الطوائف أعنى بعد عام ٤٠٠ هـ ، ومكث هناك سبع سنوات ، ثم عاد إلى المغرب الأقصى بعد ذلك ، فلعله اتصل بوجاج فقيه السوس فى ذلك الوقت ، ذلك الفقيه الذى كان قد رحل إلى القيروان[2] ، وتتلمذ على أبى عمران الفاسى ، وعاد إلى المغرب فابتنى الرابطة وتزهد وتعبد ، وأخذ يبث دعوة القيروان وتقاليدها فى نفوس مريديه .

ولا يبعد أن يكون عبد الله بن ياسين قد أعجبته هذه التقاليد التى اتسم بها فقهاء المالكية من البعد عن السلطان ، واطراح النعيم ، والتعبد والزهد والتقشف والايواء إلى الربط تقربا من الله . وإذا كان عبد الله بن ياسين قد تتلمذ على وجاج وهذا قد تتلمذ على أبى عمران ، فيعتبر ابن ياسين من هذه الناحية تلميذا لأبى عمران[3] عن طريق غير مباشر ، ويكون بذلك قد جمع إلى علم الأندلس علم القيروان . ويبدو أنه كان لعبد الله بن ياسين ذكر وصيت كمحدث فيذكر ابن بشكوال[4] عرضا أن أحد علماء الحديث قد روى عنه .

ومهما يكن من شىء ، فقد أجمع الرواة — على قلتهم — «على أن عبد الله ابن ياسين كان من الفقهاء النابهين . كان شهما قوى النفس حازما ذا رأى وخير

---

(١) ليس ببعيد أن يكون عبد الله من المغمورين فى ذلك الوقت فلم تسجله كتب الطبقات .

(٢) مفاخر البربر ص ٦٩ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٤٢٦ .

وتدبير حسن[١] » ، كما ذكر صاحب الروض أنه « كان من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء من أهل الدين والفضل والتقى والفقه والأدب[٢] » . هذه هى الصفات التى اتسم بها ذلك الفقيه الجرئ الذكى ، وقد حق ليحيى بن إبراهيم أن يستبشر بقدومه ويعتقد أن تحقيق آماله قد آن .

* * *

٤ — عبد الله بن ياسين فى ديار لمتونة :

دخل ابن ياسين الصحراء بصحبة أمير جدالة ، ولا نعرف بالضبط الطريق الذى سلكه، ولا الوجهة التى اتجهها، فهل اتجه إلى ديار لمتونة كما يذكر النويرى[٣] أم سلك طريقاً آخر ؟ . يخيل إلينا أنه اتجه إلى لمتونة أولا ، لأنه كان يتعين عليه أن يمر بمضاربها قبل أن يصل إلى جدالة ، ثم إنه اضطر إلى محاربة لمتونة بعد أن أيدته جدالة ، ولا يعقل أن يجاهد لمتونة إذا لم تكن قد أعرضت عن دعوته وهذا هو ما يؤكده الرواة[٤] حين يقولون إنه دعا لمتونة إلى طريق الحق ، و بسط أمامها سبل الهداية فصدت عنه وأعرضت ، فاضطر أن يشد الرحال جنوبا إلى مضارب جدالة ، علّه يستطيع بمعونة أميرها يحيى أن يحقق ما أخفق فى تحقيقه فى صفوف لمتونة .

وتغرب الرواية فى الخيال حين تصور قدوم عبد الله بن ياسين فقيه الملثمين وهاديهم ، فذكرت — وإن كان ذلك تفصيل لاغناء فيه — أنه كان يركب بعيراً يقوده يحيى بن إبراهيم ، وهو يقول للناس هذا محيى سنة رسول الله ، يعرضه

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٣ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٣ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٠ ، روض القرطاس ص ٧٨ .

على الناس ، ويدعوهم لحضور مجلسه والاستماع إلى مواعظه [١] . مهما يكن من شيء ، فقد كان لقدوم عبد الله بن ياسين رنة فرح وصدى بعيد فى ديار الملثمين ،جاءت الوفود من كل فج داعية مرحبة [٢] ، لأنهم كانوا كما يبدو يحسون بذلك المستقبل الزاهر الذى أخذ هذا الفقيه الجرئ يرسمه لهذه الشعوب التى لم تكن قد اضطلعت بدور يذكر فى تاريخ المغرب ، فقد ذكر المؤرخون أن شيخا منهم قال حين رآه يمتطى راحلته ، ويمضى فى طريقه « أرأيتم هـذا الجمل لا بد أن يكون له فى هذه الصحراء شأن عظيم » [٣] ، وكان يحيى بن إبراهيم الذى أطلق عليه اسم إمام الحق فى سعيه وراء الحقيقة وعمله على إحياء شريعة محمـد ، وجلبه فقيها يعلم الناس ويهديهم سواء السبيل الإمام المثالى الذى رسمه الطرطوشى إذ قال « فإمام العدل النبوى كان يجمع السلطان إلى نفسه حملة العـلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الأدلاء على الله تعـالى والقائمون بأمر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله . فواجب على السلطان ألا يقطع أمراً دونهم ولا يفصل حكما إلا بمشاورتهم ، لأنه فى ملك الله يحكم ، وفى شريعته يتصرف » [٤] .

أخذ عبد الله بن ياسين منذ وطئت قدماه ديار الملثمين يرسم لنفسه المنهج الذى يدنيه من الأهداف التى حالف يحيى بن ابراهيم الجدالى على تحقيقهـما ، وهى — كما أشرنا من قبل — تأليف قلوب الملثمين ، وإقامة نوع من التوحيد بين القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح ، والخلق القويم ، حتى لا يكتب لها أن يتفرق كما تفرقت من قبل . وهذا المنهج الذى اصطنعه عبد الله لنفسه يقع

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٠ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٧٨ .
(٣) النويرى جـ ٢٢ ص ١٧٣ .
(٤) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٥٢ .

فى دورين : دور سلبى، ودور إيجابى . دور قنع فيه بالدعوة السلمية، وآخر امتشق فيه الحسام ، وأعلن الجهاد على المفاسد ، دور كان يعظ فيـه بالحسنى ، ويخوف الناس عاقبة آثامهم ، ودر خاض فيه حومة الوغى فى سبيل تحقيق غايته ، و إتمام رسالته وهو من هذه الناحية يتفق مع طبائع الأشياء ، ومع الدعوات المماثلة التى عرفها التاريخ، دعوات المصلحين من رجال الدين الذين يسالمون و يعتمدون على القول، حتى إذا خذلهم الناس استلوا السيوف بعد تأليف قلوب الأنصار وحشد المؤيدين لحلبة الـكفاح .

بدأ الدور الأول من أدوار الدعوة حين اتخذ عبد الله بن ياسين صفة الفقيه المشاور المعلم، واستطاع بسبب معرفته اللهجات البربرية، وصدق يقينه، واخلاصه أن يجتذب إليه الطلبة من كل فج ، فـكانوا يشدون إليه الرحال من أقصى الديار يحضرون حلقته ، و يستمعون إلى دروسه[1] . و يبدو أن عبد الله كان يرقى بهم فى فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد ، أعنى ينزل إلى مستوى أفهامهم و يلقنهم المبادىء الصحيحة للدين ، حتى إذا تمـكن من نفوسهم ، وأقبلوا عليـه بعقولهم وأفهامهم، أخذ يفسر القرآن و يروى الحديث[2]، ولعله وهو الفقيه المالـكى كان يقرأ نصوصاً من موطأ مالك أو المدونة التى وضعها سحنون أو المستخرجة التى وضعها طلبة سحنون فقيه القيروان . واستطاع عبد الله بفضل فرط ذكائه وخبرته بطبائع الناس وسعة أفقه ، بسبب كثرة أسفاره أن ينفذ إلى قلوب العامة، ويصبح قريبا من قلوبهم ، فوثقوا به وأقبلوا عليه ، وتفتحت أذهانهم لتعاليمه ، «فـكانوا يحفظون من فتاويه وأجوبته لا يعدلون عنه[3] » ، وسما فى نفوسهم إلى مرتبة

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٥٣٣ .

رفيعة من التقديس . كان يعلمهم، ويفتى فى مشاكلهم . كان صاحب الرأى والمشورة بل كان بيت مالهم تحت إشرافه[١] .

ويبدو أن عبد الله بن ياسين قد خطا فى سبيل هذه الدعوة السلبية خطوة أبعد ، فلم يكتف بالدرس بل أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر[٢] ، وليس بمستغرب أن يفعل مثل هذا وهو تلميذ فقهاء القيروان الذين عرفوا بأنهم حرب على الفساد ، ونقمة على المنكر ،وسيف على البغاة ، رأى كيف فشت الرذيلة بينهم ، فأراد أن يقوم من أخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، فأراد أن يقيم حدود الشرع ويحكمه فى رقاب المفسدين ، «أخذ فى الشدة فى ذات الله تعالى ،وتغيير المناكير وأظهر الإيمان[٣]» . كما عمل على معاقبة السارق ورجم الزانى ومحاربة الداء بالسنة القويمة[٤] ، ولعله فعل آنئذ مثل ما فعله بسجلماسة فيما بعد ، حين أراق الخمور وحطم آلات الطرب ودعا إلى الزهد والتقشف .

وقد رأى عبد الله كيف أن النبلاء من الملثمين يتحكمون فى رقاب عبيدهم ومواليهم ، ويذيقونهم ألوان الخسف ، وقد ذكرنا فى الباب الأول كيف أن المجتمع الملثم يضم قبائل سيدة وأخرى مستذلة مسودة ، وعرضنا لحالة الموالى عرضا موجزا . وقد أحب عبد الله أن يقيم حدود الاسلام ، وأن يبسط لواء المساواة بين الناس ، فيخفف من غلواء السادة ، ويسرى عن المستضعفين فى المجتمع .ولا ندرى بالضبط ما هى الوسائل التى استعان بها على تحقيق بغيته ، غير أن البكرى يروى أنه أختط مدينة اتخذها حاضرة له ، وأنه أمر بأن تكون

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٥ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٠٨ .

دورها متساوية لا تعلو دار على أخرى ، فكأنه أراد أن يضرب لمريديه مثلا وأن يكون لهم أسوة حسنة .

مهما يكن من شيء فإنه يخيل إلينا أن عبد الله لم يأل جهداً فى التخفيف عن كاهل الموالى ، والحد من جبروت السادة والنبلاء[1] . وقد اتخذ لنفسه منهج فقهاء القيروان فى الزهد والتقشف والبعد عن مطايب الحياة ، فقد روى المؤرخون أنه لم يشارك الملثمين فى حياتهم الخاصة ، تورع عن أكل طعامهم، وتناول شرابهم وكان يعتمد على صيد البرية[2] ، كان يتقشف ، يلبس الخشن من الثياب ، ويكتفى من الطعام بأقله ، يتقرب إلى الله بالعبادة ، ويروض نفسه على الصبر . ويبدو أن سيرته تركت فى نفوس الناس أثراً بعيداً ، فوثقوا به ، وآمنوا بدعوته ، وبدءوا ينسجون حول شخصه قصصاً هى الخرافة بعينها . وهى وإن كانت بعيدة عن التصديق إلا أنها تصور لنا كيف سما فى نفوس القوم ، وكيف غدا فى نظرهم فى مرتبة الأولياء والصالحين ، فقد روى البكرى كيف استعانوا به فى استخراج الماء من جوف الصحراء بإذن الله ، كما ذكر روايات أخرى قريبة من ذلك المعنى[3] .

ولكن ما يلقاه الدعاة والمعلمون فى مستهل رسالتهم من مقاومة أهل الشر والفساد قد لقيه عبد الله ، فروى المؤرخون[4] كيف تبرم الناس بحكم السنة، إذ لم يألفوا الخضوع لقانون يحد من نزواتهم ، ويوقف شهواتهم عند حد . لكن يخيل إلينا أن المعارضة لم تفرخ فى صفوف المستضعفين من عامة الملثمين ، لأن عبد الله كان نصيرهم وحاميهم ، وكان هو الذى رد البغى والعدوان عن

(١) البكرى . المغرب ص ١٦٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٨ .
(٤) البكرى : المغرب ص١٦٥ ، عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٣٣٢ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ .

ساحتهم ، إنما انبعثت المعارضة من صفوف الزعماء والنبلاء ، الذين رأوه ينتقص من حقوقهم التقليدية ، ويضع حداً لجبروتهم وعدوانهم ، وينشر المساواة بين الموالى والسادة ، فسخطوا عليه . ومما يؤيد هذا الرأى ما أشار إليه البكرى حين قال « فقام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر اينتسكوا فعزلوه من الرأى والمشورة وطردوه وهدموا داره[1] » .

٥ — انتهاء الدور السلبي من رسالة عبد الله بن ياسين :

واضطر عبد الله خوفا على نفسه أن يخرج من ديارهم إلى حيث قدر للدعوة أن تمر فى دورها الإيجابى الناجح ، الذى ينتهى بقيام الدولة فى دورها الأول . ولكن يخيل إلينا أن جهاد عبد الله لم يضع هباء ، وأن الكثرة الغالبة من جمهور الملثمين أحبته ووثقت به ، واعتقدت أنه منقذها من الضلال ، إنما القلة الحاكمة هى التى عدت عليه ، وأخرجته من الديار ظنا منها أنه تهيأ لها القضاء على هذه الدعوة الناشئة ، ولكن الأيام خيبت ظنهم .

وتختلف المراجع فى الوجهة التى اتجهها عبد الله بن ياسين بعد أن خرج من مضارب لمتونة يطلب النجاة بنفسه ، بعد أن يئس من اصلاح حالهم ، فذكر فريق[2] أنه غلب عليه اليأس من تقويم اللمتونيين ، فخرج إلى المغرب يلوذ بأستاذه وجاج فقيه السوس ، ويشكو إليه ما يلقاه من عناء ونصب . ويذكر فريق آخر أنه هم بالعودة إلى المغرب لولا أن قيض الله أمير جدالة يحيى بن ابراهيم[3] ليرده عما أراده من اعتزال الدعوة والمعركة على أشدها .

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

ويبدو أن عبد الله بن ياسين كان على صلة روحية بأستاذه فقيه السوس، وليس ببعيد أن يكون الأستاذ ظل يرقب تلميذه عن كثب، مباركا حركته متمنيا أن يكتب له التوفيق، وأنه كان يمده بالمشورة والرأى والنصح والتوجيه كما يتبين من رواية البكرى[١]. ويخيل إلينا أن عبد الله بن ياسين لم يشأ أن يسير إلى الجنوب من تلقاء نفسه أول الأمر، لأنه كان يخشى أن يلقى فى الجنوب مثل ما لقيه فى الشمال من محاربة النبلاء، وأعراض الزعماء الذين أعمتهم الأنانية وأضلهم حب الذات، ولأنه لم يكن على علم تام بمسالك البلاد الجنوبية. وهذا يؤيد ما ذهب إليه بعض المؤرخين[٢]، من أنه هم فعلا بالعودة من حيث أتى لمعاودة حياة الدرس والتفقة، لولا أن يحيى بن ابراهيم الجدالى رأى أنه إذا تخلى عنه أخفقت آماله، وأحبطت مشاريعه التى عقد الخناصر على تحقيقها، فألح عليه فى أن يصحبه إلى الجنوب وتوسل إليه أن لا يتخلى، وهو الفقيه المجاهد عن رسالته السامية، فقال له «إنى لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لأنتفع بعلمك فى خاصة نفسى ودينى، وما على من ضل من قومى[٣]».

هكذا قدر لهذا الزعيم الجدالى المخلص أن يتدخل ليغير مجرى الحوادث، ويوجه مصير قومه الملثمين، فآثر أن يصطحب الفقيه معه إلى الجنوب إلى ديار جدالة أهله وعشيرته، لعله يلقى من قومه المعونة والتأييد لتحقيق غايته، وقد سار عبد الله ابن ياسين صوب الجنوب إلى ديار جدالة، حيث قدر للدور الإيجابى أن يبدأ وأن تثمر الجهود التى بذلت لإقامة دولة من الملثمين على أسس جديدة قوية.

وقد بدأ الدور الإيجابى حين عمد عبد الله بن ياسين إلى بناء رباط يأوى إليه وصحبه، يبتعدون عن الناس، يتقربون إلى الله، يتزهدون ويجاهدون. والمراجع

---

(١) البكرى: المغرب ص ١٦٥.

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص ٧٨.

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة.

التي بين أيدينا وإن كانت قد اتفقت على ذلك ، تختلف أشد الاختلاف فى الظروف التي أنشىء من أجلها ذلك الرباط . ويذهب البعض إلى أن يحيى بن إبراهيم الجدالى هو الذى أشار على عبد الله بن ياسين ببناء رابطة للعبادة . وهذا أمر بعيد التصديق ، لأن عبد الله بن ياسين وهو الفقيه المتتلمذ على علماء القيروان والمغرب الأقصى كان أدرى الناس بفائدة الربط ، التى كانت قد انتشرت فى المغرب انتشارا بعيداً فى ذلك الوقت . كما أنه هو نفسه تتلمذ على أستاذه وجاج فى رابطة ابتناها الأستاذ فى بلاد نفيس جعلها مقرا له وخف إليها التلاميذ من كل صوب لتلقى العلم على يديه . إن يحيى بن إبراهيم الجدالى لم يشر على ابن ياسين ببناء رابطة للعبادة ، إنما كان له الفضل فى اختيار أصلح المواقع لإقامة ذلك الرباط ، لأنه كان يعرف مضارب قومه حق المعرفة . يشير صاحب روض القرطاس إلى ذلك حين يروى أن يحيى بن إبراهيم قال لعبد الله « ولـكن ياسيدى هل لك فى رأى أشير به عليك أن كنت تريد الآخرة ... » ، قال «ما هو » قال « أن ها هنا فى بلدنا جزيرة فى البحر ... تدخل إليها فنعيش فيها ... فقال عبد الله هذا حسن ، فهلم بنا ندخلها باسم الله تعالى ، وأبتنى بها رابطة[1] » .

وإذا كانت المراجع قد اختلفت فى هذا الأمر ، فإنها اختلفت أيضا فى تحديد الموضع الذى اختاره عبد الله وصاحبه مستقراً لحياتهم الجديدة ، ومأوى يضعون فيه أسس الدولة الجديدة . فيذهب فريق إلى أنهما ابتنيا هذا الرباط على حدود الصحراء فيما يلى تار ودانت إلى الجنوب[2] ، وهذا رأى لا يطابق الحقيقة ، فتارودانت تقع على حدود المغرب الأقصى ، على مقربة من جبال درن ، وقد ذكرنا كيف أن عبد الله بن ياسين بعد أن كفرت لمتونة بدعوته سار إلى الجنوب

(١) ابن أبى زرع ٧٩ .

(٢) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٦ م .

إلى ديار جدالة ، ليبدأ حياة جديدة ، وأنه لم يذهب إلى الشمال ، وليس من المعقول أن يبنى رابطته حيث يحف به من كل صوب الأعداء الذين يتربصون به الدوائر .

ويذهب فريق آخر إلى أنهما قد لجأ إلى ديار جدالة ، وأنهما اختارا جزيرة صغيرة ، تقع فى مواجهة الشاطئ ، على مقربة من بلدة أوليل قاعدة جدالة فى الخليج الذى يطلق عليه الجغرافيون اسم خليج Arguin ، وأن هذه الجزيرة يسهل الخوض فى الماء للوصول إليها إذا كان الجزر ، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد [1] . ويعتمد أصحاب هذا الرأى على رواية لصاحب روض القرطاس جاء فيها « أن هاهنا فى بلدنا جزيرة فى البحر إذا حسر (الماء) دخلناها على أقدامنا وإذا ملأ دخلنا فى الزوارق وفيها الحلال المحض الذى لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت » [2] .

ويذهب فريق آخر [3] إلى أن هذه الجزيرة تقع فى مصب السنغال الأدنى وأنها فى الصيف تصبح صلتها بالبر ميسورة وفى الشتاء تنقسم إلى جزيرات صغرى .

ويخيل إلينا أن ما ذكره الفريق الثانى أقرب إلى الصواب ، ذلك لأن الرباط لا يبنى عادة إلا فى المناطق التى تتعرض للغزو ، ويتطلب الأمر حشد القوى بقصد الجهاد ورد المغيرين ، فلا يعقل والحالة هذه أن يتخذوا هذه الجزيرة الواقعة قرب ساحل المحيط مركزاً لنشاطهم ، لأنه لم يكن ثمة خطر يتهدد جدالة

---

(١) De la Chapelle: Esquisse d' une histoire du Sahara Occidental p. 61

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٣ ، R. Basset: Mission au Senegal p. 446

R. Basset : Mélanges Africains et Orientaux, p. 199. De Slane : Introduction p. XXX.

ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية) ، مادة سنغال (M. Delafosse

عن هذا الطريق ، على حين نجد ممالك الزنوج الواقعة إلى جنوب حوض السنغال تغير على مضارب الملثمين باستمرار ، وتهدد طرق القوافل ، وقد رأينا كيف أن الملثمين والزنوج تبادلا الاستيلاء على مدينة أودغشت مرات عدة ، فكان يتعين على عبد الله بن ياسين أن يتخذ نهر السنغال ، وهو الحد الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزنوج، مستقراً لرابطته بقصد الجهاد ونشر الإسلام في ديار الزنوج ومحاولة وقف عدوانهم وحسر تيارهم ، والحيلولة بينهم و بين الإغارة على مضارب الملثمين . هذا إلى أن الحياة في هذه الجزيرة الصغيرة الواقعة في المحيط ، والتي ذكر بعض المؤرخين أنها اتخذت مقراً للدعوة الجديدة تكاد تكون شاقة بسبب قلة موارد الماء وضيق رقعتها ، فلا تستطيع أن تعول عدداً ضخما من المرابطين بلغ في بعض الأحيان أكثر من ألف مجاهد ، على حين تتيسر الحياة في الجزر الواقعة في مصب السنغال ، بسبب وفرة المياه العذبة ، ووفرة النبات والأشجار البرية ، يتضح ذلك من قول صاحب الروض « فيها الحلال المحض الذى لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت »[١] .

قد يقال كيف يجرؤ المرابطون على بناء رابطتهم بحوض السنغال ودولة الزنوج كانت تبسط نفوذها حتى حوض هذا النهر[٢] ، وتهددهم بخطر جسيم ؟ . يرد على ذلك بالقول بأن الأطراف الجنوبية لديار جدالة كانت تمتد حتى تدرك حوض السنغال ، وكانت هذه القبيلة تستطيع أن تحمى ظهر العصبة المرابطة ، إذا ما فكر الزنوج في الاعتداء عليها ، ولا تزال الأساطير الشعبية التي يتناقلها سكان حوض السنغال اليوم تردد ذكر أحد المرابطين ، الذين قدموا حوض هذا النهر

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

(٢) R. Basset : Mission au Senegal p. 477.

فى القرن الثانى عشر الميلادى ، مما حمل الأستاذ M. Gaden [1] إلى الظن بأن عبد الله بن ياسين هو بعينه ذلك المرابط الذى تتحدث عنه الأسطورة .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى هذه الأمور كلها ، فإنهم قد اختلفوا اختلافاً شديداً فى التأريخ لهذا الدور الجديد ، وكل ما استطعنا أن نصل إليه هو أن يحيى بن ابراهيم الجدالى توفى سنة ٤٤٠ ﻫ ، بعد أن استقر به المقام مع عبد الله ابن ياسين فى رباط حوض السنغال ، لأنه صاحب الفضل فى اصطحاب عبد الله ابن ياسين إلى ذلك المكان البعيد ، وذكر المؤرخون أيضاً أن العصبة المرابطة خرجت من مستقرها مجاهدة ، واستولت على أودغشت سنة ٤٤٧ ﻫ ، وأن يحيى ابن عمر الذى خلف يحيى بن ابراهيم توفى فى ذلك الوقت ، وخلفه أبو بكر ابن عمر . إذن فلا بد أن الفترة التى قضاها عبد الله بن ياسين فى رباطه هذا فترة طويلة لا تقل عن سبع سنوات إن لم تكن تزيد ، لأنه أدرك الرباط قبل وفاة يحيى بن ابراهيم أعنى قبل سنة ٤٤٠ ﻫ .

***

٦ — حركات المرابطة فى بلاد المغرب :

لكى نفهم الرسالة التى أداها الرباط الذى أنشأه عبد الله بن ياسين فى مصب السنغال ، ونقف على الدور الذى لعبه الرباط فى تاريخ قيام الدولة ، ونكشف عن المنهج الذى التزمه عبد الله حتى كتب له النجاح ، وحقق الغاية التى كان يصبو إليها ، يجدر بنا أن نعرض لحركة المرابطة فى المغرب على العموم ، نعرض لجذورها الأولى ، كما نعرض لتطورها ، ذلك التطور الذى خدم الإسلام فى المغرب خدمة جليلة ، كل ذلك يعيننا على فهم الدور الإيجابى للدعوة فهما

(١) Ibidp. 446.

صادقا ، لأن رباط السنغال ليس إلا جزء من حركة المرابطة التى بدأت فى المغرب منذ أن فتحه العرب .

وتفسير كلمة رباط يحدد لنا معالم التطور الذى أصاب حركة المرابطة فى المشرق والمغرب ، فالرباط معناه ملازمة ثغر العدو ، ومعناه أيضاً المحافظة على أوقات الصلاة [١] ؛ ذهب الإمام الطرطوشى [٢] هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون [٣] » ، بقوله « ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات [٤] » .

والجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المرابطة ، الجهاد فى الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة ، تحمى حياض المسلمين [٥] ، وترد عادية المعتدين .

وكانت المرابطة فى المغرب بعد أن فتحه العرب على هذه الصورة ، ذلك أن سواحل البلاد ظلت بعد الفتح تتعرض لغارات الأسطول البيزنطى من قواعده فى صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا [٦] ، وكانت المدن الساحلية تصاب من جراء هذه الغارات بأضرار جسيمة ، فاضطر العرب إلى تحصين الثغور بالمقاتلة ، الذين أخذوا يرابطون فيها للدفاع عن المسلمين ، والحيلولة بين المقاتلة البيزنطيين و بين النزول إلى البر [٧] .

---

(١) الاتحاف جـ ١ ص ٣٩ .

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٩ .

(٤) الطرطوشى : سراج الملوك ٩٧ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (مادة رباط) Doutté : Notes sur l' islam Maghribin " Les Marabouts " p. 29. (G. Marc,ais) .

(٦) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٥ .

(٧) Doutté : Notes sur l' islam Maghribin "Les Marabouts" p. 29.

كان المسلمون أنفسهم يرون فى هـذه المرابطة لوناً من ألوان الجهاد فى سبيل الله ، فكانوا يتسابقون إلى الربط ، يحرسون عورات المسلمين ، وينالون الشهادة دفاعا عن عقيدتهم ، فكانت الربط فى الواقع مجرد حصون [١] تقام فى الجهات الأكثر تعرضاً لغارات العدو ، تشحن بالمقاتلة ، والمؤن لصد عادية المعتدين .

ويبدو أن عقبة بن نافع الفهرى كان يدرك أهمية الرباط فى الدفاع عن المغرب ، فى وقت لم تكن البحرية الإسلامية قد تفوقت على البحرية البيزنطية فى العدد والعدة ، فكانت القيروان رباطاً كبيراً اتخذه العرب لصد غارات الروم ، فقد قيل فى تفسير كلمة قيروان إنها موضع اجتماع الجيش ، وقيل محط أثقاله [٢] . ويتضح الغرض من إنشاء القيروان من حديث عقبة حينما قال له أصحابه « نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط [٣] » ، فقال . « إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية ، فيهلكها صاحب البحر ، لكن اجعلوا بينها و بين البحر ما لا تقصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون » .

ويبدو أن هذه الروابط قد حققت الغرض الذى أنشئت من أجله ، وحمت ثغور أفريقية من عادية الفرنجة ، ومكنت للإسلام وللحضارة الإسلامية من أن تنتشر وهى فى مأمن من الغزاة ، فإن زهير بن قيس البلوى [٤] لم يشأ بعد أن حاقت بجنده الهزيمة أن ينسحب من الميدان ، بل رابط ببرقة للدفاع عنها ، والاستعداد لرد العدوان .

وتوسع الأغالبة فى بناء الربط (وكانت تسمى القصور والمحارس [٥]) ،

---

(١) الرحلة التيجانية ورقة ١٥ ا .
(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٧ .
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٥ .
(٥) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ ب .

فانتشرت على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسى ، وكان الناس إذا دهمهم الغزاة يلجأون إليها ، يتعاونون فى الدفاع عن أنفسهم ، ويصمدون فى وجه الغزاة [١] . لم تستطع الأساطيل البيزنطية فى القرن الثانى الهجرى أن تنال من الساحل الأفريقى ، لأن المحارس والربط كانت بالمرصاد [٢] ، وكان المتطوعون الراغبون فى الجهاد يخرجون للعبـــادة والحرس على المسلمين [٣] بقلوب راضية مطمئنة .

ثم انتشر الإسلام بأفريقية ، وأخذت الثقافة العربية تتوغل فى بيئة المغرب ، ووفد الفقهاء والرواة والمحدثون ، وأخذت المدارس تشارك فى الحياة العقليـة التى نشرها العرب فى البلاد ، وشرع فقهاء مذهب مالك يثبتون أقدامهم فى القيروان ، ويبسطون ظلهم على أفريقية ، يشيعون بين الناس تقاليدهم من الشدة فى الحق والتورع عن مصاحبة السلطان ، ومحاربة أهل الأهواء والبدع ، والميل إلى التقشف ، والزهد فى متع الحياة الدنيا ، وغدوا قبلة الناس ومحط رجائهم ، وأخذ القوم يروون الشىء الكثير عن ورعهم وإخلاصهم وتشبثهم بالسنة القويمة ، وانتشرت رسالتهم هذه فى المغرب الأقصى وفى الأندلس على النحو الذى فصلناه فى الباب السابق .

كل هــذه العوامل ساعدت على أن تخرج بالربط عن وظيفتها الأولى ، وهى إيواء الجند المدافعين عن الثغور ، ورد أساطيل الغزاة المغيرين ، وبدأ الناس يقصدون الربط ليس للجهاد فحسب ، بل لتلقى العلم أيضاً ، إذ غدت الرباطات مدارس يدرس فيها الفقه والحديث ، يقصدها العلماء من كافة جهات المغرب فينهلون من مواردها ما طاب لهم أن ينهلوا . ومن العلماء الذين آووا إلى الربط وذاع صيتهم ، وتحدثت عنهم كتب الطبقات أبو القاسم عبد الرحمن بن محمـد

---

(١) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ ب .

(٢) Pinenne : Mahomet et Charlemange, p. 146.

(٣) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٤ ص ٤٢٦ .

الحضرمی[١] المعروف باللبدی ، وأبو الحسن اللواتی[٢] ، وأبو اسحق الساحلی[٣] وعبد الرحيم بن عبد ربه[٤] ، وأبو عثمان الخولانی[٥] ، وأبو محمد بن حكمون[٦] وسعيد بن اسحق[٧] ، وأبو الفضل يوسف بن نصر[٨] ، وأبو بكر محمد بن مسعود التميمی[٩] ، وسعيد بن اسحق الفقيه[١٠] .

ولم يكتف رواد الربط بذلك ، بل برعوا فی التأليف ، وتناقل العلماء كتبهم ، فقد ألف أبو الفضل يوسف بن مسرور العابد بالمنستير كتاب فضل العلم والعلماء[١١] ، رواه عنه أهل الأندلس ، وغدا عباد الربط من الفقهاء مقصد علماء المشرق ، فقد ذكر المؤرخون أن بقية بن الوليد والأزهر بن عبد الله من أهل الشام لقيا عبد المؤمن بن مستنير الجزری العابد[١٢] ، ولما ذاع صيت رباط رادس كتب علماء المشرق إلى أهل أفريقية يقولون « من رابط برادس يوما واحداً حججنا عنه حجة » .

وذاع صيت المالكية فی هذا المضمار ، وانتشر فقهاؤهم فی الربط يعمرونها ويشيعون علمهم فيها ، حتى قيل « إن قصور زياد المرابط بساحل أفريقية

(١) القاضی عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٢١ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) أبو العرب تميم . طبقات علماء تونس ص ١١١ .
(٤) الخشنی : طبقات علماء أفريقية ص ٢٦٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٦٥ .
(٦) المرجع السابق ص ٢٥٢ .
(٧) نفس المرجع والصفحة .
(٨) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٢ .
(٩) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢ .
(١٠) ابن عذاری : البيان المغرب ج ١ ص ١٤١ .
(١١) ابن خير : الفهرسة ص ٣٠٢ .
(١٢) أبو العرب تميم : طبقات علماء تونس ص ١١١ .

دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك»[1] .
كما أشاع المالكية فى أفريقية والمغرب حركة من الزهد والتقشف والورع والتقلل من الدنيا ، وأصبح أئمتهم مثلا يضرب فى العدل والحكمة وعفة اللسان ، والتمسك بأهداب السنة ، وأمامهم فى هذا الميدان سحنون الفقيه المالكى المشهور ، الذى قيل فيه « الفقيه البارع والورع الصادق والصرامة فى الحق والزهد فى الدنيا والتخشن فى الملبس والمطعم ، شديداً على أهل البدع[2] » . والواقع إن هذه الصفات لم ينفرد بها سحنون وحده ، بل اتسم بها جميع فقهاء المالكية بأفريقية والمغرب ، هم الذين بثوا هذا الزهد وهذا التقشف بين الناس ، وكان دستورهم فى ذلك حديثاً يروونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أفضل فقال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله عز وجل ، قالوا ثم من يا رسول الله : قال ثم مؤمن معتزل فى الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة[3] » .

لذلك هرع أهل التقى والورع إلى المحارس والقصور والربط ، فارين من الدنيا ، ينقطعون للعبادة والتقشف . كان بعضهم يغشى الرباطات فى أوقات معلومة من العام كل ما أحس أنه بحاجة إلى زاد من التقوى والتقرب إلى الله ، يغشونها فى شهر رمضان ، وفى أول رجب وشعبان[4] ، يأوون إلى ديارهم ، ولكن بعضهم كان يفر من الحياة فى المدينة إلى الأبد ، ويقيم فى هذه الربط مدى الحياة[5] ، وكثيراً ما يحدث أن يترك التاجر تجارته ، أو الزارع زراعته ، ثم يأوى إلى الرباط ، فلا يخرج منها إلا محمولا على الأعناق[6] .

---

(١) الرحلة التيجانية ورقة ٢ ب .
(٢) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥١ .
(٣) المالكى : رياض النفوس ص ٢١١ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٠٤ .
(٥) عياض : ترتيب المدارك ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٦) المالكى : رياض النفوس ص ٣٣٤

ومن أمثلة أولئك المرابطين المنقطعين عبد الرحيم بن عبد ربه الربعى [١] ، وأبو سعيد بن اسحق الكلبى ، الذى كان دائم الحسرات مغلق الباب حتى مات [٢] . كانوا يقضون أوقاتهم فى رياضة روحية شاقة يقومون الليل، ويصومون النهار مثل أبى حفص ، الذى لم يكن ينام أبداً [٣] ، ومثل أبو يوسف جبلة ابن حمود بن عبد الرحمن بن مسلمة الصدفى ، الذى كان كثير الدعاة شديد التضرع ، وأبى الفضل يوسف بن نصر و بشير المنستيرى ، الذى كان من رهبان الليل لا ينام منه إلا قليلا ، فإذا أصبح يقول « أصبحت ونفسى وقلبى مصران على محبتك مشتاقان إلى لقائك فعجل يا سيدى بذلك قبل أن يأتى الليل [٤] » .

كان أهل الربط يتقللون من الطعام ، فلا يكاد يزيد عن الشعير والزيت ، زار الفقيه ابن حارث إحدى الرباطات ، فرأى المرابطين يستعملون التوابل فى طعامهم ، فاستكثر ذلك عليهم [٥] ، وعده ترفاً وإسرافاً ، لذلك كان بعضهم يصومون عن الطعام أو يتقللون منه . روى أن « أبا عبد الله محمد المتعبد صام حتى نحل وغارت عيناه وعلاه شحوب [٦] » ، كانوا يتقشفون فى الملبس كتقشفهم فى المأكل ، لا يلبسون إلا الخشن الذى يكاد يستر العورة . وكان بعضهم يهيم على وجهه فى البلاد ، « أو يسبحون » على حد تعبير الرواة ، يأكلون النباتات البرية إمعاناً فى تعذيب النفس ، وإذلالها ، ومن هؤلاء أبو على شقران بن على الهمدانى ، الذى روى عنه أنه قال « سح فى الأرض واستعن بأكل عشبها على أداء الفرض لا تحب الدنيا ، وعد الفقر غنى ، والبلاء من الله نعمة ، والمنع من

---

(١) عياض : المدارك جـ ٢ ص ٢٥٤ .
(٢) الدباغ : المعالم جـ ٣ ص ١٧٣ .
(٣) عياض : المدارك جـ ٣ ص ٦٥٠ .
(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٣٢٤ .
(٥) عياض : المدارك جـ ٢ ص ٢٥٤ .
(٦) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ص ١٥٢ .

الله عطاء ، والوحدة مع الله أمنا والذل عزاً [١] » ، كما كان أبو عبد الله محمد المتعبد « فى سياحات ورياضات وعزلة وانفراد [٢] » .

ويبدو أن حركة الزهد والانقطاع للعبادة قد أشاعها المرابطون فى كل ناحية ، حتى أن أميراً من بنى الأغلب اسمه أبو عقال غلبون بن الحسن انقطع إلى السواحل ، وصحب عابداً اسمه أبو هارون الأندلسى [٣] . وبلغ من شهرة الرباطات بالعبادة والأتقياء أن ظهرت أحاديث منسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تشيد بفضل رباط المنستير ، فقد روى أنه قال « بساحل قمونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير [٤] » ، وروى أنه قال « من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة ، فقال أنس بخ بخ يا رسول الله ، قال نعم يا أنس وله فى هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [٥] » .

تناقل أهل المغرب عن هؤلاء العباد قصصاً غريباً أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة ، وسموا بهم إلى مرتبة الأولياء ، حتى بلغ صيتهم المغرب والمشرق ، مثل أبو شقران بن على الهمدانى [٦] ، الذى روى أن ذا النون المصرى جاءه وأقام على بابه أربعين يوماً ، وفروخ بن سعدون ، وأبو السرى واصل بن عبد الله اللخمى [٧] وغيرهم كثير ، وأخذ الناس ينسبون إليهم الخوارق والمعجزات .

---

(١) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٢٢ . ولكن يبدو أن اسمه جاء بصورة أخرى فى رياض النفوس (ص ٤٢٧) ـ أبو عقال بن علون . أنظر أيضاً Vonderheyden : op. cit. p. 117.

(٤) أبو العرب ص ٢ ، ٣ .

(٥) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٤ ، الرحلة التيجانية ورقة ١٤ .

(٦) المعالم ج ١ ص ٢٢٠ .

(٧) المالكى : رياض النفوس ص ٣٣٤

وقد خدمت هذه الرباطات الاسلام أجل الخدمات ، وأسدت إلى السنة المحمدية أياد بيضاء ، فعصمت أهـل المغرب ، لم تعبث بهم يد الفتنة فى وقت انتشرت فيه المذاهب الضالة ، وأخذ مروجوها ينفثون سمومهم فى البلاد ، كما عمل المرابطون على نشر الإسلام ، والدفاع عن حوزته ، وأعلاء كلمته ، وكانت الرباطات ملاجىء يعتصم بها الناس وقت الفتنة ، فلولا الربط والمرابطون لقضى الخوارج والصفرية والأباضية والبرغواطيون على التقاليد السليمة والسنن القويمة ، ولا سيما فى عهد الفاطميين ، الذين مثلوا بفقهاء مالك شر ممثل ، حتى كانوا يفرون بأنفسهم وبدينهم إلى الرباطات [١] ، يتعبدون ويصونون تراث مالك ، حتى إنه ليخيل إلينا أن أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنية ، وهم الذين دكوا صرح الشيعة فى أفريقية والمغرب [٢] .

أما فى المغرب الأقصى فقد انتشرت حركات المرابطة انتشاراً بعيد المدى ، أوغلت فى السواحل حتى أدركت المحيط الأطلسى ، وأوغلت فى قلب بلاد السوس حتى وصلت إلى أطراف الصحراء ، ترفع لواء الزهد والتقشف ، وتضرب للناس أروع الأمثال من التقرب إلى الله ابتغاء وجهه ، وتعمل على نشر الاسلام والتمكين لمبادئه من قلوب الناس .

---

(١) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) وقد تأثرت بلاد الأندلس ببلاد المغرب بحكم الاتصال الوثيق بينهما فانتشرت حركة الرباطات فى الأندلس كما انتشرت فى المغرب وأذكى تيارها هـذا الجهاد المستمر لأعداء الدين وهذه الحرب التى كانت مستمرة بين المسلمين والافرنجة فكان المجاهدون يخفون الى الثغور المرابطة فيها لمدافعة العدو ورده عن حياض المسلمين وكان المغاربة أنفسهم يفدون الى الأندلس زرافات ووحدانا للمشاركة فى حركة الجهاد والدفاع عن حياض الاسلام ، وكما نشر المالكيون تقاليد الزهد والتقشف فى المغرب نشروها فى الأندلس وأخذت كتب الطبقات تتحدث عن فقهاء متبتلين متقشفين يلبسون الصوف ويلتزمون الرباطات فى طليطلة ورباط بطليوس ورباط الفهميين ورباط حصن ولش ، كانت هذه الرباطات ـ شأنها شأن رباطات المغرب ـ عامرة بالعباد والزهاد المنقطعين الى الله المتقشفين المباعدين بين أنفسهم وبين الحياة .

لعبت هذه الربط فى تاريخ المغرب الأقصى دوراً رائعاً ، حمت الاسلام من الفتنة ، ووقت المسلمين وجنبتهم شر المحنة ، وحالت بينهم و بين الانسياق فى تيار النزعات الضالة ، وأوجدت فى المغرب الأقصى جيلا من الفقهاء الزهاد العباد كانوا خير من مهد لدعوة الملثمين ، ومكنوها من النجاح ،والتفوا حولها يباركونها و يؤازرونها ، و يحضون الناس على التمسك بأهدابها .

ومن أشهر رباطات المغرب الأقصى: رباط تازة[١] ، و باط وادي ماسة[٢] ، ورباط تيطنفطر فى بلاد آزمور[٣] ، ورباط سلا على البحر ، ورباط بعض المنقطعين للعبادة قرب فاس[٤] ، ورباط هرغه[٥] ببلاد السوس ، ورباط أصيلا[٦] ، ورباطات أخرى فى أقصى بلاد السوس[٧]. وقد لعب رباط نفيس الذى أنشأه وجاج بن زللو اللمطى[٨] دوراً هاماً فى تاريخ دولة الملثمين ، ففى هذا الرباط تأدب عبد الله بن ياسين بأدب أهل الرباط ، وتلقن مبادئ الزهد والتقشف والورع والاخلاص لله والجهاد فى سبيل الدين .

وانتشرت حركات المرابطة إنتشاراً بعيداً المدى فى القرن الخامس الهجرى ، هذا القرن الذى بلغ فيه الصراع بين المسلمين والفرنجة أشده فى البر والبحر ، ففى الأندلس كانت قوات الفرنجة بعد سقوط الخلافة تجوس فى ديارالمسلمين وتسيمهم سوء الخسف ، وكانت الأساطيل الفرنجية المغيرة من موانى جنوب أوربا وجزر

---

(١) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .
(٣) التادلى : التشوف ص ١٨٥ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٠ .
(٥) أعز ما يطلب ص ٣ .
(٦) البكرى : المغرب ص ١١٢ ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤١ .
(٧) البكرى : المغرب ص ٨٦ .
(٨) التادلى : التشوف ص ٨٦

البحر الأبيض تغير على الثغور ، تنهب وتسلب ، وتنزل بالمسلمين أفدح الأضرار . وفى الجنوب كانت ممالك السودان تواصل تقدمها نحو السنغال بقصد القضاء ، على الجهود التى بذلها الملثمون فى نشر الإسلام فى ربوع الصحراء وبلاد السودان ، وكان عبد الله بن ياسين كما تقدم من ثمرات هذه الحركة المباركة .

وهنا يحق لنا أن نسأل هل كانت حركات المرابطة وما صحبها من النزول بالحصون بقصد الدفاع عن المسلمين ، ثم ما تطورت اليه من الزهد والتقشف والانقطاع للعبادة ، أو صيام النهار وقيام الليل ، وتعذيب النفس وإذلالها بشتى أنواع الحرمان فى الملبس والمأكل ، وقتل الملذات بالتزام حياة شاقة قاسية تحطم فى النفس الرغبة فى المتعة بأطاييب الحياة ، هل كانت حركة إسلامية صرفة ، أعنى هل تطورت هذه الحركة فى ظل الاسلام وحده ، فلم تخضع لمؤثرات مسيحية مثلا . وقبل أن نجيب على هذا السؤال إجابة شافية يحسن بنا أن نعرض لأمور قد يكون التعرض لها مما ينير أمامنا السبيل للاجابة هذا السؤال إجابة قريبة من الصواب .

فقد كانت حركات المرابطة فى الشام والمغرب متشابهة إلى حد كبير ، ففى بلاد الشام على الحدود البيزنطية الاسلامية انتشرت الثغور والربط ، آوى اليها المتعبدون والزهاد للدفاع عن الاسلام والعزلة والتقشف ، أما فى المغرب فقد انتشرت فى موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين القصور والحصون والمحارس والربط لأداء نفس الدور الذى كانت تؤديه ربط بلاد الشام .

ولم يكن التشابه فى الهدف فحسب ، بل كان فى عمارة هذه القصور وهذه الرباطات . زار ابن جبير بلاد الشام ، ودخل بعض هذه الرباطات ووصفها ، فقال « ومن أعظم ما شاهدناه موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء ، فى أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقا منها وهو من البلد بنصف ميل

له شأن عظيم يتصل به . . . وقد وهبه نور الدين ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم[١] » .

أما جورج مارسيه فقد وصف قصر سوسة أو رباط سوسة ، الذى لاتزال آثاره باقية حتى اليوم ، فقال « بناء مربع الشكل فى كل زاوية من زواياه برج أما الجدران فإنها تصعد سامقة إلى السماء ، تنتهى بأقواس متعاقبة فى هيئة كورنيش وهذه الأبرج مستديرة ، غير أن برجا يقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية شكله مربع ولكنه أكثر بروزاً من سواه ينتهى بمؤذنة أسطوانية كبيرة ... ومن الداخل نجد صحنا تحيط به عمد تعلوها أقواس . وهو من دورين يتصل الدور الأول بالثانى بسلم ، وهذا الصحن تحيط به أو تطل عليه زوايا أو غرف ينزل بها المرابطون وتنتشر هذه الزوايا فى الطابقين »[٢] .

هذا التشابه بين وصف ابن جبير وما رسيه له دلالته ومغزاه ، فهو يدل فى رأينا على تشابه فى التأثيرات المعمارية فى بلاد الشام و بلاد المغرب ، و إذا عرفنا أن التأثيرات الشامية بيزنطية ، وأن أفريقية كانت تخضع للنفوذ البيزنطى أدركنا سر هذا التشابه فى عمارة هذه القصور ، وعلمنا أن التأثيرات البيزنطية واضحة فى ربط بلاد الشام والمغرب ، التى كانت فى الواقع حصونا بيزنطية[٣] ، أقيمت فى الموانى ، وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الساحل الطويل ، وكان البيزنطيون يقيمون سلسلة من الحصون الشامية على الحدود ، يشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أى عدوان ، وهو ما يعرف بنظام الثغور .. . إذن هنالك تأثيرات مسيحية فى عمارة الربط ، تأثيرات بيزنطية واضحة لاشك فيها[٤] . .

---

(١) ابن جبير ص ٢٨٧ ، ٢٦٣ — ٢٤٣ .

(٢) Marçrais : Manuel d' art Musulman v. I, p. 27—47.

(٣) Ibid, p. 44.

(٤) Ibid, p. 44

ولكن إذا عرفنا أن الربط الإسلامية كانت فى أول الأمر تؤدى غرضاً حربياً ، حين كانت تشحن بالمقاتلة والفرسان ، ليرابطوا ، ويتخذوا الأهبة للدفاع عن المسلمين ، ورد عادية الأسطول البيزنطى ، أدركنا أن هناك تشابها بين الربط الإسلامية و بين الحصون البيزنطية التى أقيمت على سواحل المغرب ، تشابه فى الأغراض وفى الأهداف .

ولكن بلاد المغرب تحولت فيها الربط إلى أماكن للعبادة والانقطاع والتقشف وصيام النهار وقيام الليل وتعذيب البدن وإذلال النفس ، فهل تأثر المسلمون فى هذه الناحية بحركات الرهبنة المسيحية ، أفرد صاحب كتاب رياض النفوس [1] فى نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء فصلا خاصاً لأهل العبادة والنسك المنقطعين لعبادة الله ، يعرض لحياتهم ، ويصف مايقومون به من صيام النهار وقيام الليل ، حتى لقد سماهم رهبان الليل ، لأنهم لم يكونوا ينامون من الليل إلا قليلا ، يسيحون فى البلاد ، يأكلون النباتات البرية ، و يمعنون فى تعذيب النفس والبدن ، وهذه تقاليد قاسية ليست من الاسلام فى شىء [2] .

لا ننكر أن الاسلام يحارب الشهوات ، ويرغب الناس فى الحياة الأخرى ، ويحض على القناعة ، و يحارب الأثرة ، ولا ننكر أيضاً أن المالكية على وجه الخصوص غلوا فى هذه الناحية بعض الشىء ، وعرف فقهاؤهم بالتزمت والبعد عن الهوى والميل إلى التقشف ، فقد روى عن سحنون أنه قال « ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده ، ولا يتكلف إلى أكثر من ذلك ، و إذا احتاج إلى إمرأة طلبها على قدر ذات يده فى مؤنتها وقناعتها ، حتى يبقى فى يده ما يستغنى به [3] » . ولكن هذه التقاليد التى وضعها سحنون وخلفاؤه لا تحض

---

(١) مقدمة رياض النفوس ص ٢٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) المالكى : رياض النفوس ص ٢٦٣ .

على الامعان فى تعذيب النفس و إذلالها بالرياضة الروحية العنيفة من صيام الليل والنهار، وأكل العشب والفناء فى ذات الله . بل هى مستمدة من تقاليد الاسلام ومتمشية مع تعاليمه نصا وروحا .

٧ — حياة المرابطين فى رباط السنغال .

بعد أن عرضنا لحركات المرابطة فى بلاد المغرب ، وألممنا بتطورها ، وكشفنا عن أهدافها ، و بينا الفوائد التى جنتها البلاد من هؤلاء النساك المجندين لحماية الضعيف ، و إغاثة الملهوف ، نستطيع على ضوء ما قررناه من حقائق أن ندرس هذه الحركة التى بثها عبد الله بن ياسين فى حوض السنغال ، وأن نوضح الدور الذى لعبه رباط السنغال فى تاريخ الملثمين وتاريخ المغرب ، و يخيل الينا أن عبد الله بن ياسين حين بنى رباط السنغال ، كان يحتذى مثل المغرب وأفريقية فى طريقة بناء الرباط وفى نمط الحياة فيه ، فقد كانت ربط المغرب حصوناً تشبه إلى حد كبير القلاع التى انتشرت فى أوربا فى العصور الوسطى [1] ، كان كل حصن يدافع عن نفسه ، وكانت الحصون تتعاون فى الدفاع عن المجتمع وحمايته من الغزاة ، وكانت الربط الاسلامية تتخذ الأهبة لكل طارىء فإذا دقت طبول الخطر [2] ، ولاحت طلائع العدو المغير ، آوى المرابطون إلى رابطتهم يعتصمون من العدو ، و يغلقون فى وجهه الأبواب ، و يدفعونه حتى يرتد على أعقابه وتحل به الهزيمة .

فلا بد أن يكون عبد الله قد جعل هذا الرباط حصنا يدفع عن المرابطين خطر أعدائهم ، و يتيح لهم لوناً من الحماية يفيئون إلى ظلها ، و ينصرفون إلى نسكهم وتقشفهم .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة رباط (G. Marçais,) .

(٢) المصدر السابق .

كان المرابطون فى حصون المغرب يحيون فى داخل الرباط حياة جماعية تعاونية ، يتعاون النساك تعاوناً وثيقاً فى الاضطلاع بأعباء الحياة ، كان للرباطات مزارع[(١)] تمدها بحاجتها من الطعام ، وكان المرابطون يفلحون أرضهم بأنفسهم ، ويتعاونون فى إعداد حاجتهم من الطعام[(٢)] ، وكانوا فى بعض الأحيان يعتصمون بالجبال ، يعيشون من نبات الأرض ، ويقتاتون من صيد البر والبحر ، أو على حد تعبير البكرى « يتخلون عن الدنيا ويسكنون مع الوحوش[(٣)] » . ولم تكن حياة المرابطين فى السنغال تختلف عن هذه الحياة فى كثير أو قليل ، فقد كانوا يعتمدون على ما توافر بجزيرتهم من صيد البر والبحر ، ولعلهم كانوا يزرعون شأنهم شأن مرابطى المغرب[(٤)] .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة خشنة ، وكان مجتمعهم مجتمعاً فاضلا حقاً ، فهذه نفوس مخلصة لا تبتغى غير الدار الآخرة ، متعاونة فى سبيل الله ، ترضى من الطعام بأقله ، وترتدى من الثياب أخشنها ، آلوا على أنفسهم ألا يغادروا الرباط ، وأن يقضوا العمر فيه متعبدين متنسكين[(٥)] .

وكانت هذه الرابطة بمثابة شعلة تسرب نورها فى ظلمة الصحراء ، وتسامع الملثمون المنتشرة قبائلهم من جبال درن فى الشمال حتى منحنى النيجر فى الجنوب بخبر فقيه الرباط ، وتقشفه ، وزهده ، وإخلاصه ، وجهاده ، وبخبر رفاقة المخلصين الذين تجردوا من الدنيا وعرضها ، تاركين الحياة والمال فى سبيل الفوز برضاء الله ، فبدأت العصبة الصغيرة يطرد نموها[(٦)] .

---

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٤ .

(٤) ابن جبير ص ٢٨٤ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٦) المرجع السابق ص ٧٩ .

ولم يعتمد عبد الله بن ياسين فى جذب أنظار المريدين إلى مجرد تسامعهم بأخباره ، بل بعث إلى ديار القبائل البعوث ، تحدث الناس بخبره[١] ، وتقص عليهم ما يلقونه فى رباطه ، يحضون القوم على الطاعة ، ويرغبونهم فى الدخول فيما دخلوا فيه ، فتوافد عليه الناس ، حتى بلغت عدة المرابطين بحوض السنغال ألفا[٢] . فلما كثر أنصاره على هذا النحو ، بدأ رباط السنغال يدخل فى طور جديد من أطوار نموه ، فقد أحس عبد الله بن ياسين أن هذه العصبة المرابطة قد تكون عنصراً فعالاً فى تنفيذ سياسته ، وتحقيق أهدافه ، لو حسن إعدادهم ، وتهيئتهم لذلك الهدف العظيم ؛ الذى كان يسعى إلى تحقيقه ، وهو توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه . فما هى الوسائل التى اصطنعها عبد الله بن ياسين لإعداد هذه العصبة لحياة من الجهاد والكفاح ، وكيف استطاع أن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يفرض عليهم منهجاً خاصاً، استطاع عن طريقه أن يردهم من بدو غلاظ جفاة إلى عصبة مؤمنة متحمسة متحفزة للجهاد ؟ ؟ .

ولم يكن عبد الله بن سين فى الواقع مجرد فقيه يفتى بين الناس فيفسر القرآن ويروى الحديث ، بل كان رجلا نافذ البصيرة بعيد النظر ذكياً خبيراً بالمجتمع الذى يعيش فيه ، له قدرة خارقة على التأثير فى نفوس مريديه ، جعلتهم يؤمنون به إيماناً لا حد له ، فأصبحوا فى يده آلات طيعة يسخرها فى تحقيق الغاية التى رسمها لنفسه ، وفى سبيل هذه الغاية اصطنع لنفسه منهجاً فى الاصلاح لم أجد له مثيلا فى أخبار فقهاء المالكية الذين امتلأت بسيرهم كتب الطبقات .

فقد روى المؤرخون أنه كان يتردد طويلا قبل أن يضم المريد إلى زمرته ، فإذا وافق على إدخاله فى رباطه ألزمه أن يطهر روحه من الدنس والرجس ، وأن يسلم إسلاماً جديداً ، وأن يحاسب على ما اقترفت يداه من إثم فى حياته السابقة

---

(١) روض القرطاس ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

على دخوله الرباط[١] ، فيطلب إليه أن يتوب عن ذنوبه ، ثم يقول « قد أذنبت ذنوباً كثيرة فى شبابك فيجب أن تقام عليك حدودها[٢] » ، ثم تقام عليه الحدود التى شرعها الاسلام ، فيضرب حد الزنا أعنى بضرب مائة سوط ، ثم يضرب ثمانين سوطا حد المفترى ، ثم يضرب حد الشارب ، ثم تضاعف العقوبة بالتدريج[٣] ، فإذا تقبل ذلك راضياً ، فقد طهرت نفسه من الرجس ، وكفر عن آثامه ، وقبل فى زمرة المرابطين ، وأصبح قادراً على تحمل أعباء الدعوة ومشاقها ، وإذا تذمر وتبرم اعتبرت نفسه غير مطهرة ، واعتبر غير أهل للانضمام إلى زمرة المرابطين.

ويحق لنا أن نسأل لم عمد عبد الله بن ياسين إلى ذلك ، وخرج عن رسالته كفقيه ، واصطنع لنفسه منهجا لم يعرف له مثيل فى سير الفقهاء ؟ يخيل إلينا أن سياسته هذه رد فعل لما أصابه فى المرحلة الأولى من دعوته ، فقد سالم واعتمد على النصيحة والموعظة الحسنة ، فلما أخفقت هذه السياسة السلمية اضطر أن يمتحن الذين يرغبون فى الانضمام إليه ، حتى لا يقبل منهم إلا من يثبت إيمانه وشدة رغبته فى التكفير عن ماضيه ، وفى الانصراف إلى حياة الزهد والجهاد ، وأن يدقق فى اختيار أتباعه ، وأن يعذب أبدانهم حتى تمتحن نفوسهم ، ويتبين صدق إخلاصهم ، لأن الحياة فى المجتمع الجديد كانت شاقة تفرض عليهم أن يتحدوا تحت لوائه ، وإلا أخفقت خطته ، ولم يؤد رباطه الغرض الذى انشئ من أجله . كان ينتقى من الملثمين أطهرهم نفسا ، وأوفرهم قوة ، وأقدرهم على تحمل مشاق الجهاد ، وكان المريدون يتحملون ما يلقونه من أذى فى صمت وصبر ، ويعتقدون أن سوط عبد الله هو سبيلهم إلى الخلاص من آثام الحياة ، وكانوا

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

يؤمنون به إيماناً لا حد له ، سموا به إلى مرتبة الأولياء ، ونسبوا إليه الكرامات ونسجوا حوله الأساطير

وإذا اجتاز المرابطون هذه المرحلة الأولى بنجاح . تولى عبد الله تثقيفهم وتعليمهم ، فكان يقرئ القرآن ، ويفسره ، ويروى الحديث ، ويفسره ، ويعلمهم أحكام الدين ،[1] حتى إذا تم له ذلك خوفهم من النار ، وشوقهم إلى الجنة ، وكشف لهم عن مفاسد الحياة ، التي يحيونها ، وطلب إليهم أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر ، وأن يتهيئوا الحياة من الجهاد والكفاح [2] فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، ورد عصبة الملثمين إلى حظيرة الطاعة ، وتطهير المجتمع من أدران الفساد .

وفى أثناء ذلك لم يكن يتهاون أبداً فى حد من حدود الإسلام . أو يترك للمريد فرصة للهو أو عبث ، فإنه يحملهم على الجادة حملا ، فمن تخلف عن صلاة الجماعة ضرب عشرين سوطا ، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط ، « يأخذون الناس بصلاة الظهر أربعا قبل صلاة الظهر فى الجماعة ، وكذلك فى سائر الصلوات فيقولون إنك لابد قد فرطت فى سالف عمرك فاقض ذلك[3] » بل من رفع صوته فى المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب [4] .

ولم يكن عبد الله فى الواقع يؤمن بحرية الاختيار ، أعنى أن يترك للفرد حرية الاختيار بين الشر والخير ، بل كان يرد أتباعه عن طريق الشر بالقوة ، وكان يلزمهم حدود الله إلزاماً ، ويفرض عليهم أحكام الدين فرضاً ، حتى إذا استقامت قناتهم ، ورضخوا لحكم الدين أصبحوا أعضاء صالحين فى مجتمعه الجديد . ولم

---

(١) البكرى . المغرب ص ١٦٥ ، ابن أبي زرع روض القرطاس ص ٧٩

(٢) ابن أبي زرع روض القرطاس ص ٧٩ .

(٣) البكرى : المغرب ١٧

(٤) المرجع السابق

يكن الناس يجدون فى ذلك شذوذاً ، ولا غرابة ، بل كانوا يقبلون عليه ، وتزداد جموعهم يوما بعد يوم ، يرضون بأحكامه عن طيب خاطر ، يطيعونه طاعة عمياء ، ويؤمنون به إيماناً لاحد له ، لا فرق فى ذلك بين كبير أو صغير .

وقد قنع عبد الله بن ياسين فى هـذا المجتمع بدور الإمام الذى يعلم ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقود الناس إلى الطريق السوى . أما دور الأمير أو دور الحاكم الذي ينفذ أوامر الإمام ، فقد تركه ليحيى بن إبراهيم زعيم[1] جدالة ، فلما توفى اختار يحيى بن عمر اللمتونى لقيادة المرابطين ، وتدريبهم على القتال و إعدادهم لمعركة الجهاد .

٨ — خروج المرابطين من رباط السنغال :

ثم أمر عبد الله المرابطين بالجهاد ، وهذا تطور طبيعى لهذه الدعوة التى بثها وهذه الرسالة التى اضطلع بها ، فقد أنذر وحذر ، وأرسل الدعاة إلى القبائل ، يحضون على الطاعة ويحـذرون الناس ، ويخوفونهم من النار ، ويرغبونهم فى الجنة ، فلما يئس من هدايتهم قال لمعشر المرابطين « قد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده[2] » . ثم قال لهم « أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته ، فان تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأطاعوا فخلوا سبيلهم ، و إن أبوا وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم[3] » .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٧٩ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .
(٣) المصدر السابق و نفس الصفحة .

والواقع أن الجهاد والرباط متلازمان ، فقد كانت الثغور الاسلامية فى المغرب والأندلس حافلة بالمرابطين والمجاهدين [١] . واشترك مرابطوا أفريقية فى فتح صقلية [٢] ، وكان محمد بن سحنون يأخذ رمحه ودرقته وسيفه وترسه وسهامه ، ويخرج لقتال الروم ، والدفاع عن عورات المسلمين [٣] ، كما خرج الفقيه سعد ابن أحمد فى أربعة آلاف من المرابطين للجهاد ، ومدافعة الروم عن ثغور أفريقية [٤] .

لكن المرابطين فى حوض السنغال لم يحملوا السيف لجهاد الروم ، بل للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومحاربة الفساد فى مجتمع الملثمين ، وغدوا رهن إشارة هذا الفقيه الورع ، الذى كان قلبه يضطرم بالتحمس للاسلام ، وهذا القائد اللمتونى الذى وهب نفسه للجهاد فى سبيل الدعوة الجديدة ، ألم يقولوا لعبد الله « أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا [٥] » .

ولكن عبد الله لم يأذن للجماعة الجديدة بأن تخرج من الرباط مجاهدة قبل أن يتم تنظيمها على النحو الذى يكفل لها الظفر والنجاح ، لأن الحمية والحماس لا تجديان نفعاً إذا لم تقترنا بالتنظيم الدقيق ، والإعداد الطويل . ليس من شك فى أن عصبة المرابطين قد أخذ عددها يزيد بمضى الوقت ، حتى بلغت ثلاثة آلاف مقاتل [٦] . ولكن عبد الله آثر أن لا يسارع إلى القتال إلا بعد أن ينظم المجتمع الجديد على أسس سليمة . كان يعرف أن المجتمع الجديد فى حاجة إلى المال

(١) السيوطى : بغية الوعاة ص ٤٠٥ .
(٢) مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٦ م .
(٣) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٥٨ .
(٤) عياض : ترتيب : المدارك ج ٣ ص ٣٦١ .
(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ٧٩ .
(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

للانفاق على الجند ،وابتياع السلاح ، فـكان يجمع الزكاة والعشور [١]، ويشترى السلاح ، ويدرب المقاتلة على الحرب [٢] ، وكان عليه أيضاً لـكى يتم له تنظيم الجيش أن يختار له قائداً بعد أن توفى يحيى بن ابراهيم الجدالى .

وقد واجه أزمة كادت تعصف بوحدة المرابطين، وتفرق شملهم ، فقد كان الجداليون من أنصار عبد الله يرون أنهم أحق بالإمارة ، لأنهم آووه ونصروه ، وبثوا الدعوة ، واحتضنوها ، حتى شبت عن الطوق ، واشتد ساعدها [٣] ، ولـكن عبد الله لم يشأ أن ينساق وراء نزعات القبلية ضارة ، إنما أراد أن يختار أصلح القوم وأطهرهم نفساً ، وأحسنهم أخلاقا ، وأصدقهم إيماناً بالدعوة ، وأقدرهم على الاضطلاع بعبء القتال ، ولـكن جدالة شقت عصا الطاعة ، وأرادت أن تفرض على المجتمع أميراً جدالياً خلفاً ليحيى بن ابراهيم [٤] ، ولـكن عبد الله لم يهن ولم يضعف ، إنما جمع مجلساً من وجوه القوم ، وحكم على المحرض على الفتنة بالموت جزاء خيانته [٥] ، فاستطاع بسياسة الحزم والقوة هـذه أن يقضى على الفتنة فى مهدها ، وأن يرد الوحدة إلى المجتمع الجديد .

وكان عبد الله حين نقل القيادة من جدالة إلى لمتونة [٦] صائب الرأى بعيد النظر ، إذ كان يعلم أنه لن يستطيع أن ينفذ بجموعه صوب الشمال ، أو أن يتم الوحدة المنشودة ، إلا إذا ظفر بتأييد لمتونة ، هذه القبيلة القوية الغنية التى كانت تتحكم فى طرق التجارة الساحلية ، وتحتل فى مجتمع الملثمين مكانة مرموقة ، فقد ظلت الزعامة فى أمرائها ما يقرب من قرنين ، هـذا إلى ما كان يتمتع به يحيى

---

(١) روض القرطاس ص ٨٠ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥ .
(٤) البـكرى : المغرب ص ١٦٧ ، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٥ .
(٥) النويرى ج ٢٢ ص ١٧٥ .
(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٩ .

ابن عمر من صفات حازت رضا المرابطين ، وظفرت بإعجابهم . « كان من أهل الدين المتين والفضل والورع والزهد فى الدنيا والصلاح لأمر الجهاد [(١)] » . لذلك جمع عبد الله مجلساً من أصحابه [(٢)] ، وأخذ البيعة ليحيى بن عمر [(٣)] ، فأصبح أميراً على المرابطين ، واستطاع عبد الله بن ياسين ببعد نظره أن يحقق السياسة التى رسمها لنفسه ، استعان بجدالة و بزعيمها يحيى بن ابراهيم فى بث الدعوة ، و إقامة المجتمع الجديد ، ثم رأى أن يستعين بلمتونة فى تزعم حركة الجهاد ، حركة المقاومة حركة توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه .

كان الأمير الجديد يؤمن برسالة عبد الله بن ياسين إيمانا لا يرقى إليه الشك ، و يحرص على تحقيق أهداف حرصه على الحياة ، يطيعه طاعة عمياء ، و يأتمر بأمره ، و ينفذ إرادته دون تردد ، وكان عبد الله بن ياسين لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، لا يتردد فى أن يقتص من المخالف ولو كان أميراً ، لم يتردد فى أن يضرب هذا الأمير عشرين سوطا ، لأنه اشترك فى القتال ، على حين كان يجب عليه أن يقف عن كثب ، يحرض الناس ، و يرسم لهم الخطة الكفيلة بتحقيق النصر [(٤)] .

استطاع عبد الله بن ياسين إذن أن يتم تنظيم المجتمع الجديد . أعد الجيش للجهاد ، زوده بالمال والسلاح ، واختار له أميرا يأتمر بأمره ، و ينفذ إرادته دون تردد ، وقنع هو بالإشراف البعيد ، ونأى بنفسه عن الإمارة ، وكان يقول « إنما أنا معلم لكم دينكم [(٥)] » .

و بعد أن تم لعبد الله بن ياسين ما أراد من تنظيم مجتمعه ، والتأليف بين

---

(١) ابن أبى زرع : الروض ٨٠ .

(٢) روض القرطاس ص ٨٠ ، ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٨ ، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٣) جامع تواريخ فاس ص ٢٩ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠ .

(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢٠ .

قلوب المخلصين من رجاله ، الذين بايعوه على الموت والاستشهاد فى سبيل الدعوة أمرهم بالخروج للجهاد .

ولكن المؤرخين يختلفون فى تحديد الوجهة التى اتجهتها جموع المرابطين بعد خروجهم من رباط السنغال ، قال بعضهم إنهم اتجهوا صوب الشمال نحو مضارب قبيلة جدالة [١] ، لإدخالها فى الدعوة الجديدة بالقوة ، إذا لم تجنح للسلم ، ولأن مضاربها قريبة من مجرى نهر السنغال . ولكن كيف يستطيع عبد الله أن يخاطر بالإتجاه صوب الشمال والعدو من خلفه يهدده تهديداً خطيراً ، كيف يتجه إلى جدالة وهذه مملكة غانة لا تزال قوية تسيطر على مدينة أودغشت [٢] ، وتتحكم فى أهم الطرق التجارية التى تجتاز الصحراء ؟؟. ليس من المعقول أن يتجه عبد الله ابن ياسين صوب الشمال ، ويترك دولة غانة من خلفه تهدد ظهره ، وتقضى على الجهود التى بذلها .

يخيل إلينا أن عبدالله بن ياسين لم يتجه صوب ديار جدالة أول الأمر ، إنما سار إلى الشرق نحو منحنى النيجر ، صوب مدينة أودغشت لاستردادها من الدولة التى كانت قد اغتصبتها من الملثمين بعد سقوط التحالف الصنهاجى الثانى [٣] ، وليحمل أهل غانه على اعتناق الإسلام ، فيحقق غرضين : فيستولى على هذه المدينة الهامة ، ويثأر لما حاق بالملثمين من هزيمة ، ويجاهد فى سبيل نشر الإسلام .

ويبدو أن المعركة التى خاضها عبد الله بن ياسين وعصبته من المرابطين كانت حامية الوطيس ، استبسل فيها المرابطون إستبسالا عظيما ، لأنهم كانوا يقدرون

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٧٩ ، النويرى جـ٢٢ ص١٧٤ ، ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٥٨ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٨ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨٠ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٩ ، البكرى ص ١٦٨ .

النتائج الخطيرة المترتبة على النصر والهزيمة ، فلو حاقت بهم الهزيمة لماتت الدولة الجديدة فى المهد ، ولا نتصرت دولة غانة ، فابتلعت مجتمع الملثمين ، أما إذا تم لهم النصر ثبتت أقدامهم وارتفع شأنهم فى مجتمع الملثمين . وقد استشهد يحيى بن عمر فى هذه المعركة الفاصلة[1] ، وانتصر المرابطون[2] ، و إستولوا على مدينة أودغشت وأوغلوا فى توسعهم صوب الجنوب ، بدليل أن المؤرخين يذكرون أن رئيس التكرور قد حالف المرابطين ، وخاض غمار الحرب إلى جوارهم[3] ، و إذا علمنا أن شعب التكرور يضرب إلى الجنوب من ملك غانة ، أدركنا أنه لا يبعد أن يكون المرابطون قد أو أوغلوا فى ديار غانة حتى أشرفوا على ديار التكرور .

وقد حققت هذه الحملة آمال عبدالله بن ياسين ، فقد تأكد للناس صدق جهاد المرابطين فى مدافعة ملك غانة ، وحمل أهلها على الإسلام بالقوة ، كما عرفت قبائل الملثمين الأخرى أن جميع المرابطين الذين دحروا مملكة غانة لن يلبثوا أن ينقضوا عليهم بعد حين ، وقد ذاعت شهرة المرابطين فى أرجاء الصحراء ، وتجاوزت أصداؤها جبال درن إلى الشمال ، لأن المرابطين عملوا بعد إحتلال أودغشت على التمكين للاسلام الصحيح من نفوس الناس ، ومقاومة الفساد بحد السيف ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتقويم المعوج من سلوك الناس .

ومن أسف أن المراجع لم تتحدث عن هذه الأعمال الجليلة بالتفصيل ، إنما أشارت اليها فى غموض و إبهام ، لا ينير السبيل أمام الباحث ، وليس ببعيد أن

---

(١) جامع تواريخ فاس ص ٢٩ .

(٢) ذكر المؤرخون أن وفاته كانت سنة ٤٤٧ هـ وهذا التاريخ مقبول إلى حد ما . ولم نستطيع أن نحققه تحقيقاً سليما لقلة المراجع المادية التى يعتمد عليها فى التحقيق عادة مثل السكة والنقوش والآثار . وقد خلفه أخوه أبو بكر بن عمر وقد ذكر المؤرخون أن ذلك قد تم عام ٤٤٨ إنما يخيل إلينا أنه بويع قبل ذلك بقليل ساعة وفاة أخيه يحيى أثناء المعركة المحتدمة لأن لا يعقل أن يترك الجند بغير قائد يدير دفة المعركة ويشرف عليها .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٧ .

تكون وفود أخرى من الملثمين هرعت إلى الجنوب لتنضم إلى جموع المرابطين المظفرة ، وتشارك فيما يضطلعون به من شرف الجهاد ، فتضاعف عدد المرابطين ، واشتد أزر أبي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين ، وتدفقت إلى بيت المال الأموال من الأعشار والصدقات والزكاة ، وأصبح المرابطون فى مقدورهم أن يتبعوا هذا النجاح بنجاح آخر ، وأن يواصلوا الحملة إذ كانوا لا يزالون فى بداية المعركة [١] .

وقد اتجهت جموع المرابطين بعد هذا إلى ديار جدالة ، لأن عبد الله بن ياسين أراد أن يؤدب هذه القبيلة على نقضها العهد والميثاق ، وتنكرها للدعوة إثر وفاة يحيى بن إبراهيم ، وكان لابد له كى يواصل تقدمه صوب الشمال أن يمر بمضاربها ويتجنب الصحراء ، التى تقترب من ساحل المحيط فتفصل بينها وبين لمتونة . وقد اتخذ الجداليون الأهبة للقاء المرابطين ، وحشدوا — كما ذكر البكرى — [٢] ما يقرب من ثلاثين ألف مقاتل ؛ وإن دل هذا على شىء فانما يدل على أن جدالة اعتزمت المقاومة والوقوف فى وجه الدعوة الجديدة مهما كلفها الأمر ، وخاضت جيوش المرابطين المعركة مستميتة فى الدفاع : لأنهم كانوا يعلمون أن من يقتل سيكتسب أجر الشهادة فى سبيل الله ، ولأن عبد الله راح يذكى فى نفوسهم الحمية والحماس، ويلهب عواطفهم ، ويؤجج صدورهم بالحقد على أعداء الدين [٣] . وقد نجحت جداله فى الأحداق بجيش المرابطين أول الأمر ، ولكنهم حطموا حلقات الحصار ، وانقضوا على أعدائهم ينكلون بهم شر منكل ، وهزم الجداليون شر هزيمة [٤] ، وأذعنوا للدعوة الجديدة ، ودخلت هذه القبيلة طائعة أو مكرهة

---

(١) النويرى . نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٧ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، النويرى ٢٢ ص ١٧٤ .

فى زمرة المرابطين المجاهدين ، وقد ضاعف هذا النصر أعداد المرابطين ، وشد من أزرهم ، فآمن الناس بأن جندهم محفوف بالنصر أينما سار .

كان من الطبيعى جداً أن يواصل عبد الله بن ياسين سيره صوب الشمال ، مخترقا الطريق الذى يحف بساحل المحيط الأطلسى ، بعد أن أخضع جدالة ، وليس بمعقول أن يكون قد انحرف إلى الشرق لإخضاع قبيلة مسوفة ، التى تضرب فى المنطقة الصحراوية الممتدة من سلجماسة فى الشمال إلى أودغشت فى الجنوب ، لأن مغامرة كهذه تكلف كثيراً من الجهد والمشقة ، فى الوقت الذى تستطيع فيه لمتونة أن تهدده تهديداً خطيراً . لذلك يخيل إلينا — وهذا ما أجمعت عليه المراجع[١] — أنه اتجه إلى لمتونة مباشرة ، وانقضت جموع المرابطين على مضارب هذه القبيلة توغل فيها وتنال منها . ولكن يبدو أن لمتونة لم تقاوم الدعوة الجديدة مقاومة جدية ، كما فعلت جدالة من قبل ، إنما دخلت فى طاعة المرابطين دون أن تكلفهم جداً أو نصبا ، وهكذا استطاع عبد الله بن ياسين أن يضع لبنات ثلاث فى صرح دعوة المرابطين : أخضع غانة ، وقهر جدالة ، واستمال لمتونة[٢] .

عمل المرابطون بعد ذلك على إخضاع جميع قبائل الملثمين ، فأخضعوا مسوفة[٣] ، ولمطة ، وجزولة[٤] . وهكذا تم لعبد الله أن يحقق الهدف الذى كان يسعى إليه ، وهو إقامة حلف جديد من قبائل الملثمين ، يقوم على أساس جديد . كانت الأحلاف السابقة تقوم على أسس مادية صرفة ، من دفع خطر مشترك ، أو للاحتفاظ بالتجارة عبر الطرق الصحراوية ، أما حلف اليوم فقد أقيم على

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠ ، الحلل الموشية ص ١١ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ .
(٤) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .

أسس تختلف عن هذه تماما ، أقيم على أساس روحى صرف ، من احياء الدين ، ونشر الفضيلة ، ومحاربة الرذيلة ، وبسط لواء العدل ، ورفع راية الإسلام . فليس بعجيب أن تصبح هذه الجموع الغفيرة من المقاتلة التى انضوت تحت لواء عبد الله ابن ياسين قوة ذات شأن عظيم ، لا فى تاريخ الصحراء فحسب ، بل فى تاريخ المغرب كله .

أما الأمل الذى كان يدور بخلد يحيى بن ابراهيم الجدالى ، والذى من أجله رحل إلى المشرق وطلب العلم ، فقد تحقق بصورة لم يكن يتوقعها أحد من زعماء صنهاجة السابقين . فقد استطاع هذا الفقيه المتواضع أن يصنع المعجزة ، استطاع بقلبه وعقله أن يجعل من هذه القبائل البدوية جنداً من جنود الإسلام المخلصين ، الذين لا يترددون فى بذل نفوسهم فى سبيل حماية هذا الدين ، والدفاع عنه . نعم استطاع هذا الفقيه الذى خرج من ديار لمتونة منذ وقت غير بعيد خائفاً يترقب أن يوحد القبائل ، وأن يقر السكينة والطمأنينة فى ربوع الصحراء ، وأن يهزم ملك غانة ، ويرده خاسراً إلى الجنوب ، وأن ينشر لواء الإسلام الصحيح على المنطقة الشاسعة الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر فى الجنوب ، فانتشر العدل ، وعلت كلمة الحق ، وأصبحت شرعة الأسماك وأكل القوى الضعيف لا محل لها فى هذا المجتمع الجديد .

ثم ما لبثت الأيام أن كشفت عن تطور جديد فى وجهة الحركة المرابطين ، أو فى أهداف قبائل الملثمين ، فبعد أن كانت هذه القبائل تنتهج سياسة صحراوية محلية . تتجه صوب الجنوب لمدافعة ممالك السودان ، والحيلولة بينها و بين الاستيلاء على مسالك التجارة المارة بين بلاد المغرب والسودان ، أصبحت تتجه وجهة أخرى ، وجهة مغربية إسلامية ، بل وجهة عالمية . بدأت تتطلع إلى ما وراء جبال درن ، إلى المغرب ، ثم إلى الأندلس ، و بدأ أهل المغرب أنفسهم يتطلعون إلى هذه القوة الجديدة ، التى بدأت تطرق أبواب المغرب . ذلك أن

أخبار عبد الله بن ياسين وأبى بكر بن عمر وصحبهما من المرابطين كانت تصل إليهم ، يتناقلها الرواة ، و ينقلها التجار الساعون بين الشمال والجنوب . نعم كانوا يتناقلون أخبار تقاه وورعه وتقشفه وزهده ، وأخبار حكومته التى أقامها على أسس مستمدة من تعاليم الإسلام ، من المساواة بين الناس، و بسط لواء العدل ، ومحاربة البدع ، والقضاء على المفاسد ، وتأليف القلوب على الخير ، وعدم الإثقال على الناس فى ما يفرض الشرع من أعباء مالية . وأصبح أهل المغرب وسكان الواحات الواقعة جنوب جبال درن ، يودون لو يخف المرابطون إلى إنقاذهم مما يرزحون تحته من ظلم المغراويين وعسفهم .

ولم يجد فقهاء سلجماسة وصلحاؤها بدأ من أن يكتبوا للمرابطين [1] ، يرغبونهم فى الوصول إلى بلادهم لتطهيرها من المنكرات ، والقضاء على الأمراء الزناتيين ، فجمع عبد الله شيوخ قومه وشاورهم فى الأمر [2] ، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لأهل سلجماسة ، وقالوا له « أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا و يلزمك فسر بنا على بركة الله [3] » ؛ فخرجت جموع المرابطين زاحفة صوب سلجماسة [4] ، ونازلت أميرها المغراوى ، وهزموه هزيمة منكرة ، وفتحت المدينة ، ودخلت فى طاعة المرابطين .

هكذا قدر للمرابطين أن يتجهوا وجهة جديدة صوب المغرب، وأن يلتحموا بزناتة لأول مرة ، وأن يعجموا عودها ، وأن ينزلوا بها هزيمة ساحقة ستكون ذات أثر بعيد فى تاريخ المغرب والأندلس .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

٩ — سياسة عبد الله بن ياسين فى تحقيق أهدافه :

وهنا يحق لنا أن نسأل ، كيف استطاع عبد الله بن ياسين أن يصيب هذا النجاح ، وأن يحقق هذه النتائج البعيدة الأثر فى تاريخ المغرب ؟ ما هى السياسة التى سنها لنفسه ، فحققت ما يصبو إليه ، وما هى الآثار التى تركتها هذه السياسة فى تاريخ المغرب عامة ، وتاريخ الملثمين خاصة ؟. كان عبد الله بن ياسين يعتقد أن قبائل الملثمين خرجت على تعاليم الكتاب والسنة ، ما دامت قد حللت ما حرم الله ، وكانت سادرة فى هذه الحياة الحافلة بالمآثم والرذائل ، ما دامت لم تأخذ من الإسلام إلا اسمه ، وظلت على تقاليدها القديمة لا تريد أن تتحول عنها . كان لزاماً على هذه القبائل إذا أرادت أن تدخل فى زمرة المرابطين فتنضوى تحت لوائهم ، وتدخل فى دعوتهم أن تتطهر من مآثمها ، وأن تسلم إسلاما جديداً [١] ، فكأنما ولدت من جديد ، وجبت ما بينها و بين ماضيها . وكان على هذه القبائل أن تبايع الإمام عبد الله على الكتاب والسنة [٢] ، والسير وفق تعاليمها ، والعمل على احياء تراث الإسلام ، ونشر تعاليمه . وكان على كل فرد يريد أن يدخل فى زمرة المرابطين أن يخضع لهذه الالتزامات القاسية التى فرضها عبد الله بن ياسين على أفراد مجتمعه فى رباط السنغال : وهى أن يكفر المريد عن خطاياه السابقة ، و يحاسب عليها حساباً عسيراً ، فيضرب بالسياط حد السارق والزانى وشارب الخمر [٣] ، حتى يستهل صفحة جديدة فى حياته ، أما من سالم وأسلم ، وتطهر راضياً طائعاً ، فإن له ما للمرابطين ، وعليه ما عليهم [٤] . أما من أبى واستكبر فليس له إلا السيف يحكمه المرابطون فى عنقه . كان عبد الله بن ياسين

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥ .

يجمع المعاندين ، أو المشركين الخارجين على دعوته ، ثم يحكم السيف فى رقابهم ويذبحهم عن آخرهم [١] .

كان المرابطون فى الواقع يجتازون حربا لا هوادة فيها ولا رحمة ، فإما نصر وحياة كريمة ، وإما موت واستشهاد فى سبيل الدعوة ، وما داموا قد بدءوا بالمسالمة ، ووعظوا وأنذروا وحذروا فليس عليهم لوم إذا لجأوا إلى السيف فى نشر آرائهم ورفع لواء دعوتهم .

ويخيل الينا أن عبد الله بن ياسين كان مضطراً إلى اتخاذ مثل هذه الوسائل ، وأنه لم يعمد اليها حبا فى إراقة الدماء ، إنما كان ذلك لتحقيق أهداف سامية عقد النية على تحقيقها بالسلم أو بالحرب ، وما دام قد اختار الحرب ، فلم يسعه إلا أن يحكم السيف فى رقاب المعاندين .

ويبدو أن سياسة عبد الله هذه لم ترق فى نظر معلمه فقيه السوس ، إذ روى المؤرخون [٢] أنه أخذ عليه إفراطه فى أراقة الدماء ، وعمله على فرض الإسلام بالسيف ، ويبدو أن وجاج بن زللو اللمطى لم يفهم رسالة تلميذه عبد الله حق الفهم . إذ يخيل الينا أنه كان يريد أن لا يجاوز عبد الله دور الفقيه المعلم ، الذى يفسر ويروى ويعظ ، ويؤدى رسالته السلمية فى صمت وفى غير ما جلبة ، ولكنه لم يتصور أن يصبح هذا الفقيه المتواضع معلما صاحب دعوة ورأى ومذهب فى الحياة ، ويعمد بعد أن خابت سياسة المسالمة إلى السيف ، ويخوض ميدان الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ورفع راية الملثمين ، وإتمام وحدتهم ، ولم ينكر على عبد الله اتخاذه هذه السياسة ؟ ألم يكن عبد الله صنهاجيا جزوليا يسعى لخير قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويود أن يرتفع بهذه القبائل إلى مثل ما إرتفعت اليه قبائل البربر ، فتوجه سير الحوادث فى المغرب الأقصى؟

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٨ ، روض القرطاس ص ٧٩ ، النويرى ج ٢٢ ص ١٧٥ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٦ .

كان عبد الله بن ياسين يعتقد أنه حين لجأ إلى القوة لم يأثم ولم يخطىء ، بل كان يرضى ضمير الفقيه المخلص المتحمس ، فقد كتب الى أستاذه يقول « أما إنكارك على ما فعلت ، وندامتك على ارسالى فإنك أرسلتنى إلى أمة كانت جاهلية يخرج أحدهم ابنه أو بنته لرعى السوام فيرعيان فى المرعى . . . وليس دأبهم الا إغارات بعضهم على بعض ، وقتل بعضهم بعض لادية، عندهم من الدماء ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقى بينهم فى الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والحدود فيهم فمنهم من قبل واليته ومن تولى أرديته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته »[1] .

ولم يكن عبد الله يحكم السيف وحده فى رقاب الناس ، بل كان يلجأ الى وسائل أخرى لتأليف قلوب المسلمين الجدد ، وترغيبهم فى الدعوة الجديدة ، حتى يؤمنوا برسالتها إيماناً صادقا ، كان يسقط المغارم والمكوس[2] ، ويلغى الضرائب الجائرة ، التى كان الحكام والولاة يلجأون اليها لامتصاص دماء الناس وإذلالهم لم يفرض إلا ما أوجبه الكتاب والسنة ، فرض الزكاة ، وأخذ الأعشار ، وألزم الأغنياء بدفع صدقات للفقراء[3] ، وقسم الغنائم والأسلاب فجعلها فيئاً للمرابطين[4] ، وأقام بيت مال للمسلمين ، ينظم دخلهم ومنصرفهم[5] ، فآمن الناس بأن الدعوة الجديدة عادلة منصفة تأخذ بناصر الملهوف وتحمى الضعيف ، وتزيح عن الناس ما أثقل كواهلهم . فليس عجيباً إذن أن نرى هذه الاصلاحات يتجاوب صداها فى بلاد المغرب قاطبة ، وقد رأينا أن أهل سجلماسة كتبوا إلى المرابطين يسألونهم أن ينقذوهم مما هم فيه من بؤس وشقاء .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧٦ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٢ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ .
(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ .
(٤) الحلل الموشية ص ١١ ، روض القرطاس ص ٨٠ .
(٥) روض القرطاس ص ٨٠ .

ولم يغفل عبد الله بن ياسين أمر الدعاية للدولة الجديدة ، ونشر أخبارها بين الناس ، حتى يجذب اليها الأنظار ، ويأتيه الأنصار من كل فج ، فكان يبعث أموالا من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة [١] وفقهائها وقضاتها ومحتاجيها ، حتى يعرف الناس أن فى الصحراء قوما يحمون الفقير ، ويأخذون بناصر الضعيف ، ويكرمون أهل العلم ، ويخصونهم بالبر ، ويمدون لهم يد العون .

على أن الجانب السياسى من شخصية عبد الله بن ياسين لم يحجب الجانب العلمى ، وهو جانب الفقيه المعلم ، إذا لم يكف عبد الله عن أداء رسالته ، إذ ظل يروى ويحدث ويعلم [٢]، حتى خلق فى الصحراء جوا من العلم والمعرفة لم يكن يألفه الناس من قبل ، إذ لاتثبت أركان الدين إلا بالعلم ، ولا إسلام صحيح إلا بدراسة حقه لكتاب الله وسنة رسوله ؛ وقد أدى ذلك إلى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالورع والتقى وإنكار الذات ، خلصت نياتهم وزكت نفوسهم . ومن أمثلة هؤلاء الفقهاء تلاميذ ابن ياسين لمتاد بن نصير اللمتونى الذى يضرب المثل بفتياه فى بلاد الصحراء [٣] ، ومنهم أيضاً ميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى ، الذى رحل إلى الأندلس محدثا وراويا ؛ بل إن أمراء الملثمين أنفسهم أخذوا من العلم الذى بثه عبد الله بن ياسين بنصيب وافر [٤] .

وإذا كانت سياسة عبد الله بن ياسين قد تمخضت عن أذكاء نور العلم والعرفان ، ورفع الروح المعنوية لهؤلاء القوم ، الذين كانوا يضربون فى بيداء الجهل ، إلا أنه عرف كيف يسمو بالروح الحربية فى نفوس المرابطين من أنصاره ؛ ولم

---

(١) روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ج ١ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٤) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .

يصبح القتال فى نظره وسيلة للدفاع عن النفس، أو للسلب أو النهب، بل أصبحت له غاية سامية هى الدفاع عن الدين ؛ وحمايته و بثه بكل وسيلة ممكنة والجهاد فى سبيله والموت دونه . وليس من شك فى أن الايمان الصادق إذا اقترن ...قة التنظيم الحربى، وحسن الإستعداد للقتال خليق بأن يوجد طبقة من الجند لا يعرف الخوف الى نفوسهم سبيلا ، بل يخوضون المعارك غير هيابين ولا وجلين .

وقد تحدث المؤرخون عن هذه العصبة الجديدة القوية ، وأوردوا كثيراً من ضروب الشجاعة والأقدام فى الحروب التى خاضوا غمارها ، فكانوا « أثبت من الهضاب ولم يحفظ لهم فرار من زحف [1] » .

لذلك لا نعجب اذا كان صيتهم قد ذاع فى المغرب والأندلس ، وتناقل الناس قصصا عجيباً عن هؤلاء القوم ، عن قوتهم ؛ و بطولتهم ؛ وأخذت العصبة الناشئة تتخذ لوناً من ألوان الفروسية والفتوة « شاع فى المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء ، وأنها دعوة دينية على دين متين وتأسيس بفقه ، وأنه إسلام جديد ، فحدقت إلى سمته العيون ، وصرفت إليه الوجوه ، ثم ارتفع إليه الصراخ [2] » . و بدأ المقاتلون الجدد يتهيئون لنجدة كل مظلوم ، والوقوف بجانب كل ضعيف ، يتهيئون لإصلاح المجتمع وتطهيره . فليس غريبا أن يتطلع الناس إلى هؤلاء القوم المنقذين يطلبون الخلاص مما هم فيه من بغى الولاة وفساد الحكام ، يطلبون الدخول فيما دخلوا فيه ، والمضى معهم فى إصلاح المجتمع، والعودة بالإسلام إلى مجده السابق .

١٠ — أسس دعوة عبد الله بن ياسين :

أما وقد فرغنا من الكشف عن الجهود التى بذلها عبد الله بن ياسين فى سبيل التمهيد لإقامة صرح دولة فتية جديدة ، فقد بقى علينا أن نعرض لناحية

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١١ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٨ .

هامة ، ناحية غامضة فى تاريخ قيام دولة المرابطين ، ونقصد بها أسس دعوة عبد الله ابن ياسين . لقد كان لعبد الله دعوة وطريقة خاصة فى إصلاح المجتمع ، له آراء وأفكار يجب أن نكشف النقاب عن منابعها الأولى ، ونثير السبيل أمام الباحث لتفهم هذه الناحية . وهذا الغموض مرده إلى أن المؤرخين لم يتحدثوا بالتفصيل فى هذا الموضوع ، لأن المراجع المعاصرة تعد على الأصابع ، ولا يزال بعضها مفقوداً لم يعثر عليه حتى اليوم[1] . كما أن المراجع التى كتبت بعد سقوط دولة المرابطين تأثرت بذلك العداء المر الذى شنه الموحدون على أعدائهم المرابطين فشوهوا تاريخهم وطمسوا معالم آثارهم ، وحاربوهم كما يحارب الكفرة ، والفساق ، فرموهم بكل نقيصة ، واتهموهم بالكفر والإلحاد ، ولم يستطع المؤلفون أن يبرأوا من هذه النزعة العدائية ، فلم يذكروا الحقيقة كاملة ، سكتوا حيث تجب الإفاضة فى الحديث ، وأوجزوا حيث تجب الإطالة ، وأبهموا حيث يجب الوضوح ، فلم يرووا غلة ولم ينقعوا صدى .

ثم نسب الموحدون إلى المرابطين أموراً ، ورموهم بدواهى ، وأسهبوا فى الرد عليهم وتكفيرهم . والمنطق السليم يقضى بأن نسمن هذه الدعوة الظالمة ، ونرى الأسباب الخفية لهذه التهم الجائرة ، ونفند ما قالوه ، فنعرض أولا لما رواه المؤرخون عن عقيدة عبد الله بن ياسين ، عن أسس دعوته ، ثم نعرض لأقول المتهمين له المشوهين لرسالته ، ثم نخلص بعد المقارنة والمناقشة إلى الرأى الذى يقبله العقل ويرضى عنه المنطق .

وقبل أن نمضى إلى هذه الغاية يجب ألا نغفل ناحية مهمة ، تستحق أن نقف عندها ، وأن نفصلها تفصيلا[2] ، ونقصد بذلك مكانة عبد الله بن ياسين فى المجتمع

---

(١) مثل كتاب الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية لأبى بكر بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٣٠ هـ .

(٢) كنا قد أشرنا إلى مثل ذلك أشارات عارضة فى ثنايا الكتاب .

الجديد . هل أدى دور الفقيه لم يجاوزه ، هل كان صاحب دعوة إصلاحية ، هل كان إماماً فى هذا المجتمع الجديد ، هل كان مهديا كما قيل،هل تجاوز رسالة الفقيه وذهب مذهباً آخر ، إلى أى حد خرج عن الدور الذى رسمه له أستاذه وجاج ، ولم خرج عنه ، وما هى الأسباب التى برر بها هذا الخروج ؟ .

ليس من شكٌ فى أن عبد الله بن ياسين كما أشرنا بدأ حياته فى الصحراء فقيها يعلم الناس ، ويفسر لهم القرآن ، ويروى الحديث ، ويفتى فيهم ، يؤمهم فى الصلاة ويعظهم ويذكرهم، ويحضهم على سلوك الطريق القويم ، وينهاهم عن عن البغى والمنكر ، لكنه مالبث بعد أن أخفقت سياسته المسالمة أن سن لنفسه ولأتباعه خطة الجهاد المسلح لإخضاع قبائل الملثمين ، وردهم إلى حظيرة الدين بالقوة ، وتطهير نفوسهم . فهل تجاوز عبد الله حين اصطنع لنفسه ذلك المنهج الذى أشرنا إليه دور الفقيه المعلم . الواقع إن سياسة عبد الله الجديدة ؛ ونبذه سياسة المسالمة ، وتبنيه سياسة الكفاح والجهاد والحرب،واصطناع الشدة لردالعصاة،وتطهير المجتمع من أدرانه لم ترض كما تقدم أستاذه فقيه السوس وجاج بن زلو اللمطى ، ورأى فى منهجه خروجا عن رسالة الفقيه الذى يهدى الناس إلى الحق .

إذن فقد جاوز ابن ياسين فى رأى وجاج دور الفقيه المسالم . ولكن قد يقال كيف يلام عبد الله بن ياسين على سياسته تلك ، وهاهم فقهاء القيروان من المالكية قد وسعوا من سلطة الفقيه ، وأضافوا لأنفسهم حقوقا لم تكن لهم من قبل ، فقد روى المؤرخون أن سحنون الفقيه المالكى المعروف كان أول من نظر فى الأسواق ؛ أعنى أول من ضم وظيفة المحتسب إلى وظيفة القاضى[1] فى المغرب على الأقل . «أخذ ينظر فيما يصلح ، من المعاش وما يغش من السلع ويجعل الأمناء على ذلك . يؤدب على الغش وينفى من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من

(١) عياض . المدارك ج ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

نظر فى الحسبة من القضاة ، وأمر الناس بتغيير المنكر ، وأول القضاة الذى فرق حلق أهل البدع من الجامع . وشرد أهل الأهواء منه وكان يضرب بالدرة و يقيم الحدود فى الجامع[١] » .

بل تطور دور الفقيه المالكى فى القيروان إلى أبعد من هذا ، فقد روى بعض المؤرخين أن سحنون كان يجمع الصوفية من البرارى ، فيجتمع إليه منهم نحو ألف يختار منهم فئة قوية يستعين بها فى رد المظالم[٢] ، وتأديب العصاة و إرهاب ذوى البغى والشر . نعم جرد عبد الله سيف الحق على البغى والفساد فى مجتمع الصحراء ، وجاهد هو وعصبته من المرابطين جهاداً شاقاً مريرا ليمكن للإسلام الصحيح من نفوس القوم الذين ضلوا طريق الحق ، وانغمسوا فى حمأة الرذيلة .

وليس من شك فى أن فقهاء المالكية فى ذلك العصر اضطرتهم الظروف إلى ذلك اضطراراً ، فقد بعدت الهوة بين المثل العليا الرفيعة التى رسمها القرآن للحياة الصالحة ، و بين الواقع المرير من الحياة المليئة بالضعف والإنحلال والفساد والتخاذل[٣] ، ولما أخفق الأمراء فى إصلاح الحال ، و إنقاذ المجتمع مما يعانيه من ضعف وانحلال[٤] ، التف الناس حول رجال الدين يلتمسون العون ، فأخذ الفقهاء يضطلعون بأعمال الإصلاح بقدر الطاقة ، و يحمون المجتمع من الفساد بقدر ما تيسر لهم من جهد . وكان البعض الآخر يصبرون على ما يجدون من مظالم مكرهين مطلين النفس بأن المهدى سيظهر ليطهر العالم من الفساد و يحمى الضعيف و يغيث الملهوف[٥] .

---

(١) عياض : المدارك ج ٢ س ٤٧ — ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ س ٥٦٧ .

(٣) جلدزيهر : العقيدة والشريعة س ١٩٤ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

ولكن الفقهاء السنيين على وجه العموم ، والمالكيين على وجه الخصوص لا يقولون بالخروج على ولى الأمر أو شق عصا الطاعة عليه ، كانوا يعتقدون « بأن المسلم الصالح حباً فى خير الجماعة ، وإبقاء على وحدتها لا ينبغى أن يشق عصا الطاعة ، بل عليه إيثاراً للمصلحة العامة أن يحتمل صابراً المظالم القائمة ، ويتذرع بالصبر وطول الأناة فى معاناة آثام الأشرار ، ولكنهم لا يتوقون علاوة على ذلك إلى التوفيق بين الواقع ومقتضياته ، وبين إيمانهم وتقواهم ، وأمدهم بهذا التوفيق رجاؤهم الوحيد فى ظهور المهدى [(١)] ... »

فإذا كان فقهاء المالكية قد أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر مصطنعين القوة فى بعض الأحيان ، وعارضوا أولى الأمر ، وجدوا فى رد عدوانهم ، ولم يمتشقوا الحسام [(٢)] خروجا على ولى الأمر ، وإذا كانوا قد قاوموا البدع بحد السيف فقد كانت مقاومات فردية [(٣)] .

أما عبد الله بن ياسين فقد امتشق الحسام ، وخاض غمار الحرب دفاعاً عن الإسلام ، ووضع أساس دولة جديدة ، واتخذ لقومه أميراً يلى أمورهم ، ويقود عسكرهم ، ورتب الجيوش ، وأمدها بالسلاح ، وأقام بيتاً للمال وجبى الزكاة ،

---

(١) جلدزيهر ص ١٩٤ .

(٢) قال ابن عباس « من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فإنه من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية » . أنظر الطرطوشى : سراج الملوك ص ١١٥ .

(٣) رأى المالكية فى الخروج على أئمة الجور « ذكر يحيى بن عون قال دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه وأصابه فى علة قلق فقال له « يا ابن القصار ما هذا القلق الذى أنت فيه ؟ قال الموت والقدوم على الله عز وجل فقال له سحنون ألست مصدقا بالرسل أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله تعالى يرى يوم القيامة وأنه على العرش استوى ولا تخرج على الأئمة بالسيف وإن جاروا . . . مت إذا شئت » . أنظر رياض النفوس ص ٢٦٦ .

لم يكن عبد الله بن ياسين إذن مجرد فقيه من فقهاء السوس أو من فقهاء القيروان، لا ننكر أن عبد الله عزف عن الإمارة من المبتدأ [١] ، ولكنه كان كل شيء فى المجتمع الجديد ، هو الوحى والموجة والمشير . إذا خرج الأمير عن القواعد التى سنها أدب على ذلك ، لم يتورع عن ضرب الأمير يحيى بن عمر لأنه جاوز تعليماته وعصا أمره [٢] . وكانت الجيوش إذا خرجت للحرب خرج ابن ياسين فى المقدمة يتبعه الأمير وسائر الجيش [٣] ، وكان الأمير فى الوقع هو الذى يأمر وينهى [٤] .

لم يكن عبد الله إذن مجرد فقيه ، بل كان صاحب دعوة فى الإصلاح ، كان من رأيه ألا يعصم المجتمع من الفساد إلا الشدة فى الحق ، ولو تجاوزت هذه الشدة الحدود المرسومة . كان صاحب آمال بعيدة ، لم يكن يهدف إلى الوعظ والتذكير ، بل كان يريد إقامة دولة إسلامية على أساس جديد من الدين الحنيف ، يريد الرجعة إلى عالم مجيد مضى أيس المسلمون من رجوعه مرة أخرى.

لم تكن حركة عبد الله بن ياسين مجرد أمر بمعروف ونهى عن منكر ، كانت خروجاً على ولى الأمر المنغمس فى الفساد . كانت خروجاً على أمراء زناتة المسيطرين على المغرب ، وأوليائهم من الأمويين الذين دالت دولتهم بالأندلس ، كان عبد الله بن ياسين صاحب دعوة مصلحاً وزعيا دينياً وسياسياً . كان يؤمن بأن الوحدة بين قبائل الملثمين هى سر القوة ، وهى الكفيلة بالمضى فى حركة الإصلاح التى بدأها [٥] ، والتى إن عمت خلصت المجتمع من أدرانه ، وباعدت بين الناس و بين ظلم الحكام . كان يخشى أن تدهم الفرقة أتباعه فتذهب ريحهم ، وتتحطم الآمال التى عقدها عليهم . هذه السياسة تتبين بوضوح

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧٤ .
(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .
(٣) الحلل الموشية ص ١٠ — ١١ .
(٤) المرجع السابق ص ١٢ .
(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

فى وصيته إلى قومه حين أشرف على الموت إذ قال [١] « يا معشر المرابطين إنكم فى بلاد أعدائكم وإنى ميت فى يومى هـذا لا محالة فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا ألفة وأعواناً على الحق فى ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فان الله يؤتى ملكه من يشاء ويستخلف فى الأرض من يشاء من عباده ... [٢] »

وقد وصف صاحب روض القرطاس عبد الله بن ياسين ولقبه بمهدى المرابطين [٣]، فهل اتخذ عبد الله لنفسه لقب المهدى؟ الواقع أننا لم نعثر فى المراجع التى بين أيدينا على ما يؤيد اتخاذه هـذا اللقب ... وإن كان فى الحقيقة قد أدى الدور الذى كان الناس يترقبون ظهور المهدى من أجل تحقيقه ، وهو التقريب بين المثل العليا وواقع الحياة ، ورد الإسلام إلى عنفوانه الأول ، وإقامة صرح العدل وبث الطمأنينة فى النفوس ، والقضاء على ما كان يعانيه المجتمع من علل نخرت فى عظامه وكادت تأتى عليه .

يخيل إلينا أن ابن أبى زرع كان متأثراً بحركة الموحدين ، فاذا كان ابن تومرت قد اتخذ لقب المهدى ، فلا بأس من أن يخلع صاحب الروض على عبد الله ابن ياسين لقب المهدى .

وقد تمكن ابن ياسين من قلوب معاصريه بفضل الصفات الشخصية الممتازة التى توفرت له ، وبفضل السيرة الطيبة واصطناع التقشف وإذلال النفس بكثرة الصيام [٤] ، إلى جانب قوة الحجة والقدرة الفائقة على التأثير فى سامعيه ، وخلب

---

(١) يذكر صاحب روض القرطاس (ص ٧٤) أنه توفى فى ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٤٥١ هـ كما يذكر صاحب كتابه المدارك (ج ٤ ص ٥٣١) أنه توفى عام ٤٥٢ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٤) البكرى : المغرب ص ١٦٨ ، روض القرطاس ص ٨٤ .

لبهم بحديثه الممتع وعلمه الغزير ، فليس بغريب أن نرى المرابطين لا ينظرون إليه نظرتهم إلى فقيه مصلح أو زعيم ، بل نظروا إليه نظرتهم إلى ولى من أولياء الله ، وبدءوا ينسبون إليه الخوارق والمعجزات[١] ، « تحفظ فتاويه وأجوبته فلا يعدل القوم عنها» ، بل ظلوا بعد وفاته لا يقدمون أحداً للصلاة بهم إلا إذا كان ممن صلى خلفه ونعم بصحبته[٢] ، وظل قبره يحج إليه الناس من كافة الجهات متبركين، وقد قيل أنه دفن بموضع يعرف بكريفلة بتامسنا[٣] ، ولكن يبدو أن الموحدين أخفوا معالمه انتقاما منه ، وإن كانوا قد عجزوا عن اخفاء سيرته التى ظل الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل .

أما دعوة عبد الله بن ياسين فانها تقوم على أسس أهمها : الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتزام أحكام الدين فى فروض الزكاة والأعشار وغيرها من الواجبات المالية . وقد أخذ الجهاد منذ أن شرع فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يحتل فى الاسلام مكاناً مرموقاً خصوصاً بعد أن توسع المسلمون فى بلاد الفرس والروم

وقد احتل الجهاد فى المغرب الإسلامى أيضاً مكاناً رفيعاً ، لأن المغرب كان أكثر البلاد الاسلامية تعرضاً لغارات الروم وغزواتهم ، فقد كانت سواحله الطويلة مكشوفة معرضة للغزو فى أى وقت ، وكانت أساطيل العدو لا تكف عن الإغارة على المدن الآمنة تسلب وتنهب ، كما كانت هذه السفن تعيث فى البحر تسد المسالك على سفن المسلمين وأساطيلهم فتنال منها ، لذلك عنى المسلمين فى المغرب بمدافعة الروم أشد العناية ، واتخذوا الأهبة لرد عدوانهم ، فنشأت

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٩ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

حركة المرابطين مقترنة برغبة جامحة فى مجاهدة العدو ، ورده عن حياض المسلمين وكان المسلمون يفدون على الثغور من كافة الجهات ليشاركوا فى الدفاع عن البلاد مكتسبين أجر الجهاد ، وكان مُلاك المسلمين فى الأندلس يتعرض لمثل ماتعرض له ملكهم فى المغرب ، فأصبح الجهاد هناك سياسة مقررة يلتزمها كل أمير ، ويحلها المحل الأول من سياسته .

وكان المسلمون يفدون على الأندلس ، ويرحلون إلى الثغور للمرابطة والجهاد والمشاركة فى دفع العدو ورده على أعقابه . نعم احتل الجهاد فى الإسلام محلا رفيعا ومكانا مرموقا ، حتى كاد أن يصبح ركنا سادسا من أركان الدين ، أصبح فرض عين عند طائفة من الخوارج[١] ، وأصبح الجهاد والإسلام متلازمين يجب الجهاد طالما فى المجتمع الإسلامى رمق من حياة ، ولا يكف المسلمون عن الجهاد إلا إذا انحل المجتمع الاسلامى وعفت آثاره[٢] .

وللجهاد قواعد وأصول وأحكام رسمها الدين وحدد معالمها ، وسنرى إلى أى حد التزم عبد الله بن ياسين أحكام الدين فى هذه الناحية ، كما سنرى إلى أى حد جاوز الحدود المرسومة وخرج عليها . وأول أحكام الجهاد أنه فرض كفاية على كل مسلم بالغ صحيح العقل والجسم ، توافرت له أسباب بلوغ جيش المسلمين ، ويجب أن يستمر هذا الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة فى حكم الإسلام[٣] . وقد فرض عبد الله بن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين من أول الأمر ، بعد أن خابت سياسة المسالمة ، وأصبح لزاماً عليه أن يمتشق الحسام فى سبيل نشر الدين ، وفرض الجهاد على قومه ، ودعاهم اليه ، وحضهم على التزامه ، وقال لهم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D.B.Macdonald) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D.B. Macdonald) .

« وجب عليكم أن تجاهـدوا فى سبيل الله حق جهـاده وأن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنـكروا دين الإسلام فاستعدوا لقتالهم [(١)] » .

نعم لقــد أذكى عبد الله بن ياسين حركة الجهاد، وظل هو وعصبته يكافح كفاح الأبطال مجاهداً ، حتى لقى مصرعه شهيداً فى قتال المرتدين من برغواطة . فرض الجهاد على أعوانه كافة لم يستثن أحداً، يستنفرهم ويؤجج قلوبهم بالحماس ، ويرغبهم فى الشهادة . ومن أحكام الجهاد أيضاً أن يقوم عليه حاكم مسـلم [(٢)] أو إمام ، ولم يغفل عبد الله بن ياسين هذه الناحية الهامة ، فما كاد يستقر له الأمر فى رباطه بجزيرة السنغال ، وما كاد أتباعه تتضاعف أعدادهم حتى عقد النية على أن يتخذ المجتمع الجديد أميراً يقود الجيش ، وينفذ سياسة الجهاد ، فبايع يحيى ابن عمر ، فلما قتل اختار أخاه أبا بكر بن عمر ، وظل هو بمنأى يوجه الجماعــة الجــديدة من بعيد ، ويرسم لها سياســة الجهاد وفق أحكام الدين ، قال لقومه « اجعلوا لـكم حزبا وأقيموا لـكم راية وقدموا لـكم أميراً [(٣)] » .

وإذا كانت أحكام الجهاد تقول بأن شرط الجهاد يتوفر إذا قام الإمام بغزوة مرة فى كل عام [(٤)] ، فان عبدالله بن ياسين قد جاوز ذلك فجعـل أعوانه من المرابطين مجندين للجهاد فى كل وقت ، يقفون على أهبـة الإستعـداد لـكل طارىء ، ويخيـل الينا أن ذلك يرجع إلى أن المرابطين قد خرجوا من رباطهم فى حركة غزو وفتح مستمرة ، فلم يكن من المعقول أن يضعوا السيف حتى يقهر العدو ، ويدخل الناس كافة فيما يدعو اليه عبد الله بن ياسين من الإسلام الصحيح. ومن الغريب أن دولة المرابطين لم تضع السيف أبداً منذ قيامها حتى قدر لها أن

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، النويرى ص ١٧٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. B. Macdonald) .

تسقط ، فبعد أن تم الجهاد فى المغرب انتقل الجهاد إلى الأندلس ، فكانت دولة عاشت من أجل الجهاد ، وذهبت فى سبيل الجهاد .

وإذا كانت أصول الجهاد تقضى بأن يدعى الناس إلى الإسلام قبل أن يعلن الجهاد ، فان أبوا خيروا بين القتال أو الدخول فى حكم الإسلام [١] ، فإن عبد الله بن ياسين أنذر وحذر وخوف ، وبعث البعوث إلى القبائل تدعو بالحسنى والموعظة الحسنة ، ولم يعمد إلى السيف إلا بعد أن أصموا آذانهم [٢] ، وتربصوا به وهموا بالقضاء عليه ، كان يفرض عليهم أن يسلموا إسلاما جديداً وإلا عاملهم معاملة المشركين ، فإن أسلموا وتابوا وأنابوا بايعوه على الكتاب والسنة ، ودخلوا فى زمرة رجاله ، لهم ما له وعليهم ما عليه ، وأن أبوا حكم السيف فى رقابهم ، وحاربهم حربا لا رحمة فيها ولا هوادة .

وإذا كانت أحكام الجهاد قد قضت بأن أموال من يأبون الدخول فى الإسلام ويختارون القتال غنيمة للمسلمين [٣] ، يأخذ الجيش الغازى أربعة أخماسها ، فإن عبدالله بن ياسين اعتبر المناوئين له الصادين عن الدخول فى دعوته كفارا يجب قتالهم ، فكان يقاتلهم حتى يقهرهم ، ويردهم على أعقابهم ، وكانت أموالهم غنيمة لجيش المرابطين وفيئا لهم ، وكان يقسم الغنائم وفق ما قضت به السنة [٤] ، كما أنه التزم ما نصت عليه السنة من النهى عن قتل النساء والولدان [٥] ، فكان يقتل الرجال لأنه اعتبرهم مرتدين عن الإسلام ، يحل له قتلهم حتى لا يفتنوا غيرهم .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : مادة جهاد .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ ، الحلل الموشية ص ١٠١ .

(٥) موطأ الإمام مالك ص ١٦٧ .

مما تقدم يتبين لنا أن عبد الله بن ياسين التزم السنة فى أحكام الجهاد [١]، وحض على الإستشهاد فى سبيل الله، ونادى بالوفاء بالأمان [٢]، ولم يقتل النساء والأطفال، كما التزم الأحكام فى توزيع الغنائم والأسلاب.

أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد اتفقت الأمة الاسلامية على وجوب الأخذ به [٣]، حض عليه القرآن، [٤]، ونادى به الرسول صلى الله عليه وسلم [٥]، ولما كان من غير المعقول أن يخلى بين الأفراد و بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتعم الفوضى و يحدث الاضطراب، فقد تولى الإمام هذا الأمر فى مستهل قيام الدولة العربية، فكان الخلفاء وعمالهم يأمرون الناس بالمعروف، و يحاربون المنكر، و يحملون الناس على الجادة المستقيمة.

فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتعذر على الإمام مباشرة هذا الأمر بنفسه، استعين بالمحتسب [٦]، ينديه الامام لهذا الأمر، يتولاه بنفسه، يرقب المجتمع بعين ساهرة يقظة، و يحول بين الناس و بين السير فى الطريق المعوج. ولكن العالم الإسلامى ما لبث أن دهمته الفرقة، وعجز الأمراء عن تحقيق آمال

---

(١) الموطأ ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣.

(٣) ابن حزم: الفصل بين الأهواء والملل ج ٤ ص ١٧١

(٤) قال تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر». سورة آل عمران: آية ١٠٣

(٥) «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ن إستطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان. لا طاعة فى معصية إنما الطاعة فى الطاعة وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». أنظر ابن حزم ج ٤ ص ١٧٣،

(٦) Lévi-Prevençal : Un Manuel Hispanique de Hisba : sur la Surveillance des Corporations et la repression des fraudes en Espagne Musulmane; p. 1.

جلدزيهر: العقيدة والشريعة ص ٨٧.

جمهور الأمة ، وانتشرت المفاسد ، و بعد ما بين المثل العليا الرفيعة ، والحياة الواقعية الحافلة بالاثم ، و إنحرف المحتسبون عن الجادة ، ولم يشددوا القبض على الفتنة[١] ، فعم الجور وانتشر الفساد ، و بدأ أولى البصيرة يكتبون فى الحسبة رسائل تبصر المحتسبين بأقوم الطرق التى يسلكونها لتحقيق آمال الناس، ومحاربة البغى والفساد [٢] . فبدأ الناس بعد أن يئسوا من الأمراء وأعوانهم يتطلعون إلى الفقهاء ليأخذوا بناصرهم ، فيقوموا المعوج من أمور المجتمع ، وقد وضح هذا الاتجاه — على ما نعلم — فى المغرب أكثر منه فى أى قطر آخر ، بسبب هذه التقاليد الرفيعة التى بثها علماء المالكية فى أنحاء البلاد ، من الشدة فى الحق ، والزهد فى الترف ، ونصرة الضعيف ، ومقاومة بغى السلطان وعدوانه .

وكان المالكيون فى المغرب يستلهمون الإمام مالكا فى تقاليده وآرائه ، وهو الإمام الذى نهى عن صحبة السلطان ، ولم يتحرج من أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر إذا رأى منه أعوجاجا ، فقد روى أنه قال «حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى كل ذى سلطان ، يأمره بالخير ، وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين لأن العالم ، إنما يدخل على السلطان لذلك ، فاذا كان فهو الفضل الذى لا بعده فضل[٣]» .

اضطلع فقهاء المالكية فى المغرب بهذا الأمر بعد ما رأوه من انحراف الأمراء ، وإنصرافهم إلى غير إصلاح أحوال المجتمع . أمروا الناس بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر ، وشنوا على المفاسد والبدع حربا لا رحمة فيها ولا هوادة ، روى المؤرخون أن فقهاء القيروان كانوا حربا على المنكر ، فضيقوا على أهلها فى ملاهيهم ، بل حاربوا أصحاب العقائد الضالة من الصفرية والإباضية [٤] .

(١) Provençal et Colin : Un Manuel Hispanique de Hisba, p. 1.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٧ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧ .

(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٢٧٦ ، ٣٨١ . الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص١٣٥ وص ١٥٥ .

وكان طبيعياً أن يترسم عبد الله بن ياسين خطى فقهاء القيروان، وغيرهم من فقهاء المالكية فى المغرب ، فلم يقنع بتعليم الناس وتثقيفهم فى دينهم ، بل أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وإذا كان فقهاء القيروان قد قاموا بمحاولات فردية فى هذا السبيل ، فان عبد الله بن ياسين جند أمة بأسرها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وسخر المرابطون سيوفهم لتقويض صرح الباطل ، وتطهير المجتمع من أدرانه ومفاسده ، وإستطاع ذلك الفقيه المتواضع أن يخلق جيلا من المحاربين الأشداء ، يتعصبون لفكرته ، ويخفون إلى نصرته ، ويبايعون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولكن هل تجاوز عبد الله بن ياسين الحدود التى رسمتها السنة لسل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الواقع إن فئة من الصحابة والتابعين قالوا إن الغرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إنما بالقلب فقط ، ولكن أهل السنة [1] اتفقوا على أن الإمام العدل إذا قام عليه فاسق وجب سل السيوف للدفاع عنه ، ورد الفئة الباغية الظالمة [2] ، كما قالت غالبيتهم « بأن سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك، فلذا كان أهل الحق فى عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر فرض عليهم ذلك [3] » قال تعالى « وإن فئتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء [4] إلى أمر الله » فكأنه قد فرض على المسلمين قتال الفئة الباغية . إذن فقد التزم عبد الله بن ياسين حدود الشرع فى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فقد أمر بقلبه وبلسانه

---

(۱) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ۱۷۱

(۲) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(۳) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) سورة الحجرات آية ۸ .

سالم ونصح وحـذر وأنذر ، حتى إذا أخفق لم يجد مناصا من سل السيف دفاعا عن الحق ، فقد كان يعتقد أن الأمير الذى بايعه المرابطون إمام عدل ، وأن الخارجين عليه فئة باغية ، وأنه يجب على المرابطين أن يسلوا السيف دفاعا عن هذا الإمام العادل .

و إذا كان الفقهاء قد قالوا بأن أهل الحق يستطيعون امتشاق الحسـام إذا قدروا على ذلك ، ولم ييئسوا من الظفر ، فإن عصبة عبد الله بن ياسين بعد أن زادت عدداً وعدة كانت قادرة على دفع العـدوان ورد البغى ، واثقة من الفوز والظفر ، و إذا كان الـكتاب الـكريم قد جوز قتال الفئة الباغية بعد اليأس من الإصلاح ، فإن عبد الله يئس من إصلاح قومه و اعتبر الخارجين عليه فئة باغية يحل قتالهم وجهادهم .

و إذا كانت أحكام الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر قضت «بألا يؤخذ مال المسـلم بغـير حق ولا يضرب ظهره بغير حق [١] فإن فعل به ذلك فهو إثم وعدوان » ، فإنه لم يرو عن عبد الله بن ياسين — فيما نعلم — أنه تجاوز هـذا الحد ، فـلم يغتصب مالا بغير حق ، ولم يضرب ظهراً بغير حق . و إذا كان لا يحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنـكر أن « يهتك حريما ولا أن يأخذ مالا بغير حق » [٢] ، فإن عبد الله بن ياسين قد عف عن ذلك ، و إلا لما كان ثمة ما يدعو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل كان عبد الله حربا على الإثم أينما وجد ، وعلى البدع أينما كانت ، لا تكاد عصبته تطأ أرضاً حتى تغير المنكر وتقطع المزامير وتريق دنان الخمر [٣] ، فلم يجاوز ما نادى به فقهاء القير وان من

---

(١) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧١ .

قبل حينما حاربوا البدع والملاهى [1] ، بل إن الإمام الغزالى يجيز اقتحام البيوت لتحطيم آلات الطرب ودنان الخمر [2] .

ومن المبادىء الإصلاحية التى أخذ بها عبد الله بن ياسين عمله على أن يزيح عن الناس ما كانوا ينوؤن به من ضرائب ظالمة جائرة ، فإن إضطراب الأحوال السياسية بالمغرب ، وما أعقبه من جور الحكام وعسفهم ، وتنكبهم الطريق السوى ، وأثقالهم على الرعية بقصد ابتزاز أموالهم ، قد زهد الناس فيهم وجعلهم يتطلعون إلى من يخلصونهم مما يعانون من ظلم واصطهاد ، وقد أفتن ولاة الأمر فى فرض هذه المغارم ، فمن مكوس إلى معونة إلى قبالات إلى تقسيط [3] ، بل أمعنوا فى ظلمهم و بغيهم ، فجبوا الخراج من الأرض التى أسلم أهلها ، فتركت على أن يدفعوا ضريبة العشر ، ومن الأرض التى وزعت على الفاتحين على شرط أن تعفى من الخراج اكتفاء بالعشر ، وقد اضطر عبد الله بن ياسين إلى رفع هذه المظالم ، واعفاء الناس من هذه الضرائب الجائرة ، واكتفى بفرض ما أوجبه حكم الكتاب والسنة . فروى المؤرخون أنه التزم احكام الكتاب ، ولم يحد عنه قيد أنملة [4] ، فرض الزكاة والتزم أحكام الدين التى تقضى بأن لا تفرض إلا على ثلاثة أشياء : الحرث والعين والماشية [5] ، وليس من شك فى أن عبد الله جبا الزكاة بأنواعها من زكاة المعادن [6] ، وزكاة التبر والحلى [7] ، وزكاة أموال اليتامى ، والتجارة

---

(١) المالكى : رياض النفوس ص ٣٠٣ ، ٣٨١ .

(٢) جلدزيهر ص ٨٧ .

(٣) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ ، روض القرطاس ص ٨٧ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٨ ، السعادة الأبدية ج ٢ ص ٣٨٩ الجذوة ص ٣٤٢ .

(٥) الموطأ ص ١٠٣ .

(٦) الموطأ ص ١٠٥ .

(٧) الموطأ ص ١٠٥ .

هم[١] ، وزكاة الميراث[٢] ، وزكاة العروض[٣] ، وصدقة الماشية[٤] ، وزكاة ما يخرص من ثمار النخيل والأعناب[٥] ، وزكاة الحبوب والزيتون[٦] ، وضريبة أهل الكتاب[٧] ، وأخذ الأعشار من أهل الذمة الذين يتاجرون فى بلاد المسلمين[٨] .

وقد كانت هذه الإصلاحات ذات أثر بعيد المدى فى تاريخ الدعوة المرابطية ، إذ أظهرت للناس فى المغرب والأندلس أن المرابطين قوم لا يبغون جاها ولا مالا ، إنما يبغون الإصلاح وإنقاذ الناس مما ترديوا فيه من جور وعسف ، فأخذوا يتطلعون إلى هذا الشعب الذى بعث بعثا جديداً ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا بأن هذه السياسة كانت تكسب المرابطين عطف الجماهير الفقيرة ، التى كانت تهب للترحيب بهم ، وتأييدهم فى كل مكان حلوا فيه .

ولكى تتم دراسة هذا الموضوع دراسة وافية شاملة ، لابد من أن نعرض لناحية أخرى هامة ، وهى مناقشة التهم التى ألصقها الموحدون بالمرابطين ، إذ لا يمكن أن تتم دراسة عقائد المرابطين دراسة صحيحة ، إلا إذا عرضنا لما يقوله الموحدون ، وحاولنا أن نعرف ما إذا كانت هذه الادعاءات صحيحة أم غير صحيحة .

---

(١) الموطأ ص ١٠٥ — ١٠٦ .
(٢) الموطأ ص ١٠٦ .
(٣) الموطأ ص ١٠٨ .
(٤) الموطأ ص ١٠٨ .
(٥) الموطأ ص ١٠٦ .
(٦) الموطا ص ١١٧ .
(٧) الموطأ ص ١٢١
(٨) الموطأ ص ١٢١

رحل محمد بن تومرت المصمودي إلى الأندلس والمشرق [١] ، واغترف من معين الثقافة الإسلامية في المدرسة النظامية ببغداد [٢] ، ثم عاد إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويهاجم أمراء العصر ، ويشدد النكير عليهم ، ويتهمهم بأنهم مسئولون عما حل بالمجتمع من مصائب ، وما دهاه من انحلال،[٣] وسرعان ما وجه همه إلى دولة المرابطين . أعلن عليها حربا لا رحمة فيها ولا هوادة وظل يؤلب قبائل المصامدة ، ويؤجج الحقد في قلوب البربر حتى أوغر صدورهم على الدولة التي دافعت عن العقيدة الإسلامية دفاعا مجيداً ، واستطاع بعد جهود متصلة أن ينال من الدولة وأن يهددها تهديدا خطيرا ، وهو في سبيل ذلك يكفر المرابطين ويتهمهم بالزندقة ، ويرمي فقهاءهم وعلماءهم بالجمود والتأخر ، ويحملهم مسئولية ما أصاب المجتمع من فساد . وقبل أن نفصل ما رمى به المرابطين من كفر وضلال ، وما حشده من تهم يجدر بنا أن نشير إلى ناحيتين هامتين قد تعينان على استبطان هذه الدعوة الظالمة ، والتعرف إلى موجهاتها ، وأهدافها،ومعرفة الأسباب التي هيأت لمحمد بن تومرت من أن ينال من المرابطين على هذا النحو .

كان محمد بن تومرت ينتسب إلى قبيلة هرغة من قبيلة مصمودة[٤] الجبلية الضاربة بالمغرب الأقصى ، هذه القبيلة التي عرفت في طول تاريخها بشدة مراسها ، وكرهها الشديد لبدو الصحراء ، الذين كانوا يغيرون على مواطنها ، وينالون منها ، وقد أخضع المرابطون هذه القبائل بعد فتح المغرب ، وأذلوها ، فاستكانت للغلبة ولكنها ظلت تضمر الحقد والكراهية للملثمين ، وتتلمس السبل المؤدية إلى الثأر

---

(١) جلد زيهر ص ٩ .
(٢) جلد زيهر ص ١٣ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٩١ .
(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٦ ، أعز ما يطلب ص ٤٠ ، المراكشي ص ٢٠ ، الحلل ص ٥٧ ، أبو الفدا جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٤) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٦ ، جامع تواريخ فاس ص ٣١ ، أبو الفدا جـ ٢ ص ٢٤٣

د نالها . والخلاص مما تردت فيه من مذلة وخضوع . ثم كاد محمـــد بن تومرت المصمودي يرفع علم المقاومة ، ويحمل لواء الجهاد حتى كانت قبائل المصـامدة من خلفه ، تتبنى حركته ، وتشد أزره ، وتسوق له الـكتائب تدافع عنه ، وتنصره ثأراً لما نالها من هزيمة وإذلال على يد بدو الصحراء[١] . إذن فإن دعوة الموحدين دعوة أذكتها العصبية القبلية ، وأوحى بهـا ذلك العداء المر بين القبائل الجبلية المستقرة ، وبين شعوب الملثمين ، هي دعوة ظاهرها الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، وباطنها تعصب ذميم ، وكره دفين وطعن في المرابطين وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم .

رفعت دولة المرابطين علم مذهب مالك ، فلا بأس من أن يعلن صـاحب الدعوة الجديدة الحرب السافرة على مذهب مالك ، وفقهاء مالك ، فيرميهم بالتعصب والجمود والتكالب على عرض الدنيا[٢] ، وبلغ من كره الموحدين لهذا المذهب أنهم أحرقوا مدونة سحنون[٣] . دعا المرابطون لبني العباس ، وخطبوا لهم على المنابر ، فلا بأس من تؤدى الـكراهة العنصرية إلى أن يخرج المصامدة على بني العباس ، وأن يعملوا لإقامة خلافة موحدية[٤] ، لا تدين بالتبعية لبني هاشم ، ولا لبني أمية .

وقد توسل محمد بن تومرت المصمودي بوسائل كثيرة لـكسب الأنصـــار لدعوته الجديدة ، فادعى الانتساب إلى بني هاشم[٥] ، واتخذ لنفسه اسم محمـد ابن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الفاطمي المحمدي[٦] ، ووضع أنصـاره له نسباً

---

(١) الإدريسي ص ٦٤ ، المراكشي ص ١٢٣ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩١ ، الاتحاف ج ١ ص ٦٢ .

(٢) ملحق البيدق ص ١٣٦ .

(٣) أحمد بابا : نيل الابتهاج ص ١٣٨ .

(٤) أبو بكر الصنهاجي (البيدق) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٣ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٦) المرجع السابق ص ١١ .

ربطه بعبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1] . بل ذهب إلى أبعد من هذا ، أخذ يهيء الأذهان لقرب ظهور المهدي ، يذكره ، ويشوق إليه ، ويجمع الأحاديث التي تقول بقرب ظهوره[2] ، ويبين للناس أن « الباطل لا يرفعه إلا المهدي وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي وأن المهدي معلوم في العرب والعجم والبدو والحضر وأن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل ديوان وأن ما علم بضرورة الاستفاضة قبل ظهوره يعلم ضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان بالمهدي واجب وأن من شك فيه كافر ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع يفتح للدنيا شرقها وغربها يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور »[3] ، ثم أعلن للناس أنه المهدي المنتظر[4] ، الذي يبعث في آخر الزمان ، لإنقاذ المجتمع مما يعانيه من بؤس وشقاء ، بل ذهب محمد بن تومرت إلى أبعد من هذا ، إذ أحيا نظرية الإمامة ، وادعى أنه الإمام المعصوم[5] ، لا يجوز عليه الخطأ ، من شك فيه فهو كافر مارق وزنديق[6] . لأن الإمام يجب أن يكون معصوماً من الباطل ليهدم الباطل ، معصوماً من الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال[7] ، « لا بد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن وأن يكون معصوماً من البدع[8] ، من خرج عليه أو كفر بإمامته أو نقض بيعته أحل ماله واستبيح دمه[9] » .

(١) الزركشي ص ١٤٦ .

(٢) المراكشي ص ١٢٠ .

(٣) أعز ما يطلب ص ٢٥٤ — ٢٥٧ .

(٤) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) البيذق ص ١٥ ، ملحق البيذق من رسالة الفصول ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، المراكشي ص ١٢٣ .

(٦) أعز ما يطلب ص ٢٤٥ ، البيذق ص ٥٢ .

(٧) أعز ما يطلب ص ٢٤٥ .

(٨) المرجع السابق

(٩) المرجع السابق ص ٢٥١ . ٢٥٤ .

أما الناحية الأخرى التى يجب أن نضعها نصب أعيننا حينما نحاول أن نتفهم سر هذه الحملة العنيفة ، التى شنها الموحدون على المرابطين ، فهى أن محمد بن تومرت ظهر فى عهد على بن يوسف بن تاشفين[١] ، بعد وفاة عبد الله ابن ياسين بما يزيد عن نصف قرن من الزمان . كان يتنقل فى مدن المغرب ، يأمر الناس بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر[٢] ، وقد دخل المهدية ثم بجاية ثم ذهب إلى أغمات[٣] ، ثم بارحها إلى فاس ، حتى استقر به المقام فى مراكش آخر الأمر[٤] ، ولم يرد عنه فى هذه الفترة أنه تعرض لعقائد الناس بالسوء ، فلم يكفر أحداً ولم يتهم أحداً ، كان همه منصرفاً إلى محاربة البدع ، وحض الناس على التزام أحكام الدين ، وإطراح ما انغمسوا فيه من إقبال على الدنيا ، وتثاقل عن العمل للحياة الأخرى .

وكانت دولة المرابطين بعد أن مضى على قيامها وقت طويل ، قد بدأ الفساد يدب فى أوصالها ، وبدأت الدعوة الكريمة التى وضع عبد الله بن ياسين أساسها وبناها بدمائه ، ودماء أعوانه من المرابطين ، تفقد أثرها فى نفوس القوم ، وانصرف الأمير على بن يوسف عن أمور الحكم إلى الانقطاع للعبادة[٥] ، فازداد عتو الفقهاء وسيطروا على الحياة العامة فى المغرب والأندلس ، وكان بيدهم تصريف شئون الدولة ، حتى ضج الناس بالشكوى ، متبرمين باستبدادهم بالسلطة وبدأت النساء تلعبن فى المجتمع دوراً كبيراً ، يوجهن السياسة العامة ، ويتحكمن فى مجريات الأمور[٦] . كما أخذ الأمراء المرابطون يستبدون ببعض مناطق الأطراف ، ويهددون الدولة بالانقسام ثم الزوال[٧] .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٣١٧ .
(٢) ابن الخطيب رقم الحلل ص ٥٧ .
(٣) أعز ما يطلب ص ٤ ، بن عذارى جـ ١ ص ٣١٧ .
(٤) جامع تواريخ فاس ص ٣٣ .
(٥) المراكشى : المعجب ص ١١٤ — ١١٥ .
(٦) نفس المرجع والصفحة .
(٧) نفس المرجع والصفحة .

كانت هذه الأحوال السيئة مما أذكى الحمية فى قلب محمد بن تومرت ، ودفعته إلى أن يعمل بقدر ما وسعه من جهد إلى مقاومة هذا المنكر ، و إصلاح هذا الفساد ، وكان يرى أن الأمير مسئول بين يدى الله عن ذلك كله ، وأن باستطاعته أن يقوم المعوج و يرد العاصى[١] ، فلما دخل مراكش ، وعظ على بن يوسف وأمره بالمعروف ، ونهاه عن المنكر فى شىء من العنف ، ثم التحم مع الفقهاء المالكيين المحيطين بعلى بن يوسف فى مناظرة عنيفة ، أستخدم فيها علم الكلام وتعاليم المدرسة النظامية ببغداد ، فأفحم مناظريه وأجج نار العداء فى صدورهم فأتمروا به ، وحملوا على بن يوسف على أن يخرجه من مراكش خائفاً يترقب[٢] .
و بعد أن خرج ابن تومرت من مراكش ، اتخذت دعوته مظهراً آخر ، أعلنها حربا ضروساً على المرابطين ، وراح يؤلب قبائل المصامدة ، و بدأت حملاته على المرابطين وعقائدهم تشتد وتعنف ، و بدأ منذ هذه اللحظة بالذات يشكك الناس فى عقائدهم ، و يرميهم بالزيغ والمروق على الدين ، و يبين لهم أن الدعوة الصحيحة هى التى يحض عليها و يدعو لها . . .

ولكن قد يقال وما لعبد الله بن ياسين وعلى بن يوسف ، والشقة بينهما بعيدة ، توفى عبد الله بن ياسين عام ٤٥٠هـ وولى على بن يوسف عام ٥٠٠ ، وللرد على ذلك نقول أن محمد بن تومرت لم يوجه حملته لعلى بن يوسف ، بل إنه وجهها للمرابطين على وجه العموم ، ولما كان عبد الله بن ياسين هو صاحب الدعوة ، وصاحب الرسالة ، ومنشىء الدولة ، فإنه تكفير المرابطين يعتبر تكفيراً له ، ومهاجمة عقائدهم يعتبر مهاجمة لعقيدته ، و إتهامهم بالمروق عن الدين يعتبر إتهاما له بالمروق عن الدين ، لذلك يجب أن نعرض بعد ما ذكرنا من ملابسات لبعض هذه التهم فنثبتها على عبد الله بن ياسين أو ننفيها عنه .

---

(١) البيدق ص ٦٨ ، رقم الحلل ص ٥٧ .
(٢) أعز ما يطلب ص ٧ .

كانت أهم التهم فى نظر ابن تومرت أن المرابطين مجسمون مشبهون ، يشبهون الخالق بالمخلوق ، وينسبون إليه من الصفات ما ينسبون إلى البشر من السمع والبصر والحركة ، وما إلى ذلك ، وهم فى نظر ابن تومرت كفرة يجب جهادهم حتى ينفوا عن الخالق التشبيه ، والتشريك ، والنقائص ، والآفات ، والحدود ، والجهات ، ولا يجعلوه فى مكان ، ولا فى جهة ، فانه تعالى موجود قبل الأمكنة[1] والجهات ، فمن جعله فى جهة ومكان ، فقد جسمه ، ومن جسمه ، جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا ، فهو كعابد وثن ، فمن مات على هذا فهو مخلد فى النار[2] ، هم فى رأيه كفرة يجب جهادهم كما يجاهد الروم[3] . دماؤهم حلال سفكها ، وأموالهم فيء ، جهادهم فرض على الأعيان على كل من فيه طاقة على القتال[4] . وكل من قتل من الكفرة والمجسمين ، فهو مخلد فى نار جهنم وبئس المهاد[5]« أعلموا أنكم فى قتال الكفرة على الحق المبين ... أعلموا وفقكم الله أن المجسمين أشد فى الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين[6] . حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها . وحرفوا الكلام عن موضعه ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد وإتباع السنة مخالفا[7] » ...

والمجسمون فى الواقع يفسرون النصوص المجسمة والمشبهة ، التى جاءت فى القرآن ، والحديث ، والنصوص المتواترة تفسيرا حرفيا ، فالله بصير سميع غضوب

---

(١) البيدق ص ٤ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ٩ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع ص ٢٠ .

(٦) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٧) نفس المرجع ص ٤ .

ضاحك يجلس و يقف له يدان ورجلان . . . وكانوا يفسرون هذه الآيات على ظاهرها ويطلبون الإيمان الأعمى بحرفية النص [(١)].

والواقع أن المسلمين فى تفسير الصفات المنسوبة للخالق فريقان : فريق لم ينكر هذه الصفات ، وفريق أنكرها إنكارا تاما . والفريق الأول هم جمهرة أهل السنة ، والفريق الثانى هم فريق المعتزلة ، أو المعطلة الذين يعطلون الصفات الإلهية [(٢)] . فالفريق الأول قالوا بأن لله صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجود ، والأنعام والعزة ، والعظمة . لا يفرقون بين صفات الذات ، وصفات الفعل ، ويثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه ، ويقولون بأن هذه الصفات قد وردت فى الشرع ، فوجب تسميتها صفات خبرية ، ثم قالوا أن الله تعالى ليس كمثله شىء ، ولا يشبه شىء من المخلوقات ولكنهم لا يعرفون معنى اللفظ الوارد فيه ، مثل قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» وليسوا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات ، يكفيهم الإعتقاد بأن لا شريك له ، وليس مثله شىء ، لا يريدون التأويل ، بل يقبلون النصوص على علاتها ، ويؤمنون بها كما هى [(٣)] . ويمثل هذا الرأى مالك بن أنس الذى لم يتعرض للتأويل ، ولا وقع فى التشبيه ، فلما سؤل فى ذلك ، قال « الاستواء معلوم والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة [(٤)] » . وقد وقف أحمد بن حنبل مثل هذا الموقف ، وكذلك سفيان ، وداود الأصفهانى من الأئمة [(٥)] .

---

(١) ابن حزم الفصل جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٢) جلد زيهر : العقيدة الشريعة ص ٦٥ — ٩٦ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ص ٦٤ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

أما المعتزلة فهم ينفون الصفات عن الخالق ، ويقولون بالتأويل : الله عالم بذاته ، قادر لذاته ، وقدرة وحياة هي صفات قديمة ، ومعانى قديمة ، واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار ، ونفى الشبه عنه « من كل وجه ومكان وصورة وجسم ، وتحيز وإنتقال ، وزوال وتغير وتأثير » . وقد سمى هذا التأويل توحيدا ، وأصبح العدل والتوحيد من أركان عقائد المعتزلة [1] . وقد حاول الأشعرية أن يوفقوا بين رأى أهل السنة وعلماء الكلام ، فأثبتوا الصفات للخالق ولكنهم استعانوا فى تبرير ذلك بعلم الكلام [2] ، فلم يقبلوا هذه الآيات على علاتها كما فعل أهل السنة » ولم يرق ذلك فى نظر جمهرة الفقهاء السنيين ، فظلوا على رأيهم القديم لأنهم لم يكونوا يؤمنون بعلم الكلام ، لأن علم الكلام فى ذاته عدو ، سواء أقاد إلى نتائج سنية أو بدعية ، شعارهم « فر من الكلام فى أى صورة ما يكون كما تفر من الأسد[3] » . وقد أمر الإمام الشافعى أن يضرب المتكلمون بالسياط والنعال ، وأن يطاف بهم مشهرين فى المجامع والقبائل وينادى عليهم «هذا جزاء من ينبذ علم القرآن والسنة وينكب على علم الكلام[4] » ، والكلام علم إذا أصاب المرء فيه [5] لم يؤجر وأن أخطأ فيه كفر . ليس هنالك حاجة للعقل فى معرفة الحقيقة الدينية فهى موجودة فى القرآن والحديث . وقد رأينا كيف أن المالكية فى المغرب كانوا يكرهون المتكلمين ، ويحاربون المعتزلة حربا لا هوادة فيها ولا رحمة . كانوا ينفرون من الرأي ، ويأخذون على أتباع أبى حنيفة توسعهم فى ناحية الرأى لأن مالكا كان يكره أهل الرأى ، وكان يقول « الرأى والجدل فى العلم يذهب بنور العلم فى قلب العبد[6] » .

---

(١) الملل والنحل ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٣) جلد زيهر : العقيدة والشريعة ص ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٤

إذن تأثر ابن تومرت بالمعتزلة في هذه الناحية ، فأنكر الصفات كما أنكروا ، ونادى بالعدل كما نادوا ، وقال بالتوحيد كما قالوا ، فسمى أتباعه الموحدين ، وصب على أهل السنة أصحاب الصفات ، الذين لا يقولون بالتأويل جام غضبه ، وحمل عليهم حملة منكرة . وإذا كان المعتزلة قد قالوا بأن من أجاز رؤية الله تعالى بالأبصار بلا كيف فهو كافر ، والشاك في كفره كافر [1] ، فأن ابن تومرت اتهم القائلين بالصفات بالكفر والزندقة . أحل دماءهم وحض على جهادهم . والمعتزلة يسرفون في التكفير ، على حين أن أهل السنة لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب دون الشرك [2] . إذن فاتهام المرابطين بالتجسيم هو اتهام عام ، اتهام لأهل السنة على العموم ، للفقهاء على اختلاف مذاهبهم .

وقد أنكر ابن تومرت المذاهب كلها ، كما أنكرها المعتزلة من قبل . ولم يكن عبد الله بن ياسين إلا فقيهاً من هؤلاء الذين ترسموا خطى إمامهم مالك وغيره من أهل السنة في إثبات الصفات لله عز وجل . وعزوفهم عن التأويل واشتغالهم عن الخوض في بحر خضم هو بحر علم الكلام والفلسفة . إن كفر ابن تومرت المرابطين فقد كفر المعتزلة أهل السنة جميعاً وحضوا على قتالهم وجهادهم .

ليس من شك في أن طائفة من المتأخرين ، قد غلت في التشبيه غلواً كبيراً فقالوا بأن الله تعالى جسم ، وحجتهم في ذلك أنه لا يقوم في المعقول إلا جسم أو عرض ، فلما بطل أن يكون تعالى عرضا ، ثبت أنه جسم . وقالوا إن العقل لا يصح إلا من جسم ، فالبارى تعالى وجب أنه جسم ، واحتجوا بآيات من القرآن فيها ذكر اليد واليدين والأيدى والعين والوجه والجنب ، وبقوله تعالى « وجاء ربك » وقوله « يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » ، وتجليه تعالى

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٥٢

(٢) عياض ترتيب مدارك ج ٤ ص ١٣٩

بأحاديثه للجبل فيها ذكر القدم واليمين والرجل والأصابع . وغلوا فى ذلك وأسرفوا حتى خرجوا على ما قال به أهل السنة أنفسهم ، وانحدروا إلى مهاوى الشرك[(١)]

إن لم يجاوز المرابطون الحدود التى رسمتها السنة ، وما أجمع عليه أهل المذاهب وإذا صح ما نسبه ابن تومرت إلى المرابطين فلم اتصل إمام عظيم كالغزالى بيوسف ابن تاشفين و بارك جهاده ، وسعى له عند خلفاء بنى العباس ، حتى اعترفوا بشرعية حكمه ، وأعجب به و بجهاده فى سبيل إحياء الدين؟[(٢)] ؛ فلو كان أتباعه مجسمة كفرة ، أفكان الغزالى يبارك حركتهم وينظر إليها على أنها تحقيق للأهداف السامية التى كان يسعى إلى تحقيقها من إحياء الإسلام الصحيح ! ! !

كان عبد الله بن ياسين على جادة السنة ؛ لم يحد عنها ، قام يدعو إلى الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم ، « وهم على أهل السنة متمسكون بمذهب مالك ابن أنس رضى الله عنه[(٣)] » ، نعم كان عبد الله بن ياسين متمسكا بأهداب السنة عاملا على إحيائها ، مالكى المذهب ، متمسكا بمذهبه ، حريصاً عليه كل الحرص[(٤)] .

---

(١) ابن حزم : الفصل جـ ٢ ص ١١٧ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٦ . ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٨ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٤ .

(٤) الاتحاف جـ ١ ص ٨٨ .

الباب الثالث

الدور المغربي

١ — أهمية الدور المغربي في تاريخ دولة المرابطين :

عرضنا في الباب السابق للدور الأول من أدوار قيام دولة المرابطين ، وهو ما أطلقنا عليه اسم الدور الصحراوي ، ورأينا كيف انتهى بتوحيد قبائل الملثمين تحت راية عبد الله بن ياسين ، وكيف استطاع ذلك الحلف الذي بعث بعثاً جديداً أن يبسط نفوذ الملثمين على صحراء المغرب ، من مصب نهر السنغال في الجنوب حتى جبال درن في الشمال ، وكيف استطاعت هذه القوى الجديدة أن تمكن للإسلام ، وأن ترفع لوائه ، وأن تنشر الثقافة الإسلامية في ربوع الجنوب ، وأن تبصر الناس بشئون دينهم ، وأن تحارب دول الزنوج وتردها إلى الجنوب فتقضي على خطرها قضاء مبرما .

ولكننا سنعرض في هذا الباب لدور آخر من أدوار قيام الدولة ، نطلق عليه اسم الدور المغربي . ذلك أنه بعد أن تم للمرابطين بسط سيادتهم على الصحراء ، واطمأنوا من ناحية الجنوب ، بدأت جموعهم تطرق أبواب المغرب ، وتندفع صوب الشمال فاتحة غازية ، وتفتتح في تاريخ المغرب على الخصوص ، وتاريخ العالم الإسلامي على العموم صفحة جديدة . ذلك أن الدولة الجديدة إذ تتجاوز حدود الصحراء متقدمة صوب الشمال ، لم يعد تاريخها تاريخاً محلياً يخص تاريخ الصحراء ، أو تاريخ السودان الغربي ، بل بدأت تتخذ صفة عالمية ، بدأت تحتك بمواطن الحضارة القديمة ، وبالثقافة الإسلامية المنتشرة

فى أرجاء المغرب الأقصى . والمرابطون حين يردون هذا المورد ، ويقتحمون هذا الميدان الجديد ، يتجدد تاريخهم ، ويكتسبون فوق قوتهم قوة ، ويخضعون لبيئة المغرب الأقصى ، كما خضعت لها الدول التى قامت هناك من قبل ، فتزداد صلتهم بالأندلس[١] ، ويتشوفون إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فيحتلون الموانى الساحلية ، ويضطرون وهم الصحراويون البدو إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل ، ويسهمون فى حركة الجهاد العام . أعنى أن الدولة الجديدة ستنتقل من حركة جهاد خاص فى صحراء الجنوب إلى حركة جهاد عام ، إذ تدخل المعترك الدولى من أجل تثبيت السيادة الإسلامية ، وتضطر إلى منازلة القوى المسيحية التى بدأت تظهر فى القرن الخامس الهجرى ، وتنوش العالم الإسلامى ، وتهدده بالخطر .

بدأت قبائل المرابطين تطرق أبواب المغرب الأقصى فى وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامى فى المغرب إلى دماء جديدة ، وقوى فتية تلم الشعث ، وتوحد الجهود المبعثرة ، بعد أن كاد الناس ييئسون من الوحدة ، ويستسلمون لنير الغلبة . وظهورهم فى هذا الوقت المناسب يكاد يشبه ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الحوادث فى الشرق الإسلامى[٢] ، فكلاهما قوتان فتيتان حديثتا عهد بالإسلام تضطرمان بالحمية والحماس ، وتتقدمان الصفوف فى وقت ضعف فيه المسلمون وتفرقوا[٣] .

مما تقدم ، يتبين أن الدور المغربى من أدوار قيام الدولة دور بالغ الأهمية ، ذلك أن قبائل الملثمين لو قنعت بالسيطرة على اقليم الصحراء لتفرق شملها بعد قليل ، ولضاعت الجهود الشاقة التى بذلها زعيم أمين وأمراء متفانون فى خدمة بنى جنسهم . نعم لو لم تتقدم قبائل الملثمين إلى المغرب الأقصى ، لما سجل

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ص ٢٧٤ .

(٢) ابن دحية : النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ص ١٣٧ .

(٣) Menedez Pidal : The Cid and his Spain, p. 212

كتاب تاريخها هذه الحوادث التي هزت مشاعر المسلمين في الشرق والغرب .
فإن أقدام المرابطين على فتح المغرب يؤذن ببداية دور من أدوار الاستقرار والتنظيم ، بعد استيلائهم على موارد المغرب المتنوعة ، و بانتهاء دور الزعامة الدينية ، وبروز الأمراء الملثمين من القادة والفاتحين ، الذين سوف تخلد المعارك التي سيخوضونها اسمهم في مكان بارز من تاريخ الجهاد .

٢ — أسباب فتح المغرب :

وقبل أن تعرض للحوادث التي ستنتهي بفتح المغرب ، لا بد من أن نسأل هل جاء المرابطون إلى المغرب تلبية لنداء الطبقة المضطهدة في المجتمع المغربي ؟ ليس من شك ، في أن المجتمع المغربي كما قلنا في الباب الأول كان يعاني من تسلط الزناتيين ، ومن سوء الحالة الاقتصادية ، ومن هذه الأعباء الثقال التي كان يرزح تحتها ، و يتوق إلى الخلاص منها . روى بعض المؤرخين، أن الفقهاء تطلعوا إلى هؤلاء المنقذين الجدد ، يلتمسون العون و يرجون الخلاص [١] . ونحن لا نستبعد هذا ، ولكن يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن الملثمين كانوا سوف يندفعون إلى المغرب لفتحه ، سواء استنجد بهم أهله أو لم يفعلوا ، لأن عبد الله بن ياسين — كما يبدو — رسم لنفسه هذه الخطة ، وجعل من أهدافه أن يبسط نفوذه على المغرب ، كما بسطه على الصحراء من قبل . فقد ذكر صاحب الحلل الموشية ، «أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن ياسين لما رأى أستقامة لمتونة ، واجتهادهم أراد أن يظهرهم ، ويملكهم بلاد المغرب وقال لهم انكم صبرتم ، ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فتحتم ما كان أمامكم ، وستفتحون إن شاء الله ماوراءكم ، فأمرهم بالخروج من الصحراء [٢] » .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٨ .
(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٠ .

. ثم إن الحركة التى بثهـا عبد الله كانت بمثابة طاقة عظيمة لا بد من أنها تنصرف على صورة غزوة كبرى ، أو هجرة عظيمة ، وهذا يتلاءم مع ما عرف عن . طبائع البدو ، ما تـكاد قبائلهم تتحد برئاسة زعيم ، حتى تهب غازية فاتحة .
وكان من الممكن أن تنصرف هذه الطاقة صوب الجنوب ، لولا أن جهود عبد الله ابن ياسين ، ومن سبقه تمخضت عن هزيمة الزنوج ، وإخضاعهم ، ونشر الإسلام فى بلادهم . فلم تعد قبائل الملثمين تخشى أن تطعن من الخلف ، إذا هى انصرفت إلى الشمال للفتح والغزو . كان لا بد إذن أن تتجه قبائل الملثمين إلى الشمال ، وأن تغادر مواطنها بأية صورة ، وخاصة بعد هذه الروح العالية ، التى بثها ابن ياسين فى هذه الجيوش الـكثيفة التى حشدها لتحقيق أغراضه وتنفيذ مشروعاته . هو تيار كان لا بد أن يندفع نحو غاية معينة ، لا بد أن تتحقق فى وقت عجزت فيه قبائل المغرب عن المقاومة بسبب تفرقها وضعفها وتخاذلها .

٣ — العوامل التى تحكمت فى زحف المرابطين الى المغرب :

وقبل أن نخوض فى تفصيل الحوادث التى أدت إلى إتمام فتح المغرب ، يحسن بنا أن نـكشف النقاب عن العوامل التى كانت تتحكم فى حركة الزحف صوب المغرب الأقصى ، وأن نـكشف عن التيارات الباطنية التى كانت تسير هذه الهجرة الـكبيرة . وستعرض لهذه الموجهات بصفة عامة، ثم نحاول أن نعرض للدور الذى لعبه كل منها فى إتمام فتح المغرب ، وتحقيق ذلك الهدف الذى كان عبد الله بن ياسين يتغياه . . .

وأهم هذه العوامل ، وأبعدها أثراً ذلك النزاع التقليدى المعروف بين قبائل البتر وقبائل البرانس ، هذا العداء الذى ظل يوجه تاريخ المغرب الأقصى مدة خمسة قرون متوالية . إحتدم النزاع أول الأمر بين صنهاجة الجيل الأول وزناتة، وتدخلت الدولتان الفاطمية والأموية فيه ، ثم ما لبث أن صنهاجة الجيل الأول

أن يتفرق بعد أن غزا عرب بنى هلال أفريقية ، وقوضوا صرح الدولة الزيرية ، وبدءوا يطرقون أبواب المغرب الأوسط ، ويهددون دولة بنى حماد[١] ، ولكن صنهاجة الجنوب أهل اللثام استطاعت أن تتم وحدتها على يد عبد الله بن ياسين ، وبدت قلوب أفرادها تضطرم بحمية دينية لم تعهد من قبل .

شاءت الأقدار أن تهوى صنهاجة الجيل الأول لتخلفها صنهاجة الجيل الثانى وقد رشحتها الحوادث لزعامة شعب البرانس على وجه العموم ، وكان عليها أن تمكن لهذه الزعامة بأن تخف إلى مناضلة البتر ، الذين أذلوا الملثمين طوال القرون السابقة ، واضطهدوهم ، ونكلوا بهم ؛ تفرق شمل زناتة ، وضعف شأنها بعد إنهيار الخلافة الأموية بالأندلس ، فى وقت اتحدت صنهاجة الجنوب ، واشتد ساعدها ، وبقى عليها أن تخف إلى الميدان ، منتهزة هذه الفرصة للأخذ بذلك الثار القديم ، وإنتزاع هذه الأرض الخصبة ، التى ظل الزناتيون يسيطرون عليها فترة طويلة . هذا إلى أن القبائل الزناتية فى المغرب الأقصى كانت تسد مسالك البلاد ، وتحاول أن تقاسم شعوب الملثمين رزقهم من تجارة المغرب والسودان ، فكان على الملثمين إذا أرادوا أن تخلص هذه التجارة لهم كلها أن يناضلوا زناتة ، وأن يخفوا إلى قتالها .

وهناك عامل آخر لا يقل عن العامل السابق أثراً فى إذكاء تيار الغزو ، وهو الرغبة فى تحقيق الدعوة ، التى بثها عبد الله بن ياسين ، منذ كان يريد أن يجند قبائل الملثمين فى حركة لتطهير المجتمع الإسلامى كله . كان يريد أن تمتد صيحة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى المغرب والأندلس . ولعل هذا يفسر ما ذكره المؤرخون من استنجاد الفقهاء[٢] ، واستغاثتهم بالمرابطين . فبعد أن

---

(١) Marçais : Les Arabes en Berbérie du XIé au XIV Siécle p; 127

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

أنتهى جهادهم الأصغر بالصحراء ، لم يكن بد من أن يتطلعوا إلى جهاد أكبر بميدان المغرب والأندلس .

وهناك عامل ثالث اشترك مع العاملين السابقين في توجيه الملثمين صوب المغرب الأقصى ، ذلك أن الصحراء أصبحت تضيق بجموع المرابطين ، الذين كانوا يتزايدون يوماً بعد يوم[١] ، وكان لابد من أن يجد أولوا الأمر لهم مجالا حيوياً يتهجهون إليه[٢] ، بعد أن ضاقت في وجوههم سبل الرزق بالصحراء .

هذه إذن هي المعالم الرئيسية للعوامل الثلاثة التي ساعدت على توجيه فتح المرابطين للمغرب ، والتي أذكت هذه الحملات المتعددة ، التي شنها الملثمون ، حتى تهيأ لهم آخر الأمر أن يفتحوا هذه البلاد ، وأن يتموا المرحلة الثانية من مراحل قيام الدولة . ولكن بقي علينا أن نفصل هذه العوامل ، وأن نتتبعها من البداية إلى النهاية ، لنرى إلى أى حد أسهمت في إتمام هذا الفتح .

٤ — تحقيق بدء تدفق المرابطين صوب المغرب :

وقبل أن نعرض لقصة الصراع بين زناتة وحلفائها ، والملثمين وحلفائهم ، يجدر بنا أن نحقق تاريخ بدء تدفق المرابطين صوب المغرب الأقصى ، لأن روايات المؤرخين فيما يتعلق بهذا التاريخ مضطربة أشد الاضطراب ، متضاربة أشد التضارب ، والسبب في ذلك يرجع — على ما يبدو — إلى أن المؤرخين لم يدونوا أخبار هذه المرحلة الأولى إلا بعد أن تم قيام الدولة ، وبرزت في عالم المغرب قوية مستقرة ، كما أن النقود والنقوش التي يمكن أن يعتمد عليها لضبط هذه التواريخ لم تظهر إلا بعد أن استقرت الدولة في أرض المغرب ، وبدأت بعد أن تهيأت لها أسباب القوة والاستقرار تسك النقود وتشيد العمائر .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٢) A.Bel : Les Benou Ghanya, p. VI

والمؤرخون فى تحديد تاريخ بدء هذه الحملة فريقان فريق يسوق تواريخ بعد سنة ٤٥٠ هـ[١] ، وفريق آخر يذكر أن زحف المرابطين على المغرب الأقصى بدأ قبل سنة ٤٥٠[٢] . أما رواية الفريق الأول فنستطيع أن نستبعدها ، ونحن مطمئنون غاية الاطمئنان ، لأن أول نقود ظهرت للمرابطين ضربت بمدينة سجلماسة[٣] سنة ٤٥٠ هـ ، ولا يعقل بالطبع أن يضرب المرابطين النقود فى مدينة لم يتم لهم فتحها ، فلا بد إذن أن يكون المرابطون قد تحركوا صوب المغرب فى تاريخ سابق لسنة ٤٥٠ هـ ، تاريخ ظهور أول عملة مرابطية .

وقد ذكر ابن خلدون[٤] أن فتح المغرب بدأ عام ٤٤٥ هـ ، ولا يعقل أن يستغرق سير المرابطين من ديارهم بالجنوب صوب واحات المغرب الأقصى خمسة أعوام طوال ، وإن كان بعض المؤرخين قد ذكرت أن أقليم الواحات الجنوبية ، فتح مرتين : فتح مرة فاسترده الزناتيون ، ثم استعاده الملثمون من جديد . ويخيل الينا أن النضال حول سجلماسة استمر مدة لا تزيد على ثلاث سنوات ، وعلى ذلك تعتبر رواية صاحب البيان من هذه الناحية أقرب إلى التصديق ، لأنه ذكر أن الحملة بدأت حول سنة ٤٤٧ هـ[٥] ، أو بعد هذا الوقت بقليل .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٥٩ . النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٧٧ . أبو الفدا جـ ٢ ص ١٨٣ . ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥١ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٤٣ . ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٦٨ .

(٣) Laveix : Catalogu · des Monnaies de la Bib. Nat.pp. 556–554. Piéce : 507, Menedas de las Dinastias Arabigo Espanolas : Piéce : 1425.

(٤) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٤٣ .

٥ — النزاع بين البرانس والبتر وأثره فى فتح المغرب :

خرج المرابطون إذن من ديارهم فى الجنوب فى هـذا الوقت ، بقصد فتح المغرب الأقصى ، ومصارعة البتر ، والقضاء على قوة زناتة قضاء مبرما. ومن الغريب أن النزعة القبلية سيطرت على هذه الحلة ، وتحكمت فيها ، وكانت توجهها كيف تشاء ، وقد كان من الممكن أن تتقدم القبائل فى زحفها بحذاء الساحل ، فتسير فى بلاد تحتلها قبائل الملثمين ، حتى تدرك جبال درن ، ثم تسلك نفس الطريق ، الذى تسلكه عقبة بن نافع ، وموسى بن نصير من قبل ، فتستطيع أن تطوق الدولة الزناتية ، وتجعلها بين شقى الرحا . ولكن الملثمين لم يفعلوا ذلك ، بل كان هدفهم الأول مهاجمة منطقة الواحات الجنوبية بالذات ، هذه المنطقة الممتدة من وادى درعة فى الجنوب ، حتى مدينة تافللت فى الشمال ، لا لشىء إلا لمهاجمة الإمارة البترية صاحبة السلطة على هذه الرقعة الصحراوية من صحراء المغرب . فقد كان مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوى[1] من أشد الناس عداء لصنهاجة الجنوب . إذ كان يقف وقبيلته من خلفه سدا منيعاً يحول بينهم و بين تدفقهم صوب المغرب ، لذلك لا نعجب إذا رأينا جموع الملثمين تنقض أول ما تنقض على الخط الزناتى الأول .

وقد خرج المرابطون أول الأمر فى جيش ضخم[2] ، ونزلوا وادى درعة[3] ، فلما أحس أمير مغراوة بالخطر يقترب من دياره ، خرج فى اثنى عشر ألفاً من قومه[4] للقاء المرابطين ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمامهم ، فقد كانت تعاليم

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢ ، البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٤ و جـ ٣ ص ٢٤٣ . القلقشندى جـ ٥ ص ١٦٨ Julién (op; cit.) p. 378

(٢) لسان الدين بن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٢ De la Chapelle (p. 62)

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٠٩ .

ابن ياسين قد وحدت صفوفهم ، وألفت بين قلوبهم ، فاعتقدوا أنهم إنما يخوضون الحرب دفاعا عن المستضعفين من أهل البلاد ، الذين أذلهم الزناتيون . ولم تصمد القوات الزناتية طويلا ، ولم تظهر ما عرفت به من شجاعة وفروسية ، فقتل مسعود ، وتفرق شمل الزناتيين[1] ، وفتح طريق وادى درعة أمام المرابطين ، الذين أخذوا يتقدمون صوب الشمال كيفما أحبوا . وقد تقدم المرابطون على الفور ، يتعقبون فلول الزناتيين ، وينكلون بهم ، ولكن يبدو أن الزناتيين لم يستبسلوا لليأس ، ولم يستكينوا للغلبة ، فقد كانوا يعرفون أن هذه الحرب كانت حرب حياة أو موت ، لو غلبوا على أمرهم علت كلمة البرانس ، وتم لهم التفوق والسيطرة على المسالك الجنوبية المؤدية إلى المغرب ، فاعتصموا بمدينة سجلماسة ، ودافعوا عنها دفاع الأبطال . ولكن المرابطين اقتحموها بالسيف وأوقعوا بهم ، وفرقوا شملهم ، وتمت لهم الغلبة ، وعقد لهم لواء النصر[2] .

ولكن زناتة لم تصبر على الهزيمة ، فما كادت بعض جموع المرابطين تعود إلى الصحراء للقضاء على ثورة الزنوج[3] ، حتى هب الزناتيون ، وأعملوا فى الملثمين السيف ، وقتلوا حامية المرابطين بسجلماسة ، وكادت انتصارات المرابطين تضيع هباء ، لولا أن عبد الله بن ياسين حرضهم على الحرب مرة أخرى ، وأخذ يذكى فى قلوبهم جذوة الجهاد ، فعادوا أقوى مما كانوا ، موطدين العزم على كبح جماح الزناتيين ، مهما كلفهم الأمر ، ولم تصمد زناتة الجنوب أمام زحف المرابطين ، وانتهى الأمر بهزيمتها شر هزيمة ، ووطد المرابطون أقدامهم فى أقليم الواحات[4]

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢ . البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٣ . صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٨ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٨١ .

(٤) رقم الحلل ص ٩ . روض القرطاس ص ٨١ De la Chapelle : Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental, t. XI, p.62.

وأسسوا مدينة تبلبلا[١] ، واتخذوها قاعدة للمرحلة التالية من مراحل فتح المغرب .

مهما يكن من شيء ، فقد كسب البرانس من صنهاجة الجنوب الجولة الأولى فى هذه الحرب ، وإنهار صرح ذلك الحصن ، الذى كان يحرس مضارب زناتة فى الجنوب ، ويسيطر على مسالك الصحراء ، وعلى الطرق المؤدية إلى المغرب الأقصى . نعم حقق ذلك النصر ثماره المرجوة ، ورفع كلمه المرابطين فى أقليم الواحات ، وانتشرت أخبار ذلك النصر فى أرجاء المغرب كله ، مؤذنة بظهور هذه الدولة الفتية على يد هؤلاء القوم الأشداء من بدو الصحراء .

وكان من الممكن أن تنصرف جهود المرابطين بعد أن تمت السيطرة على أقليم الواحات ، والقضاء على إمارة مغراوة فى الجنوب ، إلى تخطى النطاقات الجبلية الواقعة فى الجنوب ، ثم تنقض على قلب بلاد المغرب ، ونعنى به أقليم فاس ، ذلك الإقليم الذى إذا سيطر عليه فاتح استطاع أن يسيطر على أقاليم المغرب الأقصى كله دون عناء . ولو فعل المرابطون ذلك لاستطاعوا أن يشطروا الجبهة الزناتية شطرين ، ويحولوا بين زناتة المغرب الأوسط ، وبين مد يد المعونة لإخوانهم أهل المغرب الأقصى . ولكن يبدو أن الرغبة فى الانتقام السريع من أعدائهم البتر لم تسيطر عليهم هذه المرة ، إنما سيطر عليهم نوع من الحذر والحرص والدهاء فقد كانت الكتلة المصمودية تسيطر على أقليم السوس الأقصى ، وتكون كتلة متماسكة قوية شديدة المراس صعبة المقاومة[٢] . كانت قبائل المصامدة تكره الزناتيين أشد الكره ، وتضيق بحكمهم ، وتتحين الفرص للقضاء عليهم . وكانت تتوق إلى حليف تشد أزره ، وتبارك جهوده ، وقد وجدت ذلك الحليف المنتظر

---

(١) De la Chapelle (op. cit.), p. 62.

(٢) Terrasse : Hist du Maroc, p. 177.

فى قبائل الملثمين الزاحفة من أقليم الواحات . فروى المؤرخون أن المصامدة لم يقاوموا المرابطين ، بل عاونوهم ، وأيدوهم ، . ومدوا لهم أيديهم لمناضلة الزناتيين عدوهم المشترك ، سواء أكان ذلك خوفا من المرابطين ، أو رغبة فى الانتقام من الزناتيين ، فقد يسروا مهمة الغزاة ، فاستطاعوا فى وقت قصير أن يجتاحوا أقليم السوس الأقصى فى جموع حاشدة ، فاستولوا على بلاد جزولة ، و بلدة ماسة ، ودخلوا تار ودانت عاصمة الإقليم دون مقاومة تذكر[١] ، ثم عبروا ذلك النطاق الجبلى العظيم المعروف بجبال درن عند أطرافه القريبة من ساحل المحيط[٢] ، ولم يكن يتيسر لهم ذلك أبداً ، إلا بعد استرضاء قبائل المصامدة ، فلو لم يتم استرضاؤهم لانقضوا عليهم من خلاف ، فأتوا على جهودهم ، وفرقوا شملهم .

لذلك يعتبر استرضاء المصامدة عملا سياسياً ممتازاً ، كما يعتبر اجتياز نطاق جبال درن عملا عسكريا ممتازا أيضاً ، ويدل على أن هذه القبائل البدوية لم تكن مجرد جموع تغير فى غير نظام ، كما يدل على أن الجيش المرابطى كان منظما أدق تنظيم ، يعمل كوحدة متماسكة متعاونة . وقد استولى المرابطون على شقشاوة ونفيس ، و بلاد رودة ، وأقليم جدموية ، وانتهم قبائل رجراجة ، وحاحة مستسلمة مبايعة[٣] . وقد أوغل المرابطون فى اقليم السوس حتى وادى تنسيفت ، الذى يصب فى المحيط الأطلسى ، و بذلك سقط فى أيديهم آخر معاقل بلاد السوس ، وأطاعتهم جميع قبائلها[٤] ، وأصبحوا سادة الجنوب دون منازع . نعم استطاعوا أن يبسطوا ظلهم على إقليم مراكش الجنوبية ، وأن يقطعوا فى سبيل فتح المغرب الأقصى شوطاً بعيداً ، إذ مما لا شك فيه أن هذه الانتصارات

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ — De La Chapelle, (op. cit) p. 62. دائرة المعارف الإسلامية: مادة مرابطين (A. Bel) ؛

(٢) Julién, (op. cit.) p. 379.

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢ .

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها .

المتلاحقة كانت تشد من أزر عبد الله بن ياسين ، وتزيد من بعد صيته ومن قوته ، وتقوى روح الترابط ، والاتحاد بين القبائل الملثمة ، ما دامت قد جنت هذه الثمار الأولى .

بقيت لدينا ناحية أخرى لا بد من أن نعرض لها ، وهى تحديد التاريخ الذى أتم فيه المرابطون فتح اقليم السوس الأقصى . ونحن نعلم أن اقليم الواحات تم إخضاعه للمرة الأولى حول سنة ٤٤٧ هـ ، ولا يبعد أن تكون الحرب الزناتية الصنهاجية قد استغرقت عاما أو عامين . لذلك نميل إلى تصديق رواية ابن خلدون التي تذكر أن فتح اقليم السوس تم سنة ٤٤٩ [٢] هـ على وجه التقريب ، ومما يعزز هذا الرأى أن المراجع التى بين أيدينا تشير إلى أن عبد الله بن ياسين قتل فى حرب برغواطة عام ٤٥٠ هـ ، وهو لم يقدم على محاربة برغواطة إلا بعد أن تم إخضاع اقليم السوس الأقصى [٢] .

وقد أخذت النزعة القبلية تتحكم فى سير الحملة المرابطية مرة أخرى ، فقد كان على قوات الملثمين الزاحفة أن تتقدم صوب الشمال مخترقة ديار برغواطة فى طريقها إلى السهول الشمالية ، لتقطع صلة المغرب بالأندلس ، ولكنهم انحرفوا فجأة صوب الشرق ، لمنازلة قبائل البتر مرة أخرى ، ذلك أن لقوط بن يوسف بن على المغراوى كان قد أسس أمارة بترية فى منطقة أغمات [٣] ، وكانت هذه الإمارة و إمارة بترية أخرى فى منطقة تادلة تعتبران حصونا أمامية يجب على الغزاة أن يستولوا عليها قبل الهجوم على منطقة فاس ، ومصارعة الإمارة الزناتية المسيطرة عليها ، لذلك اجتاحت جموع المرابطين منطقة أغمات ، ويبدو أن لقوط البرغواطى أخذ على غرة ، فقد حاصرته القوات المهاجمة بالمدينة ، وشددت عليه التكير [٤] ،

---

(١) إبن خلدون جـ ٦ ص ٢٤٣ .

(٢) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢ . ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ١٤ . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٩

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٢ .

غير أن أميرها استطاع أن ينفذ من ذلك الحصار ، وفر بنفسه ملتجئا إلى الإمارة البترية الأخرى[1] فى منطقة تادلة . فاقتحم المرابطون المدينة بالسيف ، واستولوا على وريكة وهيلانة وهزميرة[2] .. ويبدو أن موقع مدينة أغمات صادف هوى فى نفوس الفاتحين ، فاتخذوها أول حاضرة لهم بالمغرب ، ولم يتركوها إلا بعد أن تم لهم بناء مراكش ، على النحو الذى سنعرض له فيما بعد . وقد فرت القوات الزناتية لما فر أميرها ، والتجأ إلى إمراء تادلة[3] ، فلم يجد المثمون بدا من أن ينقضوا على إمارة تادلة هى الأخرى . وقد حاقت الهزيمة بالقوات البترية هناك ، وأنزلت بهم هزيمة ساحقة[4] ، و بذلك أفلح المرابطون فى القضاء على الإمارات الزناتية فى اقليم الجنوب ، ولم يبق أمامهم لتعلو كلمتهم وتتم لهم الغلبة على الشعب الزناتى أجمع ، إلا أن يقضوا على الإمارة المسيطرة على منطقة فاس والجهات المحيطة بها .

ولكن يجدر بنا هنا أن نعمد إلى تحقيق تاريخ استيلاء المرابطين على منطقة أغمات ، محاولين ضبطه بقدر الإمكان . والمؤرخون فى صدد هذا التاريخ فريقان : فريق يذكر أن المرابطين قد دخلوا أغمات عام ٤٤٩[5] ه ، وفريق آخر يذكر أن دخول أغمات كان سنة ٤٥٠ ه[6] . ومن الغريب أن أغلبية هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن عبد الله بن ياسين دخل أغمات سنة ٤٥٠ ه[7] .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٨ ص ٢٦٤ .

(٤) De la Chapelle : Esquisse d' une histoire de Sahara p. 62.

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٢ . مفاخر البربر ص ٥٢ . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٦) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

(٧) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٢ مفاخر البربر ص ٥٢ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

قبل أن يتقدم لحرب قبيلة برغواطة ، ويذكرون أيضاً أنه قتل فى نفس هذه السنة وفى نفس هذه الحرب ، وقد رأينا كيف أن الملثمين دخلوا بلاد السوس الأقصى سنة ٤٤٩ هـ ، فلا يعقل أن يكونوا قد وصلوا أغمات فى نفس السنة مع بعد الشقة بين اقليم السوس الأقصى ومنطقة أغمات . وإذا كانت حملة اقليم الواحات قد استغرقت أكثر من عامين ، فلا يبعد أن يكونوا قد دخلوا منطقة أغمات فى أواخر سنة ٤٤٩ هـ ، أو أوائل سنة ٤٥٠ هـ . ويخيل إلينا أن هذا الرأى هو أقرب هذه الآراء إلى الحقيقة .

ويبدو أن المرابطين بعد أن تم لهم النصر فى أغمات وتادلة ، لم يواصلوا الفتح على الفور فقد بقيت قواتهم بمدينة أغمات حتى سنة ٤٥٢ هـ . ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى ما ذكرناه من مقتل عبد الله بن ياسين قائد المرابطين وإمامهم ، واضطرارهم إلى اختيار من يخلفه . على كل حال يذكر المؤرخون أنهم قد عاودوا الهجوم سنة ٤٥٢ هـ[١] ، بعد أن خلصوا من مشاكلهم ، وتم اختيار خلف لعبد الله بن ياسين . وكان الهدف الذى يسعون إلى تحقيقه هو القضاء على القوات البترية الأخرى ، التى هزمت فى معركة أغمات وتادلة ، وفرت إلى الشمال لتلم شعثها ، وتعود إلى مصارعة الملثمين من جديد ، فقد أنقضت قوات المرابطين على ديار بنى يفرن ، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، ففروا إلى الشمال إلى منطقة فاس ، يلوذون بأمرائها الزناتيين ، واحتل المرابطون مدن فازاز ، ولواته ومكناسة[٢] .

ويبدو أن صدى هذه المعارك الحاميه الوطيس التى كانت محتدمة بين البرانس والبتر قد ذاع فى المغرب كله ، وأخذت القوات البترية والبرنسية المنبثة فى بلاد

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٥ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ١٠٢ . صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٥ .

المغرب تتهيأ لا متشاق الحسام دفاعا عن كيانها ، فقد روى المؤرخون أن بلكين الحمادى خف إلى المغرب الأقصى ، ليمد يد العون لبنى عمومته الملثمين أبناء صنهاجة الجنوب فى هذه المعركة التاريخية الدائرة الرحى . [1] وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على مبلغ الإحساس الوثيق بالقرابة بين صنهاجة الشمال ، وصنهاجة الجنوب وإعتقادهما أنهما يقاتلان عدواً مشتركا ، يشتركان فى كرهه ، والرغبة فى القضاء عليه ، وقد دخل بلكين مدينة فاس ، وطعن الزناتيين من الخلف ، ولكنه ما لبث أن ارتد إلى المغرب الأوسط مرة أخرى .

ومهما يكن من شىء فقد تمخضت حركته عن أحداث اضطراب فى صفوف الزناتيين ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا بين عدوين كبيرين ، وكانت البطون الصنهاجية الأخرى المنتشرة فى أرجاء المغرب الأقصى تنضم لجيش المرابطين ، وتخف إلى نجدتهم ، وتقدم لهم المعونة الصادقة [2] ، ويبدو أن تيار الفتح كان قد بلغ مداه ، وآن له أن يتوقف بعض الشىء . فقد توقفت حركات المرابطين ، وكفوا عن الزحف حتى سنة ٤٥٤ هـ . ومما يساق فى تفسير ذلك التوقف أن بعض القوات المرابطة اضطرت إلى السير نحو الجنوب ، لإخضاع ثورة قام بها الزنوج [3] كما أنه بقى على المرابطين قبل أن يخوضوا المعركة الكبرى التى ستقرر المصير المغرب كله أن يستعدوا لها كل الاستعداد ، فيربحوا الجند ، وينظموا شئون البلاد ، ويؤمنوا القبائل ، حتى إذا انصرفوا إلى الفتح لم يطعنوا من الخلف ، فتذهب ريحهم ويتفرق شملهم ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن تأمين البلاد المفتوحة ، وإقرار السكينة بين ربوعها خير من التعجيل بزحف لا تؤمن مغبته

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٥ - ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤
Julien, (op. cit.) p. 379. ,Gautier (op. cit) p. .377.

(٢) De la Chapelle : Esquisse d' une Hist. de Sahara p 62.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٥ .

لذلك اختطوا مدينة مراكش فى هذا الوقت بالذات ، أعنى سنة ٤٥٤ هـ [١] ، لتكون معسكرا لقواتهم تستطيع أن تقيم فيه ، وهى مطمئنة كما تستطيع أن تتخذها نقطة إرتكاز تتدفق منها صوب أهدافها الجديدة .

أفاد المرابطون حقا من هذه الهدنة الطويلة التى أعقبت فتح أغمات ، فقد أخذوا يتهيأون للمعركة الكبرى التى سوف تحتدم على بطاح إقليم قاس ، ويخيل إلينا أنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أهمية هذا الاشتباك الكبير ، الذى يقفون فيه أمام القوى الزناتية وجها لوجه ، لذلك عنوا بالجيش عناية فائقة ، وأمعنوا فى تنظيمه وتسليحه ، فاستكثروا من الجند ، واتخذوا الطبول ، والبنود ، وجعلوا فى جيشهم الأغزاز والرماة ، كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب [٢] ، حتى لقد قيل إن الجيش المرابطى بلغت عدته أزيد من مائة ألف فارس [٣] ، وهو قول وإن بولغ فيه بعض الشىء ، الا أنه يدل على أن ذلك الطابع البدوى الذى كان من سمات القوات المرابطية الأولى قد بدأ يختفى وبدأت الجيوش تنظم على أساس حديث .

ويبدو أن سياسة المرابطين فى استرضاء قبائل المغرب ، وتأليف قلوبها قد أتت أكلها ، وأقبل المصامدة على الاشتراك فى الجيش ، وانخرطت فى سلكه الفرق الزناتية ، وبعض فرق من برغواطة نفسها [٤] ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المرابطين بدؤا يضعون أيديهم على موارد حربية هائلة ، سواء فى الرجال أم فى الأموال ، وبدأت الدولة تخلص من الطابع الصحراوى نهائياً ،

---

(١) ابن بسام : الذخيرة (مخطوط بغداد) ، القسم الثانى ص ١٤ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ . صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

وتتخذ طابع الدول التى قامت على مسرح المغرب من قبل ، وأخذت منذ ذلك الوقت تتخذ سياسية مغربية صرفة [١] .

وبعد أن تم استعداد المرابطين ، وتم تهيؤهم قرروا خوض المعركة ، والمضى بتيار الزحف قدما . وهنا نجد أن الإحن القبلية تتحكم فيها مرة أخرى ، فبدلا من أن ينقضوا فى غزوات خاطفة صوب الشمال ، بحذاء البحر بعيد أن هزمت برغواطة ، نجدهم ينحرفون صوب الشمال الشرقى ، صوب ديار زناتة عدوهم اللدود ويخيل إلينا أن المرابطين كانوا محقين إلى حد ما ، لأنه لا تطمئن قلوبهم وهذا العدو المرهوب جاثم بمدينة فاس وضواحيها مستعد للأخذ بناصيتهم فى كل حين ، كما كانوا يدركون أن مدينة فاس ، والوادى الذى تقع فيه مركز الثقل فى المغرب الأقصى كله ، موارده متوفرة ، وحضارته راقية ، كما أن من يسيطر على فاس يستطيع دون عناء إذا توفرت له القوة أن يتحكم فى السهول الشمالية كلها ، لذلك قرر المرابطون التقدم صوب فاس مهما كلفهم ذلك من تضحيات .

وما كاد الزناتيون وحلفاؤهم يشعرون بذلك ، حتى أخذ القاسم المكناسى ينظم المقاومة فى وجه المرابطين فى الشمال الشرقى [٢] ، ولكن ما كاد هذا الأمير يلتحم بجيوش المرابطين ، حتى حلت به الهزيمة ، ولاذ بالفرار ، ودخل الزاحفون مدينة مكناسة ، وفرقوا شمل القبائل الزناتية الضاربة بالقرب منها ، ثم تابعوا الزحف فاستولوا على قلعة مهدى ، وصيفرو دون عناء ، ولكنهم ما كادوا يتقدمون مرة أخرى ، حتى تآلفت قبائل زواغه ، ولماية ، وصدينة ، وسدراته ، ومغيلة ومديونة واتخذوا مدينة مدية معقلا لمقاومتهم [٣] . ولكن المرابطين تمكنوا من اقتحامها ، ودخلوها بالسيف ، وقتلوا من البتر أعدادا غفيرة ، وبذلك فتح

---

(١) Terrasse : Hist du Maroc, p. 219

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

الطريق إلى فاس ، وزحف المرابطون بقصد الإستيلاء على هذه المدينة الهامة ، والمؤرخون يجمعون على أن المرابطين دخلوا مدينة فاس للمرة الأولى سنة ٤٥٥ هـ [١]، وهذا تاريخ مقبول إلى حد ما ، وخال من المغالاة ، وإن كان صاحب كتاب جامع تواريخ [٢] فاس يذكر أن ذلك تم عام ٤٦٠ هـ . ويبدو أنه قد خلط بين الحملة الأولى والثانية .

ويبدو أن المرابطين بعد هذه الإنتصارات المتلاحقة قد أعجلهم الطمع ، فتركوا بمدينة فاس حامية ضئيلة ، ثم أخذوا يتقومون صوب الشمال في بلاد غمارة [٣] بقصد الإلتفاف حول مدينة طنجة ؛ والإستيلاء عليها ، ونسوا أن العدو لهم بالمرصاد .

وكانت القوى الزناتية فعلا تتربص بهم الدوائر ، وكانت القبائل الزناتية طوال تاريخها لا تعرف اليأس ، فما تكاد تحيق بها الهزيمة ، ويظن الناس أنها القاضية حتى تتحد من جديد ، وتخف إلى النضال والمقاومة ، وفعلا انتهزوا فرصة توسع المرابطين صوب الشمال ، فأشعلوا نار الفتنة ، ونشبت معارك عنيفة تذكرنا بتلك المعارك الحامية الوطيس ، التى نشبت فى بلاد المغرب بين البرانس والبتر طوال القرون السالفة .

وروايات المؤرخين [٤] فيما يتعلق بهذه المقاومة متضاربة أشد التضارب ، مختلفة أشد الاختلاف . ومهما يكن من شيء فقد روى صاحب روض القرطاس [٥]

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٠ . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٧ .

(٢) جامع تواريخ فاس ص ٢٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٧ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٦٥ . ابن أبى زرع : ص ٧٠ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٥ . جامع تواريخ فاس ص ٢٠ . صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٧ . الاعلاف جـ ١ ص ٢٧ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٠ .

أن المرابطين أرسلوا إلى حليفهم المهدى بن يوسف الكزنائى زعيم مكناسة ، يطلبون إليه السير بقواته صوب الشمال للمساهمة فى فتح السهول الشمالية ، فما كاد المهدى يهم بالمسير حتى كانت القوات الزناتية قد لمت شعثها ، وتقدم تميم ابن معنصر بن المعز بن زيرى ، يعاونه بنو موسى بن أبى العافية ملوك زناتة وتسول[1] ، والتقوا بالمهدى فهزموه شر هزيمة ، وخر صريعا فى الميدان ، وأرسل المكناسيون يستنجدون بقائد المرابطين سنة ٤٥٦ هـ[2] فبعث المرابطون نجدة تنقذ حلفاءهم من براثن الزناتيين ، خصوصاً بعد أن اقتحم الزناتيون مدينة فاس وقتلوا الحامية المرابطية[3] ، ونكلوا بها شر منكل ، وقد أحاطت قوات الملثمين بمدينة فاس ، ولكن الزناتيين قاوموا مقاومة رجل واحد ، ثم خرجوا للقاء المرابطين خارج أسوار المدينة ، فأوقعوا بهم وهزم المرابطون هزيمة نكراء[4] ، وأصبح موقفهم فى غاية الخطورة ، وكادت تضيع جميع الجهود التى بذلت فى فتح منطقة فاس . كما خشوا أن تنتشر أخبار هذه الهزائم ، وتتألب القبائل التى استكانت ، وحالفت المرابطين خوفا من بطشهم ، فاضطر قائد المرابطين إلى أن يعود أدراجه إلى مدينة فاس مرة أخرى ، وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم[5] وشرع يسترد البلاد المحيطة بها ، حتى عزلها عن الجهات المجاورة لها[6] . وقد اضطرت المدينة بسبب اشتداد وطأة الحصار إلى التسليم ، فدخلتها قوات المرابطين ونكلت بالزناتيين ، وقتل أغلبهم ، وفرت البقية الباقية منهم إلى المغرب الأوسط حتى لقد قيل إن عدد من قتل من بنى يفرن وزناتة ثلاثة آلاف ، وأمعن يوسف

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٥ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) جامع تواريخ فاس ص ٢٠ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة .

فى التنكيل بأهل فاس ، كما هدم أسوار المدينة هدما . و بسقوط مدينة فاس تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصراع العنيف الذى احتدم بين زناتة و بين صنهاجة الجنوب ، وقد تفرق شمل زناتة ، ولم تعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر . وللاستيلاء على فاس أهمية بالغة الأثر ، فقد فتح الطريق أمام المرابطين ليتموا فتح الأقصى كله ، و يستولوا على السهول الساحلية ، كما أنه يمثل بدء احتكاك المرابطين بالحضارة المغربية الأندلسية ، التى كانت مزدهرة بفاس و بالسهول الساحلية من إقليم الريف .

ومهما يكن من شىء ، فقد نجح المرابطون فى القضاء على قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى ، ولكن بقيت بعض فلولهم بالمغرب الأوسط تتحفز للنضال من جديد . وكان المرابطون يودون لو انصرفوا إلى السهول الشمالية لإتمام فتحها ، فتكمل سيطرتهم على إقليم المغرب الأقصى جميعه ، ولكنهم آثروا أن يتموا قصة الصراع مع الزناتيين ، ويمضوا فيها حتى نهايتها . فقد رأينا كيف خفت بعض البطون الزناتية بالمغرب الأوسط إلى نجدة الزناتيين بفاس ، ورأينا كيف أن بعض البطون الزناتية قد آوت إلى المغرب الأوسط ، لتتجمع فيه ، وتتهيأ للقيام بعداون جديد ، فآثر المرابطون أن ينقضوا على المغرب الأوسط ، فيأتوا على المقاومة الزناتية ، و يضعوا لها حدا ، حتى ينصرفوا إلى فتوحهم مطمئنين .

و يخيل إلينا أنه لو أن الدولة الحمادية كانت قوية فى ذلك الوقت ، لاطمأن المرابطون وانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية تاركين أمر زناتة المغرب الأوسط إلى بنى عمومتهم ، ولكن حدث فى ذلك الوقت أن بدأت جموع الأعراب بعد أن اجتاحت إفريقية تطرق أرض بنى حماد ، فشغلوا عن المغرب الأوسط ، ولم يستطيعو أن يقاوموا الزناتيين مقاومة الند للند . لذلك لم يتردد المرابطون فى التوسع صوب الشرق ، فاستولوا على وادى ملوية ، ومدينة ومطاط ، ووجدة[1]

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٥٨ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

وانقضوا على إقليم تازا ، وأوقعوا بالقاسم بن أبى العافية عند أقرسيف[1] ، ثم انقضوا على مدينة تلمسان وفتحوها[2] كما فتحوا وهران وتنس ، و بلغت قواتهم مشارف إقليم الجزائر . وكان من الممكن جدا أن يتم لهم فتح أفريقية ، لو كان فى نيتهم المضى إلى فتحها ، لأن هذه البلاد إذ ذاك كانت قد تمزقت وحدتها ، وأصيبت صنهاجة الشمال بسبب عرب بنى هلال بأضرار جسيمة . إنما يخيل إلينا أن المرابطين وقفوا عند حدود الجزائر ، ولم يجاوزوها ، لا إشفاقا من فتح أفريقية إنما إبقاء على صلات القربى بينهم و بين بنى حماد .

تمخضت هذه المعارك الخطيرة ، وهذا الكفاح الطويل الذى استمر نحو عشرين عاما (٤٤٧ هـ — ٤٦٧ هـ) عن نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجة — ربما لأول مرة — منذ وقت طويل تسيطر على اقليم المغرب كله ، فتسيطر صنهاجة الشمال على افريقية ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى ، فارتفع شأن البرانس ، وتقلص نفوذ البتر ، وأصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع . نعم كفاح طويل مرير اذكته العصبية المتأججة ، واستمر عشرين عاما حافلة بالكفاح .

وقد نسأل لم استغرق المرابطون فى فتح المغرب هذه السنين الطويلة ، على حين استطاع الفاطميون وحلفاؤهم أن يوغلوا فى المغرب كله ، فى سنوات قلائل يخيل إلينا أن السبب فى ذلك يرجع إلى الطرق التى سلكها الفاطميون ، وتلك التى سلكها المرابطون . فقد سلك الفاطميون الطرق والوديان المؤدية من الشرق إلى الغرب ، وهى وديان سهلة العبور تستطيع القوات المتفوقة أن تمضى فيها قدما ، لكن التوغل حتى ساحل المحيط لا يعنى فتح المغرب الأقصى كله ، إذ تبقى

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٨ .

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢١ .

بعد ذلك المناطق الهضبية ، والجبلية ، والصحراوية . أما المرابطون فقد جاءوا من الجنوب ، وفتحوا اقليم الصحراء ، ثم توغلوا فى المغرب الأقصى يفتحونه إقليما بعد آخر ، لم يتركوا ناحية إلا أوغلوا فيها ، سواء فى الهضاب أو الجبال أم فى السهول ، لذلك استغرقوا هذا الوقت الطويل ، وجاء فتحهم للمغرب أتم من أى فتح آخر .

٦ — تعاليم ابن ياسين وأثرها فى فتح المغرب :

وهنالك دوافع أخرى غير العصبية القبيلية كانت ذات أثر بالغ فى توجيه حركة فتح المغرب ، بل فى إتمام فتح هذه البلاد . ذلك أن قبائل الملثمين لم تخرج من مضاربها متجهة صوب الشمال بدافع الغزو والانتقام من الزناتيين المسيطرين على المغرب الأقصى فحسب ، بل خرجت بقصد الإصلاح يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن فقهاء سجلماسة أرسلوا إلى المرابطين يرغبونهم فى الوصول إلى بلادهم بقصد تخليصها مما تعانيه من بؤس وشقاء ، وبقصد القضاء على البدع والمنكرات التى كادت تعصف بالمجتمع الإسلامى فى ذلك العصر[١] ، ولأول مرة منذ الفتح الإسلامى تخرج جيوش غازية ، لا حبا فى الغزو والفتح ، أو بسط رقعة الدولة فحسب ، بل حبا فى الاصلاح ورفع لواء الدين . نعم خرجت هذه القبائل أيضا لإقامة العدل واظهار السنة[٢] .

ومما يؤسف له أن المراجع لم تمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الاصلاحات العظيمة ، التى أدخلها المرابطون على المجتمع المغربى ، بل هى مجرد إشارات غامضة مبهمة ، لا تشفى غلة ، ولا تنفع صدى ، لأن سير الفتوح والغزو على ما يبدو قد طغت على سير الاصلاح . فصل المؤرخون القول فى الحروب والمعارك ،

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٢

وأجملوا أخبار الاصلاح إجمالا . ومهما يكن من شيء فإن لنا مما حدث فى سجلماسة أسوة ، لأن السياسة التى التزمهـا المرابطون فى هذه المدينـة هى نفس السياسة التى ألتزموها فى الصحراء عند فتح أودغشت ، ولعلها هى نفس السياسة التى إلتزموها فى فتح المغرب ، بل فى فتح الأندلس . فقد ذكر المؤرخون « أنهم أصلحوا أحوال سجلماسة ، وغيروا ما فيهـا من المنـكرات ، وقطعوا المزامير وأحرقوا الديار التى كان بها بيع الخمور[1] » . أعنى أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر وحاربوا البدع حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة ، وكانوا فى الوقت نفسه يقربون الفقهاء والعلماء[2] ، وينصرون المستضعفين من الطبقات الفقيرة المضطهدة.

وقد تسامع الناس فى كافة بلدان المغرب بأخبار هذه الإصلاحات الجديدة ، فهزت مشاعرهم ، وتناقلها الناس ، وتقبلوها قبول المندهش ، لأن الناس طوال ذلك العصر اعتادوا أن يسمعوا قصص العسف والجور والظلم ، « شاع خروج لمتونة من الصحراء واستيلاؤهم على بلاد المصامدة ، وخلعهم لملوكهم وناموس عدلهم[3] » ليس من شك فى أن هـذه السياسة الاصلاحية كانت أبلغ أثراً من السيف ، فكانت تمهد الطريق أمام القوات الزاحفة ، وتفتح أبواب أمنع الحصون ، وأقواها ، وربما يرجع الفضل إلى هذه السياسة فى استسلام قبائل المصامدة دون مقاومة تذكر ، واستسلام غيرها من القبائل ، إذ لا شك فى أن الغالبية من الناس فقيرة مستضعفة تخف إلى تأييد أمثال هـذه الحركات الإصلاحية التى تفتح أمامها آفاقا جديدة من العدالة والمساواة ، فقد كان المرابطون « يقيمون

---

(١) روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ١ ص ٢٦٤

العدل ويظهرون السنة[1] » ، وكان الناس يقارنون بينهم وبين ملوك زناتة الغاشمين المستبدين . نعم كانت هذه السياسة أشد وقعا من السيف ، وكان الإصلاح يعقب الفتح ، أو إن شئت فقل كان الفتح والإصلاح يسيران جنباً إلى جنب .

وقد لجأ المرابطون إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب الناس وكسب ثقتهم ، فقد كانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء[2] في كافة جهات المغرب وليس من شك فى أن الفقهاء ورجال الدين فى بلد مثل المغرب كانوا فى ذلك الوقت القادة الحقيقيين للشعب ، يوجهونه كيف شاءوا ، فلا نعجب إذا رأينا المرابطين يعملون على كسب ودهم واسترضائهم طمعا فى استرضاء الرعية وكسب ودها ، لذلك كان المرابطون يستقبلون فى كل بلاد يحلون فيها استقبال المنقذين المخلصين . وبدا واضحاً لكافة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح والغلبة ، ولكن لإحياء الدين ، وتطهير المجتمع من الفساد . وليس هذا بقول مبالغ فيه فقد كان المرابطون فعلا يتغيون الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فكانوا يقتصرون فى الضرائب على أخذ الزكاة والعشر ، ويسقطون ما سوى ذلك من المغارم المحدثة[3] ، ولا يخفى أثر هذه السياسة فى المغرب الأقصى ، لأن الزناتيين كانوا كما رأينا قد أثقلوا كاهل الناس حتى كادت البلاد يعمها الخراب ، لذلك لا نعجب إذا وجدنا طريق الفاتحين ميسرا فى أغلب الجهات التى نزلوا بها ، وكان الناس يرحبون بهم ، ويستبشرون بقدمهم ، « والبلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بقدمه. فانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة وتباشروا به تباشر البلد بالديمة[4] » ، حتى لقد أصبحوا فى نظر الكافة المنقذين الذين بعثتهم

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

(٤) الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٢ .

العناية الإلهية لإنقاذ الناس من المذلة والفقر والعبودية . وإن المرء ليعجب لهذه القبائل البدوية التي استطاع عبد الله بن ياسين أن يحقق فيها المعجزة حين ردها عن طريق الإغارات إلى طريق الإصلاح .

ظلت هذه السياسة الحكيمة سياسة الإصلاح توجه حركات فتح المغرب ، وتمد يد العون لقواد المرابطين حتى بعد وفاة عبد الله بن يسين ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إن هدف فتح المغرب بقصد الإصلاح لا يقل قوة عن هدف فتح المغرب للقضاء على قوة زناتة وجبروتها ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا أيضاً إن محاربة زناتة ربما كان القصد منها إلى جانب الإنتقام بوحي من العصبية القبلية تخليص المغرب من شرها وطغيانها .

وكانت صيحة الجهاد في سبيل الدين[1] لا تقل أثراً في توجيه جيوش الفتح عن صيحة الإصلاح وانصاف الطبقات المظلومة ، فما كادت القبائل الزناتية تنقض على الحامية المرابطية بسجلماسة ، وتستعيد ما فقدته حتى أعلن عبد الله ابن ياسين الجهاد ، واعتبر الزناتيين ناكثين للعهد ، يحل قتالهم وقتلهم ، وقد أذكت هذه الصيحة الحمية في قلوب الملثمين فألفت بينهم ، وانقضوا على الزناتيين انقضاض الصاعقة ، فشتتوا شملهم ، واستعدوا سجلماسة ، ومنطقة الواحات الصحراوية .

وإذا كنا قد أشرنا إلى أنه كان من الواجب أن يمضي المرابطون بعد فتح سجلماسة قدما صوب الشمال ، وبينا أنهم عدلوا عن ذلك لأنهم خافوا أن ينقض المصامدة على جناحهم الأيسر فيوقعوا بهم ، يجب أن نضيف هنا أنهم اتجهوا إلى الغرب صوب ديار المصامدة ، لا للقضاء عليهم فحسب ، بل للجهاد أيضاً ، فقد كانت بمدينة تارودانت ببلاد السوس الأقصى طائفة من الشيعة ،

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩ .

يقال لهم البجلية — نسبة إلى على بن عبد الله البجلى الرافضى — قدموا إلى السوس الأقصى زمن أبى عبد الله الشيعى ، وزمن فتوح الفاطميين فى المغرب الأقصى . وقد نشروا مذهبهم وتوارثوه جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، « لا يرون الحق إلا ما فى أيديهم[1] » ، فقرر المرابطون أن يعلنوا عليهم الجهاد بقصد ردهم إلى الطريق القويم . وقد روى المؤرخون أن الملثمين اقتحموا مدينة تارودانت ، وقتلوا من الشيعة أعداداً كبيرة ، وحملوا أهل البلاد على أن يسلموا[2] إسلاماً جديداً ، أعنى أن المرابطين طبقوا نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حين كانوا يضطرون الناس إلى أن يسلموا إسلاما جديدا ، و يبايعوا بيعة جديدة . وكانت حملة السوس الأقصى فوق ذلك ترمى إلى القضاء على اليهودية التى كانت قد استقرت فى اقليم الصحراء منذ عهد بعيد ، وانتشر اليهود فى توات وتافللت ووادى درعة ووادى نون ، وسيطروا على الحياة الاقتصادية ، وليس ببعيد أن يكون المرابطون قد حملوا أكثرهم على الاسلام ، وإن كانت بعض بقايا اليهود لا تزال بالمغرب حتى اليوم[3] .

و بعد أن تم للمرابطين فتح أغمات على ما رأينا علت صيحة الجهاد من جديد ، بقصد القضاء على قبائل برغواطة الضاربة على ساحل المحيط ، والمسيطرة على المسالك المؤدية إلى إقليم طنجة[4] . وكان المرابطون فى الواقع فى زحفهم تحركهم أسباب حربية ودينية ، فقد كانت هذه القبائل تحتل منطقة جبلية وعرة المسالك ، وكانت معروفة دائماً بشدة المراس و رباطة الجأش ، والاستبسال فى الدفاع ، كما كانت تسد الطريق إلى طنجة ، ذلك الثغر الهام الذى لم يكن بد من الاستيلاء عليه ، لمن يريد ان يتحكم فى السهول الشمالية .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) De la Chapelle : Esquisse d'une Hist. de Sahara p. 51

(٤) حسن الوشى فى الأخبار المراكشية ص ١٤ .

وقد ظهر أمر قبائل برغواطة سنة ١٢٧ هـ في خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأخذوا يبثون عقائدهم الضالة [1] ، وقد حاولت القوى التي سيطرت على المغرب الأقصى أن تقضي على بدعتهم ، وتردهم إلى الطريق القويم ، وتطهر المغرب من شرهم . فقد هاجمهم بلكين بن زيري الصنهاجي ، واشتبك معهم في حرب طاحنة وهزمهم [2] ، ولكنهم ظهروا من جديد . وحاربهم واضح الفتى عامل المنصور بن أبي عامر ، فخرج لغزوهم ، وأثخن في ديارهم [3] . وقاتلهم الزناتيون . ولكن هذه القوى جميعها لم تتمكن من القضاء عليهم ، فلم يجد المرابطون بقيادة عبد الله بن ياسين بداً من أن ينقضوا على مواطنهم في معركة دامية جرح فيها عبد الله حتى أشرف على الهلاك . ولم يهن المرابطون بسبب وفاة إمامهم [4] ولم يضعفوا ، بل اختاروا إماماً غيره استشهد هو الآخر في ساحة القتال ، واضطر أبو بكر بن عمر أن يقود المجاهدين من المرابطين ، وأن يمضي في الحرب حتى « أذل برغواطة وفروا بين يديه وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أثخن فيهم وتفرقت برغواطة في الشعارى وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ولم يبق لديانتهم أثر [5] » . وبذلك استطاع المرابطون أن يحققوا غرضين : فتحوا الطريق إلى طنجة ، واستأصلوا هذه العقيدة الضالة من المغرب الأقصى .

---

(١) مفاخر البربر ص ١٢٨ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٤٦ . المفاخر ص ١٨ . ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٠٩ .

(٣) مفاخر البربر ص ٣٦ .

(٤) بن أبي زرع . روض القرطاس ص ٨٣ .

(٥) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١١ . روض القرطاس ص ٨٥ ، ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٩٩ .

٧ — العامل الاقتصادى وأثره فى فتح المغرب :

ولكن يجب ألا نغفل أهمية العامل الاقتصادى فى فتح المغرب ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إن الدوافع الاقتصادية كانت ذات أثر بالغ فى توجيه غزوات المرابطين ، واستنهاض هممهم لفتح بلاد المغرب . خرجت القبائل الملثمة من الصحراء تريد الإصلاح ، وتريد الأخذ بذلك الثأر القديم بين البرانس والبتر ، ولكنها كانت مضطرة إلى أن تجد مجالا لتعيش عيشة رخية ، فقد ذكر المؤرخون أن أعداد القبائل الملثمة قد زادت وتضاعفت حتى ضاقت الصحراء بهم[١] ، وكان يجب عليهم أن يلتمسوا مواطن جديدة ، وكانت منطقة الواحات الصحراوية لا يستطيع أن تعول عدداً كبيراً من السكان ، لأن مواردها محدودة ، ورقعتها ضيقة ، وكان أهلها إذا ضاق بهم العيش انصرفوا إلى الشمال صوب الأراضى الخصبة والعيشة الرغيدة[٢] ، كما ذكر المؤرخون أن ديار الملثمين قد قحطت فى ذلك الوقت « فماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة فأمرهم عبد الله بالخروج إلى السوس »[٣] . ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن بلاد الملثمين أصيبت بضائقة مالية فى ذلك الوقت بالذات ما رواه النويرى « من أن أبا بكر سار فى أطراف البلاد إلى مدينة سجلماسة فنزل عليها وطلب أصحابه من أهلها الزكاة فقالوا له أنكم لما أتيتمونا فى عدد قليل وسعكم فضلنا والآن فضعفاؤنا فيهم كثرة وقد آثرنا كم سنين وما هذه حالة من يطلب الزكاة بالسلاح والخيل إنما أنتم محتالون ولو أعطينا كم أموالنا بأسرها ما رغبتم بها »[٤] .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٢) Terrasse : op. cit. p. 218.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٦

(٤) المرجع السابق ص ١٧٧ .

هذا إلى أن زناتة كانت تحتكر تجارة المغرب ، وتهتم منذ البداية بطرق القوافل، وبالتجارة الذاهبة إلى الجنوب[١] ، فلما أصبحت مدينة سجلماسة وغيرها من واحات الصحراء بمثابة موانى لهذه التجارة النافقة استولت زناتة على إقليم الواحات ليشدد من قبضتها على هذه التجارة . وكانت زناتة فى الواقع تحتكر سوق الأندلس بسبب صلتها الوثيقة بالأمويين[٢] . وكانت السلع الآتية من السودان تصادف رواجاً لا بأس به فى أسواق الأندلس ، وكانت صنهاجة تقنع بنصيب متواضع ، كانت قانعة بمجرد المشاركة فى نقل هذه المتاجر من أسواق الجنوب إلى أسواق الشمال[٣] ، ولكن حدث بعد سقوط الخلافة الأموية واضطراب شئون الأندلس أن فقدت زناتة سوق الأندلس ،ولم تعد تستولى على الأرباح الطائلة التى كانت تصيبها من قبل ، فاضطرت أن تفرض على التجارة وعلى القوافل رسوماً جائرة تعوض الخسارة التى أصابتها[٤] ، فنفرت المتاجر و بدأ التجار يتبرمون بسوق المغرب الأقصى ، وأثر ذلك فى الموارد التى كانت صنهاجة تستولى عليها ، لذلك لا نعجب إذا رأينا صنهاجة الجنوب تتجه أول ما تتجه إلى إقليم الواحات لا نتزاعه من زناتة ، حتى تستطيع أن تتحكم فى هذه التجارة الصحراوية الرائجة .

وهنالك ناحية أخرى يجب ألا نغفلها ، وهى أن القبائل البدوية عادة إذا خرجت غازية ، أو مهاجرة خرجت برجالها ونسائها وأطفالها بقصد الاستقرار والإستيطان فى البلاد المفتوحة ، لذلك يغلب على الظن أن الملثمين خرجوا إلى اقليم الواحات على هذه الصورة ، وليس ببعيد أن تكون هذه الأسر المهاجرة

(١) De la Chapelle : op. cit. pp. 57—58.

(٢) Ibid, p. 60.

(٣) Ibid, pp. 57—58.

(٤) De la Chapelle : Esquisse d'une Histoire de Sahara Ocid. pp. 57—58.

قد استقرت فى البلاد التى كانت تعمرها زناتة من قبل ، ويخيل إلينا أيضا أن هذه المعسكرات التى كان المرابطون يعمدون إلى إقامتها مثل تبلبلا ومراكش ، إنما كانت بقصد العناية بهذه الأسرات المستقرة مخافة أن ينقض عليها الأعداء فيجلونها عن البلاد التى استوطنتها . وكانت الغنائم والأسلاب التى توزع على الجند تغرى بالفتح والتوسع ، وتحفز القبائل المتخلفة عن الركب إلى السير إلى المغرب والمشاركة فيما شارك فيه اخوانهم من قبل .

وكانت الحكومة الجديدة شأنها شأن الحكومات القبلية الأخرى تختص أبناء جنسها بالغنم ، وتغدق عليهم بقدر ما تستطيع ، فتذكى تيار الهجرة ، وتشد من أزره . وقد روى المؤرخون أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل لمتونة ، وجدالة ، ومسوفة يرغبها فى الاستقرار فى البلاد التى فتحها ، ويزين لها الهجرة صوب الشمال ، حتى تجنى ثمار الفوز ، وتنعم بمطايب الحياة فى بلاد المغرب ، فأخذت القبائل منذئذ تتسابق فى الرحيل إلى المغرب فى موجات متلاحقة للاستقرار والاستيطان [٣] ، فانتشرت الأسر الصنهاجية فى هذه البلاد المفتوحة . يتبين ذلك من المقارنة بين ما كتبه كل من البكرى والإدريسى عن اقليم الصحراء ، فقد وصف البكرى ذلك الأقليم قبيل تحرك قبائل الملثمين ، كما وصفه الإدريسى بعد خروج القبائل ، ورحيلها إلى المغرب . لاحظ الإدريسى أن بنى جدالة لم يعودوا أصحاب الكلمة الأولى فى صحراء الجنوب ، كما لاحظ أن قبيلة مغراوة تحتل نفس المنطقة التى كانت تحتلها جدالة من قبل . أما كيف ذهبت مغراوة إلى الجنوب ، فأمر تفسيره يسير ، ذلك أن القبيلة إذا انتصرت طردت القبيلة المغلوبة على أمرها ، واحتلت ما بيدها من أرض خصبة فتضطر القبيلة المغلوبة على أمرها إلى الرحيل إلى وطن آخر تحيا

---

(١) Du Mas Latrie (op. cit.) p. 24.

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢١ .

فيه مطمئنة بعيدة عن أي[١] عدوان ، فلا بد أن مغراوة طردت إلى الصحراء ، وأن المهاجرين الجدد احتلوا المنطقة التي كانت جدالة تحتلها من قبل ، هذا إذن يفسر ذلك الاختلاف الواضح بين ما رواه البكرى وما رواه الإدريسى .

٨ — العامل الجغرافى وأثره فى فتح بلاد المغرب :

وهنالك عامل آخر يرجع إليه الفضل فى توجيه اهتمام المرابطين إلى استكمال فتح المغرب ، ونعنى به العامل الجغرافى ، الذى يملى على الفاتح الذى يستطر على بلاد المغرب الأقصى الواقعة إلى جنوب جبال الأطلس الساحلية أن يتم فتح الإقليم كله ، بالتوغل فى ذلك السهل المسمى بإقليم الريف المشرف على البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن الطرق والمسالك التى تتفرع من الجنوب متجهة صوب الشمال تيسر للفاتحين أن يوغلوا فى تقدمهم صوب الساحل بنجاح ، إذا هم أفلحوا فى القضاء على مقاومة القبائل البدوية الضاربة فى منطقة الهضاب ، ويفرض العامل الجغرافى أيضا على الدولة المسيطرة على المغرب الأقصى أن تعمل على ضم اقليم الساحل الغنى بموارده وموانيه وبأرضه الصالحة للزراعة ذات الإنتاج الوفير . سيطر الأدارسة على ذلك الإقليم من قبل ، كما استولى عليه الأمويون ، واتخذوا سبتة وطنجة معقلا تتجمع فيه قواتهم لتوغل فى البلاد[٢] ، لذلك كان على المرابطين كى تتوطد أقدامهم فى المغرب أن يتجهوا صوب اقليم الساحل لإتمام فتحه والاستيلاء على موانيه الهامه مثل سبتة وطنجة . فقد كانت هاتان المدينتان فى الواقع مفتاح المغرب وهمزة الوصل بين العدوتين[٣] .

يضاف إلى هذه العوامل أن البرغواطيين بعد أن سقطت الخلافة الأموية أفلحوا فى إقامة إمارة بمنطقة سبتة وطنجة ، فطردوا عامل بنى حمود ، واعتمدوا

(١) Cooley : The Negro Land of the Arabs p. 59.

(٢) ابن عذارى . البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ . مفاخر البربر ص ٤ .

(٣) المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢٠ .

على قبائل غمارة للتمكين لأنفسهم[١]، و بسط سلطانهم، كانوا فى الواقع بمثابة شوكة فى ظهر جيش المرابطين الذى أصبح يسيطر على منطقة فاس. نعم تم للمرابطين القضاء على غالبية برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، إلا أن هذه الإمارة البرغواطية بقيت تسيطر على اقليم الساحل، وتتحكم فيه ، وتشرف على منطقة المضايق ، وتسيطر عليها ، فقد كانوا يشتغلون بالقرصنة فى البحر «أضرم أميرهم بلجحة نارا ولقى ريحة إعصارا يأخذ كل سفينة غصبا وأضاف إلى كل رعب رعبا فضجت منه الأرض والسماء والتقت الشكوى عليه والدعاء[٢] » . أضف إلى ذلك أن مينائى سبتة وطنجة يعدان مراقىء طبيعية لأسطول قوى يسيطر على المضايق، ويتحكم فى تجارة الأندلس . وكان لابد إذن للدولة التى تسيطر على المغرب الأقصى، وتبسط ظلها على الساحل من أن تتخذ أسطولا يحمى سواحلها ، ويؤمن موانيها . يضاف إلى ذلك أن بقايا القوات الزناتية اعتصمت بمنطقة الدمنة قرب طنجة[٣] . ولم يكن من المعقول أن يترك المرابطون هؤلاء الزناتيين يعيشون فى السهول الساحلية ، ويستمدون العـــون من البرغواطيين[٤] . كل هذه الأسباب مجتمعة أملت على المرابطين أن يخفوا لفتح طنجة ، و بسط نفوذهم على اقليم الساحل ، أو اقليم الريف . ومهما يكن من شىء ، فقد تقدمت القوات الملثمة صوب طنجة ، فقبضت على بقية الزناتيين واشتبكت مع البرغواطيين فى معركة دامية انتهت بهزيمة أمير طنجة وقتله ، ودخلت قوات المرابطين المدينة سنة ٤٧١ هـ[٥] . ويبدو أن المرابطين بعد فتح طنجة اتجهوا صوب الشرق ، وأطبقوا على مديقة سبتة[٦] ، وحاصروها من البر ، واشتركت بعض سفنهم فى حصارها من البحر[٧] .

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٤٣ . البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ .
(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ج ٢٦٢ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ .
(٤) مفاخر البربر ص ٥٤ .
(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٩ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ ، ٢٢٢
(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .
(٧) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢ .

وهنا يحق لنا أن نسأل كيف تم للمرابطين بناء أسطول فى هـذا الوقت القصير ، وهم قوم بدو صحراويون ليست لهم خـبرة بركوب البحر ، ليس ببعيد أن يكون المرابطون قد استطاعوا بعد فتح وادى ملوية ، والاقتراب من الساحل إبتياع بعض السفن ، وشحنها بالرجال ، والأقوات ، وأصبحت هذه السفن نواة لأسطول المرابطين ، الذى لعب دوراً عظيما فى تاريخ النضال فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد أثار المؤرخون [١] الذين رووا قصة حصار سبتة مسألة أخرى ، وهى أن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية بعث سفينة أعانت المرابطين على حصارهم سبتة . ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين أن المعتمد تطوع بمساعدة المرابطين فى فتح هـذه المدينة ، لأنه كان يفـكر فى أن يستنجد بهم لرد عدوان الفرنجة بالأندلس ، كما ذكروا أيضا أن المرابطين قد وعدوه بالمساعدة إذا هم فرغوا من الإستيلاء على سبتة وطنجة [٢] ، ولـكن ابن بسام [٣] يسوق رأيا يختلف عن الرأى السابق ، إذ يذكر أن سفينة المعتمد بن عباد كانت بميناء سبتة تمتار وقت نشوب المعركة ، فطلب المرابطون أن تمد لهم يد المساعدة ، فلم يبخل بها فى وقت كانت سفن المرابطين قد منيت بالهزيمة ، ودب اليأس فى نفوس المقاتلة وكادوا ينصرفون عن فتح سبتة [٤] . وهـذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن المعتمد بن عباد قد شارك المرابطين فى القضـاء على هؤلاء القراصنـة ، الذين كانوا يتعرضون لسفن أشبيلية بالنهب والسلب .

وقد أفلح المرابطون فى الاستيلاء على سبتة ، وقتل المعز بن سقوت ، وزفت بشرى ذلك النصر إلى قائد المرابطين بمدينة فاس [٥] ، وتعتبر هـذه المعركة فى

---

(١) ابن أبى زرع . روض القرطاس ص ٩١ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) الذخيرة ، مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢ .
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

الواقع من المعارك الفاصلة فى تاريخ المرابطين ، بل فى تاريخ المغرب ، فهى أول معركة تخوضها سفن الأسطول المرابطى الناشىء ، كما أنها وضعت أسس تقاليد بحرية عظيمة ستنمو وتزدهر ، وتؤتى أكلها بعد حين . نعم مكنت هذه المعركة للمرابطين فى إقليم الساحل الغنى بمدنه الزاهرة ، وموارده الجمة ، ومعينة الحضارى الزاهر ، فتمت لهم السيادة على المغرب الأقصى كله ، وبسطوا ظلهم من أقصى الجنوب حتى ساحل البحر فى أقصى الشمال ، ولعمرى أنه لنصر لم يسبق له مثيل منذ عهد موسى بن نصير ، فالأمويون مثلا سيطروا على إقليم الساحل ، وتوغلوا فى المغرب الأقصى ، إلا أنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد كلها هذا التوحيد الذى حققه الملثمون .

٩ — ظهور يوسف بن تاشفين وسياسته فى فتح بلاد المغرب :

كللت جهود المرابطين بالنجاح ، وعقد لهم لواء النصر على هذا النحو بفضل قائد عظيم أظهرته الحوادث وساقته المقادير ليدير دفة الحرب فى هذا الوقت العصيب وقد عظم ذكره بالمغرب ، وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسلا وطنجة وغيرها [١] ، «وكانت البلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه فانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة وتباشروا به تباشروا البلد بالديمة [٢]» . ذلكم هو يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فما هو الدور الذى اضطلع به هذا القائد المظفر فى بناء صرح الدولة الجديدة .

الواقع أننا لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن حياة يوسف بن تاشفين فى الصحراء حتى كان خروج الملثمين إلى المغرب غازين فاتحين ، فبدأنا نسمع به لأول مرة حين ذكر المؤرخون أنه كان قائد مقدمة الجيش المهاجم [٣] ، وليس ببعيد أن

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٨ .

(٢) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

تكون مواهب يوسف كقائد شجاع قد ظهرت بواكيرها فى هذه الحملة ، التى أبلى فيها البلاد الحسن ، فلما تم للمرابطين فتح إقليم الواحات والسيطرة عليه ولاه ابن عمه على سجلماسة ، فأحسن السيرة [1] ، وظهر للناس كافة أنه قد تشبع بمبادىء الإمام عبد الله بن ياسين ، فقد أحسن إلى الناس ، وعمل فى سبيل الإصلاح بقدر الطاقة ، فلما انصرف الملثمون إلى فتح إقليم السوس الأقصى كان يوسف على رأس الجيش الغازى [2] ، وإذا كانت حملة السوس قد أصابت من النجاح والتوفيق القدر الذى عرضناه له فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى ما أظهره يوسف القائد الناشىء من حنكة ودربة وجلد وتفان فى الجهاد .

سارت الجيوش الملثمة قدما ، ففتحت أغمات ، وانصرفت بعض قوات الملثمين إلى قتال برغواطة ، وقتل عبد الله بن ياسين ، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر بن عمر بالإمامة [3] ، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، ولكن الصفة السياسية للأمير الجديد أخذت تغلب على صفته الدينية ، لأن الدولة أخذت تمر بدور من أدوار الكفاح المر يتطلب حزماً وسعة أفق ، وحسن توجيه ، فلما تشعبت مهام أبى بكر ، وثقل العبء عليه ، اشتد اعتماده على ابن عمه يوسف بن تاشفين لما ظهر من إخلاصه وشجاعته ، فإذا كان أبو بكر بن عمر قد أخذ على عاتقه المضى فى قتال برغواطة إتماما لرسالة الإمام عبد الله بن ياسين ، فلا يبعد أن يكون قد اعتمد على يوسف فى قيادة القوات الملثمة المرابطة بمدينة أغمات ، وأخذ الأهبة لذلك الصراع العنيف الذى نشب بين زناتة وصنهاجة الجنوب ، هذا النزاع الذى قرر مصير المغرب على النحو الذى بيناه .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٥١ ، أبو الفدا ج ٢ ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٣ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٤

وقد تأكد ظهور يوسف ، و بدأ نجمه يعلو ، وشخصيته تبرز حين أتت الأنباء من جنوب منبئة أن الصراع قد احتدم بين جدالة ولمتونة ، ذلك الصراع الذى كان يهدد حركة المرابطين تهديداً خطيراً ، فى وقت كانوا فيه يتهيأون لمدافعة عدوهم ، ومنازلته . كما يبدو أن ملوك الزنوج فى الجنوب انتهزوا فرصة إنصراف غالبية القوات الملثمة إلى فتح المغرب ، فأرادوا أن يطعنوها من الخلف [١] ، فلم يجد أبو بكر بن عمر بداً من أن يمضى بنفسه إلى الجنوب ، ليقضى على هذه الثورات والفتن ، و يوحد بين قبائل الملثمين ، حتى لا تتفرق الكلمة وتتبعثر الجهود . إنصرف أبو بكر إلى الصحراء [٢] ، ولكنه إضطر إلى أن يستخلف قبل سفره ، فلم يجد خيرا من ذلك القائد الشجاع يوسف بن تاشفين ، الذى عقد له على المغرب وفوض إليه أمره ، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبنى يفرن وقبائل البربر وزناتة [٣] . وقد أقره شيوخ المرابطين على هذا الإختيار ، فمضى أبو بكر لحماية ظهر الملثمين ، حتى يفرغوا لما هم بصدده من الكفاح ، فبرز يوسف بن تاشفين إلى الصفوف الأولى ، وآلت إليه وحده قيادة حملة المغرب .

ويبدو أن حسن طالع هذه الدولة الناشئة قد هدى الأمير أبا بكر بن عمر إلى إختيار يوسف بن تاشفين فى هذا الوقت العصيب ، الذى قامت فيه الأخطار تحدق بالدولة فى كل مكان ، فها هى القوات الملثمة تصارع برغواطة صراعا عنيفا ، وها هى فرق أخرى من الملثمين تقاتل فى الجنوب ، وها هم أولاء زناتة وحلفاؤها

---

(١) التادلى : التشوف ص ١٠٤ . ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٢١ . ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٤٣ . الحلل الموشية ص ١٦ . صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٩ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٥ .

M. de Lafosse : Chronique de Fautas Senegalais, Rev. M. M. 1913, t. 25 p. 183.

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٥ . جامع تواريخ فاس ص ٢٥ .

من مغراوة يؤلبون النـــاس ، ويتجمعون فى الشمال قرب فاس لمقاومـــة الملثمين ووقف تقدمهم ، والثأر لما نالهم من هزائم ، وكانت هــذه الظروف تتطلب سرعة البت والحزم والإقدام فى غير خوف والقدرة على إدارة دفة المعركة لمصارعه جميع القوى فى وقت واحد ، أو بعبـــارة أخرى تجنيد جميع القوى ، وحشدها لهذه المعركة الهائلة . وكان يوسف بن تاشفين كفئاً لذلك المجهود المضنى ، وهذه المسئوليات الجسام « لما له من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته[١] » ، فقد توفرت له الصفات التى تجمع حوله قلوب شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة ، وتجمع قلوب الجند الصنهاجى ، الذى يقدس البطولة ، ويتغنى بالشجاعة ، ويمجد القائد المبرز الشهم ، فقد كانت شهامة يوسف وشغفه بالحرب التى كان يقودها بفطنة وحسن طالع يسبغان عليه جلال الفروسية ، التى تلهب حماسة الجند ، فيندفعون وراءه اندفاع الصاعقة[٢] ، كما كان جوده ، وتقشفه ، واحتقـــاره لمظاهر الترف فى ملبسه ومسكنه أسوة حسنة ، وقدوة يحتذيها كل مرابط مخلص . بل بلغ من تقشفه ، وزهده أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ، ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبنها[٣] ، فلا نعجب إذا كان يوسف قد استطاع بهذه الصفات النادرة التى توفرت له أن يؤلف القلوب ، يذكى الحمية فى النفوس ، ويصبح سيد الموقف بلا نزاع . وقد ظهرت آثار هذه القيادة الجديدة فى هذه الانتصارات السريعة التى تلاحقت عقب انصراف أبى بكر بن عمر إلى الجنوب . وكانت خطة يوسف منحصرة فى أن يواجه الأعداء جميعاً دفعة واحدة ، تقوم القوات الصنهاجية كلها قومة رجل واحـد تواجه الأعداء ، وتناضلهم مناضلة عنيفة ، لأنه خشى إذا

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٨٥ .

(٢) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، جـ ١ ص ٧٠

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

انصرفت قواته إلى ناحية واحدة نبعث الخطر من النواحى الأخرى ، التى أهملها أو شغل عنها .

وقد عمد يوسف إلى توزيع عبء القيادة على فرسان قومه وأنجادهم ، فاختار أربعة من القواد هم محمد بن تميم الجدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى ، ومدرك التلكاتى ، وسير بن أبى بكر اللمتونى ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته[1] . وسيرهم لقتال القبائل العاصية ، ولا نعرف بالضبط خط سير هؤلاء القواد ، ولكننا عرفنا من قصة الفتح التى عرضنا لها فيما سبق أنه فى الوقت الذى كانت فيه القوات الملثمة مشتبكة فى معركة فاس كانت هنالك قوات أخرى تطرق باب المغرب الأوسط وأخرى تهاجم برغواطة وتقترب من مدينة طنجة . ويبدو أن يوسف اختص نفسه بمنطقة فاس ، وما جاورها لأنها قلب المقاومة ، ومركز ذلك الصراع . وقد تمخضت سياسة يوسف بن تاشفين عن نجاح كامل ، وأخذت قلاع العدو تسقط واحدة بعد أخرى ، وبدأت الجيوش الملثمة تتحرك فوق صفحة المعركة تحركها يد قائد ماهر .

وفى هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد فرغ من القتال فى جبهة الجنوب ، ورد القبائل العاصية ، ووحدها ، وصارع ملوك الزنوج ، وعاد إلى المغرب الأقصى مرة أخرى فى سنة ٤٦٥ هـ ، على نحو ما يذكره المؤرخون[2] .

والمؤرخون يصورون لقاء أبى بكر بن عمر يوسف بن تاشفين صورة روائية ، ويضفون على هذا اللقاء مسحة الأسطورة[3] ، فيقولون أن يوسف عقد النية على أن يختص نفسه بأقليم المغرب ، فيصبح أميراً عليه يأمر وينهى ، وأن أبا بكر ابن عمر سمع أن يوسف أراد أن يستبد بالأمر دونه ، فعاد لتوه ليخلعه ، ويولى

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٤

(٣) روض القرطاس ص ٨٦ .

غيره[1] ، وهم يسوقون على لسان كل من يوسف وأبى بكر بن عمر حواراً وأحاديث . ليس من شك فى أن يوسف مكن لنفسه فى المغرب كله ، كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح مغاليق حصونه ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها إلى الطاعة وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد اتخذ حرساً خاصاً من العبيد السودان ، أو من الروم على ما يذكره المؤرخون[2]، فقد كان أميراً للجيش ، ونائباً لأمير المرابطين ، فلا يستغرب أن يكون قد اتخذ حرسا يخلع عليه نوعاً من الأبهة والسطوة ، وليس ببعيد أيضا أن يكون يوسف قد جمع لبيت المال ثروة طائلة ، سواء من الزكاة ، أو الغنائم بدليل هذه الهدية الضخمة التى جهزها للأمير أبى بكر[3] .

ولم يكن فى ذلك شىء من الغرابة ، فما دام نائباً للأمير بالمغرب فمن حقه أن يجمع المال لبيت المال ، أما عودة أبى بكر بن عمر فقد كانت عودة طبيعية ، فرغ من مهمته فى الجنوب ، أدب العصاة ، ووحد القبائل ، وصان ظهر القوات المقاتلة فى المغرب ، ولو كان قد أحس حقاً أن يوسف قد قلب له ظهر المجن ، لكان فى استطاعته لو أحب أن ينقض عليه من خلف ، وأن يجند من القبائل ما يستطيع به مدافعة يوسف ورده عن العصيان . وكان أبو بكر رجلا زاهداً متورعاً محبوباً يلبى المرابطون نداءه إذا أراد ، ولكن أبا بكر عاد إلى المغرب لا طمعا فى سلطة ، ولا فى قيادة ، إنما ليتفقد الأحوال بنفسه ، ويقف على الجهود التى بذلها ابن عمه فى فتح البلاد ، واصلاح شأنها ، لم يطمع أبو بكر فى القيادة وهو الذى ولى يوسف من تلقاء نفسه ، وأمره على المغرب ، وعهد إليه أن يتم فتحه ، أفيكون جزاء يوسف أن يأتى أبو بكر لخلعه بعد هذه الجهود التى بذلها ؟

---

(١) جامع تواريخ فاس ص ٢٥ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦

لم يكن يوسف يفكر فى اغتصاب السلطة ، فقد كان يقدر مركزه حق قدره ، ويعرف أنه قائد مفوض من قبل أمير البيت اللمتونى . يدل على ذلك أنه ما كاد يعلم بنبأ قدوم ابن عمه حتى جهز له هدية عظيمة « وكتب إليه كتاباً يعتذر فيه إليه ويرغب فى قبول الهدية ويقول له كل ذلك قليل فى حقك »[1] .
وقد طابت نفس أبى بكر لذلك اللقاء ، ووضحت رغبته حين قال ليوسف « أنه لا غناء لى عن الصحراء وما جئت إلا لأسلم الأمر إليك وأهدنك فى بلادك وأعود الى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا[2] » . إذن أكد أبو بكر بن عمر تولية يوسف بن تاشفين على المغرب مرة أخرى ، استخلفه أول الأمر ، فلما رأى حسن بلائه ، وسعة ملكه ، وحب الناس إياه ، أحب أن يوليه على المغرب رسمياً ، وينصرف هو إلى الصحراء ، لأنه كان رجلا زاهداً فى الدنيا عزوفاً عن السلطان ، يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أنه أحضر شيوخ لمتونة ، وأعيان الدولة ، وأمراء المصامدة والكتاب ، والشهود ، والخاصة ، والعامة ، وأشهد له بالتخلى عن الأمر بوطن المغرب[3] .

وقد تخلى أبو بكر بن عمر ليوسف بن تاشفين من تلقاء نفسه ، لا مرغما ولا مضطرا ، وقد ظلت السيادة الأسمية بالطبع من نصيبه ، يؤيد ذلك ما رواه البكرى حين قال « وأمير المرابطين إلى اليوم (وذلك سنة ٤٦٠ هـ) أبو بكر ابن عمر[4] » ، ويدل على ذلك أيضا أن النقود كانت تضرب باسم أبى بكر ابن عمر حتى توفى عام ٤٨٠ هـ باعتباره أمير الدولة وحاكمها الأوحد[5] . وقد

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) البكرى : المغرب ص ١٧٠ .
(٥) H. Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la bibliotheqne Nationale (Espagne et Afrique) pp. 201, 202. Monadas de las Dinastias Arabigo — Espanolas p. 238.

يقال كيف استباح يوسف بن تاشفين لنفسه أن يسك النقود باسمه[١] . الواقع أن يوسف لم يكن من هـذه الناحية مجددا ولا مبتدعا ، فقد ذكرت مجموعات النقود أن ابراهيم بن أبى بكر بن عمر سك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ ، ٤٦٥[٢] ، وذلك فى حياة أبيه بوصفه أميرا على سجلماسة . وتفسير ذلك أن المرابطين كان من عادتهم دائما أن يحكموا البلاد التى يفتحونها حكما اقطاعيا ، فيولون أمراء من البيت الحاكم على أقاليم بعينها يصبحون أصحاب الكلمة الأولى فيها ، ويكونون مسئولين أمام أمير البيت اللمتونى . فإذا كان يوسف قد سك نقوداً فقد فعل ذلك بوصفه أميرا للمغرب من قبل أبى بكر بن عمر ، الذى كانت له السلطة العليا حتى وفاته سنة ٤٨٠ هـ .

مهما يكن من شىء فإن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين؛ نحن لا ننكر أثر الجهود التى بذلها عبد الله بن ياسين، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر ، لكن مما لا شك فيه أن الفضل فى اتمام فتح المغرب يرجع إلى يوسف بن تاشفين . إذ لو لم يفتح الملثمون المغرب لتفرق شملهم ولما قامت لهم قائمة ، بل لماتت دولتهم فى المهد ، فلا نعجب إذا رأينا اسم ذلك القائد المحنك يعلو على اسم الأمير الشرعى ، ويتحدث الناس بذكره ، ويتردد صداه فى المغرب كله ، وفى الأندلس ، ويحس الناس أن قوة فتيـة ظهرت على مسرح المغرب يحسب لها ألف حساب .

وكان اختيار يوسف بن تاشفين أميراً للمغرب فى ذلك الوقت بالذات يدل على بعد نظر أبى بكر بن عمر وسعة أفقه ، فقد كانت البلاد فى حاجـة إلى قائد ماهر ، وسياسى داهية ، يؤمن هـذه الفتوح الواسعة ، ويضمد جروح المغرب

---

(١) Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic Coins in the Khedivial library p. 328.

(٢) H. Lavoix : Cat. des Monnaies Mus. p. 201.

ويرتق فتوقه ، ويؤلف بين قلوب أهله . فما هي إذن السياسة التي اتبعها يوسف ابن تاشفين في إصلاح البلاد وتثبيت دعائم الدولة فيها ؟

كان على يوسف إذا أراد أن يمضى في مشروعاته الحربية أن يسد حاجة الجيش من الرجال . ولم تستطع القبائل الملثمة وحدها أن تضطلع بعبء القتال في هذه الميادين المتعددة ، فاضطر يوسف إلى أن يوسع دائرة التجنيد بعض الشيء ، فأشرك القبائل الأخرى ، جند من زناتة ، ومن مصمودة ، ومن غمارة [١] . وكان يطلق على هؤلاء المجندين اسم (الحشم) [٢] ، وكانت فرق الحشم تختلف عن الفرق المؤلفة من فرسان صنهاجة ، وقد اضطر يوسف أن يتخذ حرسا من السودان كما اشترى عبيدا من بلاد الروم [٣] . وأصبح الجيش لأول مرة يتألف من طوائف متعددة يؤلف بين قلوبها جميعا حب يوسف واحترامه وكثرة بذله واغداقه . كما عمد يوسف إلى تنظيم الجيش الجديد تنظيما دقيقا فبعد أن كانت جموع القبائل الملثمة تتقدم إلى الميدان جبهة واحدة ، أو كتلة واحدة متراصة ، اضطر إلى توزيع المسئولية على القواد ، فجعل الجيش فرقا على رأس كل فرقة قائد من رجاله الذين يثق فى اخلاصهم وصدق جهادهم [٤] . كما اتخذ البنود والطبول ، وزاد عدد الجيش حتى بلغ — على ماتذهب اليه الرواية — مائة ألف جندى [٥] . إذا دقت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو [٦] ، لذلك لا نعجب إذا غدت هذه الجيوش آلة طيعة فى يد ذلك القائد الماهر يسخرها فى مشروعاته الحربية بحذق ومهارة ، حتى حقق ما أراد من نصر وظفر .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) الحلل الموشية ص ٢٤

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٦) يوسف أشباخ جـ ١ ص ٧٢ .

أضف إلى ذلك أن الفتوحات المرابطية كانت تتسع رقعتها بالتدريج ، وكانت القبائل الملثمة تنتشر فوق رقعة المغرب كله[١] ، وتشتبك مع قبائله ، تناصبها العداء وتقف لها بالمرصاد ، وكانت ديار المرابطين بعيدة ، ووسائل الاتصال بين القبائل الغازية ، وبين ديارها الأصلية عسيرة ، فكان لا بد ليوسف من أن يؤمن هذه القبائل الفاتحة على نفسها ، ويعمل على الإبقاء على البلاد المفتوحة بأية وسيلة[٢] ، ويحول بين القبائل المغلوبة على أمرها ، وبين شق عصا الطاعة ، وانتهاز فرصة اشتباك المرابطين مع أعدائهم ليرفعوا راية العدوان ، فاضطر إلى بناء المعسكرات لحماية الفتوحات الجديدة ، فلما فتح اقليم سجلماسة أسس المرابطون مدينة تبلبلا[٣] . كما أنشئت مدينة مراكش في قلب بلاد المصامدة ، لتكون معسكرا يحشد فيه الجند الصنهاجيون ؛ فيقفون بالمرصاد للمصامدة يردون عدوانهم[٤] إذا حدثتهم أنفسهم بالثورة . وكان يوسف بن تاشفين يبنى الحصون المنيعة ، ابتنى في مراكش قلعة اسمها دار الحجر[٥] ، كما بنى في تلمسان الجديدة بالمغرب الأوسط[٦] قلعة تحرس الزناتيين ، وتقف لهم بالمرصاد ؛ كما أقام في اقليم الريف حصنا لا تزال آثاره باقية حتى اليوم[٧] . ولا بد أنه أقام سلسلة من الحصون تمتد من مراكش في الجنوب حتى مدينة فاس في الشمال ، ومن تلمسان في الشرق إلى طنجة في الغرب ، ومن أسف أن معالم هذه الحصون قد درست ، لأن الموحدين استطاعوا بعد أن تم لهم الأمر أن يطمسوا رسمها امعانا في التنكيل بأعدائهم . وكانت كل

---

(١) Marçais : op. cit. pp. 346 —349.

(٢) Idem.

(٣) De la Chapelle : op. cit. p. 62—63.

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ . النويرى ج ٢٢ ص ١٧٨ .

(٥) الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٠

(٦) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٥ .

(٧) Marçais : op. cit. pp. 346—347.

قلعة من هذه القلاع تشحن بالأقوات والمقاتلة والسلاح ، لتكون مستعدة لمواجهة العدو فى أى وقت ، ولا ندرى كيف استطاع هؤلاء البدو أن يتخذوا هذه السياسة الحربية الحكيمة ، وليس ببعيد أن يكون احتكاكهم بالمغرب وورودهم مورد الحضارة المنبثة فى أرجائه ، قد مكن لهم من تعلم هذا الفن وتطبيقه فى بلاد المغرب .

وقد جمع يوسف بن تاشفين ثروة طائلة من الغنائم ، والأسلاب ، ومن حصيلة الزكاة ، والعشور [1] ، وقد استغل هذه الأموال فى تأليف قلوب زعماء الملثمين ، فأغدق عليهم ، فخفوا إليه طامعين فى رفده وكرمه [2] ، كما عمد إلى توزيع الأراضى الخصبة على قبائل الملثمين القادمة من الجنوب [3] ، وولى رجالها الأعمال [4] ، واستطاع بهذه السياسة البعيدة النظر أن يستميل الزعماء ، وأن يكسب ودهم ، فمالوا إليه ، ووقفوا إلى جانبه ، وأصبحوا رهن إشارته ، وطوع يمينه . كما اتخذ من ذوى قرباه ولاة على البلاد المفتوحة ، فولى سير بن أبى بكر مدائن مكناسة ، و بلاد تكلالة ، وفازاز . وولى عمر بن سليمان مدينة فاس ، وأحوازها . وولى داود بن عائشة سجلماسة ، ودرعة . وولى ولده تميم مدينة أغمات ومراكش ، و بلاد السوس ، وسائر بلاد المصامدة ، و بلاد تادلة وتامسنا [5] . وقد عمد يوسف إلى مهادنة القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعى زعماءها فيبرهم ويكرم وفادتهم ، و يجزل عطاءهم ، و يتألف قلوبهم ، فيلتفون حوله ، و يبايعونه [6] .

---

(١) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) Cooley : The Negro Land of the Arabs p. 57.

(٤) الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ٢١ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩١ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ .

فاستطاع أن يطفىء نار الفتنة وأن ينشر السلام فى المغرب [١] ، ويقر الطمأنينة فى ربوعه .

كانت هذه السياسة الحكيمة ذات آثار اقتصادية وسياسة بعيدة المدى ، فقد انصرف الناس إلى الإنتاج ، فزادت الأموال ، ونشطت الصناعة والتجارة والزراعة ، كما أنه استطاع بعد أن تألف قلوب أهل المغرب كله أن يجندهم للجهاد فى الأندلس فلبوا ندائه طائعين . ولم ينس يوسف أن يمضى فى السياسة الإصلاحية التى رسمها عبد الله بن ياسين [٢] ، كان يتفقد أحوال الرعية وينظر فى أمر الولايات ، ويرد المظالم ، ويحكم بين الناس بالسوية . فلا نعجب إذا رأينا هذه السياسة الحكيمة تكلل بالنجاح ، وتأتى أكلها فقد أصبح المغرب طوع يمينه ورهن إشارته .

---

(١) الاتحاف ج ١ ص ٦٢ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩١ .

الباب الرابع

الدور الأندلسى

١ — انصراف الطاقة إلى معركة الجهاد :

إستطاع يوسف بن تاشفين إذن أن يتم فتح المغرب الأقصى ، وأن يعلى كلمة المرابطين فيه ، ويرفع من شأنهم ، وينشر الطمأنينة والسكينة فى ربوع البلاد بفضل السياسة الحكيمة التى انتهجها ، هذه السياسة التى أثمرت ونجحت إلى حد بعيد ، فبدأت الحياة فى بلاد المغرب الأقصى تتغير تغيرا كبيرا ، وبدأت قبائل الملثمين تنتشر فى البلاد فتستقر فيها وتستولى على ما كان بيد القبائل الأخرى من أرض خصبة .

نعم بدأت قبائل الملثمين بعد هذا النصر العظيم يشتد ساعدها وتشعر بقوتها خصوصا بعد أن فرغت من أكثر مشاكلها وقهرت كل أعدائها ، وبدأت الموارد الهائلة تتدفق على بيت المال ، وبدأ المرابطون بعد كفاح دام عشرين عاما يتنفسون الصعداء ويحسون بنعمة الظفر .

نعم أتم يوسف بن تاشفين ما بدأه عبد الله بن ياسين ، كما أن دور يوسف فى بناء الدولة الجديدة لا يقل عن دور عبد الله نفسه ، لا ننكر أنه يرجع إلى عبد الله الفضل فى بث الدعوة التى طهرت النفوس ، وصقلت القلوب ، وخلقت من الملثمين شعبا جديداً فتيا نابضا بالحياة والقوة ، لكن لا ننسى أنه إلى يوسف يرجع كل الفضل فى فتح المغرب كله ، والانتقال بالدولة إلى الدور الثانى من أدوار قيامها . إليه وحده يرجع الفضل فى تخلص الدولة من طابعها الصحراوى ،

واتخاذها السمة المغربية الخالصة . نعم أتم يوسف حركة الجهاد الرائعة التى أوقد عبد الله شرارتها وأضرم نارها . كانت الجذوة التى أوقدها عبد الله بن ياسين فى نفوس الملثمين لا تزال تضطرم فى نفوس أصحابه وعهدهم به قريب كما نعلم .

لم تخمد إذن هذه الدعوة المباركة التى بثها عبد الله بسبب هذا النصر الذى أحرزه أتباعه ومريدوه ، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه عمل جاهدا على ألا تنطفىء شعلة الحماس فى نفوس أصحابه من المرابطين ، وقومه من الملثمين ، وكان بتواضعه وتقشفه وزهده وتقواه صورة مماثلة لإمامه عبد الله ، كان فى الواقع المثل الحى لهذه الإمارة التى جمعت بين الدين والدولة معا ، وإذا كان أبو بكر بن عمر قد اختاره الناس خليفة لعبد الله بن ياسين بسبب تواضعه وتقواه ، فإن الناس قد آمنوا بيوسف كما آمنوا بأبى بكر واعتقدوا بحق أنه الزعيم الخليق بأن يقودهم فى ميدان الجهاد والتضحية .

كان لابد لهذه القوى الهائلة التى جندها يوسف ، وهذه الأموال الضخمة التى جمعها ، وهذه الطاقة التى أقام صرحها أن تنصرف إلى ميدان جديد من ميادين النشاط والكفاح . نعم كان لابد من أن تنصرف هذه الطاقة فى ميدان الجهاد فى سبيل الدين ، وإعلاء كلمته ، ومصارعة أعدائه ، وليس هذا بغريب فان الدولة قامت على الجهاد وأصبح الجهاد الطابع المميز لها من نشأتها الأولى . جاهدت فى بلاد السودان ، وجاهدت فى الصحراء ، وجاهدت فى المغرب . كان الجهاد إذن دستور الملثمين ورائد المرابطين . ولم يكن من المستطاع أن تخلد هذه القوى الكبرى المضطرمة بالحماس إلى الراحة والطمأنينة والدعة ، لو فعلت ذلك لما اعتبرت رسالة عبد الله بن ياسين قد نجحت أو حققت الأمل الذى عقده الناس عليها . ليس من شك فى أن هذه القبائل لو ركنت إلى الراحة بعد هذا الكفاح المر لتفرق شملها ، وتبعثرت كلمتها ؛ كانت وحدتها يذكيها الجهاد ، ويصونها الكفاح من أجل نشر الإسلام .

كان من الممكن أن تنصرف هذه القوى الكبرى نحو الشرق فتتم فتح إفريقية، وكانت الأحوال السائدة — كما ذكرنا — فى هذه البلاد تمهد لذلك الفتح: ولو تقدم المرابطون لما وجدوا مقاومة تذكر، بل لبسطوا سلطانهم على البلاد فى غير كبير عناء، فقد كانت إفريقية قد تفرق شمل أهلها بسبب غارات بنى هلال، كما ضعف بنو حماد ودهمتهم الفرقة التى دهمت بنى عمهم بإفريقية. ولكن الدولة فى هذا الدور الجديد من أدوار قيامها لم تكن فى حاجة إلى كسب مادى، فلم تكن فى حاجة إلى أن تكسب أرضا جديدة أو تمضى فى توسع جديد. إنما كانت تريد أن تحقق الأهداف التى رسمتها دعوة عبد الله بن ياسين، ألم يكن عبد الله بن ياسين سلفيا يهدف إلى إحياء الإسلام، ورده إلى قوته الأولى ومحاربة البدع والفساد، وبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً؟ كان لابد للدولة الجديدة إذن بعد أن فرغت من الجهاد فى سبيل نشر الإسلام فى الصحراء وفى بلاد المغرب الأقصى أن تنصرف إلى الجهاد العام، إلى مدافعة أعداء الإسلام، إلى رد القوى الإسلامية إلى ما كان لها من سبق وتفوق، كانت الدولة الجديدة تريد أن تضرب للأمم الإسلامية مثلا. تريد أن تتمثل فى أذهانهم دولة مجاهدة فى سبيل الإسلام مسخرة كل جهد وكل مال فى سبيل إذكاء حركة الجهاد، ورد أعداء الإسلام إلى سابق عهدهم من الضعف والتخاذل.

وقد ترك العامل الجغرافى فى توجيه الدولة فى هذا الدور الجديد من أدوار قيامها أثراً بعيداً، فقد أطلت على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت شواطئها الطويلة معرضة لأن تغير عليها الأساطيل الفرنجية، فتنال منها، وتعيث فى نواحيها، فلم يكن بد إذن من أن تهتم الدولة بما يجرى فى حوض البحر المتوسط الغربى من صراع بين المسلمين والفرنجة من أجل السيادة البحرية، كما أصبحت تطل على الأندلس وتهتم بما يجرى فيه وعادت الصلة بين العدوتين وثيقة قوية.

وكان ما يجرى فى حوض البحر الأبيض أو فى الأندلس تهلع له قلوب المسلمين المخلصين لدينهم وتراثهم ، نعم جاءت الدولة إلى المغرب فى وقت كانت فيه المعركة دائرة الرحى بين المسلمين والفرنجة منذرة بتطور خطير فى تاريخ المغرب والأندلس كان لا بد إذن من أن تدخل الدولة فى هذا الدور الجديد ميدان الجهاد لمدافعة الفرنجة ، وردهم عن حياض المسلمين سواء فى حوض البحر الأبيض أم فى الأندلس

وقد يقال : ألم يكن من الممكن أن تنتهى مراحل قيام الدولة بعد إتمام فتح المغرب الأقصى ، وللإجابة على ذلك نقول أن المرابطين لو وقفوا من الأحداث المؤسفة التى كانت تجرى فى بلاد الأندلس مكتوفى الأيدى لا يدلون بدلوهم فى دلاء الجهاد ، لاعتبروا خارجين على رسالة إمامهم عبدالله بن ياسين ، حانثين بعهده خائنين للأمانة التى عقدها الناس عليهم . فإن قصة قيام الدولة لم تكن فى الواقع إلا حركة جهاد مستمرة ، بدأت الحلقة الأولى فى الرباط الذى أنشأته عبد الله ابن ياسين فى حوض السنغال ، ثم أخذت الحلقة تتسع رويدا رويدا ، فشملت الصحراء والمغرب والأندلس ، ولم يقف الجهاد إلا بعد أن حقق أهدافه ، حين تأكد قيام الدولة فى أذهان المعاصرين فى الشرق والغرب .

٢ — الدوافع التى أذكت رغبة المرابطين فى الجهاد :

ولكى نعطى صورة واضحة لذلك الدور العظيم الذى اضطلع به المرابطون فى معركة الجهاد ، يحسن بنا أن نصور الدوافع التى أذكت الحماس فى صدور المرابطين ، ونستعرض القوى الإسلامية فى الجزء المغربى من حوض البحر الأبيض ونبين مدى ما أصابها من ضعف وتخاذل و إستسلام ، ثم نبين الأسباب التى أدت إلى رجحان كفة القوى الأفرنجية فى البحر الأبيض ، وفى بلاد الأندلس حتى يتيسر لنا أن نعطى صورة واضحة لهذه الأوضاع المؤسفة التى اضطرت المرابطين إلى المشاركة فى حركة الجهاد ومحاولة بعث القوى الإسلامية المبعثرة المتفرقة .

نعم كان من مظاهر الضعف الذى منى به المسلمون فى القرن الخامس الهجرى أنهم فقدوا السيادة فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ؟ فكيف استطاع الفرنجة أن ينالوا من هذه السيادة ، وكيف تمت لهم الغلبة حتى استطاعت أساطيلهم أن تثخن فى ديار المسلمين ، وتغير على موانيهم وتهددهم فى عقر دارهم .

إشتدت حاجة المسلمين بعد فتح الشام ومصر إلى ركوب البحر و بناء الأساطيل والاستعانة بالسفن فى مدافعة الروم ، فقد وضعوا أيديهم على موانى هامة وجزر ذات أهمية حربية عظيمة ، مثل قبرص و رودس وغيرها من الجزر الصغرى المتناثرة فى حوض البحر المتوسط ، واضطر العرب أن يتخذوا الأهبة لرد عادية أسطول البيزنطيين ، الذى كان يغير على موانى الشام ومصر[(١)] ، فبدؤا يبنون السفن ، و يروضون أنفسهم على ركوب البحر ليصارعوا البيزنطيين فى ميدانه . وقد أحرز العرب فى هذا الميدان البحرى تقدما ملحوظاً ، فقد استطاعت سفنهم أن تهاجم مدينة القسطنطينية نفسها ، ثم فتح المسلمون افريقية والمغرب الأقصى ، وأصبحت سواحله الطويلة معرضة لغارات الأساطيل المسيحية ، التى كانت تتخذ من جزر حوض البحر الأبيض معاقل تغير منها على الشواطىء الإفريقية المقابلة[(٢)] ، ثم فتح المسلمون بلاد الأندلس واستولوا على الموانى الهامة المطلة على حوض البحر الأبيض ، وكانت الأساطيل الفرنجية تأوى إليها ، وتعتصم بها ، وكان الحوض الغربى لهذا البحر قد أصبح بحيرة إسلامية[(٣)] .

وشرع المسلمون فى المغرب يعملون فى بناء الأساطيل بهمة لا تقل عن همة إخوانهم بالمشرق ، وإذا كانت أساطيل الشام قد أغارت على قبرص ورودس[(٤)] ، فإن عبد الله بن سعد بن أبى السرح بدأ يستعين بالسفن الحربية على إتمام فتح

---

(١) رينو : غزوات العرب فى أوروبا ص ١٨

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) Pirenne: Mohamet et Charlemagne p. 142

(٤) Ibid, p. 132.

إفريقية[١] . ولكن موسى بن نصير هو فى الواقع المؤسس الحقيقى للبحرية الإسلامية فى غرب البحر الأبيض[٢] . فقد أكثر من إنشاء دور الصناعة ، كما أكثر من بناء السفن ، لأنه كان يعتقد أن العامل البحرى سيكون له أثر هام فى فتح الأندلس ، فلما فتحت هذه البلاد توطدت سيادة المسلمين فى البحر ، وانتشرت دور الصناعة فى موانى الأندلس ، كما انتشرت فى موانى المغرب من قبل .

ولم تكن الأساطيل البيزنطية تستطيع وحدها أن تبسط ظلها على البحر الأبيض كله ، من آسيا الصغرى إلى الأندلس ، إذ حاقت بها الهزائم المتلاحقة فى الشرق والغرب ، وضعف شأنها ، ولم تستطع مقاومة التيار الإسلامى ، أو الوقوف فى وجهه . ولم تكن القوى المسيحية فى المغرب تستطيع أن تضطلع بعبء الكفاح وحدها ، إذ لم تكن لها أساطيل تذكر ، فالقوط الغربيون لم تكن لهم بالبحر مغامرات ذات شأن[٣] ، حصن المسلمون دور الصناعة وجعلوها قلاعا يصعب اقتحامها أو الاقتراب منها ، كما أنشئوا سلسلة من الربط والمحارس على طول الساحل الإفريقى من برقة إلى طنجة تتعاون فيما بينها على صد الخطر الفرنجى إذا ظهرت طلائعة أو بدت نذرة[٤] .

ولم يقنع المسلمون بذلك القدر ، بل أخذوا ينظمون غارات متتابعة على الجزر والقواعد البحرية التى كان المسيحيون يلوذون بها و يعتصمون فيها ، اتجهت أبصارهم إلى جزيرة صقلية من أول الأمر ، ووجدوا أن فى بقاء هذه الجزيرة فى يد البيزنطيين خطراً داهماً لن يكف عن تهديدهم فى عقر دارهم ، وكان أول من اهتم بأمر صقلية معاوية بن حديج الكندى[٥] ، وظل المسلمون منذ سنة ١١١ هـ

(١) المالكى : رياض النفوس ص ١٧ .

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) Pirenne: Mohamet et Charlemgne, p. 146.

(٤) Idem.

(٥) المكتبة الصقلية ج ١ ص ١٦٠ .

لا يسكفون عن الإغارة على موانى هـذه الجزيرة ومدنها [١] ، ويقلقلون بال القوات البيزنطية ويهددونها بخطر متلاحق . فقد أرسل عامل افريقية سنة ١٢٢هـ حملة على صقلية فتحت سرقوسة ، واضطرت أهلها إلى دفع الجزية [٢] . ولكن الولاة من العرب شغلوا عن صقلية بثورات البربر ، وظلت الحال على ذلك حتى قام الأغالبة سنة ٢٠١ هـ بتجهيز حملة للإستيلاء على هـذه الجزيرة [٣] . وكان المسلمون جميعاً يتطلعون إلى هذه الجهود التى تبذل للإستيلاء على هـذه القاعدة العظيمة ، فقد روى المؤرخون أن القوات الاندلسية أسهمت فى هـذه الجهود المتلاحقة ، التى بذلها الأغالبة فى فتح صقلية [٤] ، حتى كللت جهودهم بالنجاح سنة ٢٦٦ هـ ، وسقطت آخر قلاع الجزيرة [٥] ، وأخفقت محاولات البيزنطيين لاستردادها ، فاستسلموا ، وسلموا للمسلمين بما فتح الله عليهم [٦] . وقد وجه المسلمون عنايتهم لسردانية أيضاً ، فقد أغارت عليها سفن [٧] عبد الرحمن بن حبيب سنة ١١٥ هـ [٨] ، وسفن ابن الحبحاب سنة ١١٧ هـ ، كما أغارت عليها سفن الفاطميين سنة ٣٢٣ هـ ، حتى كتب لمجاهد العامرى أن يستولى عليها آخر الأمر سنة ٤٠٦ هـ [٩] . كما فتح المسلمون جزيرة ميورقة [١٠] ، وأغاروا على قرسقة ، وفتحوا مالطة سنة ٢٥٦ هـ [١١] . وفى عهد الأغالبة « ملك المسلمون الجزائر المنقطعة-

---

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٦٦١ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٠ . المطرب لابن دحية ورقة ٤٤ (١)

(٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٢٤

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٩

(٦) Pirenner op. cit. p. 141.

(٧) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٨

(٨) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٦

(٩) المرجع السابق ونفس الصفحة

(١٠) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١

(١١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٢٧

مثل ميورقة ومنورقة و يابسة وسردانية وصقليه وقوصرة ومالطة واقريطش[١] ».
هكذا بلغت السيادة الإسلامية الذروة ولم يعد الفرنجة يسيطرون إلا على الطرق البرية ، وأصبح القراصنة المسلمون مطلقي السراح يفعلون كما يشاءون ، وانهارت الوحدة الاقتصادية فى حوض البحر الأبيض ، هذه الوحدة التى لم تنل منها غارات البرابرة على الدولة الرومانية . و يعتقد (Pirenne) أن انهيار هذه الوحدة هى البداية الحقيقية لتاريخ العصور الوسطى[٢] .

ولم يكتف المسلمون بذلك القدر ، بل بدأت قواتهم تغير على سواحل أوربا نفسها ، فأغاروا على مدينة طارنت و بارى بجنوب إيطاليا سنة ٢٢٨ هـ[٣] ، كما فتحوا كريت سنة ٢٤٤ هـ[٤] ، ووصلت غزواتهم إلى روما ، فدخلوا من نهر التيبر ، وأحدقوا بالمدينة ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس[٥] ، واضطر البابا إلى أن يدفع الأتاوة للمسلمين ، حتى يكفوا عن تهديده فى عقر دارة[٦] . بل أغار المسلمون على مدينة جنوة وشاطىء دلماشيا سنة ٢٥٩ هـ[٧] ، بل غزوا مرسيليا وأوقعوا بالسفن المسيحية الراسية فيها[٨] ، وحملوا الرعب إلى صفوف الفرنجة ، فلم يعودوا يجرؤن على المخاطرة بأنفسهم فى اقتحام هذا الميدان .

وعلى الرغم من أن الفرقة دهمت القوى الإسلامية فى المغرب بسبب قيام الدولتين الأموية والفاطمية ، لم تصب السيادة الإسلامية بأذى ، بل اشتد

---

(١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٦١
(٢) Pirenne : op. cit. p. 143.
(٣) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٢٧
(٤) المرجع نفسه ص ٣٥٤
(٥) رينو : غزوات العرب ص ١٥٥
(٦) Pirenne : op. cit. p. 141.
(٧) Pirenne : op. cit. p. 148.
(٨) رينو غزوات العرب ص ١٥٦

ساعدها عن ذى قبل ، إذ عكف الفاطميون على العناية بالأسطول وزيادته ، حتى لقد أصبحت المهدية من أهم الموانى الحربية فى حوض البحر الأبيض . كما غزا الفاطميون سردانية سنة ٣٢٣ هـ[١] ، وجنوة ومرسيليا[٢] ، وأرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت مضيق مسينا ، وثبتت سيادتهم فى جنوب إيطاليا ، وأرغمت الأهلين على دفع الجزية[٣] . وقد فاقت الأساطيل الفاطمية غيرها من الأساطيل الإسلامية فى عنف هجومها وجرأتها . أما الأمويون فى الأندلس فقد عمدوا إلى الإكثار من الأساطيل ، حتى بلغت البحرية الأندلسية الذروة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، الذى استولت سفنه على جزر البليار ومنورقة[٤] ، وبدأت دور الصناعة التى أنشئت فى موانى طرقونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية والمرية[٥] تسهم فى إمداد البحرية الأندلسية بحاجتها من السفن ، ورغم العداء المر بين الفاطميين والأمويين إلا أنهما كان شبه متفاهمين على رد عدوان الفرنجة والنيل منهم .

ولكن القوى الإسلامية بعد أن بلغت الأوج فى القرنين الثالث والرابع بدأت تتقهقر حينما أظل العالم الإسلامى القرن الخامس الهجرى ، وبدأت السفن الإسلامية ترتد على أعقابها خاسرة . وأخذت القوى المسيحية تنال من هذه السيادة ، فقد انتقل الخلفاء الفاطميون إلى مصر ، ولم يعودوا يهتمون بأمر هذا الجزء من العالم الإسلامى ، وبدأت الأساطيل الفاطمية التى كانت موضع رعب وفزع تنقل ميدان أعمالها إلى الشرق إلى ثغور مصر والشام ، كما أخذ شأن الخلافة الأموية يضعف رويداً حتى سقطت آخر الأمر ، وتفرق شمل الأندلس ،

---

(١) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٢١٦

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٧

(٣) المرجع السابق جـ ١ ٢٥٣

(٤) ابن عذارى : البيان جـ ٢ ص ٢٣٨

(٥) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ١٩٦

وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة ، وأخذت البحرية الأندلسية التى طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها ، و بدأب تختفى من الميدان . ونحن لا ننكر أن بنى زيرى الذين ورثوا ملك الفاطميين بالمغرب ، قد اهتموا بالناحية البحرية ، وأخذوا يعملون بقدر الطاقة على الاحتفاظ برمق البحرية الإسلامية[1] ، إلا أنهم كانوا يعملون منفردين ، ولم يكن باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله .

حدث هذا فى الوقت الذى بدأت فيه المملكية الفرنجية التى قامت فى فرنسا تمكن لنفسها ، وتنمو وتترعرع[2] ، وأثمرت الجهود التى بذلت منذ أيام شرلمان بعد أن تم توحيد الإمبراطورية الغربية ، وأخذت الكنيسة بعد أن حالفت ملك الفرنجة تسترد نفوذها القديم ، وتبسط ظلها على المجتمع الغربى بالتدريج . وقد تنصر النورمانديون وصاروا عاملا عظيما من عوامل القوة المسيحية ، كما تنصر المجيار ، وأصبحت أوروبا كلها مسيحية تقريباً[4] . و بدأ دبيب النهضة يدب فى جسم أوروبا بعد أن تخلصت من أثر غارات الجرمان ، وغيرهم من الشعوب المتبربرة ، و بدأت الشعوب يشتد ساعدها ، وتبرز قوتها مطالبة بحقوقها وتناقش الملوك بالحساب[5] . كما انتعشت الحالة الاقتصادية ، و بدأت جمهوريات إيطاليا ، مثل البندقية و بيزة وجنوة توطد من سلطانها التجارى والبحرى ، تبنى الأساطيل ، وتنازع المسلمين السيادة على البحار ، و بدأت تطهر حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى من القراصنة المسلمين ، وتنتزع أوكار الأساطيل الإسلامية بالتدريج ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣٨

(٢) Pirenne: op. cit p. 2

(٣) Du Mas latrie : op. cit p. 2

(٤) رينو : غزوات العرب ص ٢٠٠

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة

فهاجمت جزيرة سردانية[1] التى كان قد استولى عليها مجاهد العامرى[2] ، ثم تطلعت إلى غزو المسلمين فى عقر دارهم ، فدخلت أساطيل المسيحيين ميناء بونة سنة ٤٢٠ هـ[3] ، وعاثت فيها ثم ارتدت ظافرة لم تمس بسوء .

ثم ظهر عامل جديد أخذ يؤكد من تفوق السيادة المسيحية ، ومن انهيار السيادة الإسلامية ، فظهر النرمان فى جنوب إيطاليا ، وبدءوا يتشوفون إلى صقلية منذ سنة ٤٥٣[4] هـ ، وانتهزوا فرصة انشغال الزيريين فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين ، وبدؤا ينتزعون مدن صقلية من أيدى المسلمين ، ولم يجد الصقليون دولة إسلامية قوية تغيثهم ، وتنتشلهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنرمان الاستيلاء على صقلية نهائياً سنة ٤٨٤هـ[5] ، وبدؤ يرنون بأبصارهم إلى الشاطىء الأفريقى المقابل ، فأغارت قواتهم على مدينة زويلة ، كما أغارت أساطيل بيزة وجنوة على المهدية سنة ٤٨٠ هـ ، حتى لقد قيل إن أساطيل هذه الجمهوريات بلغت ثلثمائة قطعة تضم ثلثمائة ألف محارب[6] ، وامتحنت المهدية محنة لم يشهدها المغرب منذ فتحه العرب .

هكذا انهارت السيادة الإسلامية فى البحر الأبيض ، ومتهن المسلمون واستذلوا واستضعفوا ، وأغار المسيحيون عليهم فى عقر دارهم يسرون وينهبون وينكلون . ومما يصور شعور الناس أصدق تصوير حيال هذه الكارثة التى حلت بالبحرية الإسلامية ، ما روى من أن ابن عباد أمير أشبيلية دعا شاعرا يدعى الحصرى القيروانى لزيارته فأجاب بقوله :

---

(١) Du Mas latrie : op. cit p. 7

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٨

(٣) Du Mas latrie op. cit p. 7

(٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٦٠ ، المطرب لابن دحية ورقة ٤٤ (:)

(٥) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٣١١

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى   وأعجب لأسود عين كيف لم يشب

البحر للروم لا يجـــرى السفين به   إلا على مصض والبر للعرب[1]

. هذا هو شعور عامة الناس ، فما بالك بشعور قوم كالمرابطين كانوا يعملون على إقامة دولة جديدة بالمغرب ، ويذكون الحمية والحماس ويبعثون الهمة ويمهدون الأمر لحركة جهاد عامة ، وتجنيد عام للقوى الإسلامية . لا يمكن أن تمر بهم مثل هذه الأحداث الخطيرة دون أن تهز مشاعرهم ، وتدمى قلوبهم ، وتشحذ عزائمهم للتهيؤ للجهاد لخوض معركة حياة أو موت .

لذلك لا نعجب إذا رأينا ابن تاشفين بعد أن فتح سبتة وطنجة يحاول أحياء البحرية الإسلامية التي كانت قد درست معالمها ، وذهبت ريحها . ويبدو أن جهود المرابطين في إحياء البحرية كللت بالنجاح ، وسنرى حين نعرض لحركة الجهاد في الأندلس كيف أن فتح هذه البلاد أعاد إلى الأذهان جهود موسى بن نصير في إحياء البحرية الإسلامية ، فقد استطاعت الأساطيل المرابطية سنة ٥١٧[2] هـ أن تشترك في حرب نظمتها القوى الإسلامية في المغرب لمهاجمة النرمان ، واشتركت القوى الإسلامية فيما يمكن أن نسميه حرباً صليبية بحرية . ما أقرب الشبه بين موسى بن نصير ويوسف بن تاشفين .

وترتبط بهذه الصورة القاتمة صورة أخرى أشد منها حلكة ، فكما تفوقت القوى المسيحية في البحر ، كذلك تفوقت في البر ، وبدأ المسيحيون يطرقون أبواب الأندلس ، يفتحون وينكلون ويأسرون ، وكما كانت المسيحية تذكى تيار الجهاد البحري وتبث الحمية في نفوس قادة الأساطيل الفرنجية ، راحت تبارك جهود المسيحيين في أسبانيا ، وتنظر إلى الجهود التي يبذلونها لمقاومة المسلمين

---

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٦٢٨

(٢) الرحلة التيجانية ورقة ١٤٥ (ب)

نظارة الرضا والارتياح ، وراح بعض الكتاب يعتقدون أن الحروب الصليبية بمعناها المعروف بدأت فى الغرب قبل أن تبدأ فى الشرق ، بدأت فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وفوق غرب الأندلس ذاتها ، حيث كان الصراع محتدما بين عقيدتين : بين الإسلام ، والنصرانية .

بل يذهب بعض الكتاب إلى أن الحروب الصليبية فى الشطر الغربى من العالم الإسلامى كانت أبعد أثرا ، لأنها كانت دائرة الرحى على أبواب أوروبا ذاتها ، وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ لو قدر للمجاهدين المسلمين أن ينجحوا ويصمدوا فى وجه هذا التيار المتدفق . أما فى الشرق فلو أخفق الصليبيون لقنعوا بالعودة إلى ديارهم ولما هددت أوروبا بخطر كبير .

نعم أصبحت الغلبة للفرنجة فى البحر ثم فى البر ، وكان المسلمون بعد أن فتحوا الأندلس قد تجاوزوا جبال البرانس ، وأوغلوا فى جنوب فرنسا ، ولولا هزيمتهم عند تور لمضوا فى تيار الغزو ، حتى أدركوا نهايته . وظل الولاة المسلمون يتابعون الجهود التى بذلها خلفاء موسى فى مدافعة الفرنجة ، والإمعان فى القضاء عليهم ، فقد روى المؤرخون أن عقبة بن الحجاج السلولى فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة ، « ولم يبق لأهل الإسلام شئ لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك إلا جبال قرقشونة و بنبلونة ، وصخرة جليقية[1] » . وبدا للناس جميعا أن المقاومة القوطية قد انتهت ، وأن السيادة الإسلامية فى شبه الجزيرة قد توطدت أركانها .

وقد ظل الولاة من العرب من بعد عقبة بن الحجاج يدفعون تيار الفتح ، أو على الأقل يبقون على ما بيد المسلمين ، حتى أفلح الأمويون فى توطيد أقدامهم بالبلاد ، واستطاعوا أن يبسطوا عليها ظل الوحدة والطمأنينة ، حتى برأت من

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٨

علل الفتنة ، وإحن العداء والتطاحن ،وأخذ الأمويون يفرغون لجهاد الفرنجة ، يدفعونهم وينالون منهم ،كانوا دائما على أهبة الاستعداد لدفع الخطر ، والذود عما بيد المسلمين من حصون وقلاع ، فقد روى المؤرخون فى سياق التدليل على ذلك أنه « كان للحكم بن هشام ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر عليهم عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس ، فاذا بلغه عن ثائر ثار فى أطرافه . . . حتى يخلط به [1] » . فاستطاع الأمويون بسياسة الحذر والحيطة هذه أن يوقفوا القوى الفرنجية عند حدها ، حتى لا تطمع فى تذوق طعم الراحة أو الطمأنينة .

ولكن تيار الجهاد الإسلامى قارب أن يبلغ الأوج بعد قيام الخلافة الأموية . فقد كان لزاما على الأمويين كى يثبتوا للعالم الإسلامى أنهم جديرون بالخلافة أن يبعثوا حركة الجهاد ، ويشدوا من أزرها ، ويتوسعوا فيها ، ويصارعوا الفرنجة بعزيمة أشد وبأس أكبر ، انما بلغت حركة الجهاد فى شبه الجزيرة الذروة حقا على يد الحاجب المنصور بن أبى عامر ، وبدا للناس كافة كأن أيام الفرنجة معدودات ، وأن نجمهم مؤذن بالأفول لا محالة . فقد ظل المنصور طيلة حياته لا يخلع رداء الجهاد ،يتابع ارسال الصوائف إلى أطراف البلاد ، لتنال من عدوه كل منال .

ويكفى للتدليل على أن تيار الجهاد قد جرف المسلمين فى ذلك الوقت ، وجرف معهم زعيمهم المنصور أنه مات مجاهدا ، مات فى الميدان بعد غزوة بريشتر . ويبدو أن حركة بعث الجهاد فى الأندلس كانت قوية ، بدليل أنها استمرت إثر وفاة المنصور ، بعد أن كان يظن أنها ستقف بعد ذلك ، فقد ظل ابنه عبد الملك المظفر يثخن فى أرض العدو بهمة لا تعرف الملل ، فغزا جليقية سنة ٣٩٥ هـ ، كما غزا بلاد قشتالة فى غزاة النصر ، وكذلك حصن شنت مرتين

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨

سنة ٣٩٨[1] هـ ، و بلغ من هيبة عبد الملك و بعد صيته أن ملوك الفرنجة كانوا يحتكمون إليه إذا شجر بينهم خلاف ، كما اشترك بعضهم في حملاته ، مثل شانجة ابن غرسية ، زعيم الجلالقة وصاحب قشتالة[2] .

ولكن هذه الجهود الضخمة التي استمرت ثلاثة قرون ، قد تبخرت بين يوم وليلة ، وانهار ذلك الصرح الذي طالما بعث الرعب في قلوب الأعداء ، وانهارت المقاومة الإسلامية بالأندلس انهيارا مفاجئاً أذهل الكافة ، كما أدهش المعاصرين ، وانقلبت الكفة ورجحت في جانب الأمم النصرانية .

ولا يمكن أن يفسر ذلك إلا بأن جهود المنصور بن أبي عامر كانت جهود فرد قاد أمة ، ولست جهود أمة خلقت قائداً ، بدليل أن المسلمين في الأندلس بدوا أمام الناس بعد سقوط الخلافة كأنهم لا يستطيعون المقاومة إطلاقاً . في هذه القرون الثلاثة التي بقيت فيها السيادة الإسلامية كالطود الشامخ كانت الدويلات النصرانية في شبه الجزيرة تناضل وتكافح ، « بقوى مضاعفة وحب متقد للحرية والدين والوطن[3] » . كانت تتقدم تقدماً بطيئاً ولكنه تقدم أكيد ، كأنها عقدت الخناصر على بلوغ الهدف مهما كلفها ذلك ، فما قصة هذا البعث وما أهميته في حركة الجهاد التي اضطلعت بها دولة المرابطين في المرحلة الأخيرة من مراحل قيامها ؟

الواقع إن قصة بعث القوى النصرانية في شبه جزيرة أسبانيا تعتبر عنواناً طيباً للنضال من أجل المبدأ ، والتفاني في الدفاع عن العقيدة . فقد رأينا كيف أن فئة قليلة من بقايا قوات القوط لاذت بأذيال الفرار أمام الفاتحين العرب ، واعتصمت بتلك المنطقة الجبلية الوعرة الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من شبه

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ١٠

(٢) المرجع السابق ج٣ ص ٥

(٣) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ١٠

الجزيرة ، حيث تنحرف جبال البرانس صوب الشمال قليلا مخلفة وراءها منطقة جبلية وعرة وقف الفاتحون العرب حيالها لم تستطع خيلهم أن تنال منها[١] ، فتنهى المقاومة النصرانية ، وتأتى على القوة القوطية نهائياً. فى هذه المنطقة الوعرة أخذت هذه النواة القوطية تنمو بالتدريج بعيداً عن أذى المسلمين وضرهم ، وأخذت تنبعث منها حركة قوية لمقاومة الفاتحين تعتبر فى الواقع من أروع حركات المقاومة فى تاريخ العالم .

وأخذت هـــذه القوة تنموا رويداً رويداً مستغلة ما أصيب به المجتمع الأندلسى من الفرقة فى عصر الولاة ، وما اجتاح البلاد من فتن داخلية مبيرة ، وكانوا كلما أمعنوا فى تقدمهم صوب الجنوب اتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون معصما لهم من الغزو ومقراً لإمارتهم . اتخذوا مدينة **Oviedo** حاضرة ثانية لهم فى بلاد أشتوريش[٢] .

ثم ما لبثت الأحوال فى فرنسا أن تمخضت عن أوضاع جديدة هيأت لهؤلاء المجاهدين من القوط ظروفاً استغلوها خير استغلال ، فقد استطاعت الملكية الفرنجية الناهضة أن ترد العرب على أعقابهم فى جنوب فرنسا على يد شارل مارتل وخلفائه . بل إن هذا النصر على الغزاة العرب كان من أقوى الأسباب التى أدت إلى توطيد أركان هـذا البيت الفرنجى الناهض ، وبدأت الوحدة تبسط ظلها على فرنسا ، وتنبعث فى نفوس الفرنسيين الحمية والحماس لمقاومة العرب ، وردهم على أعقابهم ، ويعتبر هذا النصر على العرب نقطة تحول فى تاريخ مملكة الفرنجة ، وفى تاريخ حركة المقاومة النصرانية ، بل يعتبر أول لبنة تنهار من صرح السيادة الإسلامية فى غرب أوروبا[٣] . ذلك أن أهل جليقة استطاعوا أن ينصرفوا

---

(١) Duruy: Hist du Moyen Age pp.324—326.

(٢) Idem.

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١١٤

إلى العرب يقاومونهم ويدفعونهم وهم مطمئنون إلى أن المملكية الفرنجية الجديدة تحمى ظهورهم ، وتشد من أزرهم . واستطاع ملوك الفرنجة الذين كانوا مقبلين على محالفة الكنيسة الغربية أن يجدوا فى مقاومة العرب ما يمكنهم من التمكين لأنفسهم فى نفوس المعاصرين ، وإظهارهم أمام العالم المسيحى أجمع بمظهر حماة المسيحية ، والذادة عن تراثها . فأخذ المتطوعة من فرنسا وألمانيا و بلجيكا و إيطاليا يخفون لشد أزر إخوانهم ليشاركوا فى جهاد العرب . بل إن المملكية الفرنجية ذهبت فى المساعدة إلى حد أبعد من هذا بكثير ، فقد أقدم شارلمان على عبور جبال البرانس من ناحيتين : هما بنبلونة و برشلونة بقصد شد أزر المقاومة النصرانية [1] ، والنيل من السيادة العربية بشبه الجزيرة ، وتعتبر حملة شارلمان فى الواقع بداية المقاومة المسيحية التى اشتدت فى القرن الحادى عشر [2] .

وقد اشتد ساعد النصارى فى عهد الفونس الثانى (٧٨٨ م) ، فأسس البسقونيون الأسبان إمارة نبره ، التى آلت إلى أمير برشلونة ، وسرعان ما مدت أرغونة يدها إلى برشلونة ونبرة وقشتالة ، وتألف من هؤلاء جميعاً حلف نصرانى عظيم [3] ، كان من الممكن أن يشتد أزره بسبب ما أصاب الخلافة الأموية من متاعب فى ذلك الوقت .

مهما يكن من شىء فإن القوى المسيحية أحرزت بعض التقدم فى عهد أدولف الثالث (٨٦٢م) ، الذى مد سلطانه حتى نهر دويرة ، وجمع شمل الإمارات المسيحية ، وراح يذكى جذوة الحرب المقدسة ، ويستدر عطف القوى المسيحية فى أوروبا ، ونقل الحاضرة أو مركز المقاومة من أشتوربش إلى ليون [4]

(١) Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324—326.

(٢) Idem.

(٣) Idem.

(٤) Duruy: Hist. du Noyen Age, pp. 324—326

ولكن حركة البعث النصرانى لم يطل أمدها ، فقد أفاقت الخلافة الأموية من متاعبها ، واستأنفت حركة الجهاد بصورة قوية بلغت مداها فى عهد المنصور بن أبى عامر ، و بدا للناس أن المقاومة النصرانية الباسلة أو شكت أن يسدل عليها الستار ، وأن المسلمين مستردون ما فقدوه من الحصون والقلاع . فقد استطاعت جيوش المنصور أن تخضع ملك قشتالة وليون ، واستولت على قلمرية ، ودخلت شانت ياقب ، واستولت على برشلونة ، وانتزعت كل ما استولى عليه المسيحيون جنوب نهر دويرة والإيبرو .

وإذا كان القرن العاشر الميلادى عصر محنة بالنسبة لمقاومة النصرانية ، فقد قدر لهذه المقاومة أن تبعث فى القرن الحادى عشر بعثاً جديداً[1] ، فقد سقطت الخلافة الأموية ، وتفرق شمل الأندلس ، وبات الناس لا يصدقون ما تراه أعينهم من ضعف وتخاذل وتقاعس ، و بدأت حركة المقومة النصرانية تدخل فى دور جديد من أدوار نضالها ، بدأت تدخل فى دور جديد نستطيع أن نطلق عليه بحق دور الاسترداد **Reconquista** . فقد انهارت المقاومة الإسلامية على غير انتظار ، و بات على القوى المسيحية أن تجمع شملها ، وأن توحد صفوفها لترد المسلمين على أعقابهم ، وقد تمت وحدة القوى النصرانية على يد الملك شانجة الكبير سنة (١٠٠٠ م[٢]) . فقد استطاع أن يجمع بين نبرة وقشتالة وليون وأرغونة وبرشلونة عن طريق المصاهرات . استطاع إذن أن يبسط سيادته على أسبانيا النصرانية من جبال البرانس إلى ما وراء شانت ياقب ، ومن بحر بسكونس حتى نهر دويرة فيما يلى هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الوعر[٣] . كان شانجة الكبير هذا هو باعث هذه الحركة الكبرى المسماة بحركة

---

(١) Duruy :Hist. du Moyen age pp. 334—326

(٢) I dem.

(٣) يوسف أسباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ح ١ ص ١١

الاسترداد ؛ التي استمرت في عهد ولده فرديناند الأول ، ثم في عهد حفيده ألفونسو السادس ؛ ثم استمرت في آل بيته ، حتى كتب لهم الفوز ، فطردوا المسلمين نهائياً من شبه الجزيرة .

وقد شاءت الظروف أن يخلف شنجة الكبير ولده فردناند الأول ، الذي استطاع أن يتوسع في حركة الاسترداد ، وأن يخرج بها إلى نطاق أوسع . ولما كانت حركة الاسترداد تتطلب توحيد الصفوف قبل كل شيء ، فإن فردناند الأول لم يأل جهدا في ذلك السبيل ، بل وضع هذا الهدف نصب عينيه ، فما كاد يستقيم له الأمر حتى طمع في ملك ليون ، واستطاع بعد انتصاره في معركة تمارون أن يضم الإمارة إلى أملاكه[١] ، كما حارب البشكنس وتغلب عليهم[٢] . وبذلك تم له التوحيد بين ليون وقشتالة . وقد استولى أيضاً على مملكة نبرة الواقعة على الضفة اليمنى للإيبرو[٣] . كما حارب ملك أرغونة ، واستطاع بعد جهاد طويل أن يمهد الطريق أمام القوى النصرانية لتخوض معركة الاسترداد ، فتم له توحيد الإمارات النصرانية تحت رأيتها ، واستطاع أن يوجه جموع المسيحيين وجهة واحدة هي مناضلة المسلمين ومدافعتهم . وكان يعلم أن شد أزر حركة الاسترداد لا يتأتى إلا بتوثيق الصلات بين الدول النصرانية بأسبانيا ، وبين بقية الدول الأوروبية الأخرى . ويبدو أن هذه السياسة آتت أكلها ، فقد عمد البابا اسكندر الثاني سنة ١٠٦٣ م إلى تنظيم حملة لشد أزر الإمارات الأسبانية في كفاحها ضد المسلمين . وقد اشترك في هـذه الحملة أمراء فرنسيون ونرمان وفرسان من إيطاليا . وقد هاجم المسيحيون بربشتر ، وظلوا يحاصرونها أربعين

---

(١) Pidal: The Cid and his Spain p. 59.

(٢) I dem.

(٣) يوسف أشباخ حـ ١ ص ١٢ — ١٥

يوما ، فلما سلم المحاصرون أمعن الغزاة فيهم قتلا ، حتى لقد روى أنهم قتلوا من الأسرى ما يقرب من ستة آلاف[١] .

هكذا بدأت حركة الاسترداد فى عهد فردناند تتخذ صفة دولية ، و بدأ المسيحيون فى كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنها حركة جهاد مقدس ، ويبدو أن سياسة التقرب من الكنيسة الرومانية أثمرت ، فقد اتخذ فردناند لنفسه لقب امبراطور كتأكيد لسيادته على أسبانيا المسيحية ، كما كان يريد فى الواقع أن ينافس هنرى الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة[٢] . كان فردناند يريد ألا يلعب دورا محليا صرفا إنما دورا عالميا و يبسط نفوذه لا على شبه الجزيرة فحسب بل على غرب أوروبا كله إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

وقد مضت حركة الاسترداد فى عهد فردناند فى طريقها حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب باخضاع المسلمين ، وإجلائهم عن البلاد . فقد روى صاحب البيان أنه قال « إنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم فقد سكنتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا و بينكم[٣] » .

فهل استطاع فردناند أن يجنى من وراء حركة الاسترداد الغاية التى ينشدها الواقع إن سياسة فردناند فى مدافعة المسلمين كانت ذات شقين ، فقد كان يعمل على إرهاب القوى الإسلامية ، ويبث الذعر فى قلوب المسلمين ، فلا يترك لهم فرصة يتنسمون فيها نسيم الراحة ، أو يذوقون طعم الطمأنينة . كان يريد أن تظل

---

(١) ابن بسام : الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٣ ص ٥٩ ، Pidal, p. 84,

(٢) يوسف أشباخ ج ١ ص ١٢

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨١

القوى الإسلامية مجندة تجنيدا مستمرا ، حتى يثقل على الأمراء ويثقل على الناس حتى إذا ضاق الأمراء المسلمون ذرعا ، وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا إلى دفع الجزية ، والاستعانة بالأموال لدفع خطر الفرنجة : وقد دفع الجزية صاحب طليطلة ، وأشبيلية ، وصاحب بطليوس وسرقسطة[١] . واشتط فردناند فى طلب الجزية ، وكان يجنى من وراء ذلك أموالا طائلة . وكان إذا آنس من الأمراء المسلمين ضعفا مضى فى توسعه لا يلوى على شيء ، فقد هاجمت قواته مدينة قلمرية[٢] ، واستولت عليها ، وانصرف صوب الشرق ، وهاجم سرقسطة[٣] ، ثم انحدر إلى الجنوب ، فحاصر طليطلة ، بل هجم أشبيلية نفسها وحاصر بلنسية ، وتمخضت هذه الحملات المتعددة عن توسيع رقعة أملاكه ، فلم تعد حدود قشتالة تنتهى عند جبال وادى الرملة بل انبسطت رقعتها شرقا وغربا[٤] .

مهما يكن من شيء فإن حركة الاسترداد بلغت الذروة أو كادت فى عهد فردناند ، و بدا للناس أجمع أن أيام المسلمين فى شبه الجزيرة معدودات، «ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تسعر إلى أن كلب العدو على جميعهم ، ومل من أخذ الجزية ، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد[٥] » ولولا وفاة فردناند سنة ١٠٦٥ م[٦] ، وتفرق شمل ملكه عقيب ذلك لدالت دولة المسلمين بالأندلس نهائيا .

(١) ابن عذارى جـ٣ ص ٢٣٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣) يوسف أشباخ جـ١ ص ٢٠

(٤) المرجع السابق ص ٢٠

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص ٢٣٨ .

(٦) Cambridge Med. Hist. vol. VI, pp. 393—395.

ومن أسف أن الإمارات الإسلامية لم تستطع أن تنبذ خلافاتها ، أو تتحد منتهزة هذه الفرقة التى أصابت المجتمع النصرانى ، بل ظلت مفترقة الكلمة يحارب بعضها بعضاً ، حتى قدر للإمارات النصرانية أن تنهض من كبوتها ، وأن تسترد سابق قوتها ووحدتها حينما آلت الزعامة إلى ملك الفونس السادس . ويبدو أن حركة الاسترداد كانت سياسة مرسومة لأمراء قشتالة منذ عهد شانجة الكبير يتوارثها الخلف عن السلف ، إذ ما كاد الأمر يؤول إلى الفونسو حتى أخذ يعمل جاهدا فى سبيل التمكين لحركة الاسترداد . واستئناف الجهاد على صورة أوسع وأتم ، ولما كانت الوحدة هى سياج حركة الاسترداد وحصنها ، فقد استطاع الفونسو بعد جهود شاقة أن يجمع أطراف ملك أبيه ، فاستولى على ليون بعد وفاة أخيه شانجه ، كما انتزع غاليسيا ، وبسط سلطانه على الأقاليم الواقعة فى وسط البلاد وغربها إلى الشمال من نهر تاجه ، وبدأ يثب إلى زعامة القوى النصرانية وثباً[١] . فاستطاع أن يجمع كلمة أرغونة ونبرة ، فاتفقوا على نبذ خصوماتهم والتعاون فى سبيل مدافعة المسلمين . وأتمام السياسة التى رسمت منذ عهد شانجة الكبير[٢] . ثم عمد إلى الإمعان فى التقرب من الكنيسة الرومانية ليستدر عطف الأوربيين وتأييدهم فى كفاحه مع المسلمين . وكانت الكنيسة الغربية فى ذلك الوقت قد نهضت نهضة موفقة ، وبدأت تبسط سلطانها على دول أوروبا المسيحية فرأى الفونسو أنه إذا أفلح فى استدرار عطفها وتوثيق صلته بها فانها ستجند القوى النصرانية لتأييده وشد أزره . وكان من أثر ذلك كله أن ألغيت الطقوس القوطية من الكنيسة الإسبانية ، وحلت محلها الطقوس الرومانية ، وانضوت الكنيسة الإسبانية تحت لواء روما[٣] .

---

(١) Cambridge Med. Hist. Vol. VI p p. 393—395.

(٢) Idem.

(٣) Pidal: op. cit. p.p. 137—139.

وقد كان لهذه السياسة أثر بعيد فى سير حركة الاسترداد، إذ أن الحروب التى كانت دائرة فى شبه الجزيرة أضحت حروبا صليبية بمعنى الكلمة ترعاها كنيسة روما، وتباركها وتدعو لها، وتجند المسيحيين من أجل المشاركة فيها. وعند ما دعا البابا أوربان لإيفاد حملة صليبية إلى الشرق أحب بعض الإسبان أن يشارك فيها، فأبى لأنهم حاربوا المسلمين فى الأندلس، فكأنهم قد اشتركوا فعلا فى هذه الجهود الصليبية[1]. وكما وثق الفونسو صلته بروما وثق صلته بفرنسا، وأخرج بلاده من عزلتها الدينية، فتزوج كونستانس ابنة أمراء برجونية، الذين ينتمون إلى آل كابيه ملوك فرنسا[2].

فاستطاع الفونسو إذن أن يمكن لحركة الاسترداد، وأن يمهد السبيل أمامها لتنتج وتحقق أهدافها. فلنحاول إذن أن نعرف مقدار ما أحرزه من نجاح فى هذا السبيل.

الواقع إن الفونسو السادس لم يأت بجديد فى وسائله ولا فى أهدافه، فقد سار على خطة سنها أسلافه وأملتها طبيعة الحياة فى الأندلس فقد كانت الحرب بين المسلمين والنصارى حرب قلاع وحصون وليست لقاء فى معارك حاسمة تقرر مصير هؤلاء ولا هؤلاء. ولم يكن فى مقدور القوى النصرانية أن تحاصر هذه القلاع والحصون، أو أن تقتحمها دفعة واحدة، لذلك كان من أهداف الفونسو أن لا يعرض جنده لخسائر فادحة بمصارعة هذه الحصون ومحاولة اقتحامها، إنما كان يرمى إلى استنزاف دماء الإمارات الإسلامية بأن يشهر عليها سلاح الإرهاب ويضطرها إلى دفع الجزية ويضاعف مقدار هذه الجزية عاما بعد آخر، حتى إذا عجزوا عن الدفع ضرب عليهم الحصار، وأرغمهم على قبول شروطه ارغاما[3].

---

(١) A. Lemann: L' origine de l' idée de la Croisade, Hesp. 1937, T., XXIV, p. 139.

(٢) يوسف أشباخ جـ ١ ص ١٣٩.

(٣) عبد الله بن بلكين: التبيان ص ٣٢٠. أعمال الأعلام ص ٢٧٧.

كان يعمد أيضا إلى ضرب الحصار على القلاع والحصون بينما تعمل قواته على اتلاف الزرع وهلاك الضرع ، حتى إذا عض الجوع المحاصرين سلموا للطاغية بلا قيد أو شرط . وقد قدر لهذه السياسة أن تنجح نجاحا تاما لأن المسلمين لم تكن تجتمع لهم كلمة لمواجهة مثل ذلك الخطر مع أنهم كانوا يعرفون أهداف الفونسو ومشروعاته معرفة تامة .

وكان من أثر سياسة الفونسو السادس هذه أن سقطت مدينة طليطلة فى يده كما تسقط الثمرة الناضجة ، فقد أثقل على صاحبها بالجزية ، وانتزع منه بعض الحصون المحيطة به ، ثم انقض على المدينة ، وضرب عليها حصاراً طويلا فت فى عضدها وأنهك قواها ، فلم يجد المحاصرون بدأ من التسليم[١] . وكان لسقوط طليطلة فى يد الفونسو أثر عظيم فى حركة الاسترداد ، وفى الهاب حماس القوى النصرانية ، فقد كانت عاصمة القوط القديمة ، وكان فتحها نذيراً باحياء ملك القوط القديم ، والعمل على طرد العرب من الأندلس نهائيا ، وسما قدر الفونسو السادس فى نظر معاصريه إلى مرتبة رفيعة ، فاتخذ لقب امبراطور[٢] ، كما اتخذ لقب « ذى الملتين » ، وصار يكاتب أمراء المسلمين قائلا « من الإمبراطور ذى الملتين الملك المفضل أذفونش بن شانجة[٣] » . وبدأت تراوده الآمال التى راودت أباه من قبل ، وهى طرد العرب من الأندلس نهائيا . قيل على لسانه « انما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنجس البقع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين فى أخذ ظلاماتهم[٤] » :

وإذا كان النصارى قد تضاعفت آمالهم ، فإن المسلمين فى شبه الجزيرة قد فت فى عضدهم وتفشى الرعب فى أوصالهم ، وبادروا إلى الفونسو يخطبون

(١) الذخيرة : القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ . ابن خلكان ج ٢ ص ١٨٦ ، ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٧ . المقرى ج ٢ ص ١٢٢٥ .

(٢) Pidal: op. cit. p. 207.

(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٢٥ .

(٤) عبدالله بن بلكين : التبيان ص ٣٢٠ .

وده و يسترضونه بالمبالغة فى دفع الأتاوة . ولكنه لم يقنع بذلك إذ كان لابد له بعد أن استنزف أموالهم أن يقتحم ديارهم . كان يطمع فى قرطبة حاضرة الخلافة « أشاروا عليه بلبس التاج فقال لا حتى أطأ ذروة الملك وآخذ قرطبة واسطة السلك[1] » . ثم تفتحت أمامه الآمال ، وبدأت الحصون الإسلامية فى شبه الجزيرة تتهاوى أمامه واحدة بعد أخرى ، فاستولى على بلنسية[2] ، كما أرسل إلى كل الإمارات الأندلسية نوابا عنه ليفرضوا سلطانه و يرهبوا عدوة ، و يحصلوا الغرامات والأتاوات[3] ، وضرب الحصار على سرقسطة ورفض الأموال السخية التى عرضها صاحبها[4] عليه ، وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة ، كما استولت على حصن لييط (Aledo) باقليم مرسية ، كما سيطرت على المرية وبلغ التوسع النصرانى الأوج[5] ، وبات الناس يعتقدون أن معركة الاسترداد لن تقف عند حد ، بل تمضى كالتيار الجارف تقتلع كل مافى طريقها ، فلا تبقى على شيء . وتذهب الروايات فى تصوير آمال الفونسو مذاهب الغلو ، فتقول « أنه سار حتى وصل إلى جزيرة طريف فى أقصى الجنوب ، فأدخل قوائم فرسة فى البحر وقال هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته[6] » ، وسواء أصح ذلك أم لم يصح فإنه يصور لنا كيف أن آمال ملك قشتالة قد تجاوزت كل غاية ، وأعتقد عن يقين أنه محيي ملك لذريق ، وأنه لامعصم للمسلمين من بطشه إلا التسليم ، أوالفرار بدينهم إلى بر العدوة . ولكن الأيام سوف تخلف ظنه ، حين تدلف عصبة مجاهدة مؤمنة إلى الميدان آخذة بناصر المسلمين .

---

(١) الذخيره القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ .

(٢) Pidal: op cit. p. 207.

(٣) I bid: p. 205

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ١٨٦ .

(٥) Pidal: op. cit., p. 189.

(٦) الذخيرة القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٢١ .

وما دمنا قد استعرضنا مظاهر القوة التي طرأت على مجتمع النصرانى فى شبه الجزيرة فقلبت الأوضاع ، فلا بد من أن نعرض للأسباب التى أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية هذا الانهيار المفرط ، والتى أدت إلى تفرق شمل القوى الإسلامية ، وانحلالها على هذا النحو الذى رأيناه . كان انهيار الخلافة الأموية هو الكارثة العظمى التى حطمت الوحدة الإسلامية بشبه الجزيرة ، فقد كان الأمويون وهم قرشيون يخلعون على البلاد نوعا من الوحدة الشرعية ، وكانوا فى الواقع خير من يوحد بين الأحزاب المتنافرة ، ويضفى على البلاد لونا من ألوان الاتحاد ، حين عملوا على توجيه الجهود المختلفة وجهة واحدة نحو الكفاح المشترك .

وكانت البلاد فى الواقع تحكم حكما اقطاعيا ، فقد تمخضت طبيعة البلاد الجغرافية ، وتنوع بيئاتها عن قيام لون من ألوان الاستقلال المحلى فى ظل هذه الوحدة العامة ، ويبدو أن ضعف الخليفة أو قوته لم يكن له أثر يذكر فى ضعف المجتمع أو قوته . فقد كان هشام المؤيد خليفة ضعيفا ، ولكن المنصور بن أبى عامر كان يدير دفة الجهاد باسم الخليفة الأموى فى قوة خارقة للعادة . فلما سقطت الخلافة الأموية وعز الأمير الشرعى الذى يؤلف بين القوى المتنافرة انتثر السلك وتفرقت الوحدة ، واستردت كل مقاطعة استقلالها كاملا . وهذه الفرقة الشاملة كانت ظاهرة انتابت الشرق الإسلامى كله فى مثل هذا الوقت تقريبا ، ولكنها فى الأندلس كانت كارثة لا معصم منها ، فقد كانت المعركة الدائرة الرحى بين المسلمين والنصارى القاطنين فى ديار متجاورة متلاصقة تتطلب الوحدة ولم الشمل .

ومن الغريب أن ملوك الطوائف قد استمرءوا سياسة الاغتصاب ، وأكسبوها فى نفوسهم صبغة شرعية ، فقد روى المؤرخون أنهم كانوا يقولون « توارث هذه الإمارة مخرقة وضعتها قريش لاستعباد الناس والناس لأب وأم والفخار باطل

أحقهم بالملك من استقل به[١] » .

حدث هذا كله فى الوقت الذى بدأت فيه القوى المسيحية تنتعش اقتصاديا وتقر الأمن والطمأنينة فى البلاد المفتوحة ، فتنوعت مصادر الثروة حين تضاعف عدد المشتغلين بالزراعة والتجارة ، و بدأت هذه القوى يستظلها نوع من الوحدة بزعامة ملوك قشتالة، الذين راحوا يعملون على بعث القومية فى نفوس مواطنيهم وتوجيههم نحو هدف مشترك[٢] . وقد حدث هذا أيضاً فى الوقت الذى أخذت فيه النهضة تدب فى أوصال أوروبا فى القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر ، وظهرت ملكيات جديدة فى الوقت الذى نهضت فيه الكنيسة الرومانية نهضة عظيمة بعد حركة الإصلاح الكلونية ،وبدأت تبسط سلطانها على غرب أوروبا ، وتدفع القوى المسيحية المختلفة إلى خوض معركة حاسمة مع الدول الإسلامية فى الشرق والغرب[٣] .

ومن الأسباب التى أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية أيضا هذه الطائفية البغيضة التى أصابت البلاد ، فنخرت فى صرح وحدتها حتى دكته ، ونعنى ذلك النزاع الذى نشب بين العرب والبربر ، هذا النزاع الذى ظهرت بوادره فى عصر الولاة ، ولكن آثاره تضاعفت منذ عهد المنصور بن أبى عامر ، الذى كان لابد له ليضطلع بحركة الجهاد على نطاق واسع من ألا يعتمد على المطوعة والمرتزقة من جند الأندلس ، بل على المجندين من البربر فأكثر منهم ، واعتمد عليهم اعتمادا مطلقا فى تنفيذ مشروعاته السياسية ، ومناضلة الأرستقراطية العربية فى شبه الجزيرة ، فلما سقطت الخلافة أوقدوا نار الفتنة وعاثوا فى الأرض ، وفرقوا الوحدة الإسلامية شر مفرق[٤] .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ١ ص ١١٢ .

(٢) Cambribge Med. Hist. Vol. VI. p. 393.

(٣) Ibid p. 267

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٤ .

يضاف إلى هذه الأسباب أيضا أن سياسة المنصور بن أبى عامر القاضية بالافراط فى الجهاد انهكت الدولة . كما أن هذه الحملات العديدة استنزفت أموال البلاد ، وحصدت زهرة الجند ، وكان باستطاعة المنصور لو كان بعيد النظر أن يحتفظ بحدود الدولة كما هى ، وأن يتخذ سياسة الدفاع والتفرغ للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى . ولكن المنصور كان يريد أن يتخذ من الجهاد سلما يحقق أغراضه وأهدافه ، ولا ندرى إلى أى هدف كان يسعى ذلك الرجل البعيد الأطماع .

ولم تكن أخطاء المنصور السياسية هى التى أدت وحدها إلى أن تعصف بالوحدة الاسلامية ، بل اتخذ المنصور سياسة اقتصادية كانت ذات أثر فيما منيت به الأندلس ، فقد كانت الدولة تقطع الجند أرضا يستغلونها لقاء خدمات حربية يؤدونها فى أوقات معلومة ، ويظهر أن هؤلاء الجند كانوا يعنون بالإنتاج الزراعى عناية فائقة ، « فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه[1] » . لكن المنصور فى أواخر عهده عمد إلى مصادرة هذه الإقطاعات ، ومنح الجند أعطيات شهرية ، ورتب على الأرض جباة أساءوا السيرة وظلموا الرعية ، « فلما ثقلت الوطأة على الناس بدءوا يهجرون الأرض ويفرون منها حينما اشتد ساعد الفتنة وظهرت ريح المحنة[2] » .

يضاف إلى ذلك أيضاً ما منيت به البلاد من طائفة المستعربين ، وأشباه المسلمين الذين كانوا يعرفون العربية ، ويؤلفون جاليات كبيرة انبثت فى طول البلاد وعرضها ، فلما انهارت الخلافة كانوا من أشد أنصار الممالك النصرانية إخلاصا ، يفشون أسرار المسلمين ، ويكشفون عن عوراتهم . وكان النصارى

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٢٣ .

(٢) Pidal : op. cit p. 43

إذا تقدموا محاربين أو محاصرين ، ساروا كأنهم بين أهليهم وقومهم ، فكانوا يضربون خيامهم فى ظاهر مرسية أو بلنسية دون أن يخشوا شيئاً[1] .

مهما يكن من شىء فإن الأوضاع فى الأندلس تناهت فى السوء ، وأصبحت الحياة فيها شاقة عسيرة ، ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها . تحكمت الذاتية فى أطماع الناس شعبا وحكاما ، وأصبح الأمراء يعيشون لساعتهم لا يحسبون حسابا لغدهم ، منغمسين فى الترف ، متهافتين على الملذة[2] . وكان من الممكن أن تضطلع إمارة أشبيلية بحركة توحيد القوى الإسلامية فى شبه الجزيرة ، وكانت الظروف ترشحها لمثل هذه الزعامة[3] ، ولكن أمراءها أعمتهم الأهواء الخاصة ، وابتاعوا السلم الزائف بأفدح الأثمان ، ومدوا أيديهم للطاغية يحالفونه ليفتك بإخوانهم فى الدين . وقد تجلت هذه السياسة القصيرة النظر فيما رواه المؤرخون على لسان بعض أمراء الأندلس[4] ، ومنهم المعتمد بن عباد حين قالوا « الحال مع العدو قصمه الله سيئة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف معروفة لا تفتقر

(١) « بل حلت الفاقرة بعد مجاعتهم حين أيقن النصارى بضعف المتن وقويت أطماعهم بافتتاح المدن واضطرمت فى كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ومن أخطأه القتل منهم فإنما هو بأيديهم سبايا يمتحنونهم بأنواع البلايا حتى دنو مما أرادوه من التوثب وأشرفوا على ما أملوه من التغلب وحصلت مدينة قورية أولا فى يد العدو إلى عدة حصون وقلاع كلها فى غاية الحصانة والامتناع ثم لم يزل التخاذل يتزايد والتدابر يتساند حتى حلت الفاقرة وقضيت القضية وتعجلت البلية بحصول مدينة طليطلة فى أيدى النصارى وذلك سنة ٤٧٨ هـ وهى من الجزيرة كنقطة الدائرة وواسطة القلادة تدركها من جميع نواحيها ويستوى الاضرار بها قاصيها ودانيها وفى ذلك يقول بعض الشعراء .

حثو مطاياكم عن أرض أندلس   فما المقام بها الا من الغلط

فالثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

(الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠١ — ١٠٢) »

(٢) Dozy : Abbadidarum Vol. II, p. 8.

(٣) Camdribge Med Hist. Vol. 6 p. 395.

(٤) الذخيرة ، مخطوط بغداد ، قسم ٢ ص ١٠٣ .

إلى نعت ولا وصف ومن لا يمكن مقاومته ومخاشنته فليس إلا مداراته وملاينته[1] » .

وقد اضطرت روح الضعف هذه ملوك الطوائف إلى تسخير المرتزقة من النصارى فى تحقيق أغراضهم ، والإغارة على إخوانهم فى الدين ، وقد تفشى فى الناس شعور بالذله والمسكنة لم نعهده فى أمة عربية من قبل . فقد وسموا بالجبن ولم تقو أجنحتهم المهيضة على أن تثبت أمام العدو فى زحف أو قتال[2] ، ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا بأن الدين قد ضعف سلطانه على قلوب الناس ، على حين كان الجند النصرانى يجاهدون من أجل هدف واحد معروف يؤلف بين قلوبهم ويلهب حماستهم ويدفعهم إلى البذل والفداء[3] . وليس بغريب أن نرى جمهرة الشعب على هذا النحو من التخاذل ، ما دام أمراؤهم قد خانوا الأمانة على مرأى ومسمع من الناس ، فانهارت القوى المعنوية للشعب ، وكاد يفقد قدرته على المقاومة والنضال . هذا إلى جانب ما كانوا يرزحون تحته من أعباء مالية باهظة ، فقد كان الأمراء فى سبيل استرضاء ملوك النصارى يغالون فى فرض الضرائب ، ويبتزون أموال الناس ويثقلون عليهم حتى أصبحوا بين عدو يتربص بهم وأمير يستنزف دماءهم ، ويكفى للتدليل على فساد الحياة فى الأندلس فى ذلك العصر ما صوره ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة من علل اجتماعية خطيرة ومفاسد دبت فى جميع مرافق الحياة حين قال « وبالجملة كان الناس قد فسدت أديانهم وإنما الدنيا الفانية والزمان على آخره وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم[4] » .

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد ، قسم ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٣) Dozy : Recherches, vol. II, p 103

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠١ .

وكان الفقهاء والمفكرون[1] يشاهدون هـذه الفرقة الداهمة ، فيتألمون لما أصاب المجتمع من انحلال ، ويصورون هذه الحالة المفجعة بأسلوب مفعم بالألم والحسرة . كتبوا إلى الأمراء يدعون إلى الوحدة ، وتأليف القلوب لمواجهة ذلك العدو الذى استشرى داءه ، فلم يستجب لهم مستجيب ، إلا أن جهودهم لم تذهب سدى ، فقد أخذوا يزهدون أهل الأندلس فى الأوضاع القائمة على الفساد ، ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد ، ويمهدون السبيل أمام المرابطين الذين خفوا إلى حومة الجهاد منافحين مناضلين .

١٢ — استدعاء المرابطين للجهاد فى الأندلس :

وقبل أن نعرض لقصة الجهاد فى الأندلس ، ونكشف عن ذلك الدور الرائع الذى اضطلع به المرابطون يجب علينا أن نبين رأينا فى أمر نعتقد أنه على جانب عظيم من الأهمية . لا بد أن نعرف هل لبى المرابطون داعى الجهاد فى الأندلس حبا فى الجهاد وخدمة للدين ، أم أنهم استدعوا إلى الأندلس استدعاءهم ملوك الطوائف لإنقاذهم مما حل بساحتهم من عدوان النصارى . ومن الغريب أن روايات المؤرخين فى هذا الصدد متناقضة أشد التناقض مختلفة أشد الاختلاف مشوبة بطابع خرافى مبالغ فيه . وكل ما يمكن أن نخلص به من هذه الروايات المختلفة[2] أنها تحاول أن تظهر المعتمد بن عباد أمير أشبيلية بمظهر

---

(١) أبو عبد الرحمن بن طاهر (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص ٧٢)
أبو محمد بن أبى عمر بن عبد البر النمرى (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص ٥٥)
أبو عبد الله البزليانى (الذخيرة القسم الأول مجلد ٢ ص ٤٥٧ .)
أبو الوليد الباجى الأندلسى (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص ٣٩)
أبو حفص عمر بن الحسن الهوزنى (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص ٣٤)
أبو الوليد محمد بن عبد العزيز والوزير أبو عامر التاكرنى وأبو الاصبغ بن أرقم

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ص ٨٥ . الحلل الوشية فى الأخبار المراكشية ص ٣٠ و ٣٢ . روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ . المراكشى : المعجب ص ٨١ . الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٠٩ . المطرب لابن دحية ورقة ٩ ب .

صاحب اليد الطولى فى استدعاء المرابطين إلى الأندلس . تبنى الفكرة ودافع عنها ، وراسل يوسف بن تاشفين ، يصور له سوء الحال ، ويلهب حميته وحماسته ويستدر عطفه . بل ذهب المؤرخون[١] إلى أبعد من هذا ، فقالوا إن المعتمد قد عبر البحر إلى المغرب ، وسعى إلى مقابلة يوسف شخصيا لاستنهاض همته ، فكأن يوسف كان عازفا عن التدخل حتى حمله المعتمد على ذلك حملا . وذكروا أيضاً أن ابن الأفطس، صاحب بطليوس قد شاركه هذه الخطة[٢] ، وأيده فيها كل التأييد . وبعد أن كان أمراء الأندلس يقفون من هذه السياسة وقفة التردد اضطروا إلى أن يدلوا بدلوهم فى الدلاء ، ويشاركوا فى هذه السياسة ويستصرخوا بالمرابطين يعدونهم بالنصرة والتأييد إذا هم عبروا البحر إلى الأندلس مجاهدين[٣].

ولا يمكن أن نمر على هذه الروايات دون أن نرى لنا فيها رأيا . ويبدو أن أغلب المؤرخين الأندلسيين حاولوا أن يظهروا أمراء أشبيلية بمظهر البطولة وأصحاب الفضل فى بعث حركة الجهاد . كما حاولوا أن يغضوا من شأن أهل المغرب ، ويظهروهم بمظهر الذى يلبى نداء أهل الأندلس ويأتمر بأمرهم ، ومن الغريب أن هذه الظاهرة تشاهد بجلاء ووضوح فيما يرويه المؤرخون المنحدرون من أصل أندلسى ، فهم يحاولون دائما أن يرفعوا من شأن الأندلس ، ويعلوا من ذكرها ، كما أن بعض المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع كتبوا فى عصور متأخرة نوعا ، وقد يكون ذلك فى عصر الموحدين ، أو بعدهم ، حين اعتاد الناس أن ينظروا إلى المرابطين نظرة معادية ، وأن يشوهوا تاريخهم ، ويغضوا من شأنهم فى الوقت الذى يحاولون فيه أن يرفعوا من شأن الموحدين ، ويعلوا من

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٨١ . المطرب لابن دحية ورقة ٩٠ ب .
الأصبهانى : الخريدة جـ ١١ ص ١٨٠ . النويرى جـ ٢٢ ص ٩٨١ .

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ٨٦ .

(٣) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ .

ذكرهم ، فسرهم أن يكون المرابطون هم البادئون بالجهاد ، وهم أصحاب الفضل على الإسلام ، وعلى أهل الأندلس .

ومن الغريب أن المؤرخين حين تعرضوا لتوسع المرابطين فى المغرب عزوا ذلك إلى ما كان من استنجاد بعض فقهاء سلجلماسة بقادة الملثمين وزعمائهم . ثم تعود المراجع[1] فتعترف بأن دولة المرابطين قامت من أجل الجهاد ، وأنها تحله من سياستها محلا رفيعاً ، وتسخر قوتها من أجل إحياء الإسلام ، وإنقاذ العالم الإسلامى مما دهمه من فرقة وتخاذل ، يدل على ذلك ما رواه صاحب الذخيرة[2] على لسان بعض من كتب يستنجد بيوسف ، إذ قال « وقفت على الجهاد عزائمك وضح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزوه الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعى لما أعضل من الداء وتستغاث ... ، وما أحضكم على الجهاد ، بما فى كتاب الله فإنكم له أتلى ولا أحرضكم على الشرع وبما فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم إلى معرفته أهدى » .

لذلك أخذ يوسف بعد أن تم له فتح بلاد المغرب يجوب أرجاءه محرضاً على الجهاد داعياً له مستنفراً القبائل على أن تنخرط فى سلك المجاهدين[3] ، سواء أكانت هذه القبائل من أنصاره أم من أعدائه ، لأنه كان يعتقد أنه لا بد من أن تتحد القوى الإسلامية كلها للقيام بجهد مشترك موحد . نعم كان الجهاد هو الشعار الذى اتخذه يوسف بن تاشفين لنفسه ، حين قال « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا نفسى[4] » ، فكأنه كان ينفذ

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٦ . روض القرطاس ص ٩٣ . المراكشى ص ٨١ الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٨١ .

تعاليم إمامه عبد الله بن ياسين ، وابن عمه أبى بكر بن عمر . نعم أقدم يوسف على فتح سبتة وطنجة لاحباً فى التوسع والفتح فحسب ، بل ليمكن دولته الناشئة من أن تتخذ قواعد لأسطولها الناشىء الذى سوف تسخره لمناهضة القوى الفرنجية فى البحر ، وحماية القوات المرابطية حين تعبر إلى الأندلس مجاهدة فى سبيل الله [(١)] إذ لا بد أن يكون يوسف قد وضع أمر الجهاد في الأندلس نصب عينيه ، وهو يسير جيشه لفتح سبتة وطنجة ، فقد كان يمكن لقواته و يتخذ العدة لحشد القوى الإسلامية لمواجهة خطر الفرنجة ، كما يجب ألا ننسى أن فتح سبتة وطنجة قرب الصلة بين المغرب والأندلس ، وأصبح المرابطون وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون ما يجرى فيها من أحداث، و يرقبون المعركة الدائرة الرحى بين المسلمين والنصارى .

و يجب أن لا نغفل ناحية أخرى هامة هى أن الفقهاء والعلماء كانوا يرحلون من الأندلس إلى المغرب ، وكان كثيرون من الأندلسيون ينفرون إلى بر العدوة معتصمين بالمرابطين نجاة بأنفسهم ودينهم . يروى المؤرخون أن هؤلاء الفقهاء كانوا يروون لشيوخ المرابطين قصصاً دامية ، وحوادث مفجعة يهتز لها كيان كل مسلم مخلص لدينه معتز به . وكان بعض هؤلاء الفقهاء يحفون إلى لقاء يوسف ابن تاشفين مجهشين بالبكاء لما أصاب بلادهم من بؤس وشقاء [(٢)] فتهتز نفسه ، وتقوى عزيمته على وجوب التدخل مهما كان السبب .

و يبدو أن توسع المرابطين صوب سبتة وطنجة لم يصادف هوى فى نفوس أمراء الأندلس ، فتوجسوا خيفة ، وأحسوا أن قوة جديدة بدأت ترقب حركاتهم وسكناتهم ، وتتبرم بمباذلهم ومساخرهم ، وتتهيأ للأخذ بناصيتهم . يدل على ذلك ما رواه المقرى حين قال « لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتونى المغرب و بنى

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٥ .
(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ٨٦ .

مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعه البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة تاقت نفسه إلى العبور إلى جزيرة الأندلس فهم بذلك وأخذ فى إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا المامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة وصعبت عليهم مدافعته وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم والمسلمون عن جنوبهم وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم[١] ، كما أن المعتضد بن عباد لما علم بزحف المرابطين أمر بتحصين الجزيرة الخضراء وجبل طارق » .

أما المراجع التى تصور لنا المعتمد بن عباد بأنه بطل الاستنجاد ، ومتبنى فكرة استدعاء المرابطين فإنها تعود فتذكر أن ثمة خلافا وقع بينه و بين ابنه الراشد الذى كان يرى ألا يستنجد أبوه بالمرابطين مخافة أن يطمعوا فى ملكه ويصرفوه عما بيده من البلاد[٢] ، ويضيفون إلى ذلك أن غالبية ملوك الطوائف كانت تتوجس خيفة من تفكير المعتمد فى هذا المشروع ، وكان « كلهم يحذره سوء عاقبته وقالوا له الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد[٣] » . ، وأشاروا عليه بمداراة الفونسو ومصانعته و إجابته إلى ما يطلب[٤] . بل إن الأمير عبد الله ابن بلكين أمير غرناطة الذى شهد هذه الأحداث ، واشترك فى هذه الوقائع يشير إلى هذا التوجس ، وهذا الخوف من يوسف فيقول « وأنس الجميع ولما يتربص فى البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعوه من انحياش رعيتهم إليه فكل من شكا إليه ذلك الوقت من رعيته يقول له لم نأت لهذا والسلاطين أعلم بما يصنعون فى بلادهم[٥] » . إذن لم يكن هنالك إجماع على الاستنجاد بالمرابطين

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ٢ ص ١١٧٥ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ .أعمال الأعلام ص ٢٨١ .

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص٨٥ .

(٤) ديوان ابن حمديس الصقلى ص٣٧٧ .

(٥) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٩ .

كما يصور المؤرخون ، بل كان من رأى بعض زعماء الأندلس أن يستنجدوا بعرب بنى هلال ، الذين كانوا قد غزوا إفريقية ، وكادوا يطوحون بملك بنى زيرى[١] .

ولكن المراجع كشفت النقاب[٢] عن ناحية أخرى هامة ، كشفت عن الدور العظيم الذى لعبه الفقهاء فى الأندلس ، وبينت كيف سعى هؤلاء المخلصون لقضية وطنهم إلى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى ، وخصوصاً بعد سقوط طليطلة ، واستشراء داء النصارى فى شبه الجزيرة ، فعقدوا مؤتمرا فى قرطبة تذاكروا فيه أحوال البلاد ، وما منيت به من ضعف وتخاذل ، وعرضوا لما كان من عجز الإمارات الإسلامية عن الاتحاد والتعاضد ، وإمعانها فى التخاذل والتخاصم ، ورأوا أنه ليس أحسن من الاعتصام بالمرابطين ، وتأييد المشاريع التى كانوا قد بدءوا يعدونها لخوض معركة الجهاد فى الأندلس . ومن أئمة هؤلاء الساعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصر الإسلام ، ويروم جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم[٣] ، ولم لا يكون رسل المرابطين من فقهاء المغرب قد انبثوا فى بلاد الأندلس فى ذلك الوقت يؤلبون فقهاءها قادة الرأى العام على ملوك الطوائف ويمهدون لجيوش المرابطين إذا هى نزلت شبه الجزيرة حتى يخف إليها الشعب مؤيدا ومؤازرا ، فلا يجد ملوك الطوائف مناصا من السير مع السائرين . كان باستطاعة يوسف بن تاشفين لو كان عازفا عن التدخل فى شئون الأندلس أن ينصرف إلى غزو إفريقية والتوسع شرقا ، وكانت الأحوال هنالك تمهد لمثل هذا التوسع لو أن المرابطين أقدموا عليه . ولم يكن يوسف

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٢ . المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٨ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثانى ص ٩٩ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٠ ، المقرى ج ٢ ص ١١٧٨ — ١١٧٩ .

(٣) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٧٢ .

يسعى إلى كسب مادى ، بل كان يسعى إلى نصر أدبى ، هو تحقيق أهداف المرابطين من الجهاد والتمكين للدولة الناشئة ،فانصرف إلى فتح سبتة وطنجة ، وشرع فى بناء السفن واتخاذ الأهبة لخوض معركة الجهاد ، والدفاع عن القوى الإسلامية فى المغرب .

ويخيل إلينا أن يوسف كان يعد العدة للتدخل فى الأندلس ، حتى لو لم يستنجد به ملوك الطوائف ، وهل كان فى تأييدهم له ووقوفهم فى صفه غناء ما دام الشعب والفقهاء يؤيدونه ويقفون فى صفه . ويخيل إلينا أيضا أن ملوك الطوائف فى الأندلس قد أحسوا بهذا ، ولمسوا بأنفسهم مبلغ تهيؤ يوسف لدخول الأندلس فأحبوا أن يستفيدوا من حركة قائمة قبل أن يكتسحهم تيارها ، فيظهروا أمام العالم الإسلامى بمظهر المتقاعسين عن الجهاد[1] ، فكاتبوا يوسف بن تاشفين تحت ضغط الفقهاء . وليس ببعيد أن يكون شأن المعتمد بن عباد شأن بعض الأمراء مثل المتوكل بن الأفطس وعبد الله بن بلكين قد كاتب يوسف بن تاشفين فى هذا الوقت بالذات حينما أحدقت به قوات الفونسو ، وأحس أنه لن ينجح من المصير المحتوم إلا بالسير فى ركاب المحبذين لجواز المرابطين إلى الأندلس ، والمؤيدين لمشروعات المرابطين فى شأن الجهاد[2] . كما أن تطور الحوادث فى الأندلس سنة ٤٧٩ هـ قد أظهر لكل ذى عينين أن القوى النصرانية تريد أن تبتلع كل شئ ، وأنه لا بد للأمراء إذا أرادوا السلامة أن يؤيدوا الدولة الناهضة التى كانت تستعد للجهاد فى ذلك الوقت .

---

(١) ابن الكردبوس التوزرى : كتاب الاكتفا نقلا عن .
Gayangos vol. II, ap. C. P. XXXIII.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثانى ص ٩٨

يتبين مثل هذا الإتجاه مما رواه شاهد عيان لما كان يجرى فى هذا الوقت من حوادث ، ذلكم هو الأمير عبد الله بن بلكين الزيرى الذى وصف استيلاء المرابطين على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق ، فقد ذكر أن المعتمد بن عباد أخذ يماطل و يسوف فى تسليم هذه الجزيرة برغم وعده بتسليمها ، وأن المرابطين انقضوا على هذا الموقع ، وفوجئت قوات أشبيلية بعساكر المرابطين تحدق بهم «التفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها لم يدر متى أقبلت ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزيدون ويترادفون حتى اتكمل المعسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة وأحدقوا حواليها يحرسونها[1] » . وقد عارض الراضى ولد المعتمد فى ذلك ، فقال له داود بن عائشة « وعدتمونا بالجزيرة الخضراء ونحن لم نأت لأخذ بلد إنما أتينا للجهاد فأما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا و إلا فالذى نقدر عليه نصنع » ، فلم يجد أمير أشبيلية مناصا من التسليم ما دام المرابطون قد وضعوه أمام الأمر الواقع .

كان المرابطون كما قلنا يعدون العدة لخوض معركة الجهاد مهما كلفهم ذلك ، فقد قال يوسف « إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وأهمالهم للغزو وتوا كلهم وتخاذلهم و إيثارهم الراحة . . . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يروضه[2] » .

هذا هو دستور الجهاد فى الأندلس وتلك هى أهدافه وأغراضه فلنحاول أن نتتبع قصته حتى نعرف إلى أى حد أفلح يوسف فى تحقيق ما تغياه .

---

(١) عبد الله ابن بلكين : التبيان ص ٢٣٧ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٠٣ .

١٣ — الدور الأول من أدوار الجهاد فى الأندلس — فكرة الجبهة المتحدة .

ومهما يكن من شيء فقد احتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء و بدءوا يتخذونها معسكرا كبيراً تتدفق إليه قواتهم فوج يتلوه فوج ، كما أخذوا يحشدون القوات و يشترون العدة والسلاح[١] ، ويتهيأون للخطوة المقبلة ، كما بعثوا إلى الجزيرة بأعداد كبيرة من الإبل لتشترك فى معارك الأندلس ، وربما كان ذلك للمرة الأولى[٢] ، وقد علت صيحة الجهاد فتردد صداها فى الأندلس والمغرب ، و بدأت القوات تحتشد عند مدينة سبتة ، وجاءت الوفود المجاهدة من الصحراء و بلاد القبلة والزاب ، ولم تتخلف قبيلة عن المساهمة فى هذه الحركة الكبرى[٣] . وكأن يوسف بن تاشفين قد وجد فى حركة الجهاد هذه بلسما يشفى جراح المغرب ويوحد بين قبائله كلها تحت لوائه ، ويقر الأمن والسكينة فى ربوعه ، وما دام الجميع ينصرفون نحو هدف واحد لا يلوون على شيء فى سبيل تحقيقه . وقد علت صيحة الجهاد فى الأندلس ، وكان الفقهاء وقادة الفكر يجوبون البلاد ، و يستنفرون الناس ، و يعملون على توحيد الجهود ليمهدوا السبيل أمام القوات المجاهدة الآتية من المغرب . وقد عبر يوسف البحر ونزل الجزيرة الخضراء « وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين[٤] » .

ويبدو أن الهدف البعيد الذى كان يوسف بن تاشفين يرمى إليه وهو حشد القوات الإسلامية فى صعيد واحد ، وتكتل القوى ووقوفها صفا واحدا كالبنيان المرصوص لمجابهة العدو يدا واحدة كان قد شارف النجاح ، إذ كان لقدومه فعل

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٤ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص ١١٧٩ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ٨٧ .

السحر فى نفوس الناس ، وخصوصا حين أخذت قواته بعد احتشادها فى الجزيرة الخضراء تتجه صوب أشبيلية بقيادة أبى سليمان داود بن عائشة[1] ، فما كادت قواته تقترب من هذه المدينة حتى خف إليه الناس من سائر الجهات متطوعين المشاركة فى الجهاد[2] ، وانضمت إليه قوات المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، و بعض قوات ابن صمادح صاحب المرية ، وصاحب غرناطة ، والثغر الأعلى ، وابن ذى النـون و بنى عزون[3] ، حتى « لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج[4] » . وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ،و بدأت وفود المطوعة من سائر الأقطار تفد إلى أشبيلية[5] ، فلم يجد يوسف بدا من جعـل القوات معسكرين : معسكر الأندلسيين فى ناحية ، ومعسكر الصحراويين فى ناحية أخرى، حتى لا يختلط المعسكران[6] .

و بدا للناس كأن المعجزة التى طالما انتظروها قد تحققت . فاجتمع شمل أهل الأندلس بعد تفرق ، وتوحدت جهودهم بعد طول تحاسد ، و بدا كأن جهود يوسف بن تاشفين قد وصلت ما انقطع من تاريخ البلاد منذ وفاة المنصور ابن أبى عامر ، حين كان المجتمع الأندلسى عبارة عن معسكر كبير يعج بالمجاهدين والمطوعة من كل فج . لم يكن من المستطاع أن يوحد الأندلسيون أنفسهم بأنفسهم ، فكان لا بد من قوة خارجية تلم شملهم ، وتنظم وحدتهم ، وتحملهم على الوقوف صفا واحدا .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٧٩ .
(٤) الضبى : بغية الملتمس ص ٣١ .
(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .
(٦) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩ .

وبدا المجتمع الإسلامي في الأندلس وكأنه أفاق فجأة من هجعة طويلة، وبدأ ينتفض انتفاضة القوة والحياة على يد هؤلاء القوم الغلاظ الأشداء الذين لم توهن عزائمهم ملذات الحياة، ولم تصرف قلوبهم عن خشية الله، بل تآلفت قلوبهم على الإيمان. واجتمعت على الجهاد يدل على ذلك ما قاله أمير معاصر هو عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة. الذي اشترك في حركة توحيد القوى هذه، فقد كتب يقول « وظننا أن إقباله على الأندلس منة من الله عظمت لدينا لا سيما خاصة من أجل القرابة وللذي شاع من خيرهم وإقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق فنعمل بأنفسنا وأموالنا في الجهاد بعد كل عام فمن عاش منا كان عزيزا تحت ستر وحماية. ومن مات كان شهيدا. والعجب في تلك السفرة من حسن النيات وإخلاص الضمائر كأن القلوب إنما اجتمعت على ذلك، ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجيوشه، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلا بعسكره كل يرغب في الجهاد قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه[1] ».

وقد أراد يوسف أن يبقى على هذا الشعور الفياض، وأن يؤثل لهذه الوحدة الفريدة، فعاقد ملوك الطوائف على أن يكونوا يدا واحدة، وأن تتصل جهودهم لغزو الروم بمعونته على ألا « يعرض لأحد في بلده ولا يقيل عليه رعيته ممن يروم الفساد عليه[2] ».

وقد أحس المعسكر النصراني بهذا الخطر الداهم، وأدرك أن ثمة تغيرا

---

(١) عبد الله بن بلكين: التبيان ص ٣٨٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٧ — ٣٣٨

وقع فى الجبهة الإسلامية ، وأن الوحدة قد شملت صفوف المسلمين ، وشدت من أزرهم ، وأتت الأنباء للملك الفونسو السادس ، وهو يشدد الحصار على سرقسطة فاضطر إلى رفع الحصار ، و بدأ يحشد القوى النصرانية ، و يستنفر همم الأمم المسيحية ودوت أصوات الاستغاثة والاستنجاد فى أرجاء أوربا . ولا بد أن الكنيسة الرومانية التى كانت قد تمت سيطرتها على كنيسة أسبانيا قد عملت على إذكاء الحماس فى نفوس المتطوعين « رفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم [1] وخف الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قشتالة وأرغونة وجليقية كما استعان بابن ردمير Sancho Ramirez صاحب أرغونة و بنبلونة والكونت برنجار ريموند ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جليقية وليون و بسكونيا وأشتريس وقشتالة [2] ، ورفع الحصار عن بلنسية وخف إليه البرهانس Alvar Hanez » .

كانت الأحوال إذن تنذر بأن الصدام بين الإسلام والنصرانية سيكون صداما عنيفا ، وأن المعركة التى سوف يشترك الطرفان فى خوض غمارها ستكون من المعارك الفاصلة فى تاريخ جميع القوى المشتركة فيها . فقد كانت القوى النصرانية فى شبه الجزيرة قد بلغت الأوج ، كما كانت الروح التى بثها مجىء المرابطين وحركة الوحدة التى تفشت بين أمراء الأندلس قد جددت العزائم وقوت القلوب وأحيت موات الآمال . ونحن إذ نعرض لوصف ذلك الصراع الموشك أن يحتدم بين الفريقين يجب أن نلتزم نهجا واضحا لا نحيد عنه ، فلا نغرق فى التفاصيل ولا نلم بكل دقيقة من دقائق المعركة ، إنما الذى يعنينا هو أن نعرض الآثار التى تركتها هذه المعركة فى حركة الجهاد بالأندلس . والذى يعنينا قبل غيره

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج٢ ص ١١٨٠ .

(٢) أشباخ ج١ ص ٨٣ .

هو نتائج هـذا الصراع وآثاره فى سير حركة الجهاد ، وفى التمكين لدولة المرابطين .

من الغريب أن جل ما كتبه المؤرخون المسلمون فى موضوع هذا الصراع يشوبه غموض وتناقض ومبالغة ، إذ تحاول بعض هذه الروايات أن تبرز المعتمد ابن عباد بأنه فارس الحلبة و ل الصراع ، وأنه ساهم فى النضال بجهد مشكور ، وتحاول بعض الروايات الأخرى أن تغالى فى النتائج التى أحرزها المرابطون مغالاة تخرجها عن طابع الحقيقة ، حتى لقد نشأ حول هذه المعركة ما يمكن أن نسميه أدب الزلاقة . فهنالك شعراء معاصرون كانوا فى بلاط المعتمد شهدوا المعركة عن كثب ، وسجلوا نتائجها فى شعرهم ، مثل الشاعر عبد الجليل بن وهبون ، الذى مدح المعتمد ، ووصف النصر الذى أحرزه المسلمون ، وابن حمديس الصقلى ، الذى رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ[1] ، وتقرب إلى المعتمد بن عباد ، وأقام بأشبيلية حتى شهد معركة الزلاقة ، ومدح المعتمد كما مدح يوسف بن تاشفين . وقد جاء ابن بسام بنماذج من أدب الكاتب أبى بكر بن القصيرة ، الذى خدم ابن عباد ثم خدم المرابطين ، ووصف المعركة فى أسلوب رفيع . وهنالك مرجع آخر بالغ الأهمية يكشف لنا بعض الغموض الذى شاب حوادث ذلك الصراع ، هو كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلكين أمير غرناطة ، الذى اشترك فى هذه المعركة ، وسجل ما شاهد وما عاين . هذه الروايات المعاصرة سنعتمد عليها كل الاعتماد فى دراسة هذا الصراع والإلمام بدقائقه .

ولكن يجب علينا أن نوضح أهداف طرفى النزاع ، وندرس تحركات المرابطين بعد دخولهم أشبيلية ، وتحركات القوى النصرانية بعد أن غادرت مضاربها حول سرقسطة . أقام المرابطون وحلفاؤهم بأشبيلية بعض الوقت[2] ،

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٦٢٦ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٩ .

ثم أخذت قواتهم تتحرك صوب بطليوس[1] ، ولا ندرى لماذا تحرك الحلفاء المسلمون صوب بطليوس التى تقع إلى الشمال العربى من مدينة أشبيلية ؟ . هل كان فى نيتهم أن يتقدموا صوب مدينة قورية على نهر تاجة[2] ، ثم ينقضوا منها على مدينة طليطلة[3] ، فيضربوا عليها الحصار ، وينتزعوها من أيدى النصارى ، ويردوا هذه المدينة إلى السيادة الإسلامية مرة أخرى ؟ .

لم يكن من المعقول أن تعمد القوى المتحالفة فى ذلك الوقت إلى المغامرة والتقدم صوب طليطلة رأسا ، لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا فعلوا ذلك أشتد توغلهم فى ديار النصارى ، فطالت خطوط مواصلاتهم ، وسهل على الفونسو وحلفائه أن ينقضوا عليهم من الخلف ، فيقطعوا صلتهم بالجنوب ، ويقضوا عليهم قضاء مبرما . ثم إن المسلمين كانوا قد سمعوا وهم فى أشبيلية أن الفونسو حين علم بنبأ قدوم المرابطين أقلع عن حصار سرقسطة ، وبدأ يستنفر القوى النصرانية ويتهيأ ليوم اللقاء . فكيف يقبل المرابطون على مثل هذه المخاطرة ، وهم حديثوا عهد بلقاء النصارى لا يطمئنون إلى ملوك الطوائف كل الاطمئنان ، على حين كان الفقهاء الأندلسيون يشككون فى أهل الأندلس ، ويحذرون المرابطين مغبة الثقة بهم ثقة كاملة ، فعمد يوسف بن تاشفين من قبل إلى فصل معسكره عن معسكر الأندلسيين غب رحيله عن أشبيلية .

ونحن نستبعد أن يكون المرابطون قد فكروا فى السير إلى طليطلة فى ذلك الوقت ، إنما ساروا إلى بطليوس لأن أميرها المتوكل بن الأفطس دعاهم للإلمام

(١) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٨ — ٣٣٩ . الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ . الروض المعطار ص ٩٠ . المطرب لابن دحية ورقة ١٢٠ (ا) .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ .

(٣) ابن الكردبوس: كتاب الاكتفا نقلا عن Oayanges, ap. C p p. XXXV.

بمدينته لتنضم قواته إليهم[١] . ثم يفكرون فى وضع خطة مشتركة لمحاربة قوات الفونسو المتهيئة للقائهم . يخيل إلينا أن الحلفاء المجتمعين ببطليوس لم يفكروا فى مغادرة هذه المدينة ، بل إنهم آثروا أن يعسكروا قريب منها فى انتظار لقاء الفرنجة ، حتى إذا باءت جهود المسلمين بالإخفاق استطاعوا أن يلوذوا بأسوارها ، ويعتصموا بقلعتها فلا تكون الخسارة فادحة . وقد أشار عبد الله بن بلكين[٢] إلى ذلك ، وروايته رواية شاهد صدق . وليس ببعيد أن يكون فى نية الحلفاء التقدم إلى مدينة قورية ، إذا وثقوا من الغلبة فى هذا الصراع ، أو إذا أبطأ الفونسو فى الزحف إليهم .

وقد أشار عبد الله بن بلكين إلى ناحية هامة تلقى ضوء على موقف يوسف بن تاشفين فى تلك الأيام العصيبة ، فقد أشار إلى أن يوسف تلقى وهو ببطليوس أنباء من المغرب شغلت عقله ، واضطرب لها فؤداه ، وأنه « لولا ذلك لكان فى أرض النصارى مدوخا لها »[٣] ، كما أشار الضبى إلى مثل ذلك فقال « إن يوسف تلقى خبر وفاة أكبر بنية وهو بمدينة بطليوس[٤] » . إذن فقد قرر الحلفاء البقاء قرب بطليوس بسبب هذه الظروف ، التى ألمت بأمير المرابطين ، وبسبب ما تواتر من أنباء تدفق قوات النصارى صوب بطليوس ذاتها لملاقاة المسلمين . نعم كان بوسع ألفونسو لو كان بعيد النظر أن يرقب تقدم المرابطين ، ويتحصن حول طليطلة حتى إذا نالت منهم متاعب السفر ومشقة الطريق انقض عليهم من مكامنة ، ولكنه آثر أن يكون البادىء بالهجوم ، فانقض على قورية ، وسبق المسلمين إليها[٥] . وقد أخذت قوات الفونسو تتقدم حتى صارت

---

(١) ابن دحية : المطرب ورقة ١٢٠ (ا) .

(٢) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) الضبى : بغية الملتمس ص ٣٦ .

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ . الروض المعطار ص ٨٨ .

على مبعدة ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين فى فحص الزلاقة ، وكان يفصل بينهم نهر بطليوس[١]

فى بطاح فحص الزلاقة إذن نشب ذلك الصراع العنيف بين القوى النصرانية والإسلامية ، ذلك الصراع الذى انتهى بنصر رائع مؤزر أحرزه المرابطون ، حين قهروا الفونسو السادس ، وفرقوا شمل جموعه ، وشتتوها كل مشتت . فما هى الظروف التى جعلت يوسف يبرز إلى مصاف أعظم قواد المسلمين ، و يمكن لدواته الناشئة من نفوس المعاصرين سواء فى الأندلس أم فى المغرب أم فى العالم الإسلامى كله ؟ . ليس من شك فى أن يوسف وجيشه من الملثمين خاضوا غمار معركة غير متكافئة ، فقد كان العدو يفوقهم فى العدد والعدة ، كما كانت دياره قريبة من الميدان يستطيع أن يجلب إليها المؤن والذخائر والمقاتلة فى أى وقت شاء ، كما أن خلفه سلسلة من الحصون يستطيع إذا انسحب أن يعتصم بها ، و يصمد لأى عدو تحدثه نفسه بالتقدم صوب بلاده ، على حين كان يوسف يعتمد على قواته وحدها ، ولم يكن باستطاعته أن ينقل من المغرب إلى الأندلس إلا أعدادا محدودة ، ولم يكن يثق بأهل الأندلس .

وقد حدث ما توقع يوسف بن تاشفين ، فقد هزم أهل الأندلس لأول لقاء خارت قواهم ، ووهت عزائمهم ، وفروا لا يلوون على شىء معتصمين بأسوار بطليوس ، تاركين المرابطين فى الميدان وحدهم يصطلون بنار القتال ، و يتجرعون كأس البأس والشدة[٢] . اضطلع المرابطون إذن بالعبء كله ، وأصبح مصير الأندلس ومصير المغرب متعلقا إلى حد كبير بتصرف ذلك القائد العظيم .

وأول ما يجب أن نوضحه من نواحى القوة فى موقف هذا القائد فى هذا اليوم الخالد ، أنه لم يؤخذ على غرة كما تصور بعض الروايات[٣] ، لأن المعتمد

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٤ .
(٢) الحلل الموشية ص ٤٧ . الروض المعطار ص ٩٢ .
(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٩ . الروض المعطار ص ٩٠ .

ابن عباد كان يعرف مكايد الفرنجة وحيلهم ، فبث العيون لترقب حركات العدو[١] ، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يبيتون ليلتهم على أهبة واحتراس يترقبون ساعة بدء الهجوم[٢] . أما يوسف بن تاشفين فقد كان يرقب تحركات العدو[٣] بعين القائد المجرب ، الذى حنكته وقائع الصحراء ، وصهرته معارك المغرب ، فما كاد الليل يجن حتى عمد إلى تغيير موضع قواته دون أن يشعر أحد ، كما قضى الليل يرتب الصفوف ، ويعد العدة لكل احتمال[٤] ، فما كادت طلائع العدو بقيادة البرهانس[٥] (Alvar-hanes) تبدأ الهجوم ، حتى تبين ليوسف أن الفونسو قد بدأ بمهاجمة معسكر أهل الأندلس ، وحمل رجاله عليهم حملة منكرة ، فقد كان يريد إذا تم له القضاء على أهل الأندلس أن ينصرف إلى جموع المرابطين ، فيحدق بهم ويوردهم موارد التهلكة[٦] .

ولكن يوسف ما كاد يعلم بنبأ تراجع أهل الأندلس ، حتى أرسل فرقة من القوات المغربية بقيادة داود بن عائشة لتشد أزرهم ، وتحول دون تحقيق الأهداف الأولى للهجوم النصرانى[٧] . ولما عرف أن قوات داود لم تستطع أن تشد الثغرة سير إليهم سير بن أبى بكر على رأس زناتة ومغراوة[٨] . إذن لم يتباطأ يوسف بن تاشفين ، أو يتلكأ فى مد يد العون للقوات الأندلسية عن عمد بغية اضعافهم ، وكسر شوكتهم كما يقول بعض الرواة[٩] ، إنما كان

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٤ .

(٥) Pidal: The Cid and his Spain, p. 219.

(٦) Idem.

(٧) ابن أبى زرع ص ٩٥ . الروض المعطار ص ٩٢ .

(٨) ابن أبى زرع ص ٩٥ .

(٩) ابن الكرديوس : كتاب الاكتفاء ، نقلا عن Gayangos, ap. C. p. XXXV.

الرجل يهدف إلى غرض بعيد واضح ، يهدف إلى أن تستمر المعركة دائرة الرحى لأطول أمد ممكن ، حتى تشغل على النصارى تفكيرهم ، وتستغرق جل اهتمامهم فلا يشعرون بما يدبر ابن تاشفين وما يدخره من عنصر المفاجأة .

وقد حدث ماتوقعه يوسف ، ذلك أن النصر شجع القوات النصرانية فتركت مواطنها الأصلية ، وأخذ تتعقب أهل الأندلس ، وهم يتقهقرون[1] ، فلم يكن من يوسف إلا أن سار بنفسه على رأس جيش لمتونة ، ليضرب عساكر الفونسو من الخلف ، فهاجم معسكر النصارى ، واستولى عليه ، وأضرم فيه النار[2] ، فاضطرت قوات الفونسو إلى أن ترتد صوب المعسكر تريد أن تنقذه من الوقوع في يد المرابطين[3] ، وما كاد أهل الأندلس يعلمون بذلك ، حتى انقلبوا من الفرار إلى الهجوم ، وأطبقوا على النصارى من الخلف ، فأصبحوا بين شق الرحى[4] . وهنا يطيب لبعض المؤرخين الأندلسيين[5] أن يصوروا المعتمد ابن عباد بصورة المنتصر الصامد لهجمات العدو الثابت الجنان ، الذى لم يهلع للهزيمة التى لحقت به ، بل وقف كالطود يصد العدوان . وهذا قول مبالغ فيه إلى حد كبير ذلك أن المعتمد إذا كان قد صمد حقاً ، فإن الفضل فى ذلك لايرجع إلى شجاعته بقدر مايرجع إلى استبسال داود بن عائشة ، وسير ابن أبى بكر . ولما حمى وطيس القتال أنزل يوسف إلى الميدان فرقة من السودان المسلحين بزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط[6] ، انقضت على قوات

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٥ .

(٢) Pidal : op. Cit. p. 218.

(٣) Idem

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٥) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٠٣ . المطرب لابن دحية ورقة ٩١ ب .

(٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧ .

النصارى انقصاض الصاعقة ، وشقت طريقها إلى حيث الفونسو نفسه[١] ، فعجلت بالنهاية ، وحاقت الهزيمة بالقوات النصرانية ، وجرح الفونسو ، وفر فى جنح الظلام لا يلوى على شىء[٢] .

ولم تكن خطة يوسف وحدها هى التى قررت مصير هذه المعركة الحاسمة ، وأنقذت القوى الإسلامية مما أريد بها من شر ، بل يرجع الفضل لذلك الفن الجديد الذى أدخله يوسف بن تاشفين ، هذا الفن الذى لم تعرفه الأندلس من قبل — على ما نعلم — ولم يشهده النصارى فى المعارك التى خاضوا غمارها مع القوات الأندلسية المستضعفة[٣] . فقد كان النصارى يعتمدون فى فن الحرب على الشجاعة الفردية أكثر من اعتمادهم على أى شىء آخر ، كانوا يهتمون بالفارس كفرد ، ولا يهتمون بالفرسان كمجموعة تحركها إرادة واحدة[٤] ، لذلك كانوا يغالون فى لبس الزرد والدروع ، التى تغطى الفارس من الرأس إلى القدم، فكأنه حصن يتحرك «تحصنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم واتخذوا من السلاح ما يزيد فى جرأتهم وأقدامهم»[٥] ، وقد جربوا هذا الفن فى قتالهم مع أمراء الأندلس ، فحقق لهم ما شاءوا من أهداف . أما فى الزلاقة فقد التقوا بجيوش منظمة على أسس جديدة نظمتها عبقرية قائد فذ ، فقد كانت الجيوش المرابطية على ما يبدو تستعين بلون من الفن البدوى فى القتال ، تقيم صفاً من الإبل يصبح بمثابة درع يتقدم القوات المهاجمة ، فيوقع الرعب فى صفوف الأعداء ، فتجمح خيلهم ، ويضطرب فرسانهم . وقد استعان المرابطون إلى جانب ذلك بصفوف متراصة من الجند مدربة أتم تدريب تخضع لراية واحدة ،

---

(١) ابن بسام : الذخيرة (بغداد) قسم ٢ ص ١٠٠ .

(٢) الروض المعطار ص ٩٦ — ٩٨ .

(٣) Pidal : The Cid and his Spain, p. 219.

(٤) Idem

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ .

وتتحرك كأنها رجل واحد فى نظام رتيب[1] ، كما ستعانوا بفرق من المشاة السودان مسلحين بالسهام ، ومزاريق الزان ، ودرق اللمط[2] ، يتقدمون فى خطى رتيبة ، يلقون بقذائفهم من السهام والرماح وفق حركات مرسومة ، وقد استطاع هؤلاء الرماة أن يطعنوا الخيل برماحهم ، ويرموها بسهامهم ، فجمحت بالفرسان ، وولت الأدبار[3] . وهنالك ناحية أخرى أشار إليها المؤرخ بيدال ، وهى أن المرابطين كانوا يستعينون بطبول هائلة تدق دقاً فتهتز لها الأرض ، وترتعد لها فرائص الفرسان هولا[4] ، فتصم آذانهم بدويها المزعج[5] . ويخيل إلينا أن المرابطين استمدوا هذا النوع من الطبول من الدول الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال ، لأن الطبول تلعب فى الفن الحربى عند الزنوج دورا عظيما .

غير أن هنالك سلاحاً آخر لا يقل عن هذه الأسلحة مضاء ، ونعنى به هذه الروح الجديدة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين ، والتسابق إلى الاستشهاد . وكان يوسف يركض بجواده بين الصفوف يحض رجاله على القتال ، ويرغبهم فى الموت فى سبيل الله[6] ، وقد اشترك كثيرون من الفقهاء فى الموقعة يعظون الناس ، ويشدون عزائمهم[7] .

---

(١) Pidal : op. Cit. p. 219

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) Pidal : op. Cit. p. 219

(٥) الحلل الوشية ص ٤٨ .

(٦) Pidal : op. Cit p. 219.

(٧) ابن بشكوال : الصلة ص ٤٠٧ و ٤٧١ . ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٦٢٠ .

وفى ختام التعرض لهذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الإسلام يجب أن نحدد التاريخ الصحيح الذى حدثت فيه . ومن الغريب أن المراجع التى تفيض فى وصف المعركة ، وتكشف عن آثارها ونتائجها ، وتتعرض لكثير من التفاصيل الدقيقة تختلف فى تحديد هذا التاريخ . فالنويرى[١] مثلا يذكر أنها حدثت فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٧ هـ ، على حين نجد ابن خلدون[٢] وابن الكردبوس التوزرى يذكران أنها حدثت سنة ٤٨١ هـ ، ويظهر أن ابن خلدون وصاحبه يخلطان بين الجواز الأول ليوسف ، والجواز الثانى ، أما بقية المؤرخين فيجمعون على أن المعركة حدثت فى شهر رجب سنة ٤٧٩هـ[٣] . وليس من شك فى أن تدخل المرابطين فى شئون الأندلس جاء تاليًا لاستيلاء النصارى على مدينة طليطلة ، فقد استولوا على هذه المدينة فى المحرم سنة ٤٧٨هـ[٤] ، وهذا التاريخ صحيح إلى حد كبير لأن مجموعات السكة تذكر أن آخر النقود الإسلامية التى ضربت بالمدينة كانت مؤرخة سنة ٤٧٨ هـ[٥] ، ثم أخذت النقود تضرب بهذه المدينة وعليها طابع الفونسو السادس وخاتمه[٦] ، إذن فلا بد أن معركة الزلاقة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١١ .

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٦ .

(٣) المطرب لابن دحية ورقة ٢٠ (أ) . جامع تواريخ فاس ص ٣٠ . الجذوة ص ٣٤٣ بغية الملتمس ص ٣١ . الحلل الموشية ص ٤٦ . ابن الأبار جـ ٢ ص ٦٢٠ . ابن بشكوال ص ٧١ . ابن الأثير جـ ١٠ ص ٦٣ .

(٤) التكملة لابن الأبار (القسم المفقود) ص ٢٩ .

(٥) Prieto et Vives. : Los Reyes de Taifas, p. 241 Catalogo de Monedas Arabigos-Espanolas, p. 105 (Driham 441)

(٦) انظر القطعة رقم ١١٢٧ بتاريخ ١٠٨٨م Lavoix (op. cit.) p ونقوشها كما يلى :

أمير 524

القتوليقيين .

الفونش بن شانجه .

أيده الله ونصره .

بسم الأب والابن والروح القدوس الاله الواحد .

من آمن وتعمد يكون سالما .

أمام البيعة المسيحية بابا رومية .

حدثت بعد سنة ٤٧٨ ﻫ . ومن محسن الصدف أن ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة[1] جاء بنص يعد على جانب عظيم من الأهمية . فقد نقل لكاتب أبي بكر بن القصيرة رسالة على لسان المعتمد بن عباد إلى ولده بأشبيلية يصف فيها المعركة ، وما أحرزه المسلمون من ظفر ، كما يصف ما حل بالفونسو ، ويذكر أنه لا يدرى ماذا أصابه أحى هو أم ميت ، مما يدل على أن الرسالة كتبت صبيحة المعركة بالذات ، حينما اكتشف المسلمون أن الملك فرّ فى جنح الظلام لا يلوى على شىء ، ولم يكونوا يعرفون أحى هو أم ميت . وقد أرخ ابن القصيرة هذا الكتاب بصبيحة السبت الثالث عشر من رجب سنة ٤٧٩ ﻫ[2] ، مما يدل على أن رأى الفريق الأخير من المؤرخين صحيح كل الصحة .

بقى علينا كى نتم القول فى معركة الزلاقة أن نعرض للآثار التى تركها هذا النصر العظيم فى موقف يوسف بن تاشفين من حركة الجهاد فى الأندلس وفى موقف أهل الأندلس أنفسهم ، وفى الكتلة النصرانية والقوى الصليبية المتحفزة للنضال . ليس من شك فى أن المرابطين قد انفردوا بإحراز النصر فى يوم الزلاقة ، أما أهل الأندلس فقد حاقت بهم الهزيمة ، ولم يستطيعوا الصمود فى وجه قوات الفونسو الزاحفة للقائهم ، فعرف يوسف عن يقين أن أمراء الأندلس لا غناء فيهم ، فقد تركوه فى الميدان وحده أمام الفونسو وجهاً لوجه ، فأخذ يدرك أنه لا بد من أن يضطلع بالعبء كله وحده ، إذا كان يريد لحركة الجهاد فى الأندلس أن تنجح ، وأن تحقق النتائج المعقودة عليها ، كما لمس بنفسه هذه الفرقة الضاربة أطنابها فى صفوف الرؤساء الذين لم ينسوا أنفسهم حتى فى ساعة المحنة ، لذلك ما كادت تنجلى المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفاق واطراح التنابذ والتخاصم ، حتى لا يضيعوا بحماقاتهم ثمار هذا النصر[3] .

---

(١) الذخيرة . مخطوط بغداد . قسم ٢ ص ٩٨ — ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) عبد الله بن بلكين . التبيان ص ٣٣٩ .

ولكن نصيحة أمير المرابطين لم تجد صدى فى قلوب ملوك الطوائف ، إذ ما كاد يعبر المضيق إلى بر العدوة ، حتى ساروا سيرتهم الأولى من الفرقة والبغضاء[١] . ويظهر أن بوادر الإنقسام فى الرأى بين يوسف والمعتمد بن عباد أمير أشبيلية قد ظهرت فى صبيحة المعركة ، فقد كان المعتمد يود لو تعقب المرابطون العدو الفار ليجهزوا عليه ، فلا يستشرى داؤه بعد[٢] ؛ ولكن يوسف الذى كان النصر قد كلفه كثيراً ، وأرهق جنده وقواده ، لم يرد أن يحمله الزهو إلى الإسراف فى التنكيل بالعدو المقهور[٣] ، فى الوقت الذى كان عليه أن يعبر إلى المغرب ليواجه الفتنة التى بدأت تطل برأسها . ويذكر المؤرخون فى معرض التدليل على وقوع البغضاء بين يوسف و بين المعتمد بعيد الزلاقة أن أنصار المعتمد عللوا أعراض يوسف عن تعقب العدو بأنه ، « خاف أن يهلك العدو الذى من أجله استدعى فيقع الاستغناء عنه[٤] » ، كما أن أنصار يوسف رأوا فى إصرار المعتمد على تعقب العدو ما يوحى بأنه يريد قطع حبال يوسف من العودة إلى الجزيرة[٥] مرة أخرى ؛ على حين يذكر آخرون أن يوسف ورجاله طمعوا فى امتلاك الأندلس بعد أن رأوا وهم بأشبيلية ذلك الترف والنعيم الذى يرفل فيه الأمراء والنبلاء[٦] .

وقد أيقن أهل الأندلس أن طائفة الرؤساء لا غناء فيهم ، وآمنوا بأن نصر الزلاقة يرجع الفضـــــل فيه إلى يوسف وشيعته من المرابطين ، فوثقوا به واعتقدوا عن يقين أن إنقاذهم مما تردوا فيه من محنة لن يكون إلا على أيدى

---

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا . نقلا عن Gayangos : Ap. C. p XXXVII

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ٩٣ .

(٣) الحلل الموشية ص ٤٩ .

(٤) الحميرى . الروض المعطار ص ٩٣ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٨ .

هؤلاء الصحراويين الغلاظ ، فتألق نجم يوسف ، وعلا ذكره فى بلاد الأندلس ، كما علا فى المغرب من قبل [١] ، كما أن هذا النصر الذى لم يكن يخطر على بال أحد من أهل الجزيرة قد هز مشاعر يوسف هزاً ، وملكت الفرحة عليه زمام نفسه ، فأرسل الكتب إلى العدوة يشرح فيها سير المعركة ، ويكشف عن الدور الذى لعبه فيها [٢] ، ويغلو فى وصف ذلك الظفر الذى أصابته قواته ، حين أبلت البلاء الحسن ، فقرئت الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب [٣] ، بل قيل أنه بعث برءوس القتلى إلى مدن الأندلس والمغرب وأفريقية ، حتى يرى الناس رأى العين مبلغ ما أحرزه من نصر وتوفيق [٤] ، إذ يبدو أن خسارة النصارى يوم الزلاقة كانت فادحة حقاً ، فقد اعترف مؤرخوهم بهول الفادحة ، لم ينكروا آثارها ، ولا غضوا الطرف عن نتائجها [٥] .

وكان لهذا النصر صدى عظيم فى الشعور الإسلامى العام ، إذ سرعان ما تناقله الناس فى الأندلس والمغرب ، واحتفلوا به أبلغ احتفال [٦] ، وراح المؤرخون يشبهون يوم الزلاقة بيوم القادسية واليرموك [٧] ، وعمت الفرحة بلاد المشرق حتى قيل إن الإمام الغزالى هنأ يوسف بهذا النصر ، واعتبره الأمير المثالى الذى كان يرجو أن يظهره الله ليعيد للإسلام سابق صولته وقوته ، كما كتب الأمراء المعاصرون إلى يوسف مهنئين مباركين [٨] .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٨٤ .
(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ٩٦ .
(٣) الحلل الموشية ص ٤٩ . الإحاطة ج ٢ ص ٧٩ .
(٤) الروض المعطار ص ٩٦ .
(٥) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩١
(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٧) الحلل الموشية ص ٤٩ .
(٨) الحميرى : الروض المعطار ص ٩٦ .

وقد ترك هذا النصر آثاراً لا يستهان بها فى الأوضاع القائمة ببلاد المغرب ، فقد ساعد يوسف على حل جميع المشاكل الداخلية التى كانت تعترض سبيله ، وأيقن الناس أن القوة المرابطية الفتية محفوفة بالنصر لا يستطاع دفعها أو مغالبتها ، فاستكانت القبائل ، وسارت طائعة أو مختارة فى ركب الدولة الجديدة . كما ارتفع قدر يوسف بن تاشفين بين أمراء لمتونة ، وأصبح بعد هـذا الفوز العظيم أحق الأمراء بأن يخلف أبا بكر بن عمر فى زعامة دولة المرابطين . كما يجب أن لا ننسى أن هذا النصر الذى أحرزه المرابطون فى الأندلس كان نصرا للمبادئ الجديدة التى دعا لها عبد الله بن ياسين ، وتوارثها الأمراء من بعده ، وأحلوها المحل الأول من نفوسهم . نعم انتصرت مبادئ عبد الله بن ياسين فى الأندلس كما انتصرت فى المغرب والصحراء من قبل[1] .

وقد تمخض هـذا النصر أيضاً عن آثار بعيدة المدى فى الشعب الأندلسى نفسه ، فقد ارتفعت روحه المعنوية أكثر من أى وقت مضى ، وأيقن أن العدو النصرانى الذى كان يجوس فى شبه الجزيرة دون منازع من الممكن أن يقهر ، وأن يرد على أعقابه إذا اجتمعت الكلمة ، وتضافرت القوى ، واتحدت الجهود[2] ، ذلك أن الضعف والتخاذل واليأس والقنوط قد أدى إلى القضاء على الروح المعنوية للشعب ، أما الآن فقد أصبح أهل الأندلس يؤمنون بأن العهد الزاهر الذى مرت به البلاد فى عهد المنصور بن أبى عامر قد عاد من جديد ، فاهتزت نفوسهم وقويت روحهم المعنوية[3] ، كما شهدوا عن كثب ما سمعوا به من عدل المرابطين وتمسكهم بالسنة ، وعملهم على إحياء الدين ، ورأوا رأى العين كيف أن هؤلاء الصحراويين ينشرون مبدأ المساواة بين الناس ، ويخففون عن كواهلهم أعباء الضرائب القادحة

---

(١) Pidal: op. cit. p 221

(٢) كتاب الاكتفا ، نقلا عن Gayangos: ap p. XXXTI

(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثانى ص٩٩ .

التى فرضها عليهم الأمراء[١] فرضاً ، فكأن المرابطين فى الواقع قد انتصروا على الفرنجة وانتصروا على الأمراء ، واحتلوا من نفوس الشعب الأندلسى محلا رفيعاً .

وكان لانتصار الزلاقة أثر واضح فى نفسية المعسكر النصرانى ، ذلك أن ألفونسو كان الزهو والغرور قد أغراه بركوب المركب الصعب ، فلم يعرف لأطماعه حداً ، ولا لأغراضه نهاية ، بل كان يأمل أن يبسط ظله على شبه الجزيرة كلها . فلما قدم المرابطون وتغلبوا عليه أحس لأول مرة بأنه أمام جبهة متحدة من المغرب والأندلس ، تقف له بالمرصاد ، وتهدده تهديداً خطيراً ، وأيقن أن هذا النظام الجديد الذى بعث فى الأندلس قوة بعد ضعف ، ووحدة بعد تخاذل لن ييسر له تحقيق أهدافه ، بل إن المعسكر الإسلامى سوف يسترد كل ما استولى عليه من قلاع وحصون[٢] ، فلا عجب إذا رأينا الأمراء الذين كانوا يدينون له بالطاعة يتألبون عليه ، ويكفون عن دفع الجزية ، التى كانوا يدفعونها فى صغار وذلة . أما المعسكر الصليبى بزعامة كنيسة روما ، فقد أذكى هذا النصر الحماس فى صفوفه و بدأت القوى النصرانية المختلفة تعقد العزم على مدافعة المسلمين ، والاستعداد للمعركة القادمة .

ولكن يوسف رجع إلى المغرب ، وترك ميدان المعركة فجأة دون أن يتعقب العدو المهزوم ، ويجهز عليه ، وقبل أن يسترد قوته ، ويجمع جموعه ، ويلم شعثه ، ويتهيأ للنضال من جديد . فهل رجع يوسف إلى المغرب لأن ولده الأكبر أبا بكر قضى نحبه[٣] ؟ ليس ببعيد أن يكون أبو بكر بن يوسف قد قضى نحبه قبل أن يشتبك أبوه مع الفرنجة ، أو بعد ذلك بقليل . ولكن وفاة ابنه على ما أعتقد لم تكن لتزعجه إلى المغرب إزعاجاً تاركاً ثمار النصر الذى أحرزه تحت

---

(١) Pidal : op. cit. p. 222

(٢) Pidal : op. cit p. 222

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٨ .

الأقدار ، ومعركة الجهاد لا تزال دائرة الرحى مؤذنة بصراع رهيب . قد يقال أن أبا بكر هذا هو ولى عهده فخاف أن يضطرب الأمر بموته ، ولكن قد يقال أنه كان فى استطاعته أن يولى غيره ولاية العهد ، ويظل هو بالأندلس يتابع معركة الجهاد .

يخيل إلينا أن سبب رحيل يوسف إلى المغرب أهم من ذلك بكثير ، ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين كان عامل أبى بكر بن عمر على المغرب ، وأن المرابطين درجوا على نوع من الحكم الإقطاعى ، يولون أميراً من الأمراء على إقليم بعينه ، و يطلقون يده فيه يتصرف كيف يحلو له على أن لاينازع صاحب السيادة حقة فى الملك[1] ، فكأن يوسف عبر البحر إلى الأندلس ، وهو لم يزل أميراً للمغرب من قبل أبى بكر بن عمر . ولكن حدث أن توفى أبو بكر زعيم المرابطين وأميرهم سنة ٤٨٠ هـ[2] ، على نحو ما يذكر المؤرخون . وقد بلغت يوسف أنباء وفاة الأمير ، وهو بالأندلس ، فأحب أن يعجل بالعودة إلى المغرب ليرث ملك أبى بكر ، و يأخذ البيعة لنفسه ، و إلا اغتصبها بعض الأمراء الآخرين منتهزين فرصة تغيبه بالأندلس ، واشتغاله بمعركة الجهاد .

وليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين فقالوا أنه رحل لوفاة أبى بكر ابن عمه ؛ فقالوا ابنه لخطأ فى النقل أو الرواية . ومما يؤيد هذا القول أن النقود ظلت تضرب بإسم الأمير أبى بكر بن عمر من سنة ٤٥٠ هـ إلى

---

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا ، نقلا عن Gayangos: Ap. C p.XXXVII

(٢) يذكر دى لا شابل أن قبر أبى بكر بن عمر بمكان يقع بين جبل البيبة وجبل أمكيرى على مسيرة خمسة وخمسين كيلومترا جنوبى تاجيكه فى اقليم تاجانت ونقوش قبره كما يلى :

رحم الله
سيدى أبى
بكر بن
عامر

De la Chapelle(op. cit.) hésp. 1930. XI

سنة ٤٧٩ هـ ، ثم نجد ضرب هذه النقود يتلاشى فجأة ، ثم تضرب رسمياً باسم يوسف بن تاشفين ، اعتباراً من سنة ٤٨٠ هـ[1] ، وهى سنة وفاة أبى بكر بن عمر ، وتولى يوسف السلطة ، وتدلنا مجموعات النقود أيضاً على أن إبراهيم بن أبى بكر كان أميراً على سجلماسة ، وكانت النقود تضرب باسمه ، فليس ببعيد أن يكون إبراهيم قد طمع فى الملك بعد وفاة أبيه منتهزاً فرصة غياب يوسف ، فلما عرف يوسف الحقيقة هرع إلى المغرب ليقطع عليه خط الرجعة .

هذا إلى أمور أخرى أشار إليها صاحب الذخيرة ، فقد نقل رسالة بعث بها يوسف إلى أمير بنى حماد[2] يعاتبه على الاستعانة بعرب بنى هلال فى الوقت الذى يجب أن تتضافر فيه جهود الأمراء لمدافعة الفرنجة ورد عدوانهم ، فلا بد أن بنى حماد حاولوا اغتنام فرصة يوسف ، وانقضوا على المغرب الأوسط مستعينين بالأعراب[3]

ولكن يوسف ترك بلاد الأندلس وهو مطمئن غاية الاطمئنان ، فقد استولى على الجزيرة الخضراء فوثق الصلة بين المغرب والأندلس ، وعمل على توحيد جهود أهل البلاد ، وترك سير بن أبى بكر على رأس جيش من المرابطين لمواصلة معركة الجهاد[4] ريثما يصلح من شأن المغرب ، ويعد العدة لمرحلة أخرى من

---

(١) Lavoix (op.cit) pp.536--552 : Piéces 507, 508, 506, 510, 511, 512, Menedas Arabigo Espanolas : 1425 to 1441, 1446

نقوش دينار أبى بكر بن عمر كما يلى :

الامام	لا اله إلا الله
عبد	محمد رسول الله
الله	الأمير أبو بكر
أمير المؤمنين	بن عمر

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين بسم الله ضرب هذا الدينار بسجلماسة سنة ٤٥٠ .

Menedas Arabigo. Espanolas p. 235

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثانى ص ١٠٦ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٨ .

الجهاد لا تقل أهمية عن مرحلة الزلاقة ، أما سير بن أبى بكر فقد شارك أمير بطليوس فى الإغارة على أواسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجة ، وأثخن فى تلك الأنحاء تخريبا ونهبا ، كما زحف المعتمد أمير أشبيلية على ولاية طليطلة ، واستولى على أقليش وقونقة ، ثم نفذ إلى أرض مرسية[١] ، حيث كانت جموع كبيرة من فرسان النصارى تغير على المدن الإسلامية هناك ، فاشتبكوا مع المعتمد ، وارتد على أعقابه خاسراً ، ولولا اعتصامه بقلعة لورقة لقضى عليه ، ثم غادر لورقة إلى قرطبة تاركا مرسية لمصيرها المحتوم[٢] .

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة فى تاريخ الجهاد فى الأندلس، لأنها لم تحسم الداء ، ولم تقض على القوى النصرانية قضاء مبرما . فقد أخذ العدو يفيق من أثر المعركة ، ويسترد قوته ، ويعمل على مواصلة العدوان ، والثأر لما ناله على يد المرابطين . فأخذ الفونسو ينظم قواته ، ويزيل ما لحق بجيشه فى موقعة الزلاقة ، وقد انتهز فرصة رحيل يوسف إلى المغرب ، وأخذ يعاود الكرة من جديد ، فذكرت الرواية أنه خرج غازيا حتى وصل إلى قرب أشبيلية[٣] ، كما كانت قوة من الجند القشتاليين تؤازر فرسان حصن لييط (Aledo) ، وتعيث فى منطقة مرسية ، وتقلق بال المعتمد[٤] ، وتهدد أشبيلية من الشرق ، وتثير الذعر فى نفوس أهلها .

أما فى شرق الأندلس فقد أخذت الأحوال تسوء والأوضاع تتغير ، فقد ظهر السيد القمبياطور ، الذى ظل سبع سنوات يعيث فى منطقة لاردة ، ويغير على منطقة بلنسية[٥] ، وأصبحت دانية ، وشاطبة ، ومرسية مهدده بالوقوع فى

(١) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٣ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) روض القرطاس ص ٩٩ .
(٤) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٤ .
(٥) Pidal : The cid and his Spain p. 240.

قبضة العدو[١] . وقد استجابت القوى النصرانية فى أوربا لنداء الفونسو ، وأخذ الجيش الذى كان منذ وقت طويل يتجمع فى فرنسا يصل إلى شبه الجزيرة ، اشترك فيه دوق برجانديا ، وهنرى أخوه ، وابن عمه رايموند ، وصاحب طولون ، ومعهم فرق من بروفانس ولا نجدوك ، و بعض الفرسان من نرماندى ، وراح البابا اسكندر الثانى يشد أزر هـــذه الجهود ، ويباركها ، ويعلق عليها الآمال الكبار[٢] ، ولكن هذه الحملة وقفت عند نهر الإيبرو لم تجاوزه إلى الجنوب ، وأخذ المتحالفون ينصرفون إلى محاربة صاحب سرقسطة ، وبدءوا فى الواقع يهاجمون مدينة طليطلة[٣] .

حدث هذا فى الوقت الذى انفض فيه جمع الأمراء الأندلسيين عقب معركة الزلاقة ، وانصرف كل أمير إلى بلده[٤] ، واضطر المعتمد بن عباد أن يضطلع بالعبء كله فى الشرق ، وكان الجيش الذى تركه يوسف بقيادة سير بن أبى بكر مشغولا فى الجهاد فى الغرب ، والعبء الذى يضطلع به أكثر من أن يحتمله وحده ، ما دام أمراء الأندلس قد انصرفوا عن الجهاد إلى منازعاتهم الخاصة ، فاضطر سير إلى أن يكتب إلى يوسف « يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكايدة العدو ، وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه[٥] » ، وأصبحت البلاد فى الواقع فى حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها[٦] .

---

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا ، نقلا عن Gayangos, ap. C. p. XXXVII.

(٢) Pidal : (op. cit.) p. 226.

(٣) Idem.

(٤) كتاب الإكتفا ، نقلا عن Gayangos : Ap. C. p. XXXVII

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨٤ .

(٦) Dezy : Hist des Musul. vol IV p. 212.

وهل كان من المعقول بعد ذلك كله ، و بعد هذه الأوضاع المضطربة التي كانت تهدد بالقضاء على الجهود التي بذلها المرابطون من أجل الجهاد أن لا يبادر يوسف إلى التدخل في شئون الأندلس مرة أخرى ، حتى لا تضيع الجهود التي أنفقها والدماء التي أهرقها . ولكن الرواية تعود مرة أخرى فتصور يوسف متقاعسا عن مواصلة الجهاد ، وأن المعتمد بن عباد صاحب الفضل في دفع يوسف إلى التدخل في شئون الأندلس[1] مرة أخرى . ليس ببعيد أن يكون ما ذكر من رحيل المعتمد إلى المغرب لمقابلة يوسف صحيحا ، وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد عبر البحر إلى العدوة ، ومعه بعض وجوه أهل بلنسية ولورقة ومرسية ليطلعوا يوسف على الأوضاع السيئة في شرق الأندلس والمؤذنة بخطر جسيم إن لم يتداركوه إتسع الرتق ، وبخاصة أن المعتمد كان أكثر الأمراء خوفا من هذا الخطر النصراني المحدق به من الشرق ، وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة ، ولكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة ، وأن يخف إلى ميدان الجهاد بعد فراغه من مشاكل المغرب وتجنيد الجند ، واتخاذ العدة . ويخيل إلينا أنه كان سيعبر البحر إلى الأندلس سواء أحضر المعتمد إليه ، أم لم يحضر ، فقد ذكر المؤرخون أنه عبر البحر إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٤٨١ هـ[2] .

وكانت أهداف يوسف في هذه المرة تختلف اختلافاً واضحاً عن أهدافه في المرة الأولى . كان يهدف في المرة الأولى إلى أن يسير القوات المتحدة كلها إلى طليطلة قلب الجزيرة النابض لاستنقاذها من براثن العدو ، أما هذه المرة فقد اتجه صوب الشرق حيث اشتد ساعد القوى النصرانية ، فبدأت تمكن لنفسها وتستعد لمدافعة المسلمين عن هذه البلاد .

وما كاد يوسف يستقر به المقام بالجزيرة الخضراء حتى كتب لملوك الطوائف

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ٤٠ ، روض القرطاس ص ٩٩ .

يستنفرهم ويستنهض هممهم[1] ، ويوحد جهودهم للقيام بجهد مشترك للانقضاض على حصن لييط معقل المقاومة النصرانية فى الجنوب الشرقى . وقد غادر الجزيرة الخضراء إلى مالقة[2] ، ثم اتجه صوب المرية ، ثم دخل لورقة[3] حيث لحقت به قوات المعتمد بن عباد ، واتجهت جموع القوى المتحدة صوب هذا الحصن الذى يقع على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة[4] ، ولا ندرى لم اختص الحلفاء حصن لييط بهذا الاهتمام البالغ ؟ كان فى مقدورهم أن يطوقوه ويقطعوا صلته بما جاوره من البلاد ، ثم يتقدموا صوب الشرق ، ويخفوا إلى مناجزة القوى المتحدة من الصليبيين والقشتاليين ، فيحولوا بينهم وبين ما يبتوه من الاستيلاء على بلنسية .

ولكن يخيل إلينا أن المعتمد بن عباد هو صاحب خطة الهجوم على هذا الحصن[5] لأن الجنود القشتاليين الذين اعتصموا به[6] كانوا يغيرون على ما جاوره من البلاد ، فيسلبون وينهبون ، ثم يأوون إليه معتصمين إذا أحدق بهم الخطر[7] . وقد ذاق المعتمد من رجال لييط الأمرين ، فقد استعان بهم صاحب مرسية ليرد كيده ويحبط مشروعاته .

وقد لبى الأمراء نداء يوسف ، وتوافدوا إلى لييط للاشتراك فى هذه المعركة الجديدة[8] . جاء عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة[9] ، وأخوه تميم صاحب

---

(١) عبد الله ابن بلكين : التبيان ص ٣٤٠ . الحلل الموشية ص ٥٥ . روض القرطاس ص ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ٥٥ .

(٣) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧ .

(٤) الحلل الموشية ص ٥٤ .

(٥) Pidal (op. cit.) p. 243

(٦) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٦ .

(٧) الحلل الموشية ص ٥٤ .

(٨) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٨٦ . الحلل الموشية ص ٥٥ .

مالقة والمعتصم بن صمادح صاحب المرية وأصحاب شقورة و بسطة وجيان وصاحب مرسية[١]، فلم يتخلف غير ابن الأفطس صاحب بطليوس[٢].

وقد أطبق المسلمون على الحصن من كل ناحيـة ، ولم يتركوا فناً من فنون الحصار إلا استعانوا به[٣] ، وشنوا الحرب ليل نهار ، واختص كل أمير بناحية يشدد عليها النكير و يهاجمها هجوماً مستمراً[٤] ، كما قطعوا الماء عن المحاصرين[٥] وأذاقوهم البأس الشدة ، ودامت المعركة أربعة أشهر[٦] ، واستبسل المعتصمون بالحصن استبسالا منقطع النظير ، فكانوا يخرجون من حصنهم فى بعض الأحيان ، و ينقضون على المهاجمين ، فينالون منهم ، ثم ينسحبون إلى معقلهم من جديد[٧].

ولـكن هل أفلح المسلمون فى تحقيق أغراضهم بعد هذا الجهاد الشاق والاستعداد الطويل ؟ تذكر الرواية العربيـة أن القوى المتحالفة انصرفت عن ذلك الحصار . وارتدت قوات المرابطين إلى مدينة لورقة[٨] ، واختلف المؤرخون أيما اختلاف فى تعليل هذا الارتداد ، وتقدير أسبابه ونتائجه ، فصور بعضهم الإنسحاب على أنه هزيمة للمرابطين وحلفائهم ونصر للجبهة النصرانية ، وصوره البعض الآخر على أنه فوز وظفر ، وحجتهم فى ذلك هذه الـكتب المتبادلة بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح ، التى تصف هذه الفوز وتشيد بهذا الظفر[٩] كما أن ابن حديس الصقلى وهو شاعر معاصر هنأ المعتمد بهذا الفتح ، وأنشد بين

(١) الحلل الموشية ص ٥٥ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .
(٣) عبد الله بن بلـكين : التبيان ص ٣٤١ .
(٤) الحلل الموشية ص ٥٥ — ٥٦ .
(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧ .
(٦) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .
(٧) يوسف أشباخ جـ ١ ص ٩٥ .
(٨) الحلل الموشية ص ٥٦ . الروض ص ٩٩ .
(٩) الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧ .

يديه قصيدة تصور هذا الظفر وهذا الفوز[١] ، وحاول بعض المؤرخين أن يعلل هذا الانسحاب بحلول الشتاء و يأس المحاصرين من الغلبة . وكان المعتمد بن عباد هو صاحب فكرة الارتداد عن الحصن فأغضب الحلفاء ، وأوغر صدورهم إذ خافوا أن يتخلى المرابطون عنهم ، فيقعوا لقمة سائغة فى يد النصارى[٢] .

لكن يخيل إلينا أن السبب المعقول لهذا الارتداد صوره عبد الله بن بلكين أصدق تصوير ، حين ذكر أن الارتباك ساد صفوف الحلفاء ، وكانت الرعية لا تفتأ تتوافد على يوسف شاكية متظلمة من جور الأمراء وعسفهم ، فكان ينصت لهم ، و يعطف على مطالبهم ، ويؤيد ما ينادون به من إصلاح فأوغر صدور الأمراء وغير قلوبهم عليه[٣] .

ثم عصفت ريح الفرقة بالقوى الإسلامية المجتمعة حول لييط بسبب النزاع الذى احتدم بين صاحب مرسية و بين المعتمد بن عباد ، فقد اتهم المعتمد ابن رشيق بمؤازرة الفرنجة ، فأمر يوسف بالقبض على ابن رشيق وسجنه ، فتفرق شمل شيعته ، وانسحب جنده من المعركة ، وقطعوا الميرة عن القوم ، فوقعت المجاعة وغلت الأقوات ، وخشى الأمراء أن يصيبهم ما أصاب ابن رشيق[٤] ، و يصور عبد الله ابن بلكين هذه الأوضاع المؤسفة أصدق تصوير ، حين يقول « ... ونحن أحوج ما كنا إليه للاتفاق ولا سيا فى تلك المرحلة التى عدمت فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع وطالت تلك الحلة الملعونة فكأنها مثلق أبان الطيب من الخبيث ، وكشف العداوات فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ولا الرعية إلا تسلطاً ، وكانت مقدمات سوء وزماناً على السلاطين عسيراً[٥] » .

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٦٤ .
(٢) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٥ .
(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤١ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٤٣ . الحلل الموشية ص ٦ هـ . أعمال الأعلام ص ٢٩٥ .
(٥) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤١ .

وبينما المسلمون مختلفون أشد الاختلاف مرتبكون أشد الارتباك ، وردت الأنباء بتقدم الفونسو صوب ليبط لإنقاذ المدافعين عنها [١] ، فخاف يوسف أن تتكرر مأساة الزلاقة فيرتد الأندلسيون على أعقابهم تاركين المرابطين يصلون نار القتال [٢] ، كما خاف أن يشتبك فى صراع مع جند قشتالة والفرقة تعصف بالقوى المتحدة عصفاً ، وتفرقها أيدى سبا ، فارتد إلى لورقة ، ولم يكن ارتداده ضعفاً ولا خورا ، إنما كان حكمة و بعد نظر ، فلم يشأ أن يشتبك فى قتال لا تؤمن مغبته من أجل بضع مئات من الفرسان اعتصموا بلييط ، وأوشكوا على الموت جوعا وعطشاً .

وقد حدث ما توقعه يوسف ، فقد تقدم الفونسو صوب لييط ، واقتحم الحصن ، وأنقذ المحصورين فيه ، ثم دك الحصن دكا ، وانسحب صوب طليطلة لا يلوى على شيء [٣] ، لأنه كان يخشى أن يشتبك بالمرابطين فتتكرر هزيمة الزلاقة ، ومن الغريب أن الرعب من لقاء المرابطين ظل يتحكم فى الفونسو حتى وفاته ، فكان يتردد طويلا قبل أن يشتبك معهم فى صراع سافر ، ولولا هذا الخوف لانقض بجموعه على لورقة ، وأرغم يوسف على القتال . لذلك حق للمعتمد بن عباد أن يعتبر ذلك نصراً له ، وتحقيقاً لأهدافه الخاصة ، فقد قبض على ابن رشيق ، كما قضى على حصن لييط ، ورحل المعتصمون به ، وبات فى مأمن من شرهم لا يخشى عدوانهم بعد أن أمن جانبهم .

ولكن يوسف بن تاشفين لم يكن ينظر إلى الأمور نظرة المعتمد ، فلم يكن همه أن يحقق أطماعاً مادية فحسب ، بل كان همه الأول أن يوحد بين القوى الإسلامية المختلفة ، وأن يجند المجتمع الإسلامى كله فى صراع مع النصارى لاستعادة ما كان للمسلمين من قوة وسيادة ، فآمن بإخفاق ملوك الطوائف فى تحقيق

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ . روض القرطاس ص ٩٩ .

(٢) Dozy, Vol. IV, p. 224. Pidal : op, cit, p. 243,

(٣) بن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .

الآمال التى عقدها على التوحيد بين صفوفهم ، وحدث ما كان يخشاه ، فقد تفرق شملهم وهامت قلوبهم حينما أقبلت قوات العدو تريد مناجزتهم .

واعتقد يوسف عن يقين بإخفاق سياسة توحيد القوى إخفاقاً ذريعاً ، وبقى عليه ألا يعتمد على ملوك الطوائف فى مواجهة العدو ، بل عليه أن يعتمد على نفسه إذا أراد مواصلة الجهاد فى الأندلس . ولم يكن ضعف الجبهة الإسلامية المتحدة بسبب افتقارها للعدد أو العدة، بل بسبب هذه الفرقة التى عصفت بوحدة الجهود . وهذه الأطماع التى فرقت هؤلاء الملوك شيعاً [1] .

وقد اعترف عبد الله بن بلكين بذلك كله ، فقال « فنحن لم يغن بعضنا بعضاً على الروم فكيف على المسلم مع حرب ... وقيام أهل البيت » [2] . فلم يتردد يوسف فى أن يصارح هؤلاء الملوك برأيه فيهم ، حين قال « أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم » [3] . لذلك تعتبر معركة لييط فيصلا فى قصة الجهاد فى الأندلس ، أنهت فكرة الجبهة المتحدة ، وآذنت ببدء عهد جديد . وكان على يوسف إما أن ينسحب من الميدان ويترك أهل البلاد لمصائرهم يقعون غنائم فى أيدى العدو ، فيغضب ضمير المجاهد الصادق العزم ، وإما أن يضطلع بالجهاد اعتماداً على قواته وحدها ، ويلاقى العدو وجهاً لوجه ، فيرضى ضمير المجاهد ، ويحقق الأهداف التى وضعها إمامه عبد الله بن ياسين . وقد رأى يوسف أن يلاقى النصارى وجهاً لوجه ، وصح عزمه على أن يقضى على هذه الفرقة الضاربة أطنابها فى صفوف أهل الأندلس بخلع ملوك الطوائف ، واستنزالهم من صياصيهم ، كى يفرغ للجهاد الأكبر . فهل من أسباب نلتمسها لنعلل هذا الاتجاه الجديد ، الذى اتجه يوسف فى سير حوادث الجهاد فى الأندلس ، هذا الاتجاه الذى ينذر بنتائج بعيدة المدى فى تاريخ الأندلس وتاريخ المغرب ؟

---

(١) Cambridge : Med. Hist. Vol VI. p, 399

(٢) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٩ .

١٤ — الدور الثانى من أدوار الجهاد فى الأندلس — التدخل المباشر

إختلف المؤرخون فى تعليل الأسباب التى أدت إلى تغير يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف حلفائه بالأمس ، وأسرف كثيرون منهم فى لومه ، بل لم يتورعوا عن اتهامه بالغدر والخيانة ، وأخذ الملوك على غرة منهم بعد أن آووه ، ونصروه ، وأعانوه فى جهاده ، ووقفوا بجانبه فى نضاله مع الفونسو السادس . وقد انساق المؤرخ دوزى وراء هؤلاء المؤرخين ، وحمل على المرابطين حملة شعواء ، بل لم يتردد فى أن يسم أميرهم بميسم الجهل والتعصب[1] . والسر فى ذلك كله واضح كل الوضوح ، ذلك أن دوزى اعتمد على مؤرخين أندلسيين يعطفون على المعتمد ابن عباد عطفاً خاصاً ، و يرون فى قصته مأساة تستدر العطف والرثاء ، و يصورون مأساة خلعه فى صورة تظهر يوسف بمظهر الغادر الخائن . ومن هؤلاء الكتاب الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ، على حين نجد المراجع المعاصرة تشيد بموقف يوسف من ملوك الطوائف ، وترى أن إقدامه على خلعهم والتخلص منهم عمل فريد يسجل له بالحمد والثناء . وقد قال صاحب الذخيرة « ولم يزل إدبارهم على ما ذكرت يستشرى وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسرى حتى أذن الله لأمير المسلمين رحمه الله فى إفساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميم ورأيهم فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال ، واستمر ينثر نجومهم و يطمس رسومهم[2] » .

ولن نتأثر بأية حال بأقوال هذا الفريق أو ذاك ، بل سننظر إلى الحقائق نظرة مجردة ، ونحاول أن نفسر موقف يوسف من ملوك الطوائف تفسيراً مقبولا . تبين ليوسف أن ملوك الطوائف غير مخلصين فى جهادهم ، وأنهم غير مقبلين على

---

(١) Dozy : Hist. des Musul. Vol IV, p.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩ .

هذا الجهاد إقبالا لا تشو به منفعة ، ولا توحى به مصلحة ذاتية . فقد تخلى الأندلسيون عن المرابطين يوم الزلاقة ، ولولا صدق إيمان الملثمين ، وتفانيهم فى القتال لذهبت ريحهم ، ولحقت عليهم الغلبة . كما تخاوا عنه يوم لييط ، وانصرفوا عن الجهاد وشغلوا بمنازعاتهم وترهاتهم ، واتهم بعضهم بطلب المعونة من الفونسو السادس ، مما أدى إلى القبض عليه وخلعه .

وما كاد أمير المرابطين يعود أدراجه إلى المغرب بعد غزاة لييط حتى وجد الفونسو أن الوحدة التى كانت تستظل بها الجبهة الإسلامية وتكسبها القوة والمنعة ، قد انتثر عقدها ، وعاد الملوك إلى سابق عهدهم من التنازع والتباغض والتحاسد ، فآثر أن يأخذ كل واحد منهم على إنفراد ، كما كان يفعل من قبل فبعث صاحبه البرهانس إلى عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة يهدد ويتوعد ويطالب بالجزية المتأخرة[١] ، كما عاثت قواته فى أرض المعتمد بن عباد[٢] ، وراحت تهدد أشبيلية كما هددت غرناطة من قبل . فهل أحدث كلمة الأمراء لمواجهة هذا الخطر ، وحماية الجبهة الإسلامية من التصدع ربما يستعد يوسف ابن تاشفين للعودة مرة أخرى ، ليمد يد المعونة ، فيشتركوا جميعاً فى نضال جديد ويستطيعوا جميعاً أن يدفعوا النصارى إلى الشمال ، كما دفعوا من قبل ؟ . كلا وقف الأمراء من هـذه الحملات موقفا سلبيا ينطوى على الخيانة والجبن والتنكر لحركة الجهاد ، يتبين ذلك من هذا الموقف الذى وقفه عبد الله بن بلكين من عدوان الفونسو واستعلائه ، فقد كان يخشى أن يحمى ظهر المرابطين ويقاوم القوات النصرانية الزاحفة فيغضب الفونسو ، كما كان يخشى أن يمد يد العون للقوات الفرنجية ، فيغضب المرابطين فاتخذ لنفسه موقفا وسطا لا يغضب هؤلاء ولا هؤلاء[٣] .

---

(١) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٨٩ — ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٩ — ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٩ — ٩٠ .

وكانت أنباء هذه المواقف الشائنة تبلغ يوسف[1] ، فيتألم و يأسف و يعتقد عن حق أن هؤلاء الملوك خانوا الأمانة ، وحق عليهم العقاب ، بل إن عبد الله صاحب غرناطة أخذ يعد العدة ، و يجند الجند ، و يصلح الحصون لا ليدفع غارات العدو ، بل ليحتاط لنفسه من المرابطين إذا هاجموا قلاعه وحصونه[2] . ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية أكثر إخلاصا لحركة الجهاد من عبد الله بن بلكين ، وعرف يوسف أن صاحب أشبيلية لا يختلف عن صاحب غرناطة ، أو صاحب مرسية فى كثير أو قليل ، فقد استغل نوايا المرابطين الطيبة واخلاصهم لحركة الجهاد فى تحقيق مآربه الشخصية ، والتوسع على حسابهم ، فوجه الحملة المرابطية الثانية نحو حصن لييط لا لشىء إلا ليتخلص من ابن رشيق ، و يضع يده على اقليم مرسية بعد أن يتخلص من فرسان لييط . وقد أدرك يوسف أنه انساق وراء أطماع المعتمد دون أن يقدر العواقب ، فكاد يرتد على أعقابه لولا مبادرته بالانسحاب صوب لورقة على النحو الذى رأيناه . وقد تسبب المعتمد بسياسته الخرقاء فى أغضاب ابن رشيق ، بل ألب عليه يوسف حتى قبض عليه ، فكان ذلك سببا فى تفريق صفوف المسلمين وتشتيت جموعهم . نعم عرف يوسف ما بيته له المعتمد فقال « قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعة ، وأن بلاده ذات معاقل صعبة[3] » .

وقد أخذ المعتمد يدل على غيرة من ملوك الطوائف و يتعالى عليهم فتجاوز الحدود فى استعلائه وتكبره ، يتبين ذلك من الكتب التى تبودلت بينه و بين المعتصم بن صمادح غداة الزلاقة[4] ، والتى حاول فيها أن ينسب لنفسه الفضل كله فيما أحرزه المسلمون من نصر وتوفيق . وقد ظهرت أطماع المعتمد سافرة بعد

(١) عبد الله بن بلكين ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣) Dozy : Abbadidarum, Vol. II, p. 9

(٤) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧ .

أن استولى يوسف على غرناطة ، فقد روى المؤرخون أنه كان يطمع فيها[١] لتعوضه عن فقد الجزيرة الخضراء . نعم كانت أطماع هذا الأمير بعيدة لا تقف عند حد ، ومن يدرى ربما كان يهدف إلى بسط سلطانه على الأندلس الإسلامية ، حتى إذا تم له ذلك تنكر للمرابطين وقلب لهم ظهر المجن واستعان بالفرنجة على إخراجهم من الجزيرة . نعم كان يوسف يعرف أن هؤلاء الأمراء لا يؤمن جانبهم ، وأنهم قد يتنكرون له حينما يستشعرون القوة أو يطمئنون من جانب الفرنجة ، فقد روى المؤرخون أنه بث أصحاب الرباط فى الحصون والثغور المصاقبة للروم ليمدوا يد العون للجيوش المرابطة الزاحفة[٢] . قد تكون هذه الرواية غير صحيحة ، ولكنها تصور لنا أن المرابطين كانوا قد أخذوا حذرهم وعقدوا العزم على مواجهة ملوك الطوائف إذا ما حدثتهم نفوسهم بالعدوان[٣] .

وهنالك ناحية أخرى لعبت دورا كبيراً فى تغير يوسف على ملوك الطوائف ، وهى أن المرابطين لم يكونوا دعاة جهاد فحسب ، بل كانوا دعاة إصلاح أيضا ، وكانت الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية تسير فى أعقاب الجيوش الغازية الفاتحة ، وكانوا أينما حلوا يأمرون بالغاء الضرائب الجائرة ، ولا يأخذون إلا ما يأمر به الكتاب والسنة ، وقد كان لهذه الإصلاحات صدى بعيد فى الأندلس انتشرت بين الناس انتشار النار فى الهشيم ، وكانت الرعية الأندلسية لا تفتأ ترد على معسكرات المرابطين شاكية متظلمة ، تريد أن تنعم بما نعم به شعب المغرب من عدل واصلاح[٤] .

وكان الإصلاح لا يتأتى إلا بالقضاء على هذه المغارم التى كان الأمراء يجبونها من الناس ، ويثقلون بها كاهلهم ليستطيعوا دفع الجزية للنصارى والعيش عيشة

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٨٧ .

(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤٣ . الدخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ مجلد ٢ ص ٢٣٩ . Dozy : Recherches, Vol I ap, XXI

(٤) عبد الله بلكين : التبيان ص ٣٤٠ .

المترفين الناعمين . وكان على يوسف إما أن يصانع الأمراء فيخسر ولاء الرعية ، وتأييد الرأى العام ، ويتنكر لمبادىء الإصلاح التى سارت عليها الدولة الجديدة ، أو يصانع الرعية فيخسر الأمراء . وقد اختار أن يصانع الرعية وأن يتقرب منها ، فبدأ يصغى للشاكين ويطلب من الأمراء التخفيف عن الناس ، وإلغاء المغارم الظالمة . وقد عبر عبد الله بن بلكين عن ذلك أحسن تعبير ، وصور هذه الأوضاع أصدق تصوير ، حين قال « وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس ورعيتهم فى ذلك يأتون أفواجاً شاكين لما وجدوا ، الراضى منهم يلتمس الزيادة والساخط يرجو الانتقام ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم عليهم وامتناعهم عن مغارم الاقطاع التى كانت عليهم مع احتياجهم إلى الانفاق ما قلق به وساء الظن من أجله .. فلا حيلة إلا بين صبر يؤدى إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدى إلى استئصال [1] » . كان على يوسف إذن إذا أراد أن يأخذ بيد الشعب ويخفف عنه بعض ما يجد من عنت وأرهاق أن يحول بين ملوك الطوائف وبين ما يسترسلون فيه من ظلم وبغى . كانت المبادىء الجديدة إذن تفرق بين الشعب والأمراء وكان الصراع على أشده بين الجديد والقديم .

وقد لعب الفقهاء دوراً كبيراً فى قصة خلع ملوك الطوائف ، لأن الرعية كانت تلوذ بهم وتلتمس معونتهم وتأييدهم وتتوسل إليهم أن يشفعوا لها عند أمير المرابطين [2] . وكان يوسف يحترم الفقهاء ويعتز بهم ويصغى إليهم ويشاورهم فى كل أمر ، ويستعين بهم فى كل ما يعرض له من شئون ، وقد انقلب الفقهاء على أمراء الأندلس لا سيما بعد مأساة حصن ليط ، وأخذوا يكشفون ليوسف النقاب عن مكرهم وسوء رأيهم ، ويحسنون له الإيقاع بهم وخلعهم [3] . وقد

---

(١) عبد الله بن بلكين ص ٣٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٠ .

(٣) Dozy : op. cit. Vol. IV, p. 225

لعب القاضي ابن القليعي الدور الأول في إفساد ما بين يوسف و بين عبد الله صاحب غرناطة ، فقد عبر البحر إلى العدوة ، ولاذ بيوسف فبدأ يطلعه على مكر عبد الله وخداعه[1] ، ولم يتردد فقهاء الأندلس الذين ارتفعوا في نظر الشعب إلى منزلة القادة والزعماء في أن يحسنوا ليوسف استفتاء فقهاء المشرق في خلع هؤلاء الملوك، فأفتى هؤلاء الفقهاء ومنهم الغزالي بأنهم خانوا الأمانة وجاوزوا الحدود[2]، وأنه لابد من خلعهم لتبرأ البلاد من إثمهم وطغيانهم . كل هذه الظروف مجتمعة حملت يوسف على خلع هؤلاء الملوك والاضطلاع بعبء الجهاد وحده .

كان على يوسف كي يحقق أهدافه في هذا الدور الجديد من أدوار الجهاد أن يخوض معركتين عنيفتين : معركة ضد ملوك الطوائف ، وأخرى ضد القوات النصرانية كي تقف بمعزل في صراعه مع أمراء الأندلس ، فلاتتدخل لشد أزرهم فأخذ يستعد لهذا الدور العظيم من أدوار الجهاد . أخذ يجمع الرجال والأقوات حول مدينة سبتة[3] ، حتى إذا اكتمل له الاستعداد عبرت قواته المضيق دفعة واحدة بقيادة طائفة من أعلام قواد لمتونة وأنجادها[4] ، فاستولت على جزيرة طريف[5] .

ويخيل إلينا أن يوسف كان يحسب للقوات النصرانية ألف حساب ، إذ كان يخشى أن يقبل على قتال ملوك الطوائف فتطعنه القوى الفرنجية من الخلف ، وتفسد عليه خطته ، فلم يبدأ بالعدوان على ملوك الأندلس إثر عبوره ، بل ظل يصانعهم ويترفق بهم ، ولم يكشف عن أغراضه[6] ، ولكنه كان يترصد أخطاءهم

(١) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤ و ٣٤١ و ٤٨٧ .
(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٩٥ .
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١ . النويرى ج ٢٢ ص ١٨٢ .
(٤) المراكشي : المعجب ص ٨٨ . الإحاطة ج ٢ ص ٨١ . الحلل الموشية ص ٥٨ . قلائد العقيان ص ٢٠ . أعمال الأعلام ص ١٨٩ .
(٥) المراكشي : المعجب ص ٨٨ .
(٦) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

ويرقب مسلكهم ، حتى إذا أحس بتقربهم من النصارى اتخذ ذلك ذريعة لخلعهم والقضاء عليهم[1] . ويبدو أن ملوك الطوائف كانوا بدورهم يحسون بازورار يوسف وإعراضه عنهم ، فباتوا يرقبون عن كثب نذر المعركة التى ستقرر مصائرهم لم يدعهم يوسف للمشاركة فى الجهاد كما فعل فى المرات السابقة[2] ، بل آثر أن يعتمد على نفسه مخافة أن يتكرر ما حدث فى معركتى الزلاقة ولييط .

ولم يبدأ يوسف بالإطباق على مدينة غرناطة رغم أن خيانة صاحبها كانت واضحة جلية لا تحتاج إلى برهان ، إنما أقدم على غزو طليطلة وحصارها ليوقع الذعر فى نفوس القوى النصرانية قبل أن يكشف عن خطته حيال ملوك الطوائف فلا يحدث الفونسو نفسه بطعنة من الخلف متهزاً فرصة انشغاله بقتال هؤلاء الملوك .

وقد أطبق الملثمون على طليطلة[3] وحاصروها ، وعاثوا فى نواحيها ، ووصلوا فى زحفهم إلى مدن الحدود مما يلى شمالى طليطلة ، ثم حاصروا قلعة رباح التى تسيطر على الطريق المؤدى إلى مملكة قشتالة[4] ، لكن المرابطين لم يشتركوا مع القوات الفرنجية فى معركة حاسمة ، إنما كانوا يهدفون إلى إرهاب العدو وإرهاب ملوك الطوائف على السواء .

وبعد أن تم للمرابطين ما أرادوا ، وحققوا الأهداف التى وضعوها نصب أعينهم ، وقطعوا الصلات بين النصارى وملوك الطوائف ، زحفت بعض قواتهم إلى غرناطة فدخلتها فى ١٣ رجب سنة ٤٨٣هـ[5] ، كما استولوا على ألبيرة[6] وجيان

---

(١) عبد الله بن بلكين ص ٢٧٣ — ٣٢٤ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .

(٣) يوسف أشباخ ج ١ ص ١٠٠ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩ . الضبي : بغية الملتمس ص ٣٢ .

(٦) مفاخر البربر ص ٤٤ .

ومالقة[1] ، والمنكب[2] ، فقضوا على ملك بنى زيرى بالأندلس . بدأ يوسف بعبد الله ابن بلكين لأنه تبين أنه اتصل بالفرنجة وصانعهم ودفع الجزية لهم ، ولم ينكر عبد الله نفسه هذه الصلة ، ولم يحاول أن ينفيها ، بل حاول أن يبرر موقفه بحجج واهية ملتوية[3] ، كما أراد يوسف أن يجعل من أمير غرناطة عبرة للملوك الطوائف ، فيفت فى عضدهم ، ويوقع الرعب فى صفوفهم .

وقد فزع المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لما أصاب صاحب غرناطة واعتقدا أن النهاية آتية لا ريب فيها ، خصوصاً بعد أن أبى يوسف أن يعطى غرناطة للمعتمد ، وصد عن رسل المتوكل[4] ، فآوى كل من الرئيسين إلى بلده يحصنه ويستعد للدفاع عنه[5] ، وقد وضحت نية المعتمد بن عباد سافرة حين أبى أن يلبي دعوة يوسف بالقدوم للقائه ، بل آثر أن يبقى بأشبيلية[6] ، وأوصى ولده المأمون بتحصين قرطبة والدفاع عنها بقدر ما يستطيع[7] . كما أقدم المعتمد فى هذه الأوقات العصيبة على الاتصال بالفرنجة يطلب منهم العون والتأييد لمدافعة المرابطين والقضاء عليهم[8] ، ويروى المؤرخون أنه زوج الفونسو إبنته[9] تعزيزاً لأواصر الصداقة بينهما[10] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٨٣ .
(٢) مفاخر البربر ص ٤٤ .
(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٩١ ، ٩٢ .
(٤) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .
(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٢١ .
(٦) عبد الله بن بلكين ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .
(٧) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٨) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .
(٩) المرجع السابق ص ١٠٠ .
(١٠) حاول بروفنسال أن يثبت أن التى تزوجها الفونسو لم تكن ابنة المعتمد بل هى زوج ولده المأمون التى لاذت بالفونسو بعد سقوط قرطبة : Provençal : Mora Zaida Hésp. 1934, t. XVIII, pp. 68 8.

وكان المرابطون للمعتمد بالمرصاد ، فما كادوا يعلمون بنبأ اتصاله بالفرنجة حتى استفتوا الفقهاء فأفتوا بخلعه[١] ، وأطبقت عليه جيوشهم بقيادة سير بن أبي بكر، فاستولت على أشبيلية في رجب سنة ٤٨٤هـ[٢] ، كما اقتحم الأمير أبو عبد الله محمد ابن الحاج أسوار قرطبة ، واستولى عليها بعد قتل المأمون بن المعتمد ووزيره[٣] ودخلت قوات المرابطين قرمـــــونة ورندة[٤] ، وهوجمت المرية وتم الاستيلاء عليها[٥] .

وما كاد سير بن أبي بكر يفرغ من أمر ابن عباد حتى خف إلى بطليوس ، لأن المتوكل صاحبها حاول بدوره أن يتحالف مع النصارى بعد أن نزل لهم عن مدينة شنترين[٦] ، وقد حوصرت بطليوس ، ثم سقطت في أيديهم آخر الأمر[٧] ، كما سقطت شلب ويابرة . حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه قوات داود بن عائشة تستولى على السهلة وألبونت ومرسية ، كما زحف على دانية وشاطبة وأخذ يهدد مربيطر وبلنسية وشنتمرية الشرق والبراسين[٨] ، كما استولى المرابطون على بياسة وأبدة وحصن لييط وشقورة[٩] ، فبسطوا لواءهم على أملاك الرؤساء بالأندلس ، وتم لهم تحقيق ما أرادوا من توحيد الجبهة الإسلامية بتوحيد الشعب الأندلسي بزعامتهم ، بعد أن أخفقوا في التأليف بين ملوك الطوائف والجمع بين صفوفهم في جبهة متحدة .

---

(١) عبد الله بن بلـكين ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٩ . المطرب ورقة ١٢ (أ) . الخريدة ج ١١ ص ١٤٥ .

(٣) عياض : المدارك ج ٤ ص ٤٤٧ . قلائد العقيان ص ١٩ .

(٤) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٤٧ : قلائد العقيان ص ٢٠ .

(٥) النبهان ص ٢٧٢ .

(٦) أعمال الأعلام ص ٢١٤ .

(٧) المطرب ورقة ٢٠ (ب).

(٨) أشباخ ج ١ ص ١٠١ .

(٩) روض القرطاس ص ١٠٠ .

ولكن المرابطين لم يحققوا هذا النصر على ملوك الطوائف فى سهولة و يسر ، فقد كان عليهم أن يقاوموا النصارى مقاومة جبارة ، إذ أن الفونسو لم يستكن ولم يفزع من حصار طليطلة ، ولم يهلع لما أظهره المرابطون من ضروب البأس والشدة . فما كاد المعتمد بن عباد يستنجد به حتى اعتقد أن الفرصة قد حانت ، وأن ثغرة قد حدثت فى صفوف المسلمين ، ولم يكن بد من أن يتدخل ليجنى الثمار ، ولكن المرابطين كانوا قد أعدوا لكل احتمال عدته ، لأنهم كانوا يعلمون أن مصير الأندلس كلها ومصير معركة الجهاد متوقف على مدى توفيقهم فى منع الاتصال بين المعتمد والفونسو ، فما كادت القوات النصرانية بقيادة البرهانس تدرك حصن المدور حتى خف المرابطون للقائهم بقيادة الأمير إبراهيم بن إسحاق اللمتونى ، ونشبت معركة دامية لا تقل فى أهميتها عن الزلاقة أو لييط . استبسل المرابطون وثبتوا ثباتاً جديراً بهم ، وأوقعوا بالقوات القشتالية فتفرق شملها وحلت بها الهزيمة[1] ، و بذلك أفلحوا فى قطع اتصال الأمراء بالفونسو ، وقدر لهم أن يهزموا القوى الأندلسية مجتمعة . هزموا الأمراء ، وهزموا قوات قشتالة .

١٥ — الجهاد فى شرق الأندلس — يوسف والقمبيطور :

ولكن ما كاد يوسف يظفر بهذا التوفيق و يسيطر على القسم الجنوبى من بلاد الأندلس ، ويقهر قوات الفونسو ، حتى تهيأ للنضال فى ميدان آخر من ميادين الجهاد فى الأندلس ، أو بمعنى آخر بدأت معركة الجهاد تدخل فى دور جديد لا يقل فى أهميته أو فى النتائج المترتبة عليه عن الأدوار السابقة . ذلك أن شرق الأندلس بدا كأنه وشيك السقوط فى أيدى القوى الصليبية ،التى كانت منذ معركة الزلاقة تتقدم صوب حوض الإيبرو ،وتشدد النكير على سر قسطة ،وتصارع بنى هود. وراحت سفن جنوة و بيزة تغير على موانى الشرق وتنال منها[2] .

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

(٢) Cambridge : Méd. Hist. Vol. VI, p. 401

شغل يوسف بالجهاد فى جنوب الأندلس بمدافعة الفونسو حيناً ، ومناجزة ملوك الطوائف أحياناً أخرى ، فلم ينتبه إلا والخطر قد أحدق بهذا الإقليم من كل صوب ، فقد بلغ الخطر المسيحى أوجه فى مأساة بلنسية الدامية ، وقصة حصارها ثم سقوطها . فقد حوصرت بلنسية سنة ٤٨٥ هـ ، دام حصارها عشرين شهراً ، ثم سقطت فى أيدى المحاصرين فى أواخر سنة ٤٨٧هـ وأوائل ٤٨٨(١) .

فما قصة بلنسية ، وكيف تطورت ، فأصبحت مأساة هزت العالم الإسلامى المعاصر هزاً عنيفاً ، وأفزعت المسلمين فى المغرب والأندلس ؟ ؟ .

كانت إمارة بلنسية لأبى عمرو عثمان بن أبى بكر محمد بن عبد العزيز حتى سنة ٤٧٨هـ(٢) ، حين طمع الفونسو فى طليطلة ، ولكنه لم يشأ أن يأخذ هذه المدينة غصباً ، فيسيء إلى صاحبها القادر بن ذى النون الذى آواه ونصره إبان اختلافه مع أخيه شانجة ، لذلك آثر أن يعوضه عن طليطلة فيوليه بلنسية . وقد استطاع الفونسو أن يقهر ابن عبد العزيز، وأن يولى صاحبه القادر على بلنسية (٣) ، فبقى فيها يدين بالولاء لألفونسو تارة ، ويستنجد بالمستعين بن هود أو يخضع لتهديد صاحبه القمبياطور ، ويؤدى له الجزية اتقاء لشره ودفعاً لخطره(٤) .

وقد ظل أمر القادر ببلنسية يسير على هذا النحو، حتى تقدم المرابطون صوب مرسية ، فاستولوا عليها ، ثم تدفقوا صوب دانية وشاطبة ، وأصبحت قواتهم تطأ إقليم الشرق وتصاقب إمارة بلنسية(٥) .

---

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص٣٠ . المطرب لابن دحية ورقة ١٥٨ .(آ) البيان المغرب حـ ٣ ص ٣٥٦ . ابن الأبار ج ١ ص٤٨ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩ . أعمال الأعلام ص ٢١٠ . البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٤ .

(٣) المراجع السابقة .

(٤) Dozy : Recherche, Vol II. p. 137

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢١٠ .

ثم رأى أصحاب بلنسية المتبرمون بالأعباء الفادحة التي كان القادر يثقل بها عليهم استرضاء لأصدقائه من أمراء النصارى أن الفرصة قد سنحت لإطراح هذا العبء الثقيل ، فدخلوا في طاعة المرابطين[1] ، وثاروا على القادر فقتلوه[2] ، وولوا عليهم القاضي جعفر بن جحاف ، هذا القاضي الذي أراد أن يكون له مثل ما كان لرؤساء الأندلس وأمرائها من بعد الصيت ووفرة النفوذ[3] . كان ابن جحاف يخشى القمبياطور[4] ، ويخشى المرابطين ، فأراد ألا يغضب المرابطين ، ولا يغضب القمبياطور ، فلم يرض أحداً منهم ، فضيق القمبياطور الخناق على المدينة ، وضرب عليها الحصار[5] ونكل بأهلها شر منكل .

كان حصار بلنسية في الواقع صورة دامية من الصور التي حفل بها تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية في شبه جزيرة إيبريا ، وقد سجل هذه المأساة وصورها أصدق تصوير المؤرخ ابن علقمة الذي عاصر الحوادث ، ورأى ذلك البؤس والشقاء والخوف الذي هاض جناح مواطنيه وأذلهم وأفناهم . كما هزت مأساة بلنسية مشاعر المعاصرين جميعاً[6] ، وكان لها وقع سيء في نفوس المسلمين في المغرب والأندلس ، سجلها الشاعر ابن خفاجة[7] ، كما سجلها أبو عبد الرحمن ابن طاهر حين كتب إلى بعض إخوانه يقول « كتبت منتصف صفر ، وقد حصلنا في قبضة الأسر بخطوب لم تجر في سالف الدهر ، فلو رأيت قطر بلنسية نظر الله إليه وعاد بنوره عليه ، وماصنع الزمان به و بأهله ، لكنت تندبه وتبكيه ،

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٢١٠ . كتاب الاكتفا ، نقلا عن Recherches, vol. II, p 142

(٢) ابن عذارى : البيان ج ٣ ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ .

(٣) ابن الأبار : التكملة (القسم المفقود) ص ٢٨١ . الضبي ص ٢٤٠ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ .

(٦) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٣١ .

(٧) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٣ .

فلقد عبث البلى برسومه ، وعدا على أقماره ونجومه ، فلا تسأل عما فى نفسى وعن نكدى و يأسى[١] » ، فلما اشتدت بالناس الضائقة ، وأكلت المحنة الأخضر واليابس استسلموا للعدو المحاصر[٢] وبلغ التنكيل بهم مداه ، فروى المؤرخون أن الفاتح أحرق القاضى ابن جحاف[٣] ، وأسر أبا عبد الرحمن بن طاهر فى سنة ٤٨٨ هـ[٤] ، كما أحرق أحمد بن عبد المولى بن أحمد البتى[٥] ، وتناقل المسلمون أخبار هذه الفاجعة ، وارتفع ابن جحاف رغم مساوئه إلى مرتبة الشهداء الابرار « وأضرم هذا المصاب الجلل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً وجلل سائر طبقاتها حزناً وعارا »[٦] .

كان بطل بلنسية وصانع مأساتها فارساً قشتالياً يدعى لذريق ، ولد فى برغش بقرية بيبار قرب حاضرة قشتالة فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . ظهرت بواكير نجدته وشجاعته فى أواخر أيام فردناند الأول ، فلما توفى وخلفه ولده شانجه كان لذريق ساعده الأيمن ، فلما مات شانجة انتقل إلى خدمة ألفونسو أخيه[٧] . ولكن قصة لذريق الفارس المغامر الجرئ تبتدئ منذ أن غضب عليه ألفونسو ، فخرج من قشتالة طريداً سنة ١٠٧١م[٨] . وكان من يمن طالعه أن التجأ إلى شرق الأندلس ، إلى ولاية سرقسطه فى عهد أميرها يوسف المؤتمن ، وكانت هذه الإمارة إذ ذاك بين شقى الرحا ، بين صاحب قطلونية و برشلونة ،

---

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٠٩ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .
(٣) الضبى : بغية الملتمس ص ٢٤٠ . أعمال الأعلام ص ٢٣٤ . كتاب الاكتفا Recherches, : Vol. II. ap. XXIX
(٤) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٢٩ .
(٥) ابن دحية : المطرب ورقة ١٤٥ (ب) و ١٤٦ (أ) . بغية الوعاة ص ١٤٤ الضبى : بغية الملتمس ص ١٨٢ .
(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣٠ .
(٧) Cambridge : Med. Hist. vol. VI, pp. 399 — 400
(٨) Idem.

وأرغونه من ناحية ، وصاحب قشتالة من ناحية أخرى ، وكانت فى حاجة إلى قائد ماهر ، ومغامر شجاع ، فوجد أميرها طلبته فى ذلك الفارس القشتالى المتمرد لذريق ، فاستقدمه ، وأسلم له قياده[1] . وقد قاد لذريق جيوش المؤتمن إلى النصر ، فهزم الكونت رامون برنجار صاحب قطلونية عند المنارة وأسره ، ثم أطلق سراحه ، فعلا نجمه ، وتناقل الناس قصص بطولته[2] ، ولولا يقظة يوسف المؤتمن وصاحبه لذريق لأثخن ألفونسو فى سرقسطة ولنالها ما نال طليطلة فيما بعد .

عاد لذريق إلى قشتاله مرة أخرى ، ولكنه غادرها مغضباً ؛ وعاد إلى أمير سرقسطة[3] ، وشرع فى ظل بنى هود يبسط حمايته على الولايات الإسلامية الواقعة إلى الجنوب من قطلونية ، حتى لقد انتشر نفوذه من جنوب أرغونه حتى بلنسيه ومرسية[4] ؛ ثم كان أن انسحبت القوات القشتالية التى كانت تحمى القادر ابن ذى النون صاحب بلنسية بعد معركة الزلاقة ، فلم يجد القادر بداً من أن يطلب العون من صاحب سرقسطه خوفاً من المنذر بن هود صاحب طرطوشة ولارده[5] ، فخف القمبيطور إلى بلنسية ، وأعان القادر ، وهزم صاحب طرطوشة وألبونت ، وألبرسين ، وفرض على أمير بلنسية جزية قيل إنها بلغت مائة ألف دينار[6] ، فلما قامت ثورة ابن جحاف التى أشرنا إليها اعتبرها لذريق انتقاصاً من قدره ، واعتداء على حلفائه[7] فاستولى على المدينة على النحو الذى عرضنا له

(١) الذخيرة م . بغداد قسم ٣ ص ٢٩ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) Cambirdge : Med. Hist. vol. VI, p. 401.
فى دائرة المعارف الإسلامية — مادة سيد ص ٤٠٩ (Provençal)

(٤) Cambridge, vol VI, p 401.

(٥) Idem.

(٦) Dozy : Récherches, vol. II op. II. p. XVII —XX

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

وأصبحت بلنسية قلعه المسيحية الحصينة فى الشرق ؛ ووقفت فى وجه المرابطين تحول دون توسعهم صوب الشمال[١] .

هذه هى قصة السيد القمبياطور ، وهى القصة التى اختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة بصورة غير مألوفة بسبب ذلك العصر الذى عاش فيه ذلك الفارس الجرىء، عصر الحروب الصليبية ، عصر الصراع العنيف بين الإسلام والنصرانية . وكان السيد يحاصر بلنسية ، وينكل بأهلها فى نفس الوقت الذى كانت فيه قوات صليبية أخرى تتهيأ لاسترداد بيت المقدس ، لذلك لا نعجب إذا اعتبره الإسبان مجاهداً صليبياً ، و بطلا من أبطال الاسترداد[٢] اقترن إسمه بالظفر والنجاح ، فى الوقت الذى اقترن فيه إسم إمبراطور قشتالة بالإخفاق والخذلان ، فلا بدع إذا بالغت الرواية النصرانية فى تصوير قصة السيد ، واعطائها لوناً زاهياً براقاً . يتبين ذلك مما كتبه المؤرخ بيدال ، الذى جعل من لذريق بطلا من أعظم أبطال أسبانيا ، وحاول أن يثبت أن السيد القمبياطور كان على حق دائماً[٣] . على حين كان السيد هذا مجرد مغامر من المغامرين ، الذين امتلأت بهم بلاد الأندلس فى هذا العصر الحافل بقصص الكفاح والحرب[٤] ، ولم يكن ملوك الطوائف إلا مغامرين من هذا القبيل ، وكان من الممكن أن تمر سيرة السيد دون أن تلبسها الرواية ثوب الأسطورة ، لولا هذا العصر الصليبى الذى جعل من لذريق أخيلا عصره .

ولكن سيرة لذريق القمبياطور تركت فى المعاصرين من الكتاب المسلمين أثراً غريباً ، هو مزيج من التقدير والكراهة ، يتمثل ذلك فى قول ابن بسام

---

(١) Cambidge, vol. VI. p. 401.

(٢) أشباخ ح ١ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٣) Pidal : op cit. p. 280.

(٤) Dozy : Le Cid d' Apres des Nouvaaux textes, Recherches Vol. II, p. I Suiv.

وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى قدح التهائم والنجود وأخاف القريب والبعيد بلغنى أنه كان يقول وقد طمى طمعه ، ولج به جشمه على لذريق فتحت الأندلس ولذريق يستنقذها ، كلمة ملأت الصدور وخيلت وقوع المحظور ، وكان هذا الباقعة فريد وقته فى درب شهامته ، واجتماع حزامته وتناهى صرامته ، آية من آيات الله ، وكان لعنه الله منصور العلم مظفراً على طوائف العجم لتى زعماءهم ففل حد جنودهم وقتل بعدده اليسير كثير عديدهم »[1] .

كان على يوسف بن تاشفين وقد أضحى بطل الجهاد فى الأندلس أن يخف إلى نجدة بلنسية ، وأن يجاهد فى الشرق و يصارع ذلك المغامر الجرىء والمحارب الفذ ، وأصبحت قصة الجهاد فى هذا الدور صراعا سافراً بين بطلى الجهاد الإسلامى والنصرانى ، أى بين لذريق و بين يوسف . ذلك أن الحوادث جعلت نجم لذريق يعلو على نجم الفونسو ، ويبرز فى مخيلة المعاصرين كبطل معركة الاسترداد ، بعد أن تخلى عنها ملك قشتالة ، بسبب هزائمه المتتالية فى المعارك التى خاض غمارها مع المرابطين .

ولكن يجب أن يكون واضحاً أن الروايات تتضارب أشد التضارب حين تعرض لقصة النضال بين يوسف و بين القمبياطور ، فالمراجع الأسبانية تظهره بمظهر الذى لا يقهر أبداً ، وتحاول بصفة خاصة أن تروى قصة صراعة مع يوسف على أنها ظفر خالص و بطولة خالصة ، لتنال من شهرة يوسف قاهر الفونسو ومبدد خرافة الاسترداد[2] .

على كل حال بدأ المرابطون يتطلعون إلى بلنسية بعد استيلاءهم على مرسية ودانية ، وظهر ابن عائشة فاتح حصن اييط أمام أهل شرق الأندلس بمظهر المنقذ

---

(١) الذخيرة م . بغداد قسم ٣ ص ٣١ .

(٢) Pidal : p. 295, 296, 297, 298, 299, 302, 312, 313, 315, 316, 318, 319, 352,

الذى أرسلته العناية[١] لتخلصهم مما كانوا يرزحون تحته من أعباء ثقال ، من العسف والجور والاضطهاد . وكانت جيوش المرابطين أينما حلت تثير فى الناس الأمل فى حياة أفضل تتوفر فيها العدالة والإنصاف . و يبدو أن أهل بلنسية قبل أن يحاصرهم السيد سنة ٤٨٥هـ[٢] ، قد تطلعوا إلى الإصلاح الذى ظفرت به المدن الأندلسية التي استولى عليها المرابطون ، و بخاصة أن الجزية التى فرضها القمبياطور على المدينة كانت باهظة حقاً تثقل كاهل الناس وتثير سخطهم وتبرمهم وقد انتهز القاضى ابن جحاف هذه الفرصة المواتية ، واستغل تقدير المرابطين للفقهاء والقضاة ، كما استغل هذا التذمر الذى بدت نذره ، وتسلم مقعد الرئاسة بالمدينة[٣] ، و بدأ يتصل بالمرابطين فى مرسية يطلب العون والمساعدة[٤] .

ولم يستطع ابن عائشة أن يغادر دانية ، فبعث أحد قواده إلى بلنسية على رأس خمسمائة من رجاله[٥] تلبية لنداء ابن جحاف . وقد شقت عصبة المرابطين طريقها إلى المدينة ، واستولت على القلاع الواقعة فى الطريق ، ففر سليمان بن هود إلى طرطوشة ، وما كادوا يقتربون من المدينة حتى لاذ أعوان القمبياطور بأذيال الفرار ، ولم يستطيعوا الصمود أمام هذا النفر القليل من الملثمين[٦] . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن القوة الخارقة التى ينسبها المؤرخون الفرنجة إلى أتباع القمبياطور حديث خرافة . ومن الغريب أن المؤرخين الأوروبيين يعترفون بفرار الجند النصرانى[٧] أمام هؤلاء المرابطين ، الذين دخلوا المدينة دون

---

(١) Pidal : op. cit. p. 295.

(٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤٨ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠١ .

(٥) Dozy : Récherches vol. II, p. 142.

(٦) Pidal : op. cit. p. 297.

(٧) Idem.

مقاومة ، واستطاع القاضى الداهية أن يحقق أغراضه كاملة ، فقتل القادر بن ذى النون ، وبويع له بالرئاسة ، والقمبياطور بسرقسطة بعيد عن مسرح الحوادث[١] . ولا ندرى لم لم ينقض القمبياطور فى هذه اللحظة بالذات على المدينة ، فيطرد جند المرابطين ؟ ، كما لا ندرى لم قنع بتهديد ابن جحاف ، ومحاولة التقرب إليه[٢] ؟ ، ليس من شك فى أن السيد القمبياطور كان يخشى المرابطين ، ويخاف أن يشتبك معهم فى معركة سافرة ، قد تتمخض عن هزيمته كما كان يعرف أن القوات المرابطية قريبة فى دانية ومرسية تحمى ظهر بلنسية ، وتخف إلى نجدتها عند الحاجة ، فاستطاع بدهائه وحكمته أن يجب ما بين ابن جحاف وبين عصبته من المرابطين ، وحمله على أن يصرفهم عن بلنسية صرفاً[٣] ، وأوهمه أنه قد يجد فى محالفته ومحالفة ابن هود ما يعوضه عن محالفة المرابطين[٤] . وبعد أن تم للقمبياطور عزل ابن جحاف عن حلفائه المرابطين ، حاصر المدينة على النحو الذى عرضنا له ، واستنجد أهل بلنسية بالمرابطين ، كما استنجدوا بغيرهم من الأمراء المسلمين ، وكان يوسف يود أن يلبى نداء أهل بلنسية ، وأن يخف إلى نجدتهم ، لولا أن الظروف قد أقعدته عن تحقيق ذلك الرجاء ، وكتب إلى القمبياطور يهدده ويتوعده ، ويطلب إليه أن يكف عن حصار المدينة ، فرد عليه السيد ساخراً متهكماً منددا بتقاعسه عن الجهاد وخوفه من اللقاء[٥] .

ولكن يخيل إلينا أن هذه الرواية مبالغ فيها إلى حد كبير ، فالمراجع العربية لم تشر إلى مكاتبات من هذا القبيل ، كما أن يوسف لم يكن بحاجة إلى أن يعبر البحر ليلتقى لذريق ، فقد كان قواده بالأندلس كثيرون ، وكان باستطاعته أن

(١) Pidal : op. cit. p. 297.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٥) Pidal : op. cit. p. 312

يسير الجيش المعسكر بمرسيه ودانية ، دون أن يجشم نفسه مشقة العبور لارضاء غرور القمبياطور .هذا فى الوقت الذى تصور الرواية الأوروبية القمبياطور بصورة الخائف المرتاع لقدوم المرابطين ، وتذكر أنه اتصل سرا بابن جحاف ليعاونه ويشد أزره ، ولكنهما خافا مغبة الأمر ، واكتفيا بأن يكتبا إلى الأمير أبى بكر ابن إبرهيم القائد الذى أوفده يوسف لاستنقاذ بلنسية يخوفانه لقاء القمبياطور الذى حالف صاحب أرغونة ، وجند ثمانية آلاف من خيرة الفرسان[1] ، و ينصحانه بالعودة من حيث أتى مخافة أن تحيق به الهزيمة ، ولكن قائد المرابطين سار ميمما شطر مرسية ، وطرب المحاصرون ، واعتقدوا أن يوم الخلاص بات قريباً ، وقرروا خلع ابن جحاف ، وتنصيب ابن طاهر[2] ، ثم تقدم الجيش المرابطى حتى أدرك شاطبة ، ثم اتجه صوب بلنسية ، وبات على مرأى الناظر من أسوار المدينة ، وما كاد الصبح يسفر عن وجهه ، حتى كان جيش المرابطين قد اختفى عن الأبصار ، وانسحب من مواقعه قرب بلنسية .

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل انسحاب القائد أبى بكر ، فقد ذكر ابن علقمة[3] أن يوسف كتب إليه يؤنبه وغضب عليه وعزله[4] . ولكن لم ننساق وراء ابن علقمه ، ونسم أبا بكر بميسم الجبن والخور ؟ . فلو كان الخوف هو الذى رد المرابطين على أعقابهم ، لما تقدموا من مرسية اطلاقا ، ولتركوا بلنسية تقع فريسة فى يد القمبياطور . على حين نجد رواية المؤرخين الأسبان تؤيد وجهة نظرنا فى أسباب انسحاب المرابطين ، فتذكر أن السماء قد أمطرت مطرا غزيرا فى أمسية المعركة ، وأصبحت الطرق غير مأمونة للسالك ، فآثر أبو بكر أن ينسحب

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٥ . Pidal : p. 315

(٢) Dozy : Récherches, vol II, p. 158 — 159

(٣) Pidal : cp. cit p. 319.

(٤) ابن علقمة : ص ١٢٢ — ١١٣ .Provenc,al : Al Andalus, vol. XIII 1948

إلى مرسية(١) ، وكتب ابن عائشة إلى بنى طاهر أنصار المرابطين يذكر أنهم لم يتراجعوا جبنا أو خورا ، ولكن لنقص الأقوات ووعورة الطريق(٢) ، فلم يجد أهل بلنسية مفرا من التسليم(٣) ، وسقطت فى يد القمبياطور ، فكان وقع سقوطها فى نفس يوسف عظيما(٤) ، وجاء حرق القمبياطور لابن جحاف وسومه أهل بلنسيه سوء الخسف والعذاب ضغثا على أبالة(٥) .

ومن الغريب أن المؤرخين المسلمين لم يعرضوا لقصة الصراع بين يوسف والقمبياطور عقيب استيلائه على بلنسية ، لم يعرضوا إلا للحملة الضخمة التى أعدها يوسف سنة ٤٩٥ هـ لاسترجاع المدينة نهائيا ، فهل من المعقول أن يغفل المرابطون عن بلنسية طيلة هذه السنوات السبع ، ويتركوها فريسة للسيد القمبياطور ؟. وهل من المعقول أيضا أن تظل القوات المرابطية تحتل مرسية ، ودانية وشاطبة سبع سنوات، تواجه قوات السيد دون أن تلتحم بها أو تناوشها؟ . لكن المراجع الإفرنجية لم تسكت كما سكتت المراجع العربية ، بل ذكرت أن صراعا عنيفا نشب بين القمبياطور الذى اتخذ بلنسية مركزا لأعماله العدوانية ، وبين المرابطين فى دانية ومرسية ، ولكن هذه المراجع تلون سيرة القمبياطور فى هذه الفترة باللون الأبيض ، وتصور المواقع التى خاض غمارها على أنها نصر كلها ، وتصور كفاح المرابطين فى هذه الفترة على أنه هزائم متلاحقة يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، فقد ذكر كل من بيدال ودوزى(٦) أن محمد ابن عائشة حاول أن يسترد بلنسية لأنه سار إليهما على رأس ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، وعسكر عند مدينة

---

(١) حسين مؤنس : السيد القمبيطور ص ٦١

(٢) Dozy : Recherches vol. II, p. 158 — 159

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٥ .

(٤) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣١ .

(٥) ابن الكردبوس : الا كتفا نقلا عن Recherches, vol. II, ap,XXIX

(٦) Dozy : Récherches, vol II, p. 186 -- 195

(Cuerta)، وأن القمبياطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام ، وكبده خسائر فادحة ، فهل يعقل أن يهزم القمبياطور جيشا قوامه ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، من فرسان المرابطين[١] بقيادة ابن عائشة مدوخ الفونسو ؟ لو صح ذلك أكان القمبياطور يقنع أو تقف أطماعه عند حد ؟ . يخيل إلينا أنه لو صحت هذه الرواية لا نقض القمبياطور على دانيه ومرسية ، بل لعمل على اخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائيا !.

ليس ببعيد أن تكون هذه القوات التى اقتربت من بلنسية قليلة العدد ، وربما كانت فرقة صغيرة أو مجرد كتيبة بقيادة أحد رجال ابن عائشة ، بدليل أن القمبياطور عند ما أراد أن يتوسع خارج بلنسية بعد ذلك لقيته قوات بقيادة ابن عائشة فناوشته وقاومته[٢] . هذا إذن يؤيد ما قلناه من أن هذه الحروب التى وقعت هى مجرد مناوشات لا أكثر ولا أقل ، فالمرابطون كانوا يستعدون ويطيلون الاستعداد ، لأنهم كانوا يعرفون أن هذه المعارك ستقرر مصير شرق الأندلس كله ، بل مصير معركة الجهاد فى الأندلس بأسرها ، كما أن القمبياطور نفسه كان يخشى أن يشتبك فى صراع سافر مع المرابطين فيصيبه ما أصاب الفونسو فتسقط هيبته .

وتعود المراجع الأفرنجيـــة فتروى قصة نصر آخر أحرزه القمبياطور وحليفه بيدرو ملك أرغونة على قوات محمد بن عائشه على مقربة من بلدة بيرين ، استطاع القمبياطور بعده أن يستولى على مربيطر[٣] . ويكفى المرابطين فخراً أنهم استطاعوا طوال هـذه السنوات السبع أن يحدوا من نشاط القمبياطور ، وأن يحتفظوا بقواعدهم فى المرية ومرسية ، وأن يشغلوا عدوهم بهذه المناوشات المتصلة .

---

(١) Pidal : op. cit, p. 354

(٢) Dozy ; Recherches vol, p. 188 — 195

(٣) Pidal : op. cit, 373

حتى أتم يوسف الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة ، التي بدت نذرها تلوح ، فقد أطبق محمد بن الحاج على قوات الفونسو عند (Consuegra)، فأنزل بها هزيمة ساحقة وقتل ولد القمبياطور الوحيد[١] ، كما هزم البرهانس عند كونكه ، وأوقع ابن عائشة بفرقة من جيش القمبياطور عند جزيرة شقر[٢] ، ثم سار محمد بن مزدلى أعظم قواد المرابطين إلى بلنسية لخوض المعركة الفاصلة . ولكن القمبياطور كان قد توفى قبل ذلك بقليل ، ولم تستطع أرملته أن تقاوم طويلا ، فسقطت مدينة بلنسية فى يد المرابطين فى منتصف رجب سنة ٤٩٥ هـ[٤] .

واستطاع المرابطون بعد كفاح متصل ، وجهاد مستمر فى شرق الأندلس دام عشر سنوات أن يحرزوا هذا الظفر ، الذى لا يقل أثراً فى تاريخ معركة الجهاد عن نصر الزلاقة ، فقد كان له دوى هائل فى العالم الإسلامى كله ، خلده الشعراء والكتاب[٥] ؛ كتب أبو الفضل جعفر بن شرف يقول « وحياك بلسان الأقلام حين أشرق وجه الدين ، فأسفر وزهق حصن الملحدين فنفر ، وأقبل الفتح فى لمة التأييد يرفل فى ثوب النصر الجديد ، وجاء الوعد الناجز ببلنسية . فالآن قد نشر الميت من لحده ، وعاد الحسام إلى غمده ، فهبت ريح النصر ، ومد بحر الظفر بعد حسر » . فلا تعجب بعد ذلك كله إذا كان شرق الأندلس قد انفتحت أبوابه أمام المرابطين يوغلون فيه كيف شاءوا .

كان لسقوط بلنسية فى أيدى المرابطين أثر بالغ فى سير معركة الجهاد فى شرق الأندلس ، فقد مات القمبياطور ، وانهارت الجبهة النصرانية فى الشرق ، ووأغلته

---

(١) Pidal : op cit, p 376

(٢) كتاب الاكتفا نقلا عن Recherches, vol II, ap. II p.XXI

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) البيان المغرب جـ ٣ ص ٣٠٦ Dozy : vol, IV p 245

(٥) ديوان ابن خفاجه ص ١٠٣ .

القوات المرابطية فى إمارة بلنسية ، فاستولت على مر بيطر والمنارة والسهلة وغيرها من القلاع والحصون المنتشرة فى هذا الإقليم ، كما تمخض هذا التوسع عن حماية ظهر إمارة سرقسطة ، وتوثيق الصلات بينها ، و بين المرابطين ليتعاونا فى صد التيار النصرانى ، الذى يهدد الجزيرة من الشمال الشرقى . فقد كانت إمارة سرقسطة معرضة لخطر جسيم ، إذ تتصل اتصالا مباشراً بحدود ممالك إسبانيا النصرانية وإماراتها ، تصاقبها من الشمال إمارات قطلونية وأرغونة ، وتتصل بها حدودها من الشرق بمملكة نبرة وليون[1] ، فاضطرت أن تقف من جيرانها النصارى موقف المصانع المدارى لتتخلص من شرهم ، ولما عبر المرابطون البحر لأول مرة تخاف بنو هود ، ولم يدخلوا فيما دخل فيه غيرهم من الأمراء . ولهم عذرهم فلم يكن باستطاعتهم أن يغفلوا ساعة واحدة عن هذه القوى النصرانية التى تتحفز للقضاء عليهم ، بل لعلهم نجحوا من حيث لا يريدون فى الحيلولة بين القوات التى كانت تتدفق من فرنسا وغيرها من بلدان أوروبا ، و بين شد أزر الفونسو فى كفاحه مع المرابطين ، فقد وقفت القوى الصليبية عند الإيبرو لم تستطع أن تجاوزه خوفاً من بنى هود[2] ؛ ولكنهم رغم التظاهر بصداقة المرابطين كانوا يعملون فى الخفاء على وقف توسعهم فى شرق الأندلس خشية أن يصيبهم ما أصاب ملوك الطوائف الذين انتزع يوسف ملكهم ، ووقفوا وقفة المتخاذل المتردد من حصار بلنسية ، ومن جهاد المرابطين وكفاحهم من القمبياطور[3] ، لأنهم كانوا يتبنون السيد الذى كان يعمل لحسابهم .

كان بنو هود يطمعون فى بلنسية ، أو على الأقل يأملون أن يقيم القمبياطور إمارة صديقة تحول بينهم و بين المرابطين[4] ، ولكن الملثمين صمدوا للقمبياطور

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٢٠٠ .

(٢) الحلل الوشية ص ٦٠

(٣) الذخيرة : قسم ٣ ص ٢٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٦ .

على النحو الذى رأيناه ، وفتحت بلنسية ، وانسابت قوات المرابطين تتوسع صوب الشمال ، فاضطر بنو هود إلى أن يغيروا من موقفهم ، وأن يقفوا من يوسف بن تاشفين وقفة المؤيد المناصر ، وهل كانوا يستطيعون غير هذا ، والعدو ينوشهم من الشمال ، ويهددهم فى عقر دارهم ؟ لذلك عمد المستعين بن هود إلى أن يصل يده بيد يوسف قبل أن يكتسحه التيار ، ويجبر على الدخول فيما دخل فيه غيره ، فروى المؤرخون أنه اتصل به مرتين ، فقد كاتبه غب عبوره الأندلس غداة الزلاقة يبرر له تقاعسه عن نصرة المجاهدين[1] ، واتصل به فى المرة الثانية عقب سقوط بلنسية[2] ، وآثر يوسف أن يصفح عن مواقفه السابقة إيثاراً للعافية وإبقاء على وحدة الجهود ، ورغبة فى إيجاد نوع من الجبهة الإسلامية المتحدة ، تمتد من حدد قطلونية إلى أقصى الجنوب ، لذلك أبقى على بنى هود يمدهم بالعون والمساعدة ، ليدفعوا عادية الفرنجة ويصدوا تيارهم[3] .

وبتعاون بنى هود والمرابطين على الجهاد نستطيع أن نقول دون تردد إن المرابطين قد أتموا الجهاد فى شرق الأندلس ، أو على الأقل وضعوا أسسا دائمة ثابتة لتعاون وثيق لم تره الأندلس منذ وفاة المنصور بن أبى عامر . وإذا كان المرابطون قد شغلوا بالجهاد فى الشرق ، فإنهم لم يغفلوا عن الفونسو السادس ، بل وقفوا له بالمرصاد ، وفى الوقت الذى كانوا فيه يوطدون أقدامهم فى منطقة مرسية ودانية ، ويتشوفون إلى بلنسية كانت قواتهم تشتبك مع جند قشتالة عند بلدة جيان ، وأوقعوا بقوات الفونسو ، ومزقوها شر مزق ، وفرت لا تلوى على شىء ، وذلك سنة ٤٨٥ هـ[4] ، بل يذهب المؤرخون إلى حد تشبيه معركة جيان بالزلاقة . وكأن الأقدار قد شاءت ألا يقترن اسم الفونسو فى صراعه مع

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٠ .
(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٢٢٥ .
(٣) الحلل الموشية ص ٥٩ — ٦٠ .
(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٨٣ .

يوسف إلا بالهزيمة ، فما كاد يعاود الكرة مرة أخرى سنة ٤٩١ هـ ، حتى خف المجاهدون إلى مناجزته، وأوقعوا الهزيمة به عند (Consuegra)[١] ، وهى الموقعة التى قتل فيها ابن السيد القمبياطور ، كما هزموا قائده البرهانس عند كاونكة ، وصاحب برجندية عند (Malagon) سنة ٤٩٤هـ[٢] . وشاء الله أن لا يرى يوسف نهاية عدوه الفونسو ، إنما قدر لولده على أن يجنى ثمار هذا النضال ، الذى استمر عشرين عاما ، حين هزم قوات الفونسو عند إقليش[٣] ، قتل ولده ، وفنيت زهرة رجاله ، ومات غماً وكمداً بعد ذلك بعام واحد ، وفقدت حركة الاسترداد بطليها السيد القمبياطور والفونسو السادس فى سنوات متلاحقة ، هذا فى الوقت الذى اتحدت فيه كلمة المسلمين تحت لواء واحد هو لواء يوسف بن تاشفين .

عبر يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الأخيرة سنة ٤٩٧ هـ متوج الهامة بالظفر والنصر تخفق أعلامه و بنوده على ربوع البلاد ، وقد عبر فى هذه المرة ليضع أسساً ثابتة للدولة الجديدة التى ألفت بين المغرب والأندلس . نعم فى هذه السنة بالذات أحس يوسف بأنه قام بواجبه ، وأرضى ضميره ، وعفر جبهته بتراب الجهاد ، وأجج الحرب المقدسة التى أحيت موات الآمال ، وثبتت أقدام الاسلام فى شبه الجزيرة بعد أن كادت تعصف به الخطوب ، فرأى أن يبايع لولده على ابن يوسف بولاية العهد ، إحساساً منه بقرب الخاتمة ، وقد روى أنه عاد إلى المغرب فى آخر سنة ٤٩٨[٥] هـ ، فمرض وتوفى بمراكش سنة ٥٠٠[٦] هـ .

---

(١) Pidal: op. cit, p 414 .

(٢) Idem

(٣) Duruy : Hist. des Moyen Ages p 330

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠١ .

(٥) ابن الأبار : التكملة جـ ٢ ص ٤٥٧ ، روض القرطاس ص ١٠١ ، الحلل الموشية ص ١٧ .

١٦ — أثر معركة الجهاد فى دعم قواعد الدولة :

ظلت معركة الجهاد فى بلاد الأندلس فى عهد يوسف دائرة الرحى مستعرة الأوار عشرين سنة كاملة ، فالى أى حد استطاعت هذه الحركة أن تحقق آمال يوسف بن تاشفين التى كان العالم يرقبها و يتطلع إليها ؟ . تمخضت معركة الجهاد عن تبديد خرافةالاسترداد ،هذه الخرافة التى تبناها ملوك قشتالة منذ أيام فردناند الأول منتهزين الفرقة الضاربة أطنابها بين ملوك الطوائف فى الأندلس ، فقد قهر الفونسو ، وتحطمت أحلامه ، وتبددت آماله ، ووقف حائرا أمام هذه القوى التى تكتلت ، واتحدت بصورة لم يشهدها الناس منذ أيام المنصور بن أبى عامر كما أن القوى الصليبية وقفت عاجزة أمام هذه الدولة الجديدة ، فلم تستطع أن تجاوز سرقسطة إلى الجنوب ، كما مات القمبيطور مقهورا ، ولم تغن شجاعته شيئاً ، وأصبح يوسف بن تاشفين فى الواقع أعظم شخصية فى المغرب الإسلامى ، ويكفى أن يقال إن من أهم نتائج معركة الجهاد فى الأندلس أنها حققت وحدة البلاد ، هذه الوحـــدة التى عزت منذ سقوط الخلافة ، وتفرق كلمة المسلمين فى الأندلس سنة ٣٩٩هـ .

نعم تمخضت جهود يوسف طوال الأعوام العشرين عن التوحيد بين المغرب والأندلس ، واستطاع أن يؤسس دولة المرابطين بالصورة التى عرفها الناس موحدة بين المغرب والأندلس ، جامعة بين تقاليد هذين البلدين . نعم كان الرباط والجهاد متلازمين دائما ، وكان الجهاد من أهم الأركان التى اعتمد عليها عبد الله بن ياسين فى بث دعوته بين الناس ، كما كان من أهم الدعائم التى اعتمدت عليها الدولة فى تكوين شخصيتها ، وتوسيع رقعتها . وقد تأثر المعاصرون بهذا الدور الرائع الذى قامت به الدولة الناشئة من انقاذ الإسلام مما تردى فيه من ضعف وتخاذل

وفرقة ، وأصبح الناس فى المشرق يرقبون فى شغف واهتمام ذلك التوفيق والظفر الذى اقترن باسم يوسف ، حتى إن الإمام الغزالى(١) رأى فى هذا الأمير الإمام الأمثل الذى طالما تمنى أن يراه ، كما رأى فى الدولة الجديدة مدينته الفاضلة ، وروى أنه أراد أن يذهب بنفسه إلى المغرب ليرى رأى العين هذه المعجزات التى تحققت فى هذا المصر عصر الضعف والتخاذل والفرقة ، ليشهد عن كثب ما تردده الرواية من عدل الأمير وزهده وتقشفه ، ولكن قيل أنه ما كاد يبلغ الأسكندرية حتى علم بوفاة يوسف ، فعاد من حيث أتى(٢) . وقد كاتب الفقيه أبو بكر الطرطوشي يوسف مبديا إعجابه بما تواتر من أنباء بطولته(٣) وتقواه ، كما اهتزت الخلافة العباسية بهذا الجهاد الموفق ، فاعترفت بيوسف أميراً يحكم من قبل الخليفة العباسى(٤) بعد وفاة أبى بكر بن عمر ، وكتب يوسف إلى الخليفة ينوه بالدور الذى اضطلع به فى معركة الجهاد ، ويبين مدى ما أصاب من توفيق ، وما تحمل من جهد(٥) ، وتردد اسم يوسف مقترناً باسم الخليفة العباسى على منابر الأندلس والمغرب ، كما نقش اسم الخليفة على السكة ، وبذلك تكون دولة المرابطين قد قامت واقعياً ونظرياً بعد اعتراف الخلافة العباسية بها .

نعم وضح للناس أجمعين أن دولة جديدة قامت بالمغرب ، تحيي تراث الإسلام وتقهر أعداءه ، وتوحد بين المسلمين ، وتشد أزرهم ، ولولا الجهاد فى الأندلس — على ما نعتقد — لكان من الممكن ألا يختلف تاريخ المرابطين عن تاريخ هذه الدويلات التى قامت بالمغرب ، وانتهت دون أن تثير اهتمام الناس. نستطيع إذن أن نقول إن هذه الدولة قد أقامها رجلان: عبد الله بن ياسين صاحب

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٠ . مفاخر البربر ص ٤ .
(٢) Goldziher: Mohamed Ibn Toumart, p 12
(٣) ابن خير الفهرسة : ص ٢٩٩ .
(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٠ .
(٥) النويرى ج ٢٢ ص ١٨٥ .

الدعوة ويوسف بن تاشفين صاحب السيف ومنفذ تعاليم الإمام ، ومخرج فكرة الجهاد إلى حيز الوجود فى معارك متلاحقة دامت قرابة خمسين عاما ، تؤيده شيعته من المرابطين المخلصين لمعركة الجهاد ، بل إن بعضهم لم يتردد فى أن يتطوع لخوض معركة الجهاد فى الشرق ، والمساهمة بنصيب فى وقف التيار الصليبى المتدفق على بيت المقدس[١] .

كان يوسف من صناع التاريخ فى المغرب الإسلامى ، فقد أعاد إلى الأذهان سيرة موسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبى عامر ، وغيرهم من أبطال الإسلام . كان يوسف معجزة حققها الإسلام ، إذ استطاع ذلك الدين أن يجعل من هذا الرجل الصحراوى بطلا ظل النصر يقترن باسمه مدى نصف قرن فى معارك المغرب والأندلس ، فقد صارع الفونسو والقمبيطور ، والبابوية الناهضة ، والقوى الصليبية المتحفزة ، ووضع أسسا للجهاد ونظم الحكم ظلت باقية بعده مدة طويلة . كان يوسف زاهدا متقشفا عادلا صادقا تتمثل فى شخصه سيرة السلف الصالح[٢] .

---

(١) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٧٣ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٢ .

الباب الخامس

نتائج قيام دولة المرابطين

١ — أثر قيام الدولة في الأوضاع السياسية :

الآن وقد فرغنا من ترسم الخطا التى أدت إلى قيام الدولة ، وتتبعنا الأدوار التى مرت بها منذ أن كانت مجرد رباط عند مصب نهر السنغال ، حتى بسطت رواقها ومدت ظلها على المغرب الأقصى والأندلس ، يحسن بنا أن ندرس الآثار التى تركها قيام هذه الظاهرة البارزة فى أحداث المغرب الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى ، وأن نستبطن الحوادث ، ونتلمس مدى ما تركه قيام الدولة من أثر فى تاريخ المغرب وحضارته .

وأول ما نلاحظه أن قيام هذه الدولة يختلف عن قيام دول البربر التى سبقتها ، فقد قامت دولة الأدارسة مثلا على أساس البيعة لعلوى فر بنفسه ، وآوى إلى المغرب معتصماً به من بطش العباسيين وانتقامهم ، وقامت دولة بنى زيرى بعد أن حالفت صنهاجة كتامة ، وآزرت الدعوة الاسماعيلية بالمغرب وظلت تدين للفاطميين بالتبعية والولاء دهراً طويلا ، أما دولة المرابطين فقد قامت على أسس مختلفة كل الاختلاف ، فقد قامت على أساس نشر مذهب مالك فى صحراء المغرب ، ومحاولة بعث القوى الاسلامية والعودة بالمجتمع الاسلامى إلى عهد السلف الصالح ، ورسمت لنفسها طريق الإصلاح واضحاً جلياً ، واعتمدت فى سبيل التمكين لنفسها على لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأعلنت على البدع والمنكرات التى شاعت فى البلاد فى أواخر القرن الخامس الهجرى حرباً لا رحمة

فيها ولا هوادة ، حطمت دنان الخمر ، وكسرت آلات الطرب ، وفرضت صلاة الجماعة على الناس فرضاً ، وعممت الزكاة ، واقتصرت فى فرض الضرائب على ما أوجبه الشرع ، فلقيت ترحيباً أينما حلت ، وكانت المدن تفتح أبوابها لهؤلاء القوم المخلصين فى جهادهم وفى إصلاحهم .

كما أن الدولة الجديدة توسعت فى مبدأ الجهاد بصورة لم تعهدها دول المغرب من قبل ، عاشت من أجل الجهاد وذهبت ريحها فى سبيل الجهاد . لا ننكر أن الدويلات المغربية التى سبقت دولة المرابطين فى المغرب قد وضعت مبدأ الجهاد نصب أعينها ، وعملت بقدر طاقتها على مدافعة الفرنجة ، ونشر الاسلام ، ولكن لأول مرة فى تاريخ المغرب نجد دولة تجند المجتمع كله من أجل الجهاد ، وتسخر موارد الدولة كلها له ، وتجعل من البلاد معسكراً ضخماً يتجاوب بأصداء القتال .

ويعتبر قيام دولة المرابطين من ناحية أخرى متوجاً للجهود التى بذلها البربر منذ القرن الثانى للهجرة ، بعد أن رسخت فيهم قواعد الدين ، وظفروا بالمساواة المطلقة بالفاتحين من العرب ، حتى آل الأمر إليهم آخر الأمر ، وأصبحوا أصحاب الكلمة الأولى فى المغرب يشكلون تاريخهم حسبما يريدون . وقد قامت دولة المرابطين فى وقت انتهى فيه نفوذ العرب فى المغرب وأفريقية بانتقال الخلافة الفاطميه إلى مصر ، وبسقوط الدولة الأموية ، فخلا الجو أمام البربر ، وانتهى الأمر بأن أقاموا خلافة مغربية فى عهد الموحدين عندما اتخذوا لقب أمير المؤمنين .

ويعتبر قيام الدولة من وجهة النظر القبلية انتصاراً لشعب البرانس ، فقد استطاعت صنهاجة بشقيها بعد جهود متواصلة أن تصرع أعداءها من البتر ، وأن تقهرهم ، وأن تبسط ظلها على بلاد المغرب كلها ، فقد كانت صنهاجة الشمال تسيطر على أفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت صنهاجة الجنوب تسيطر على المغرب

الأقصى ، والأندلس ، فارتفع شأن البرانس ، وعلت كلمتهم ، وتفوقوا على أعدائهم البتر .

على أن قيام هذه الدولة قد ترك آثارا أخرى بعيدة المدى عميقة الأثر فى تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس ، ذلك أن الدولة الجديدة استطاعت لأول مرة أن توحد فى المغرب الأقصى بين المنطقتين الساحلية التى تسود فيهما المؤثرات الحضارية الأندلسية ، والتى ينزل بها قوم يشتغلون بالزراعة ، و بين المنطقة الأخرى المضبية والجبلية التى كانت فى الواقع بربرية لحما ودما لم تنفذ إليهما المؤثرات الثقافية الأجنبية ، و يحيا أهلها حياة النقلة والترحال[1] . كان يحدث أن تبسط الدول التى قامت بإفريقية سلطانها حتى ساحل المحيط الأطلسى ، ولكنها كانت تتوغل فى المنطقة الساحلية ، أما المناطق الداخلية فقد بقيت فى معزل عما كان يجرى من الحوادث ، حتى قامت دولة المرابطين فأخرجتها من عزلتها ، ووصلت تاريخها بتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس ، وقد وحدت الدولة لأول مرة بين إقليم السودان والمغرب الأقصى ، فقد كانت الأقاليم السوادنية تكاد تعيش بمعزل عن حوادث المغرب ، حتى أخرجها المرابطون من هذه العزلة ، ومكنوا للثقافة الإسلامية من أن تتسرب إليها ، وتنتشر بين ربوعها . كما أن قيام الدولة وتوسعها فى الأندلس يمثل ظاهرة فريدة فى تاريخ المغرب الإسلامى ، ذلك أن أهل الأندلس ظلوا يتفوقون على أهل المغرب ، و يتحكمون فى مصائرهم دهراً طويلا ، وكانت جيوش الناصر والمستنصر وهشام المؤيد تجوس فى أرجاء البلاد ، ترفع لواء الأمويين وتبسط ظلهم ، وتمكن للحضارة الأندلسية حتى قامت دولة المرابطين ، فقلبت الأوضاع ، وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب ، وكتبت لهم السيادة على أهل

---

(١) M.L. De Mas Latrie : Traités de paix et de commerce et documents divers conçernant les relations des Chretiens avec les Arabes de L'Afrique Septentrionale au moyen age : p. 27.

الأندلس ، وأصبحت شئون تلك البلاد تصرفها مراكش حاضرة هذا الملك الجديد .

وقد ترك قيام الدولة أثراً واضحاً فى ناحية أخرى بعيدة الأثر ، ذلك أن المغرب شهد ظاهرة جديدة وفدت عليه ، فقد غزا عرب بنى هلال أفريقية ، وخربوا القيروان ، ونالوا من الحضارة ، وقوضوا ملك بنى زيرى ، ثم طرقوا باب المغرب الأوسط ، وهددوا الدولة الحمادية . وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى ، فيمثلوا فيه نفس الدور ، ويعيثوا فيه فسادا ، كما عاثوا فى افريقية من قبل ، لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الأوسط ، ووضعها حامية قوية فى تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب الأقصى شر بنى هلال[1] . وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط لأنهم كانوا يعلمون أنه يتحكم فى الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى . ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الأقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد اللمتونى الشهير مزدلى فاتح بلنسية ليرعى شئونه ويحرس مسالكه[2] فلا ينفذ إليه العرب ، ويطرقون باب المغرب الأقصى .

وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الأوسط ، وعملهم على مدافعة عرب بنى هلال إلى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة بعد أن كانوا قد آزروهم حين فتحوا المغرب الأقصى ، لأن بنى حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين فى المغرب الأوسط نظرة الارتياح والرضا ، بل ظلوا يترقبون فرصة مواتية حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس ، وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد . فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين[3] . مما حمل

(١) G. Marçais : Les Arabes en Berbérie du XI Au XIV Siécle p. 116.

(٢) ابن خلدون ج ٦ س ١٨٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٦ س ١٨٨ .

يوسف على مغادرة الأندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم[1]، ويبدو أن المرابطين قد أقروا السكينة فى ربوع المغرب الأوسط، وحالوا بين بنى حماد وحلفائهم من العرب، وبين ما يريدون، بل جاست قواتهم فيه، وهددت مدينة أشير[2]. ويخيل إلينا أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط، وعملهم على تحصينه وإقرار السكينة فى ربوعه لم يكن يقصد به مجرد مناهضة بنى حماد والكيد لهم، بل لرد العرب عن المغرب وتجنيب البلاد ما أصاب افريقية من قبل، بدليل أن يوسف سالم بنى حماد[3] بعد أن اطمأن إلى أن المغرب الأوسط قد نجا من الوقوع فى قبضة العرب، فنجت حضارته وسلم تراثه .

وقد ترك قيام دولة المرابطين أثراً بعيد المدى فى توازن القوى فى الجزء الغربى من البحر الأبيض . ذلك أنه فى ذلك الوقت بالذات ظهر النرمان بجنوب إيطاليا وبدءوا يتشوفون إلى صقلية ويمكنون لأنفسهم فيها، فى الوقت الذى عمدت فيه أساطيل جمهوريات إيطاليا إلى تهديد حرية الملاحة فى هذه المنطقة، وراحت مملكة قشتالة وليون تبسط ظلها على الأندلس، وتستذل ملوك الطوائف، وتحاول أن تنتزع منهم القلاع والحصون . وكانت البابوية قد نهضت نهضة موفقة، وبدأت تبسط ظلها على أوربا، وتهيىء الأذهان لمعركة صليبية حامية الوطيس، فلما قامت دولة المرابطين، وبسطت ظلها على الساحل المطل على بحر الروم، اهتمت بالبحر، وبدأت تنشىء أسطولاً بعد فتح سبتة وطنجة . وقد خف المرابطون إلى معركة الجهاد فى الأندلس، واستطاعوا بعد جهود متصلة دامت عشرين عاما أن يوقفوا توسع الفرنجة فى الأندلس، وأن يبددوا خرافة الاسترداد وأن يؤخروا سقوط شبه الجزيرة فى يد النصارى بضعة قرون . وقد استولى المرابطون

---

(١) الذخيرة (م . بغداد) القسم الثانى ص ١٠٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٦ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٨ .

على الساحل الشرقى لبلاد الأندلس، كما استولوا على جزيرتى ميورقة ومنورقة(١)، واتخذوا من موانى الأندلس قواعد لأسطولهم الناشىء، الذى أخذ ينشط فى حوض البحر الأبيض، ويظهر تفوقه، ويغير على بلاد الفرنجة محاولاً أن يستعيد السيادة الإسلامية التى كان قد انتهى أمرها. ومن آيات تفوق أسطول المرابطين فى البحر أن بنى زيرى وهم يصارعون روجر صاحب صقلية استغاثوا بهم فلم يترددوا فى مساعدتهم، واشترك أسطول المرابطين فى مهاجمة صقلية(٢).

نعم استطاعت هذه الدولة الناشئة أن تقضى على السياسة التى سارت عليها البابوية لإثارة حرب صليبية فى الغرب، بل لعبت دورا فى غاية الأهمية فى تاريخ المعركة الصليبية التى كانت توشك أن تضطرم نارها فى الشرق، فقد نجحوا فى الحيلولة بين ممالك الأندلس وبين المساهمة فى الحملات الصليبية التى نظمت للاستيلاء على بيت المقدس، ولأن المرابطين كانوا يقفون لهم بالمرصاد، إذ كانوا يناوشونهم، ويهددون بلادهم، ولا يكفون عن غزوهم ومحاربتهم. ويخيل إلينا أنه لولا قيام دولة المرابطين فى ذلك الوقت بالذات؛ لكان النجاح الذى أحرزته الحملات الصليبية فى الشرق أبعد أثراً، ولاستطاعت القوى الأوروبية كلها أن تنصرف بكليتها إلى معركة الشرق، ومن يدرى ربما كان وجه التاريخ الصليبى قد تغير. ولم لا نقول أن قيام دولة المرابطين ونجاحها فى المعركة الصليبية الدائرة الرحى فى المغرب قد أحيا موات الآمال، وهز مشاعر المعاصرين فى الشرق فأدركوا أن فى المغرب قوة إسلامية ناشئة استطاعت حين وحدت القوى المتنافرة أن تحرز ذلك النصر الرائع وأن تذيق أعداءها البأس والشدة. وقد اهتم المرابطون بالجهاد فى الشرق اهتماماً عظيما، وكان يحز فى نفوسهم أن يروا إخوانهم فى الشرق قد تفرقوا وتباغضوا غافلين عن الداء الذى بدأ يستشرى فى بلادهم

---

(١) التادلى : التشوف ص ١٥٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٣ ، ٢٦٠ .

و يهددهم تهديداً خطيراً . يدل على ذلك ما رواه ابن الأثير(١) من أن بعض هؤلاء الملثمين رحلوا بعد الحملة الصليبية الأولى إلى بغداد ، و خطبوا فى الناس ، يستنهضون الهم ، و يلهبون الحماس فى النفوس ، ويدعون إلى الجهاد فى الشرق كما دعو إليه فى الغرب(٢) .

استطاعت هذه الدولة إذن أن تجمع بين المغرب والأندلس ، و إن تبسط نفوذها حتى إقليم السنغال والنيجر ، وجمعت بين المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية ، وألفت بين التراث الأندلسى والمغربى والسودانى ، وسنرى كيف أن ذلك كله سيترك فى الحضارة فى عهد المرابطين آثاراً باقية وسمات واضحة . كما استطاعت أن ترفع من شأن مذهب مالك ، وأن تنشره فى المغرب والسودان وأن تعلى كلمته فى الأندلس ، وعملت على إقامة مجتمع مثالى فاضل على أسس من من أحياء السنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومحاربة البدع ، والتوسع فى الجهاد بصورة لم تكن معهودة من قبل ، كما عملت على القيام بإصلاحات اقتصادية واسعة النطاق .

وقد تركت هذه الأسس التى قامت عليها الدولة أثراً واضحاً فى وضع الدولة الشرعى ، وفى ألقاب ولى الأمر ، وفى السكة ، ونظم الحكم وفى النظام الحربى ، وفى فن القتال ، وفى الحياة الاقتصادية والاجتماعية وفى الحياة الثقافية ، وفى جميع مقومات الحضارة . وواجبنا الآن أن نبرز هذه الآثار ، وأن نكشف عنها النقاب ، وأن نوضح إلى أى حد استطاعت هذه المؤثرات أن تشكل مجتمعا جديداً يختلف اختلافا واضحاً عن غيره من المجتمعات السابقة .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٣ .

(٢) قال بن الأثير : «وفى سنة ٤٩٩ ورد إلى بغداد إنسان من الملثمين ملوك المغرب قاصدا إلى دار الخلافة فاكرمه وكان معه إنسان يقال له الفقيه من الملثمين أيضا فوعظ الفقية فى جامع القصر واجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو متلثم» بل روى ابن الأثير أيضا أن بعض هؤلاء الملثمين قد شارك الأفضل فى حربه مع القوى الصليبية فى الشرق ، وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على هذه الغيرة للاسلام التى كان تضطرم بها قلوب رجال هذه الدولة .

وقد أثرت الأسس التي قامت عليها الدولة في وضعه الشرعي . فنحن نعلم أن الدعوة التي بثها عبد الله بن ياسين في ربوع المغرب كانت تهدف إلى إحياء السنة ، وبعث التقاليد الإسلامية الصحيحة ، ومحاربة العقائد الضالة ، وكان عبدالله — كما رأينا — مجرد فقيه من فقهاء المالكية في المغرب اضطرم فؤاده بحب الإصلاح بسبب الانحلال والتفرق الذي أصاب العالم الإسلامي في عصره ، فأراد أن يعود العالم الإسلامي إلى وحدته ، وأن يعود الناس إلى السنة القويمة ، وأن تقوم الدولة كل معوج ، وأن تعلى كلمة الحق والفضيلة في مجتمع فشا فيه الفساد ، ولم يكن يدور بخلد عبد الله غب نجاحه في توحيد قبائل صنهاجة الجنوب ، وتوجيهها نحو المغرب لفتحه أن يقيم دولة يرثها أبناؤه من بعده ، بل قنع بإرساء قواعد الإصلاح ، وتوجيه المجتمع الجديد الوجهة التي يريدها دون أن يطمع في ملك أو سلطان .

ولما كانت مذاهب السنة تنادي بأن الإمامة لقريش[1] ، وترى أنه « لا تتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها وتجرى السنن عليها [2]» ، ولما كانت رسالة الدولة الجديدة هي إحياء تعاليم السنة كان من الطبيعي أن تعترف بإمامة قريش ، وتعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكها مشروعاً إلا إذا باركته الإمامة القرشية ، ولما كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت ولم يعد يمثل الخلافة القرشية في ذلك الوقت إلا بنو العباس في بغداد ، كان طبيعياً أن تتجه الدولة صوب العباسيين تلتمس العون وتستمد التأييد وتطلب الاعتراف . ولم يكن طبيعيا أيضا أن يعترف المرابطون بإمامة الشيعة ، وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفرون بني عبيد ، ويرمونهم بالزندقة والإلحاد ، « كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح ، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر ، وكان أمير

---

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٣ .

(٢) الذخيرة قسم ٢ مجلد ٢ ص ١٤٨ .

الجيوش بدر أراد إصلاحهم فلم يميلوا إليه ولأقاربه»[1]، وقد تمثل إيمان المرابطين بأحقية بنى العباس فى الإمامة والخلافة فى ما نسب إلى يوسف بن تاشفين، حين طالبه قومه بأن يتخذ لقب أمير المؤمنين فقال «حاشا الله أن نتسمى بهذا الإسم، إنما تسمى به خلفاء بنى العباس، لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم[2]». وهذه صورة واضحة للعقلية الإسلامية فى العصور الوسطى، فقد كان الناس لا يفهمون حكما لا يعترف به خليفة، لا ينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأى الجماعة. ويتمثل هذا الرأى فيما رواه النويرى على لسان الفقهاء بالأندلس، حين قالوا ليوسف بن تاشفين «أنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة»[3].

كانت الدولة إذن لا تكاد تختلف فى وضعها الشرعى عن الدويلات المستقلة التى قامت فى الشرق والغرب معترفة بالخلفاء العباسيين تخطب لهم على المنابر، وتنقش أسماءهم على السكة. فمتى اتصل المرابطون ببغداد يطلبون الاعتراف بهم ولاة شرعيين، يدينون للخلافة بالطاعة. ينسب بعض المؤرخين إلى يوسف بن تاشفين أمر الاتصال بالخليفة العباسى فى بغداد يطلب الاعتراف به، وإرسال التقليد والخلعة ويذكر بعضهم أن هذا الاتصال تم بعد معركة الزلاقة. أعنى بعد سنة ٤٧٩ هـ، كما يذكر البعض الآخر أنه راسل الخليفة أبا العباس أحمد المستظهر بالله[4]، والمستظهر كما نعلم ولى الخلافة سنة ٤٨٧ هـ، أعنى بعد الزلاقة بثمان سنوات. ويذهب فريق آخر[5] أنه اتصل بالخليفة المقتدى بأمر الله الذى ولى الخلافة كما نعلم من

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٣.
(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٨.
(٣) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥.
(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٤. النويرى ج ٢٢ ص ١٩٥.
(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٤.

سنة ٤٦٧ إلى ٤٨٧ هـ ، فكان معاصراً لمعركة الزلاقة . وتؤكد مراجع أخرى هذا الاتصال، وتقول أن يوسف كان يفخر «بأنه معيد دعوة أمير المؤمنين[١]» . ولم يكن من المعقول أن يتصل يوسف بالخليفة العباسي قبل سنة ٤٨٠ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو بكر بن عمر ، وتمت البيعة ليوسف رسمياً ، فلا يبعد أن يكون يوسف قد اتصل بالمقتدى يطلب الاعتراف بشرعية حكمه ، فلما توفى المستظهر سنة ٤٨٧ هـ ، وخلفه المقتدى اتصل به يوسف يطلب تجديد الاعتراف، فقد كان التقليد يتجدد كلما مات خليفة وخلفه آخر ، وهذا يفسر التناقض الظاهر فى رواية المؤرخين . كما أن السكة فى عهد يوسف بن تاشفين قد نقش عليها اسم (عبد الله) أمير المؤمنين ، إشارة للخليفة العباسى[٢] .

ولكن كتب النقود تظهر لنا أن المرابطين دعوا للخليفة العباسى قبل فتح الأندلس بوقت طويل ، فنقشوا اسماءهم على السكة منذ سنة ٤٥٠ هـ ، وذلك فى عهد الأمير أبى بكر بن عمر[٣] ، وظل اسم الخلفاء العباسيين يذكر مقرونا

(١) الحلل الموشية : نقلا عن Dozy: Abbadidarum, vcl. II. p 189, 192

يذكر ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ ما نصه (وتسمى بأمير المسلمين وخاطب المستنصر العباسى الخليفة لعهدة ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربى المغافرى الأشبيلى وولده القاضى أبا بكر فتلطف فى القول وأحسن فى الابلاغ وطلب من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك فى أيدى الناس وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الاقطار والاقاليم .

(٢) Katalog der Orientalischen Münzen, Zweiter band, p 124

قطعة رقم ٥٦٤ بتاريخ ٤٩٧ . انظر : ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) M. H. Lavoix : Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Naticnale, p. 198

Vivesy Escudero : Mcnedas de los Dinastias Arabigo— Espanolas, p. 235.

Katalog der Orientalischen Münzen (op. cit.) Vol. II, p. 123

قطعة رقم ٥٦٣ : نقوش القطعة كما يلى : باسم الامام عبد الله أمير المؤمنين » قطعة رقم ٤٨٥ .

Catalogo de Monedas Arabigos, p. 125

باسم أبى بكر بن عمر حتى توفى سنة ٤٨٠ هـ ، وخلفه يوسف بن تاشفين ، فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسى ، وفى هذا تأييد لما قلناه من أن الدولة الجديدة قد دعت للعباسيين من أول الأمر ، وليس بعد الزلاقة كما يذكر المؤرخون الذين سبقت الإشارة إليهم[١] .

وهنالك ملاحظة أخرى هى أن اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية هو (عبد الله أمير المؤمنين) ، وقد ظل هذا الإسم كما هو حتى آخر العهد بالدولة ، فكان ذلك سببا فى أن بعض الباحثين أثار جدلا حول اسم عبد الله المنقوش على السكة ، فقالوا إنه قد يكون اسم عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين ، ولكن عبد الله كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب ،وهو يعلم أنه من ألقاب الخلافة ، كما أن الرجل لم يتجاوز أبدا سلطة الفقيه ، وترك أمر الحكم ومسئوليته ليحيى بن عمر وأبى بكر بن عمر . كما أن الخليفه المعاصر لقيام الدوله هو أبو جعفر عبد الله القائم بن القادر ، الذى ولى من سنة ٤٦٢ هـ إلى ٤٦٧ هـ ، ثم خلفه أبو القاسم عبد الله عدة الدين المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم ، الذى ولى من سنة ٤٦٧ هـ إلى سنة ٤٨٧ ، وكلا الخليفتين يسمى عبد الله ، كما أن صاحب شذور العقود[٢] يفسر النقوش التى ذكرت على السكة المرابطية هكذا « فى ديناره لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب فى الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسى ، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة »[٣] . ويرى ماكس فان برشم أن الخلفاء العباسيين والأمويين

---

(١) Katalog der Orientalischen Munzen. (op. Cit) Vol. II, p 128
القطعة رقم / ٥٨٢ و٥٨٣ و٥٨٤ و٥٨٥ و٥٨٦ و٥٨٧ و٥٨٨ و٥٨٩ .

(٢) المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود ص ٦٦ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

كانوا يكنون عن أنفسهم بلفظ عبد الله فى النقوش أو النقود ، خصوصا فى عهد عبد الملك بن مروان وهشام ، والمأمون ، والمقتدر ، ويرى أيضا أن أسم عبد الله كان يخلع دائما على من يجهل اسمه المجرد ، ويضيف إلى ذلك قوله أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضى بعدم ذكر الأسماء المجردة ، إنما اكتفت بالكنى والألقاب[١] .

لذلك لم يشأ المرابطون أن ينقشوا اسم الخليفة المجرد على السكة ، واكتفوا بقولهم (عبد الله) ، وهى كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة عباسى ، كما أضافوا قولهم أمير المؤمنين ، وهو لقب لا يلقب به إلا الخلفاء[٢] .

وهنا لك ناحية أخرى تسترعى الانتباه ، وهى ما قيل من أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعاراً لهم ، لأن أعلام العباسيين وأشعرتهم كانت سوداء ، فقد ذكر التيجانى[٣] صاحب الرحلة المعروفة حينما عرض للقتال بين الموحدين وبين بنى غانية الملثمين أن شعارهم كان أسود اللون على حين كان شعار الموحدين أخضر اللون لأنهم كانوا يميلون للدعوة العلوية[٤] . ولكن يجب ألا تغيب عن اذهاننا حقيقة هامة أشرنا إليها فى الباب الأول[٥] من هذا الكتاب ، وهى أن الطوارق فى الوقت الحاضر فريقان : فريق النبلاء ، وفريق العامة ، ورداء الفريق الأول أسود اللون تميزا لهم عن الفريق الآخر ، الذى كان يرتدى الملابس البيضاء ، فليس ببعيد أن يكون الطوارق الحاليون ، ورثوا هذا الرداء عن أسلافهم الصنهاجيين ، وظلوا يستعملونه حتى اليوم . ويؤيد هـــذا القول ماروى من أن المعتصم صاحب المرية أراد أن يتقرب من المرابطين ، فارتدى ثوبا مرابطيا أسود فكان كما يصفه بعض الرواة العرب « كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض »[٥]

(١) M. Max Van Berchem : Titres Califién d' Occident (Journal asiatique, dixieme Serie T,IX, 907, p. 1274

(٢) Idem

(٣) الرحلة التيجانية ص ١٥٨ .

(٤) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٢٤٠ .

(٥) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٩٥ .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن السواد كان شعار المرابطين قبل أن يدعوا للعباسيين على منابر بلادهم ، كما يدل على أن بعض التقاليد القبلية للملثمين قد أثرت في نظم الحكم ، ولعل مما ذكرناه ينهض دليلا على أن طابع الدولة قد أثر في وضعها الشرعي ، وأن التزامها أحكام السنة قد جعلها تعترف بالخلافة العباسية الشرعية ، وقد ظل المرابطون يدعون للعباسيين[1] حتى دالت دولتهم ، فانتهت الدعوى العباسية من المغرب بانتهائهم .

٢ — أثر قيام دولة المرابطين في نظم الحكم :

هذه الروح التي أملت على المرابطين أن يخطبوا للخلفاء العباسيين على منابرهم ، وأن يكتبوا لهم يطلبون الاعتراف بشرعية حكمهم هي التي أملت عليهم أيضاً ألا يتخذوا من الألقاب ما يتعارض مع هذه التبعية . فالمعروف أن من ألقاب الخلافة لقب أمير المؤمنين ، جرى العرف على هذا ، واصطلح عليه الناس ، فكان من الطبيعي ألا يتخذ المرابطون لقب أمير المؤمنين ، وقد وضحت هذه الروح بجلاء في ذلك الحديث الذي نسبه صاحب الحلل الموشية[2] إلى يوسف بن تاشفين حين أراد قومه أن يلقبوه بألقاب الخلافة فأبى ، وقال بأن هذا اللقب من ألقاب الخلفاء العباسيين القرشيين الهاشميين أئمة الحرمين ، وأصحاب الحق المشروع في إمامة العالم الإسلامي .

فما هي إذن الألقاب التي خلعها المرابطون على أنفسهم ؟ اتخذ أولي الأمر من المرابطين لقب الأمير أول الأمر ، وظل هذا اللقب ينقش على السكة منذ سنة ٤٥٠ هـ، طوال حكم أبي بكر بن عمر[3] ، فما كاد الأمر يؤول إلى يوسف بن

---

(١) التيجاني : الرحلة التيجانية ص ٤٤ ، المراكشي ص ١٣٢ .

(٢) Kalalog der Orientalischen Münzen (op. cit), Vol. II p. 130
Piéces No. 59, 601, 603, 648, 649, 650

(٣) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧ .

تاشفين حتى روى المؤرخون أن تغيرا حدث فى ألقـاب الأمراء ، ذلك أن يوسف اتخذ لقب أمير المسلمين ، فمتى اتخذ يوسف هذا اللقب ، وما هى الظروف التى هيأت له أن يتخذ لقباً هو أقرب شيء من الألقاب الخلافية ؟

يميز المؤرخون فى حياة يوسف بين فترتين : فترة ظل يتخذ فيها لقب أمير شأنه شأن أسلافه ، وفترة أخرى اتخذ فيها لقب أمير المسلمين ، وقد أشار صاحب الحلل الموشية[١] إلى أن يوسف ظل يتخذ لقب أمير حتى تضخمت مملكته ، واتسعت أعماله ، فاتخذ لقب أمير المسلمين سنة ٤٦٧ هـ ، قبل أن يعبر البحر إلى الأندلس[٢] ، هذا إلى أن ابن بسام صاحب الذخيرة ذكر طائفة من الكتب بعث بها المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وغيره من ملوك الطوائف إلى يوسف ابن تاشفين يستنجدون به و ينعتونه بلقب أمير المسلمين[٣] . ومن الغريب أن ماكس فان برشم[٤] يذهب هذا المذهب و يؤيد هذا الرأى . ولكن يجب ألا يفوتنا أن نلاحظ أن ابن بسام صاحب الذخيرة شرع فى كتابة موسوعته سنة ٥٠٠ هـ ، أعنى فى أواخر أيام يوسف وأول العهد بعلى بن يوسف ، وفى هذا الوقت بالذات كان قد تأكد للمعاصرين صدق يوسف فى الجهاد ، وتوفيقه فى مدافعة الفرنجة عن بلاد الأندلس ، وانتشر صيته فى الآفاق وأصبح لقب أمير المسلمين شائعاً على كل لسان ، فليس بغريب أن تجد ابن بسام حين يؤرخ للفترة السابقة على سنة ٥٠٠ هـ ، يقرن اسم يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين وناصر الدين ، لأن ابن بسام وهو يؤلف كتابه الذخيرة كان يطمع فى أن يظفر بتقدير على بن يوسف ، أو على الأقل كان يعلى من ذكر يوسف إرضاء لولده على صاحب الأمر فى البلاد . كما يجب ألا يفوتنا أن يوسف بن تاشفين ظل

(١) Katalog der Orientalischen Münzen (op. cit) Vol. p. 123

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٧ .

(٣) الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٩٨و٩٩ .

(٤) M. Van Berchem : Titres Califiens, p 273

عامل أبي بكر على المغرب حتى سنة ٤٨٠ هـ ، حين مات أبو بكر وآل الأمر إليه رسميا ، فكيف يتسنى ليوسف أن يتخذ لقب أمير المسلمين ، وهو لم يزل عاملا من عمال الدولة ، ومجرد أمير لا أكثر ولا أقل ؟

مما تقدم يتضح أن يوسف بن تاشفين لم يكن فى مقدوره أن يتخذ هذا اللقب قبل سنة ٤٨٠ هـ ، فلما عبر البحر إلى الأندلس بقصد الجهاد ، وخالط أهل الأندلس وخالطوه شاع ذكر ذلك اللقب على ألسنة الناس ، كتابهم وشعرائهم ، مدحه الشاعر عبد الجليل بن وهبون فقال[1] :

وليرقبوا من أمير المسلمين ومن ... مؤيد الدين ليلا ماله سحـر

كما أشار شاعر آخر هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبونى فى رثائه ليوسف ابن تاشفين إلى هذا اللقب فقال[2] :

ملك الملوك وما تركت لعامل ... علا من التقوى يشار إليه

اسم أمير المسلمين وناصر الد ... ين الذى بنفوسنا نفـديه

وقد ورد فى رسائل المعاصرين التى ذكرها ابن بسام فى ذخيرته هذا اللقب مقترناً باسم يوسف بن تاشفين . ورد ذكره فى رسائل كتبها ابن القصيرة عن المعتمد بن صمادح[3] ، وفى رسالة أخرى كتبها ابن طاهر بعد سقوط بلنسية[4] ، ورسالة ثالثة كتبها أبو بكر محمد بن ذى الوزارتين المشرف أبو مروان بن عبد العزيز إلى المستعين بن هود[5] ، وفى كل هذه الرسائل لا يكاد يذكر اسم يوسف بن تاشفين مجرداً من لقب أمير وناصر الدين .

---

(١) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٤ .
(٢) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧ .
(٣) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧ .
(٤) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٣ ص ١٨ .
(٥) الذخيرة (م : بغداد) القسم ٢ ص ١١٦ .

لذلك يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين لم يتخذ هذ اللقب إلا بعد اشتراكه في معركة الجهاد في الأندلس ، بل يخيل إلينا أن الأمراء الأندلسيين والفقهاء وذوى الرأى خلعوا عليه هذا اللقب ، اعترافاً بفضله . وإشادة بالجهود الموفقة التي بذلها في محاربة الفونسو السادس ، وانتصاره للمسلمين . أشار صاحب شذور العقود إلى ذلك فقال « فلما فتح يوسف بن تاشفين الأندلس ، وصنع غزاة الزلاقة بايعوه وسلموا عليه بأمير المسلمين ، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك المغرب[١] » .

وقد درج الكتاب المعاصرون وغير المعاصرين على أن يذكروا اسمه مقترناً بهذا اللقب[٢] ، ويخيل إلينا أن يوسف كان أول الأمر يتحرج من ذكر هذا اللقب في مكاتباته الرسمية لأنه كان متواضعا لا يحب أن يدل على الناس بفضل الجهاد في سبيل الدين[٣] ، فلما اعترف الخليفة العباسى به أمر بأن يذكر في الخطبة[٤] .

ولكن عدم إشارة النقود المضروبة في عهد يوسف بن تاشفين[٥] إلى هذا

(١) المقريزى : شذور العقود ص ٦٦ .

(٢) مشيخة عياض ورقة ١٠ (أ) و٦٥ (أ) و٦٦ (أ) . المطرب لابن دحية ورقة ١٩ (ب) و٩٠ (ب) .

(٣) يدل على ذلك ما ذكره صاحب الحلل الموشية حين قال (بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضى وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر وميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر . وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم واسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخص أنفسنا بهذا الإسم لنمتاز به على سائر امراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الإسم ان شاء الله تعالى » انظر الحلل الموشية ص ١٧ .

(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧ .

(٥) Katalog der Orientalischen Munzen (op. cit) vol II; p. 124 Piéces 565, 567, 568, 569, 570, 571, 572, 573, 574, 575, 577, 578, 579; 580; 581.

اللقب لا يعنى أنه لم يخلع على يوسف فعلا[1] لأن النقود التى حفظتها المتاحف المختلفة ليست هى كل النقود المنسوبة إلى عهد يوسف بن تاشفين ، وليس ببعيد أن تكون هنالك دنانير قد نقش عليها هذا اللقب ، ولكنها ضاعت ، ولم يعثر عليها بعد ، بدليل أن صاحب كتاب شذور العقود فسر الكتابات المنقوشة على عملة يوسف بن تاشفين بقوله : « ونقش فى دينار لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب فى الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسى ، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته »[2] .

ومن الغريب أن هذه القراءة تطابق النقوش الموجودة على الدنانير المرابطية التى تحت أيدنا ، مما يدل على أن صاحب الكتاب قد قرأ فعلا نقوش أحد هذه الدنانير المرابطية . مهما يكن من شىء فإن على بن يوسف قد ورث هذا اللقب عن أبيه وأنه ظهر على السكة مقرونا بإسمه منذ توليه سنة ٥٠٠ هجرية ، واستمر ملوك المرابطين يتخذون هذا اللقب ولقب ناصر الدين حتى آخر العهد بهم[3] ، بل إن على بن يوسف اتخذ لقب ولى الله ونقشة على السكة أيضاً[4] .

= Lavoix : Catague des Monnaies Musulmanes de la Bibiothéque Nationales, p. 202.
Piéces : 516, 527, 534, 535, 536, 537, 538, 540, 542, 543.
Monedas de las Dinastias Arabigo-Espanolas
Piéces : 1504, 1505, 1510, 1512, 1513, 1521, 1522, 15:6.

(١) M. Van Berchem : Titres Califiéns d'Occident, J. As. Xéme Serie. S. T. IX. 1907, p. 273

(٢) المقريزى : شذور العقود ص ٦٦ .

(٣) Cataloge de Monedas Arabigos Espanolas que se conservan en el Museo Arquelogico Nacional.
Piéces : 551, 552, 593, 493, 492. Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Nationale : Piéces : 547, 588. 638. 652. Monedas de las Dinastias Arabigo-Espanolas : Piéces : 1552. 1706
Don Francisco Codera y Zaidin : Tratado de Numismatica Arabigo-Espanola. p. 199.

وقد أثرت طبيعة قيام الدولة فى طريقة اختيار ولى الأمر ، ذلك أن دولة المرابطين قد أقامها شعب صنهاجة الجنوب من الملثمين ، فكان من الطبيعى أن تكون الرئاسة فى صنهاجة الجنوب ، وأن يكون ولى الأمر صنهاجياً . وقد أشرنا فى الباب الأول من هذا الكتاب إلى أن القبيلة الغالبة فى المجتمع المغربى كانت تستأثر بالنفوذ والسلطان كله ، وتستذل القبائل المغلوبة على أمرها ، وتحاول أن تستفيد من النصر بقدر ما تستطيع ، وتختص أبناءها بالغنم كله وبالثمار كلها ، وقد رأينا كيف أن قبيلة لمتونة كانت سيدة شعب الملثمين ، وصاحبة الكلمة فيه وصاحبة الفضل الأول فى إقامة الدولة ، فكان طبيعياً أن يكون ولى الأمر لمتونيا من القبيلة الغالبة . كما أشرنا إلى أن القبائل صاحبة السيادة كانت تؤلف طبقة أرستوقراطية فى المجتمع الملثم تختص نفسها بالشرف وبالرئاسة ، ولما كانت رئاسة لمتونة فى بنى ورتنطق كان لا بد أن يكون ولى الأمر من بنى ورتنطق هؤلاء ، كان منهم يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، وعلى بن يوسف وجميع خلفائه .

إذن لم تكن البيعة عامة ، ولم يكن حق الاختيار مطلقاً ، بل كان على الشعب أن يختار أميره من هذا البيت بالذات ، ومن قبيلة لمتونة ، ومن شعب صنهاجة . ولكن الدور الذى اضطلعت به الدولة فى إحياء السنة ، والسير وفق تعاليمها قد جعلها تعمد إلى نوع من الشورى فى اختيار الأمير ، فكانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم الأمراء من بنى ورتنطق ، ثم سادة لمتونة ، ثم سادة القبائل الأخرى ، ثم زعماء القبائل الخاضعة لنفوذ المرابطين ، حتى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة تلى العقد فى المساجد وقرىء على الناس ، ثم يخطب للأمير على المنابر إلى جانب خلفاء بنى العباس ، وينقش اسمه على السكة والطرز والبنود[1] .

---

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٧٣ .

وإذا كنا قد عرضنا لولى الأمر وألقابه وطريقة اختياره وأخذ البيعة له فيجب علينا أن نعرض لنظام ولاية العهد ، وأن نبين إلى أى حد تأثر المرابطون بتقاليدهم البدوية ، وبالمذهب الذى أحيوه ، ورفعوا لواءه وعملوا بتعاليمه . ليس من شك فى أن المجتمعات البدوية لم تكن تعرف مبدأ التوريث الذى يقضى بأن يرث الابن أباه فى السؤدد وفى مشيخة القبيلة ، لأن القبائل البدوية عادة لم تكن تعقد لواء المشيخة إلا لمن توافرت فيه صفات خاصة من حكمة ونجدة وشجاعة وكثرة بذل وعطاء ، لذلك قلما كانت المشيخة تنتقل من الأب إلى ولده ، إنما كانت تنتقل إلى الأصلح من أقربائه وأهل أسرته .

وقد تجلت هذه التقاليد البدوية بوضوح وجلاء فى طريقة اختيار الأمراء فى أول العهد بالدولة ، فقد بايع عبد الله بن ياسين الأمير يحيى بن عمر لتحمسه للدعوة وصدق جهاده ، فلما مات يحيى بويع لأبى بكر بن عمر ، وهو من نفس البيت ومن نفس القبيلة ، ولم نسمع أن يحيى قد ولى أحدا عهده ، كما لم نسمع طوال حكم أبى بكر بن عمر الذى امتد من سنة ٤٥٠ هـ إلى ٤٨٠ هـ أنه ولى عهده أحدا .

لا ننكر أن بعض النقود ظهر عليها اسم ابراهيم بن أبى بكر ، وأن هذه النقود ضربت بسجلماسة[١] ، ولكن سك النقود باسم ابراهيم بن أبى بكر لا يعنى أنه كان ولى عهد ، إنما كان أميراً على سجلماسة فى الوقت الذى كان فيه يوسف ابن تاشفين أميراً على المغرب ، وقد قضت التقاليد بأن يتمتع كل أمير بشبه استقلال محلى فى ولايته ، وأن يكون له حق سك النقود باسمه .

أما يوسف بن تاشفين الذى خلف أبا بكر بن عمر ، فقد اختير بسبب احرازه النصر فى معارك المغرب والأندلس . اختاره الملثمون لما أسداه للدولة من

---

(١) Lavoix : Catalogne des Monnaies Musulmanes de la bibliothéque Nationale. Piéces 514. 515

خدمات جليلة . من ذلك يتبين أن الدولة حتى عهد يوسف لم تكن تعرف نظام ولاية العهد بالصورة التى ترسمها النظم الإسلامية ، إنما كان المجتمع اللمتوني يولى الأصلح ، ويعقد لواء الإمارة للقادة الشجعان الذين يتوسمون فيهم الإخلاص للمبادىء الجديدة . وقد ظهر فى طريقة اختيار هؤلاء الأمراء صدى التقاليد البدوية والتقاليد الإسلامية ، التى تقول بالشورى واختيار الأفضل والأصلح .

لكن عهد يوسف بن تاشفين تمخض عن تطور جديد ، إذ ظهر نظام ولاية العهد فى النظم المرابطية لأول مرة ، فقد رأى يوسف أن الدولة قد اتسع نطاقها وانبسط ظلها فشمل المغرب والأندلس وإقليم الصحراء حتى نهر السنغال والنيجر ، فأراد أن يضع للدولة نظاماً يكفل لها الوحدة ، ويعصمها من الفرقة ، ويحسم داء الخلاف[1] الذى قد يهدد الدولة الناشئة بانقسام خطير ، فأدخل نظام ولاية العهد ، وأصبح تقليدا سار عليه خلفاؤه ، فقد روى المؤرخون أن يوسف قدم إلى الأندلس سنة ٤٩٦ هـ أو ٤٩٧ هـ ، وكانت بلنسية قد سقطت منذ سنة أو أكثر ، وكان المرابطون قد أحرزوا نجاحا فى المعركة الصليبية ، وهدأت الأحوال فى البلاد ، و بدأت الأمور تستقر ، وقد أحضر معه ولده عليا وأخذ له البيعة بقرطبة[2] حاضرة الأندلس ، كما أخذها بمدينة مراكش[3] حاضرة المغرب حتى يشترك الأندلسيون والمغاربة فى مبايعة الأمير الذى سيحكم القطرين ويوحد بين الشعبين .

وقد أتى صاحب كتاب الحلل الموشية بنص عقد البيعة[4] ، وهى وثيقة هامة

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠١ . مفاخر البربر ص ٥٣ .
Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale. p. 210 Piéce : 536

(٣) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج ١ ص ١٢٢ .

(٤) نص عقد البيعة وهو من إنشاء الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور .

تلقى ضوءً على نظام ولاية العهد كما وضعه يوسف بن تاشفين ، إذ تبين أن أمير المسلمين حين نزل بقرطبة دعا أمراء لمتونة ، وأشياخ البلاد والفقهاء وقادة الرأى فى البلاد ، ثم تلى عليهم عقد البيعة الذى يتضمن الأسباب التى حملته على اختيار ولى العهد ، ويضع الشروط التى يجب أن تتوافر فيه ، ويوضح المبادىء التى يسير عليها فى حكم البلاد ، ثم أخذت البيعة من الحاضرين الذين أقسموا يمين الطاعة والولاء ، ثم وقعوا على العقد ، وتقدم ولى العهد فأقسم أمام الجماعة بالتزام شروط العقد ، وترسم السياسة التى وضعها أبوه ، لا يحيد عنها قيد أنملة ، ثم أشهد الكتاب ، وأخذ توقيعة على الوثيقة[1] .

يتبين من عقد البيعة هذا أن يوسف قد خضع لمؤثرات قبلية ومؤثرات مستوحاة من طابع الدولة وسياستها القاضية بإحياء السنة ، ورفع لواء مذهب مالك والتمسك بأهداب تقاليد السلف الصالح ، لأن يوسف لم يغفل مبدأ الاختيار الذى تفرضة التقاليد البدوية ، فكان له ابناء كثيرون ، ولكنه اختار أصلحهم واقدرهم على الأضطلاع بهذا العبأ الثقيل ، برغم أن عليا كان أصغرهم سنا . لأن الدولة بطبيعتها المزدوجة فى حاجة إلى أمير يؤلف بين قلوب ابناء الأندلس والمغرب ، لا يغفل أمر الجهاد ، ولا يتنكر لمبادىء عبد الله بن ياسين . يبدوهذا كله بجلاء من نصوص الوثيقة إذ تقول — « فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن

= « أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباد الله المؤمنين خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الاشياء الكريعة كيف فى هذه الأمور .... وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه ، واحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا إلى المعالى ، واهتزازا واكرمها سجية وانفسها اعتزازا فاستناب فيما استرعى ودعا إلى ما كان اليه دعا بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فى ما استرعاه فاحضروه مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقبل ورضى ... »

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٥٦ — ٥٧ .

أكثرهم ارتياحا إلى المعالى واهتزازا وأكرمهم سجية وأنفسهم اعتزازا فاستنابه فيما استرعى، ودعاه إلى ما كان اليه دعى[1]».

وتكشف لنا الوثيقة عن أمر آخر هو تمسك يوسف بالشورى ، وحرصه على استشارة أهل الرأى تحقيقا للتقاليد الإسلامية والبدوية معا، « ودعاه إلى ما كان اليه دعا بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه »[2] . وكانت البيعة مشروطة بشروط خاصة ، إذ كان على الأمير المبايع له أن يلتزم سياسية معينة لا يحيد عنها ، لأنه اقسم أمام الملأ أن يلتزمها وألا يتعداها ، فإذا أحس أهل الرأى ووجوه القوم أنه قد خرج على نصوص عقد البيعة ، وحاد عن المبادئ التى أقسم على احترامها كان لهم أن يتحللوا من إيمانهم ، وأن ينقضوا العهد . وكان باستطاعة أمير المسلمين إذا شاء أن يخلع هذا الابن من ولاية العهد ، إذا آنس منه تغيرا أوتبدلا ، ويولى من أبنائه أكثرهم صلاحية لهذا المنصب الخطير ، جاء فى الوثيقة « ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه فأحضروه مشترطا عليه الشروط الجامعة بينه وبين المشروط ، فقبل ورضى وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخير والاستعانة بالله الذى من آمن به شكره »[3] .

وكان ولى العهد يتخذ لقب أمير ، كما يتبين من عقد البيعة ومن الألقاب المنقوشة[4] على السكة ، وكان اسمه ينقش على السكة إلى جانب اسم أبيه فيقال

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) Lavoix : catalogue des Mannaies Musnimanes p. 210.

لا إله إلا الله
محمد رسول الله
الأمير على بن الأمير
يوسف بن تاشفين

« الأمير على بن الأمير يوسف » ، ويقال أحيانا أخرى « الأمير يوسف وولى عهده الأمير على». وقد ظل اسم على بن يوسف يكتب على السكة إلى جانب اسم أبيه من سنة ٤٩٧ هـ إلى سنة ٥٠٠، كما ظل اسم سير بن يوسف يكتب على السكة ، حتى استبدل به الأمير تاشفين بن يوسف ، وقد اختار تاشفين ولده ابراهيم وليا لعهده ، ونقش اسمه على السكة أيضا ـ وكان يدعى للأمير ولى العهد على المنابر بعد أبيه ، كما يختص بالولاية على الأندلس ، يقيم فى قرطبة[١] ، حتى إذا مات أبوه انتقل إلى مراكش ، وبويع أميرا للمسلمين .

وهنا لك ناحية أخرى تركت فى نظم الحكم فى عهد المرابطين آثارا بعيدة المدى ، هى أنه لابد للقائمين على الدولة والمهيمنين على شئونها من أن يحولوا بين الحلف المؤسس للدولة وبين التفرق ، لأن الدوله تستمر قوية فتية متساندة طالما كانت القبائل مؤسسة الملك متآلفة وابناء القبيلة الواحدة متحالفين متآزرين ؛ فاذا دب النزاع بين قبائل الحلف الواحد أو بين أفراد القبيلة الواحدة تفرق الشمل[٢] ، وتقدمت القبائل المعادية من مضاربها تنال من الدولة ، وتدك صرحها ، لذلك يجب أن تختص القبيلة المنتصرة بثمار النصر ، وتحرص على أن يكون لها الامتياز فى جميع مرافق الحياة ، وتؤلف طبقة حاكمة مسيطرة .

فطن إلى هذه الحقيقة المؤرخون الذين تعرضوا لدراسة النظم الإسلامية فى المغرب والأندلس على الخصوص ، مثل ابن خلدون[٣] ، والطرطوشى صاحب كتاب سراج الملوك حين قال « ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو أن تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن إلى حملة القرآن والعلم ، وحفاظ الشريعة وتدنى مجالسهم

---

(١) لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ١ ص ٣٩ .

(٢) Rodd : People of the Veil p 343

(٣) ابن خلدون : المقدمة .

وتقرب الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين، وكذلك فلتفعل بالأشراف من كل قبيلة والرؤساء المتفرعين من كل نمط، هؤلاء هم أزمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة أن تبقى على كل ذى رياسة رياسته، وعلى كل ذى عز عزته وعلى كل ذى منزلة منزلته[1] ».

وقد وضع أمراء المرابطين هذه السياسة نصب أعينهم، فقد روى ابن خلدون أن يوسف « اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه »[2]، فلننظر إلى أى حد يصدق قول ابن خلدون، وإلى أى حد طبق يوسف هذه السياسة القبلية سواء فى الأندلس أم فى المغرب.

كان ولاة المغرب جميعهم من قبيلة لمتونة على الخصوص، أو من صنهاجة على العموم، وقد كان يوسف بن تاشفين نفسه قبل أن يصير إليه الأمر عاملا على المغرب من قبل أبى بكر بن عمر، أما مدينة فاس وسبتة، فقد وليهما الأمير أبو بكر بن ابراهيم[3] وولى تلمسان تاشفين بن تيناسر[4]، والأمير مزدلى[5]، وولى أبو بكر بن محمد اللمتونى بلاد السوس[6]، وكان أبو بكر بن ابراهيم قبل أن يولى على فاس عاملا على إقليم الصحراء[7]، أما سجلماسة فقد وليها ابراهيم ابن أبى بكر بن عمر[8]، وأبو عبد الله ابن أبى زنفى[9]، كما كان عامل دكالة من قبيلة لمتونة[10].

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١١٤ .
(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٥ .
(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٢ .
(٤) Marçais : Les Arabes en Berbéries du XIé au XIV Siécles. p. 141.
(٥) التادلى : التشوف ص ١٠٩ .
(٦) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٤ .
(٧) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣ .
(٨) Lavoex : Cat. des. Monnaies. Musul. p.XLII
(٩) الفتح بن خاقان : القلائد ص ٢٩٤ .
(١٠) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩ .

ولم يختلف الحال فى الأندلس عنه فى المغرب ، فقد ولى يوسف على غرناطة عليا ابن يوسف ، وأبا الحسن على بن الحاج ، وموسى بن الحاج ، وأبا بكر بن ابراهيم ، ويحيى بن أبى بكر بن ابراهيم ، وأبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ، وأبا محمد مزدلى ، وأبا محمد تاشفين بن على بن يوسف ، وأبا بكر بن أبى محمد ، وأبا طلحة الزبير بن عمر ، وعثمان بن بدر اللمتونى [1] . أما قرطبة فقد وليها محمد بن الحاج بن عمر الصنهاجى ، وولده المنصور ، وأبو محمد تاشفين بن على ، والزبير بن عمر الملثم [2] ، وولى مرسية أبو عبد الله بن عائشة ، وابراهيم بن يوسف بن تاشفين [3] ، وأبو عبد الله محمد بن تاشفين ، وأبو بكر بن تيفويت ، وأبو عبد الله يينتان بن على، وأبو عبد الله بدر بن ورقاء ، وابراهيم بن تاعياشت ، وأبو زكريا يحيى بن غانية [4] ، وولى إشبيلية سير بن أبى بكر ، ويحيى بن سير بن أبى بكر ، وعبد الله بن فاطمة ، وابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وأبو حفص عمر ، وعبد الله بن أبى بكر بن جنونة ، ويحيى بن على بن منصور ، وأبو يعقوب بن على ، وأبو بكر بن على بن يوسف ، ويحيى بن اسحق ، وآ بجار ، وأبو بكر بن مزدلى ، والأمير آسنجور وطلحة بن العنبر ، والمنصور بن الحاج [5] ، وولى سرقسطة أبو عبد الله محمد بن الحاج وأبو بكر بن ابراهيم ، وابن تيفلويت [6] ،

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٣٩ .

(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ص ٩٤ . ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ . ابن الخطيب الإحاطة ج ١ ص ٢٨١ .

Dozy : Recherches sur L' histoire et la Litterature de I. Esqagne Pendant le Moyen-age. vol. I. ap. XXVIII p lxxiv

(٣) ابن الأبار التكملة ج ١ ص ٥٥ . ديوان ابن خفاجة ص ٢٠ . الضبي : بغية الملتمس ص ١٧ ، الفتح : المطمح ص ٩٨ .

(٤) مفاخر البربر ص ٨٢ .

(٥) ديوان خفاجة ص ٧٩ و ٨١ .

Levi — Provençal : Introduction p. 181

(٦) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٣٠٢ ، المقرى : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

وولى المرية عمر بن إسام بن المعتز الصنهاجي ، وتاشفين بن علي[1] ، وولى بلنسية الأمير مزدلي بن سلنكان ، وأبو عبد الله بن فاطمة[2] ، ثم الأمير علي بن مجون ، ثم القائد أبو عبد الله محمد بن الحاج ، ثم الأمير أبو بكر بن ابراهيم بن تيفلويت ، ثم الأمير أبو الطاهر بن تميم بن يوسف ، ثم الأمير ابراهيم بن تاعياشت ، ثم القائد أبو زكريا يحيي بن تاسورة ، ثم القائد بدر بن ورقاء ، ثم القائد أبو يعقوب بن ينتان بن علي ، ثم القائد أبو زكريا يحيي بن علي[3] .

من هذا يتبين كيف كانت الدولة أمينة على تراثها القبلي ، حريصة عليه ، عاملة بقدر الطاقة على أن تؤلف بين قلوب الأمراء والأشراف وشيوخ العشائر والقبائل ، حتى يظل الحلف قوياً متماسكا لا تذهب ريحه ، ولا يتفرق شمله . وليس عجيباً أن تثير هـذه السياسة ثائرة أهل الأندلس الذين كانوا يطمعون في أن يصيبوا من الدولة الجديدة نفعاً وغنما .

ولما كانت الأحلاف القبلية المؤسسة للدول تتألف من قبائل عدة تربط بينها رابطة القرابة والمصلحة المشتركة ، تتمتع كل قبيلة باستقلال ذاتي في نطاق هذه الوحدة العامة ، لكل شيخها وأشرافها الذين يصرفون شئونها ، ويتمتعون بنفوذ مطلق على أفرادها ، كان طبيعياً أن تتسم هذه الحكومات القبلية بسمة اللامركزية ، لا يستبد ولي الأمر برأيه ، بل يشاركه النبلاء والأمراء في كل ناحية من نواحي الإدارة .

وقد تأثرت دولة المرابطين بهذه الروح القبلية تأثراً عظيما ، حتى إنه ليبدو للمتأمل في نظام الحكم في عهد المرابطين ، أنه نظام اقطاعي لا مركزي ،[4] يتمتع

(١) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ص . ٢٢٥ .

(٣) مفاخر البربر ص ٢٠ .

(٤) Terrasse : Hist. Du Maroc p. 248

حكام الأقاليم فى ظلة بسلطة محلية مطلقة لا تربطهم بولى الأمر ، إلا رابطة الولاء من ناحية ، ورابطة القرابة من ناحية أخرى .

وقد تجلى هذا النظام اللامركزى بوضوح فى الأندلس ، وفى المغرب فكانت بلاد الأندلس ولاية شبه مستقلة يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين ، مطلق السلطة ، ولا يولى فى هذا المنصب الخطير ، إلا أقرب المقربين من ولى الأمر من ذوى قرباه[1] ، وكثيرا ما كان ولاة العهد يولون على الأندلس فى حياة أبيهم ، فإذا اعتلى ولى العهد العرش ولى أكبر أخوته فى هذا المنصب الخطير ، وممن حظى بالولاية على الأندلس القائد الشهير سير بن أبى بكر ، الذى أخضع ملوك الطوائف ، وبسط سلطان المرابطين فى البلاد[2] ، وقد خلفه أبو عبد الله محمد ابن عائشة[3] ، ثم على بن يوسف وقت أن كان ولياً للعهد فما أصبح أميراً للمسلمين ولى أخاه أبا الطاهر تميم[4] .

وكان نائب أمير المسلمين فى الغالب يتخذ غرناطة أو قرطبة أو اشبيلية مقراً لحكمه[5] . وكانت سلطة هؤلاء النواب فى الواقع تكاد أن تكون مطلقة ، فكانوا يولون الولاه ويعزلونهم ويراقبونهم مراقبة دقيقه ، يتبين ذلك من كتاب ليوسف بن تاشفين بعث به إلى أحد هؤلاء النواب ، جاء فيه « واستعمل عليها من يرفق بها ، ويعدل فيها ، وأخرج كل من يحيف عليها ، ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو خرق فى أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما ، فأعزله عن عمله وعاقبه فى بدنه[6] » ، بل كانوا

---

(١) الحلل الموشية ص١٣ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و٥٤ . الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٦٦ الحلل ص ١٣ .
(٣) المراجع السابقة .
(٤) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٥) مفاخر البربر ص ٨٢ .
(٦) الفتح : قلائد العقيان ص ١١٣ .

يولون القضاة وينقلونهم ويعزلونهم ، فقد روى أن الأمير سير نقل القاضى ابن شبرين إلى قضاء أشبيلية[١] . وكان القضاه خاضعين لنائب أمير المسلمين[٢] .

وكانت تعقد للوالى القيادة العليا على جيوش المرابطين بالأندلس ، حتى تظل معركة الجهاد مستمرة لا تتوقف ، لذلك كان أغلب أعوانه من رجال الحرب والقواد . قال يوسف لنائبه سير بن أبى بكر « كل بلد أخذته فول عليه أميراً من عساكرها »[٣] ، فكانت الحكومة ذات صبغة عسكرية بحته ، وكان الأمير يحرص أشد الحرص على تزويد الحرب بما تحتاج إليه من عدة وسلاح : « قوى الحصون وسد الثغور وأذكى العيون واتخذ مخازن السلاح وعمل التراس ونسج الأدراع وفصل البيضات والسيوف وربط الخيل »[٤] .

ويبدو أن الأمير كان يتخذ دور ضرب فى عواصم الأقاليم لسك النقود باسم أمير المسلمين ، يدل على ذلك ما ذكرته كتب السكة من تعدد دور الضرب فى الأندلس ، فقد اتخذ الأمراء دور ضرب فى أشبيلية ، وبلنسية ، والجزيرة ، ودانية وغرناطة ، وقرطبة ، ومالقة ، ومرسية والمرية ، وسرقسطة ، وسنلوكة ، وقونكة[٥] .

كما اتخذوا دوراً للضرب فى أغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول ونول لمطة وسبتة وسلا[٦] . وكان الأمير فوق ذلك كله يجلس للنظر

(١) المقرى : أزهار الرياض ص ١٠٦ .

(٢) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ١٩٧ .

(٣) Dozy : Historia Abbadidsrum, vol II p 249

(٤) ابن الخطيب الإحاطة جـ ١ ص ٢٨١ .

(٥) Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de Bibl Nat.
Monedas de las Dinastias. Arabigo - Espanolas.
Catalogo de Monedas arabigo sEspaonlas

(٦) Lavolx : Catalogue des Monnaies Musulmanes de La Bib. Nat.
Monedas de las Dinastias Arabigo—Espanolas
Catalogo de Monedas Arabigos—Espanolas.

فى المظالم ، و يقرأ الرقاع و يجيب عنها ، ويكتب التوقيعات . و ينفرغ للمناظرة فى يوم الجمعة[١] ، فكان قصره فى الواقع عصب الحكومة فى بلاد الأندلس .

ويبدو أن ما كان يتمتع به نائب أمير المسلمين فى هذه الحدود العامة قد تمتع به الأمراء المحليون فى حدود ضيقة ، فقد كان نائب أمير المسلمين يولى على مقاطعات الأندلس رجالا من أمراء البيت اللمتونى[٢] ، وكان هؤلاء بدورهم يولون فى حدود اختصاصاتهم ولاة من أهل اللثام ، وكان العامل الصغير يدين بالولاء لقائد المنطقة ، وقائد المنطقة يدين بالولاء لنائب أمير المسلمين الذى يدين بالولاء لأمير المسلمين صاحب السلطة العليا فى الأمبراطورية كلها .

وكان نائب أمير المسلمين ومعاونوه من أمراء الأقاليم يتخذون كتابا يخلع عليهم بعض المؤرخين لقب وزراء[٣] ، يتولون الأعمال الإدارية ، فيحررون الرسائل ، و يعرضون على الأمير مايعن لهم من أمور لأخذ رأيه فيها ، فقد اتخذ سير بن أبى بكر أبا محمد عبد المجيد بن عبدون[٤] ، واتخذ أبو عبد الله محمد بن الحاج محمداً بن عبد الملك بن عبد العزيز ، وأبا عبد الله بن أبى الخصال[٥] ، واتخذ أبو بكر بن ابراهيم أبا بكر بن الصائغ[٦] ، وأبا جعفر بن البنى[٧] ، واتخذ تميم بن يوسف علياً بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى[٨] ، وعبد الرحمن ابن أحمد بن إبراهيم[٩] . واتخذ تاشفين بن على الزبير بن عمر اللمتونى ، وأغلب

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٢٨٤ .
(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٤ .
(٣) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٢٤٣
(٤) المراكشى : المعجب ص ١٠٤ .
(٥) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ١٣٢ .
(٦) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٢٤٣ .
(٧) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٣٠١ .
(٨) ابن الزبير : كتاب صلة الصلة ص ٨٢ .
(٩) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٢٤١ .

هؤلاء من فحول البلاغة وأعلام الأدب فى الأندلس . وكان كل أمير من هؤلاء كأنه ملك مستقل له قصره وله حاشيته وله بطانته . وصف ابن الأبار مجلس الأمير تميم بن يوسف حين أناخ بظاهر مرسية ، فقال « كان معه فقهاء قرطبة وعميدهم أبو الوليد بن رشيد فيهم ، وهم حوله وقد استداروا به حلقة مع من حضرهم من الرؤساء[1] » .

ويبدو أن المغرب بين الأوسط والأقصى قد نظما على هذا النمط ، مصداق ذلك هذه السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها يوسف بن تاشفين ، وهو لم يزل أمير المغرب ، نائبا عن أبى بكر بن عمر ، حتى حيل إلى المؤرخين أنه صاحب الكلمة الأولى فى البلاد ، فكان يولى العمال ويعزلهم ويؤسس المدن ويجند الجند ، ويتصرف كأنه حاكم مطلق السلطة لا تربطه بالأمير الشرعى إلا رابطة الولاء .

وكان لأمير المسلمين نائب فى الأندلس وأكثر من نائب فى المغرب ، كان نائبة فى إقليم مراكش الساحلية يتخذ مدينة فاس قاعدة لحكومته[2] ، ويذكر بروفنسال فى مقدمته لكتاب البيدق أنه كان يسمى سلطان المغرب[3] . وقد لعبت إمارة فاس دورها فى تاريخ المرابطين ، حتى لقد حاول بعض أمراء آل تاشفين أن يستقلوا بها استقلالا تاماً[4] فلم يفلحوا . وكان أمير المسلمين لا يولى على إمارة فاس إلا أقرب الناس إليه وأدناهم منه[5] .

ويخيل إلينا أن إقليم المغرب الأوسط كان يتمتع باستقلال لا يقل عن استقلال الولايات الأخرى ، بل كانت أهمية المغرب الأوسط تفوق أهمية غيره

---

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٥٧ .

(٢) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١١٢ .

(٣) أبو بكر الصنهاجى البيدق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت : مقدمة بروفنسال .

(٤) يوسف أشباخ : بلاد الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٥) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١١٢ .

من أقاليم المغرب ، فقد كان يحرس المغرب الأقصى ، ويوقف بني حماد وحلفاءهم عند حدهم ، ويرد كيدهم عن المغرب الأقصى ، وممن تولوا إمرة تلمسان تاشفين بن تينامر ومزدلي فاتح بلنسية[١] . ومن الولايات الهامة أيضاً ولاية سجلماسة ، فقد كانت تحرس حدود الدولة من الجنوب لأنها تحف بإقليم الصحراء ، وقد وليها أول الأمر يوسف ابن تاشفين ، واتخذها حاضرة للدولة ، ثم وليها إبراهيم بن أبي بكر[٢] ، وكانت هذه الإمارات الكبرى تتألف من وحدات صغرى يتولاها رجال من قبل النواب والأمراء . ولا يبعد أن تمثل دور ضرب النقود في المغرب قواعد هذه الإمارات الصغرى ، مثل أغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول ونول لمطة وسبتة وسلا[٣] .

وكان الأمراء سواء في المغرب أو في الأندلس يعيشون في مقاطعاتهم شبه مستقلين كأنهم الملوك ، ويمنحون سلطانا واسعاً ، ولكنهم يدينون بالولاء لأمير المسلمين . ويخيل الينا أن أمير المسلمين لم يكن يتيح لهؤلاء النواب فرصة البقاء في إماراتهم مدة طويلة مخافة أن يستقلوا بالأمر ، كما حدث في قرطبة حينما أراد صاحبها أبو عبد الله محمد بن الحاج أن يستقل بها عن أمير المسلمين علي بن يوسف[٤] ، فنقل أبو بكر بن ابراهيم من سجلماسة[٥] إلى سبتة ثم إلى الأندلس[٦] ، ونقل مزدلي من بلنسية إلى تلمسان ، ولا بد أن تكون ثمة تنقلات كثيرة من هذا القبيل قد حدثت ، ولكن لا نعرف عنها الشيء الكثير .

---

(١) البادلي : التشوف ص ١٠٩ .

(٢) Lavoix : (op. cit.) p. XLII

(٣) Annales de L'institut des études orientales (Faculté des Lettres de L'université d'Alger) T. I', p. 187

(٤) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٩٣ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٦) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١١٢ .

وكان أمير المسلمين يقظا عينه ساهرة لا تغفل ، يراقب هؤلاء الولاة مراقبة دقيقة ، ويرقب سير الأمور عن كثب مخافة أن يستبد أمير بالأمر أو يسيء السيرة ، فإذا ولى أمير وانصرف إلى مقر إمارته أرسل إليه أمير المسلمين يرسم له السياسة التى يسير عليها فى حكم الرعية ، ويضع له قواعد لا يتعداها ، ويبين له أموراً لا يغفل عنها .

ومن حسن الحظ أن صاحب قلائد العقيان(١) جاء بنص فى غاية الأهمية ، وهو كتاب وجهه يوسف بن تاشفين إلى أحد هؤلاء الأمراء يعتبر فى الواقع دستوراً فى الحكم يطبق فى عصره ، يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ويضع مصلحة الرعية فى المقام الأول ، وقد جاء فيه «وكتب عنه أبو القاسم بن الجد أيده الله ونصره ، إلى أبى محمد عبد الله بن فاطمة رحمه الله : كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك وأعز بتقواه قدرك وشد فيما تتولاه أزرك وعضد بالتسديد أمرك من حضرة مراكش حرسها الله وقد رأينا والله ولى التوفيق والهادى إلى سواء الطريق أن نجدد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق و إيثار أسباب الرفق لما نرجو من ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه فى قول وعمل وأنت أعزك الله ممن يستغنى بإشارة التذكرة ويكتفى بمحة التبصرة لما تأوى إليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك وملك يده زمامك واصبر عليه فى القوى والضعيف أحكامك وارفع لدعوة المظلوم حجابك ولا تسد فى وجه المضطهد بابك ووطن للرعية أحاطها الله أكنافك وابذل لها أنصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سدد عليها من عمالك زيادة أو خرق فى أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما فأعزله عن عمله وعاقبه فى بدنه وألزمه ما أخذ متعديا إلى أهله واجعله نكالا لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى

---

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٣ .

على تسديدك والملتقى بعضدك وتأييدك لا إله إلا غيره ولا خير إلا خيره[١] » .

هذا الكتاب يشف فى الواقع عن هذه المؤثرات الجديدة التى أحيتها دعوة عبد الله بن ياسين إمام المرابطين ، بل هى أبلغ دليل على مايستطيع الإسلام أن يفعله حين يهدى أمثال هؤلاء البدو إلى صراط الحق وطريق العدل .

وكان أمير المسلمين يعين هؤلاء الأمراء لفترات محدودة ، ويضعهم تحت الاختبار حتى إذا ثبتت صلاحيتهم ، ورضى عنهم الكافة ثبتهم فى مراكزهم ، ومنحهم سلطة الأمير كاملة غير منقوصة[٢] ، وكان أمير المسلمين يخطر أهل الولاية ويبلغهم نبأ تعيين الأمير ، ويبين لهم محاسنه ، ويرغبهم فى طاعته ، ويؤلف قلوبهم على محبته[٣] . فقد كتب إلى أهل سبتة بولاية الأمير أبى زكريا يحيى بن أبى بكر يقول : « كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه وأسبغ عليكم نعماه وقد رأيت والله فضله يقرن جميع آراءنا بالتسديد ولا يخلينا فى كافة أعمالنا من النظر الحميد أن نولى أبا زكريا يحيى بن أبى بكر محل ابننا الناشىء فى حجرنا أعانه الله وسدده فيما قلدناه إياه من مدينتى فاس وسبتة وجميع أعمالها حرسهما الله على الرسم الذى تولاه غيره قبله فأنفذنا ذلك له لما توسمناه من مخايل النجابة قبله ورضيناه بما نرجو أن يحتذيه ويتمثله ويجرى عليه قوله وعمله ونحن من وراء إختباره والفحص عن أخباره لا نني بحول الله فى امتحانه وتجريبه والعناية بتخريجه وتدريبه والله عز وجل يحق مخيلتنا فيه ويوفقه من سداد القول والعمل إلى ما يرضيه ، فإذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة والنصح والمشايعة جهد الاستطاعة وعظموا بحسب مكانه منا قدره وامتثلوا فى كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره[٤] » .

---

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

وكان الأمير أو النائب برغم هذا السلطان الواسع الذى يتمتع به يشاور أمير المسلمين فى كل أموره ، ويكتب إليه بكل ما يجد فى ولايته ، لا يقطع بأمر حال إلا بموافقته ، كما كان يكتب إليه بالفتح ويواليه أولا بأول باخبار الجهاد فى الأندلس[1] .

مما تقدم يتبين لنا فى وضوع وجلاء أن الأمور العسكرية كانت وقفا على أشراف لمتونة على وجه الخصوص ، وأشراف صنهاجة على العموم ، أو بمعنى أوضح كانت السلطات العليا وقفا على رجال القبيلة الذين أقاموا الدولة بجهادهم وكفاحهم ، لكن يبدو أن الوظائف المدنية الأخرى من الكتابة والحسبة وجباية الأموال والبريد[2] والقضاء لم تكن وقفا على رجال القبلية مؤسسة الدولة ، فقد روى المؤرخون أن المرابطين استخدموا فى هذه الوظائف رجالا من غير قبيلة صنهاجة ، استعانوا فى المغرب بأهل القبائل الأخرى التى دانت لهم بالطاعة ، كما استعانوا بالأندلسيين الوافدين على المغرب والمقيمين فيه خصوصا بعد أن وحدت الدولة بين العدوتين .

نعم بدأ المؤرخون يتحدثون عن طائفة من الكتاب والوزراء دخلت فى خدمة الدولة الجديدة ، و بدأوا يتحدثون عن الكتابة والوزارة كنظام قائم وطيد الأركان له تقاليده ، وهنا يطيب لنا أن نسأل متى استخدم المرابطون الكتاب والوزراء ، ومتى جعلوا من الكتابة والوزارة نظاما ثابتا ، و إلى أى حد تأثرت طبيعة هذا النظام بالظروف التى لابست قيام هذه الدولة ؟

---

(١) Marinus Hoogoliet : Specimen elitteris orientalibus (exhibens) diversorum scriptorum locos de regia; Aphtasidarum familia Ibn Abduno Poeta (ex. Mss. codicibus bibliothecae Leidensis editos latine redditos et annotatione illustratos. p. 134

(٢) ابن عبدون التجيبى : رسالة فى الحسبة ص ١٢٢ و ٢٠١ و ٢٠٦ .
ابن عبد المنعم الحميرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ص ١٩٧ . الفتح بن خاقان القلائد ص ١٨٠ . التادلى : التشوف ص ١١٧ . المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٩ .

يتحدث بعض المؤرخين[١] عن الكتابة فى عهد المرابطين كأنها نظام لم تعرفة الدولة قبل يوسف بن تاشفين ، فيذكرون أنه منذ كد يعبر بقواته إلى الأندلس للمشاركة فى معركة الجهاد حتى اتخذ دواوين ولى عنيها كاتبا من رجال الأدب فى الأندلس يدعى أبا بكر بن القصيرة[٢] . فهل معنى ذلك أن الدولة لم تعرف هذا النظام قبل فتح الأندلس؟.

لقد قضى يوسف فى المغرب عشرين عاما قبل أن يفتح الأندلس يجاهد ويتوسع ،ويرسى الدولة على قواعد ثابتة ، ينظم الجيش ، ويضع للبلاد نظاما إداريا دقيقا ، فليس بعيدا أن يكون قد اتخذ دواوين للكتابة والإنشاء يتولاها رجال من أهل المغرب باسم الأمير أبى بكر بن عمر .

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاؤه فى الأندلس معينا لا ينضب من هؤلاء الكتاب ، الذين تألق نجمهم فى سماء الأدب ، وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة ، فقد بلغت الحياة الأدبية الأوج فى عهد ملوك الطوائف ، وعملت الإمارات التى تنافست فى التقرب من الأدباء وتشجيعهم على إذكاء شعلة الأدب ، حتى بلغت الذروة فى ذلك العصر . وكان كل ملك من ملوك الطوائف يتخذ له بطانة من الكتاب والشعراء والفقهاء والفلاسفة وأعلام الفكر يسامرونه وينادمونه ويتبارون فى فنون القول ، فلما قضى المرابطون على ملك الرؤساء تفرق شمل هؤلاء السمار ، واضطر كثيرون منهم إلى الدخول فى خدمة المرابطين .

وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدوة ويصحبهم الأمراء عندما ينتقلون إلى المغرب ، فعلت كلمتهم على كلمة أدباء العدوة ، وكادوا يحتكرون

---

(١) يذكر دوزى فى مجموعته (Abbadidarum. vol II) نقلا عن الحلل الموشية أن يوسف اتخذ كاتبا من أهل الأندلس يدعى عبد الرحمن بن اسباط .

(٢) الذخيرة : (م . بغداد) قسم ٢ ص ٩٨ . الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٠٤ و ١٠٥ .

صنعة الكتابة والإنشاء ، خصوصاً لأن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعا من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب ، ومع الخلفاء وأمراء المشرق ، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود ، وتجيد فن القول . وكان كتاب الأندلس يعرفون لغات النصارى ، ويستطيعون أن يتفاهموا معهم ، وأن يقوموا بالترجمة عنهم[1] .

---

(١) ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمهم المرابطون يحي بن هشام السرقسطي وعبد الملك ابن أبي الخصال مسعود بن فرج بن خلصة الغافقي وطلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسي وأحمد بن أبي جعفر بن محمد القضاعي ، وابو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وعبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري ، وابو عبد الله محمد بن أبي الخصال ، وعبد الرحمن بن جعفر بن أحمد المعافري أبو محمد بن الحاج وأبوه جعفر بن إبراهيم ، وعلى بن عبد العزيز بن الإمام الانصاري ، ومحمد بن سليمان الكلاعي المعروف بأبي بكر بن القصيرة ، ويحي بن محمد بن يوسف الإنصاري ، ويكنى ابو بكر بن الصيرفي وابو الحسن غلام السكري ، وابن الصائغ ومحمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم المعروف بأبن السقاط وأبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي .

اشتغل أغلب هؤلاء بالأدب ، وبرعوا فيه ، وتفوقوا وغدوا من فرسان الكلام وحملة السيف ، والأقلام على طريقة القدماء ، من إيثار جزل الالفاظ وصحيح المعاني واشتغل بعضهم بالتأليف مثل ابن أبي الخصال الغافقي ، فقد روى أنه ألف كتاب المنهج في معارضه المبهج وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة في مناقب من خصة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكرامة كما اشتهر بالسماع والرواية فروى الناس عنه سيرة رسول الله لمحمد بن اسحق والمستصفى لابن الجارود والشمايل للترمذي . وعرف برواية الحديث ، حتى لقد حدث عنه خمسون شيخاً منهم قاضي القضاه . كان آدب أهل الاندلس بالاجماع والاحقاق مع التقييد للحديث والاشتغال بعلومه في القديم والحديث ، ومنهم من كتب في التاريخ وبرع فيه مثل أبي بكر بن الصيرفي ، ومنهم من اشتغل بالفلسفة والتأليف في الموسيقى ، مثل ابن باجة الذي ظل عشرين سنة يكتب لاحد أمراء غرناطة وسرقسطة ومنهم من اشتغل بالتاريخ والأدب ورواية الشعر وغريب المنثور والمنظوم مثل الكاتب أبي محمد عبد المجيد بن عبدون وكان المرابطون يفخرون ويدلون على سائر الأمراء بأنهم هؤلاء الأعلام يبرون بهم ويبسطون عليهم ظل حمايتهم .

أنظر : ابن الأبار جـ ٢ ص ٧٢١ و ٦١١ و جـ ١ ص ٢٣٣ . ابن الخطيب الإحاطة جـ ١ ص ٣٣٩ و ص ١٣٢ : المراكشي المعجب ص ١١١ — ١١٢ . مشيخة عياض ورقة ٥٧ (أ)، ابن خير الفهرسة ص ٤٥٠ . صلة الصلة لابن الزبير ص ٨٢ . ابن بشكوال ص ٥١٣ . قلائد العقيان ص ٢٩٠ ، الأنيس المطرب ص ٣٤٩ ، الجذوة ص١٥٩ .

وهذا يكشف لنا عن النتائج البعيدة المدى التي تمخض عنها قيام دولة المرابطين وجمعها بين المغرب والأندلس ، فتدفقت ينابيع الثقافة الأندلسية حتى عمت المغرب ، وعملت عملها في سبيل خلق تراث فكرى جديد ، كما يبين في وضوح وجلاء كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تصقل عقول هؤلاء الصحراويين، وأن تجعلهم يشاركون فيما شارك فيه العالم الإسلامى من نعمة هذه الحضارة الإسلامية الوارفة الظل .

وإذا كنا قد فرغنا من الحديث عن الكتابة ، فيجب أن نسأل هل عرف المرابطون نظام الوزارة كما عرفوا نظام الكتابة وديوان الإنشاء ، وإذا كانوا قد عرفوا نظام الوزارة فما هى اختصاصات الوزير ، وما مقدار مطابقتها للاختصاصات التى رسمتها النظم الإسلامية ؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين اكتفى بطائفة من الكتاب أول الأمر يصرفون شئون الأندلس باشرافه ، حتى قدر له أن يضم بلاد الأندلس لملك المرابطين ، فتأثر بالنظم السائدة فى هذه البلاد ، وقبس منها ما وافق أحوال الدولة . وما دام ملوك الطوائف قد اتخذوا الكتاب فلابد أن يوسف قد حذا حذوهم ، واتخذ لنفسه كتابا ووزراء ، كتاب يشرفون على ديوان الإنشاء يذيعون المراسيم والبراءات ، ويحررون الرسائل ، ويختمونها بخاتم الأمير بعد اعتمادها منه ، ويراجعون الرسائل الرسمية ويضعونها فى الصيغة النهائية ، ويختمونها بخاتم الدولة[1] ، ووزراء أرفع من هؤلاء رتبة وادنى منزلة من أمير المسلمين يجالسونه ويشاورونه فيما يعن من مختلف الشئون .

وقد تطور هذا النظام وأصبحت معالمه واضحة واختصاصاته محددة فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين ، وفى عهد على بن يوسف على وجه التحديد[2] . وقد صور

(١) حسن إبراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٠ .

(٢) كتاب أعز ما يطلب مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت ص ١٧ ، ابن خير الفهرسة ص ٤٥٠ . ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٣٣ . ابن الزبير . صلة الصلة ص ٨٢ . ابن خاقان : المطمح ص ١٠٦ . العلمى : الأنيس المطرب ص ٢٤٩ . أبو بكر الصنهاجى : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ٦٧ .

ابن دحية المطرب ورقة ١٣٠(ب) ، الذخيرة (م. بغداد قسم ٢ ص ١١٨) .

ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة الوزير فى صورة واضحة جلية ، فهو الشخص المقرب من السلطان الذى يحضر مجلسه ، ويطلع على كل كبيرة وصغيرة فى شئون الدولة ، ويشرف على تصريف الشئون الإدارية والمالية ، وهو الواسطة بين السلطان والقاضى ، أو بين السلطتين التنفيذية والتشريعية « إذا اتفق الوزير والقاضى صلحت الدولة وصلح العالم[١] » .

ويصور ابن عبدون هذا روح العصر تصويراً واضحاً ، ويكشف النقاب عن هـذا المركز الممتاز الذى كان الوزير يحتله فى نظم المرابطين ، وفى المجتمع الإسلامى فى أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس ، ويؤيده فى ذلك الطرطوشى الذى يرى أن الوزير يأتى فى المرتبة التالية بعد الخليفة ، إذ يقول « أشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة والوزير عون على الأمور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه وفى الأمثال نعم الظهير الوزير[٢] » . نعم احتـــل الوزير فى النظم المرابطية مكاناً ممتازاً ومحلا رفيعاً « كان من سمو الهمة بحيث يجلو الظلام العاكر ويخجل الموسم الباكر[٣] » .

كان المرابطون يثقون بوزرائهم ثقة كبيرة ، ويطلقون أيديهم فى الشئون المالية والإدارية ، فقد أطلق على بن يوسف مثلا يدى الوزير أبى محمد بن مالك « فأقطعه ماله فى الأندلس من خطة وأقعده على تلك المنصة وجد فى صرف الشوائب عن حماه ووجه أموالا لرم خلاله وحسم علله وإقامة ميله وانتعاش رجله وخيله ثم خاف أن ينهبها العمال وتتعذر تلك الآمال فقلده فوقها وحمله أوقها ووجهه لبناء الأوطار ونبهه لقضاء تلك الأوطار فاستقل بها أحسن استقلال ونظم معالمها نظم اللآل[٤] » .

(١) ابن عبدون التجيبى : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٤ .

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٧٠ .

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٢٩٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٠ .

وقد تركت الظروف التي نتجت عن قيام الدولة أثراً عظيما في ناحية أخرى من نظم الحكم في العهد المرابطي ، ونعني بها نظم القضاء . يرجع الفضل الأول في التمهيد لقيام الدولة لعبد الله بن ياسين فقيه المرابطين ، وقاضيهم ، و إمامهم ، وزعيمهم ، فكان طبيعياً أن يحتل الفقهاء والقضاة في الدولة الجديدة محلا رفيعاً ومكاناً مرموقا ، فقد كان فقهاء المغرب الأقصى هم الذين مهدوا الطريق لفتح المرابطين لبلاد المغرب ، فقد حببوا الشعب فيهم ومدوا لهم يد العون ، وساروا في ركابهم . كما ظهر تأييد الفقهاء والقضاة للدولة الجديدة واضحاً في معركة الجهاد في الأندلس ، فقد كانوا في الواقع زعماء الشعب الحقيقيين المعبرين عن آماله وآلامه ، في الوقت الذي انصرف فيه ملوك الطوائف إلى حياة اللهو والترف : فما كادت أقدام المرابطين تطأ أرض الأندلس حتى هب الناس يلوذون بهم ، منفسين عن كربهم ، متذمرين من ملوك الطوائف ، وكان الفقهاء هم المدافعين عن حقوق الناس العاملين على رد الظلم عنهم ، ولما وضحت خيانة ملوك الطوائف ، وتنكرهم لمعركة الجهاد كانوا أول من أفتى بخلعهم وظاهروا يوسف ووقفوا بجانبه[1] ، يشدون أزره ، ويؤيدونه ، ويباركون أعماله ، وقد لعب القاضي[2] ابن القليعي دوراً كبيراً في القضاء على ملك بني زيرى أصحاب غرناطة ، كما أب فقهاء أشبيلية المرابطين على بني عباد ، لهذا اعتقد المرابطون عن يقين أنهم مدينون بنجاحهم في المغرب والأندلس لجهود الفقهاء .

هذا إلى أن الدعوة التي بثها عبد الله بن ياسين في نفوس القوم ، وتشبث الملثمين بأهداب الدين جعلهم ينظرون إلى القضاة والفقهاء نظرة تجلة وتقدير واحترام[3] ، فلا نكون مغالين إذ قلنا إن الدولة كانت في الحقيقة دولة

---

(١) النباهي : المرقبة العليا ص ٩٧ . الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٣٩ .

(٢) عبد الله بن بلكين : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة ص ٣٤١ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٥ .

الفقهاء[١]. فقد كان ما اتصف به ملوك الدولة من تقوى وورع وخشوع وإقبال على التفقه فى الدين والإلمام بدقائقه سبباً فى تقريب الفقهاء والعلماء وإدناء مجالسهم والوثوق بهم .

وضح ذلك منذ عهد أبى بكر بن عمر ، فقد ذكر المؤرخون[٢] أنه كان يقرب الفقهاء ويصغى إليهم ويدنى مجالسهم ، ولكن يوسف بن تاشفين ذهب فى تقربه من الفقهاء والقضاه إلى أبعد من هذا ، فكان لا يسير إلا وهم فى ركابه ، ولا يجلس إلا وقد حفوا به ، ولا يكاد يقطع برأى إلا بعد استشارتهم ، فروى المؤرخون « إنه رد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون ذلك من الأحكام الشرعية[٣] » .

وهذا القول فى الواقع يصور لنا ذلك الإصلاح الخطير الذى لجأ إليه يوسف حين جعل القضاة أصحاب الأمر فى البلاد ، وقادة الشعب ، وحكامه القائمين على تطبيق الشريعة الإسلامية التى أصبحت دستورهم الأول ، يطبقون أحكامها ، ويهتدون بهديها ، إذ يبدو أن القضاه والفقهاء لم يكن لهم على المجتمع مثل ذلك السلطان الواسع الذى آل إليهم فى عهد المرابطين ، كما أن أحكام الشريعة لم تكن — على ما أعتقد — الدستور الأول الذى يعتمد عليه الولاة فيما يصدر عنهم من أحكام ، وما دام الفقهاء هم حفظة الشريعة والملمون بخفايها كان طبيعياً أن يصبحوا أصحاب الكلمة الأولى فى المجتمع[٤] ، لأنه لن يصدر حكم إلا إذا أقروه وأفتوا بأنه لا يخالف الشريعة ولا يناقض أحكامها .

وبلغ من بر يوسف بالفقهاء والعلماء أنه أجرى عليهم الأرزاق ، ورتب لهم

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmanes d' Espagne. vol. Iv. p. 248,

(٢) المقرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥ . السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢١ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥ . السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

الأعطيات من بيت المال[1] . وكان على بن يوسف أكثر من أبيه انصرافاً إلى مخالطة الفقهاء ومجالستهم ، فقد كان أميرا ورعا تقياً متزهداً متبحراً فى الدين[2] ، حتى لقد اتخذ لنفسه لقب (ولى الله) ، ونقشه على السكة ، وأصبح الفقهاء فى عهده سواء فى المغرب أو فى الأندلس أصحاب الكلمة الأولى فى البلاد ، يفزع إليهم الناس كلما تعرضوا لخطر أو أصابهم مكروه .

وهناك ناحية أخرى جعلت المرابطين يعتمدون على الفقهاء والقضاة اعتمادا عظيما وهى توسعهم فى تطبيق مبدأ الشورى ، هذا المبدأ الذى يحتل من النظم الإسلامية مكاناً مرموقا ومحلا رفيعاً ، جعله الطرطوشى أساساً من أهم أسس الحكم حين قال «سياسة الملك ثلاثة: اللين وترك الفظاظة والمشاورة وأن لا يستعمل على الأعمال والولايات راغباً فيها ولا طالباً لها ، ولما علم الله تعالى ما فيها من انتظام أمر الملة واستقامة الأمر نص عليها سبحانه ورسوله أعلم أن هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك ، اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قال بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإشارة الثانية قال وشاورهم فى الأمر ، فإذا قيل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وإمامهم وواجب عليهم مشاورته وأن لا يفعلوا أمراً دونه قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مأدبة لسائر الملوك والأمراء والسلاطين لما علم الله تعالى ما فى المشاورة من حسن الأدب مع الجليس ومساهمته فى الأمور ، فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتميل إليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة نبيه عليه السلام . . . . ومن أقبح ما يوصف به الرجال ملوك كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة[4] » .

(١) مشيخة عياض ورقة ٦٧ ( ) .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٩ .

(٣) المقرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦١ .

(٤) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٥٠ و ٥٢ .

نعم حقق المرابطون آمال الطرطوشي كاملة وتوسعوا في المشاورة توسعا عظيما[1] ، فكان يوسف وخلفاؤه لا يقطعون في أمر إلا إذا استفتوا الفقهاء ، واستشاروا القضاة ، وقد وضح ذلك من سياسة يوسف في الأندلس[2] . بل بلغ من تزمته وتدينه بالشورى في أوسع نطاق أن أرسل يستفتي فقهاء مصر والعراق والشام[3] خوفا من أن يتورط في خطأ لا يرضى عنه الله ، ويبدو أن قاضي الجماعة بمراكش كان أكثر هؤلاء القضاة اتصالا بولي الأمر[4] ، بل كان يشترك في مجالس الأمير ويؤخذ رأيه في كثير من الأمور ، وكان أمراء الأندلس أيضا يستفتون قاضي الجماعة بقرطبة في كل ما يتعلق بهذه البلاد من شئون[5] .
هذه إذن هي الظروف التي مهدت لسيطرة الفقهاء والقضاه على الحياة العامة ، سواء في المغرب أم في الأندلس ، ويسرت لهم أن يستمتعوا بسلطان واسع ، وكلمة مسموعة في شئون البلاد ، فما هي ألوان ذلك السلطان الذي تتمتع به القضاة في كنف الدولة المرابطية وما هي نتائجه في الحياة العامة ؟

وقبل أن نعرض لهذا السلطان الواسع الذي تمتع به القاضي في الحياة العامة في المغرب والأندلس ، يجدر بنا أن نشير إلى ذلك النظام الدقيق الذي وضعه المرابطون للقضاء في العدوتين . والمتأمل في كتب الطبقات التي أرخت للقضاة في عهد المرابطين يستطيع أن يتبين أنه كانت هنالك مراتب للقضاة أو درجات فهنالك قاض يتمتع بسلطان القضاء في مدينة صغيرة أو في قرية ، وهنالك قاضي الجماعة بمدينة كبيرة مثل قرطبة أو اشبيلية أوغرناطة[6] ، وهو بالطبع أرفع درجة

(١) ابن الأبار التكملة ج ١ ص ٥٦ .

(٢) عبد الله بن بلكين ص ٢٧٤ و ٣٢١ و ٣٤٢ .

(٣) Dozy : (op cit) vol. IV, p. 235

(٤) مشيخة عياض ورقة ٩ (ب) و ١٠ (أ) .

(٥) مفاخر البربر ص ٥٣ . معجم ابن الأبار ص ٥٦ . الإحاطة ج ١ ص ٢٥
Dozy, IV, p 219

(٦) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٦٢ و ٧٤ و ١١٤ و ٢٥٣ و ج ٣ ص ٦٢٠ و ٧٤٠ .
Provençal : Inscriptions Arabes d' Espague, p 124

وأعلى رتبة لأنه كان يبسط سلطانه على المدينة وأحوازها . ثم هنالك قاضى الاقليم كله ، ذلك أن بلاد الأندلس كما نعلم كانت مقسمة إلى أقاليم جغرافية ثلاثة : إقليم الشرق والموسطة ، و بلاد الغرب . ويبدو أنه كان لكل اقليم من هذه الأقاليم الكبرى قاضى جماعة يبسط سلطانه على قضاة المدن الواقعة فى اقليمه ، فقد روى أن المرابطين قلدوا محمداً بن ابراهيم بن أحمد بن أسود الغسانى قضاء شرق الأندلس[١] ، كما روى أيضا أن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن عصام بن أمية كان قاضى قضاة الشرق فى عهد المرابطين[٢] . وهنالك قاضى أسمى من هؤلاء قدرا وأرفع مكانة يبسط سلطانه على بلاد الأندلس كلها ، و يخيل الينا أن قاضى الجماعة بقرطبة[٣] هو الذى يشرف على القضاء فى بلاد الأندلس قاطبة .

أما بلاد المغرب فكانت منظمة على غرار بلاد الاندلس ، وكانت زعامة القضاء بالمغرب كله معقودة لقاضى الجماعة بمراكش ، الذى كان يسمى فى بعض الأحيان بقاضى الحضرة[٤] ، وكان هذا القاضى أقرب الفقهاء إلى قلب أمير المسلمين، وادناهم منه مجلسا[٥]، فقد كان عضوا بمجلس الشورى يستفتيه ولى الأمر فى كل ما يعرض له من شئون .

و يخيل إلينا أن المرابطين قطعوا فى سبيل تنظيم القضاء شوطا ابعد من هذا ، إذ اتخذوا فقيها له السلطة العليا على قضاة المغرب والأندلس على سواء ، بمثابة وزير العدل فى النظم الحديثة ، وقد تولى هذا المنصب العظيم أبو عبد الله مروان بن عبد الملك بن ابراهيم بن سحنون اللواتى قاضى طنجة ، الذى انصرفت

---

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦ .

(٣) مثل أبو الوليد بن رشد عميد فقهاء قرطبة . انظر مشيخة عياض ورقة ١٠ (أ) و ١١ (ب) .

(٤) مشيخة عياض ورقة ١٠ ا و ١١ ب و ٥٦ أ . ابن بشكوال : الصلة ص ٢٨٤ و ٥٥٤ .

(٥) مشيخة عياض ورقة ١٠ او ١١ ب .

إليه بجميع أمور الأندلس والمغرب ، فوض إليه أمير المسلمين يوسف فى كبارها »[١] .
ويبدو أن مشيخة القضاة بالعدوتين كانت تعطى تارة لقاضى الحضرة أو قاضى سبتة وطنجة ، وتارة أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة ، وكان أبو الوليد بن رشد أول من ولى هذا المنصب من الأندلسيين[٢] ثم خلفه محمد بن احمد بن خلف بن ابراهيم التجيبى المعروف بابن الحاج[٣] .

وكانت سلطات القاضى متعددة ومهامه متنوعة ، وكان عليه أن يبسط إشرافه على عدة خطط أو عدة وظائف . يشرف على خطة الشورى والفتيا ، وخطة الأحكام والصلاة والخطبة . أما خطة الشورى فكان يتولاها فقهاء يختارهم القاضى من أهل المدينة المعروفين بالورع والتقوى والتبحر فى الفقه يشاورهم فى الأحكام . وكان عدد هؤلاء الفقهاء المشاورين فى العادة أربعة : اثنان يشتركان فى مجلس القاضى ، واثنان يقعدان فى المجلس الجامع ، ليدليا بالشورة لطلابها[٤] ، وكان لهؤلاء الفقهاء المشاورين رئيس منهم يتزعمهم وينظم شئونهم[٥] .

أما الفتيا فكانت تضاف فى بعض الأحيان إلى الصلاة والخطبة ، وكان القاضى فى بعض الأحيان يولى فى كل خطة من هذه الخطط فقيها ، يستقل بشئونها ويختص بها كخطة الأحكام مثلا ، فقد كان القاضى يولى عليها فقيهاً يجلس للناس وينظر فى مظالمهم ويحكم بينهم ويفض المنازعات التى طالما كانت تنشب بين العوام والسوقة ، والتى كان القاضى يستثقل أن يتولى أمرها بنفسه فكان

---

(١) مشيخة عياض ورقة ٦٧ أ .
(٢) المرجع السابق ورقة ١٠ (أ) و ١٠ ب .
(٣) ابن الآبار : التكملة ص ١١٤ .
(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ١٩٧ .
(٥) مشيخة عياض ورقة ٣٧ (أ) . ابن الأبار ج ١ ص ١١٣ . المرقبة العليا ص ٩٧ . ابن فرحون الديباج المذهب ص ٢٧٥ .

ينيب عنه صحب الأحكام على ألا ينظر فى رقاب الأموال ولا حكم له على الأيتام ولا فى فيه أمراً من أمور السلطان والعمال[١].

أما المهام الكبيرة التى يتطلب الفصل فيها جرأة وشجاعة وعدلا لا يعرف فى الله لومة لائم فكانت تترك للقاضى نفسه لينفذ حكمه على جميع الناس سواء كانوا حكاما أو عمالا أو قواداً أو أشرافاً .

وتتضح هذه السلطة الواسعة التى كان القاضى يبسطها على جميع الأفراد دون تمييز مما ورد فى عقد تولية قاضى الجماعة ابن حمدين ، إذا جاء فيه على لسان أمير المسلمين «ولا تبالى برغم راغم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، فآس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام ، ولنا وللجماعة المسلمين ، وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك فى كل حق تمضيه ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضية...»[٢].

وكثيراً ما كان القاضى يولى أحد معاونيه خطة الصلاة والخطبة مجتمعتين[٣] ، وأحيانا أحكام السوق أو الحسبة[٤] ، وكان يستعين بطائفة من الشرطة يسميهم ابن عبدون (الأعوان)، وقد اشترط ابن عبدون أن يكونوا عشرة «أربعة سودان برابر لحقوق المرابطين وغيرهم من الملثمين والباقى أندلسية فهم أوثق وأخوف»[٥] لأن المرابطين كانوا قد استقروا فى مدن الأندلس و بدأوا يكونون جاليات

---

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ١٩٧ ، ابن الأبار ج ١ ص ٣٨٤ ، السيوطى بغية الوعاة ص ٣٩ ، السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٦ . السيوطى : بغية الوعاة ص ٣٩ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها

(٥) ابن عبدون رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠ .

مستقلة تستعلى على الناس، وتختص نفسها بمكانة فريدة فى المجتمع ، أما فى المغرب فلم يكن القاضى بحاجة إلى هؤلاء الأعوان لأن سكان المدن كانوا جلهم من البربر وكان الشرطة جلهم من أهل البلاد .

وكان القضاة يتخذون الكتاب ، فقد استكتب ابن حمدين أخيل بن أدريس الرندى[1] ، كما استكتب القاضى أبو موسى بن الملجوم محمداً بن عيسى بن القاسم الصدفى[2] ، وممن كتب للقضاة أيضا عبد الله بن على بن محمد ابن عبيد المعافرى[3] ، وعيسى بن سهل بن عبد الله الأسدى[4] ، وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى[5] ، ويبدو أن القضاة كانوا يبدأون حياتهم العملية بالكتابة ، ثم يتولون خطة الشورى وخطة الأحكام أو الصلاة أو الخطبة ، ثم يرتقون إلى مصاف القضاة بعد أن يكونوا قد اكتسبوا خبرة ودربة تؤهلهم لتولى ذلك المنصب الممتاز .

وكان القضاة أيضاً يتخذون الحجاب على أبوابهم ليحولوا بين الناس و بين أن ينالوا من هيبة المجلس ووقاره[6] ، وكان القاضى إلى جانب هذا السلطان الواسع يشرف على بيت المال وموارده من أموال الأحباس أو الأوقاف ، فكان يصلح المساجد[7] ، ويقيم الصوامع[8] ، ويصنع المنابر والمحاريب ، وينفق على خدم المساجد . ويبدو مما ذكره ابن عبدون أن هذه الأموال كانت تستغل فى الجهاد ، وسد الثغور[9] .

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٢٢٢ .
(٢) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ١١٧
(٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٩٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٣١ .
(٥) ابن الخطيب: الإحاطة جـ ١ ص ٦٨ .
(٦) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٢٣ .
(٧) ابن الأبار : التكملة جـ ٢ ص ٥٣٥ .
(٨) Lévi — Provençal : Inscriptions Arabes d' E agne, p. 124
الجزنائى: زهرة الآس ٤٢ .
(٩) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠ .

كما يبدو أن موارد بيت مال المدينة كانت تعبث بها أيدى العابثين لأن ابن عبدون شدد النكير على القاضى قائلا « يجب على القاضى أن لا يتمكن من بيت مال المسلمين أحداً وأن يحافظ عليه جهده ، وأن يخدمه ولا يتصرف فى أبوابه إلا رجل غنى عدل ، حتى لا يترك أحد يتصرف فى شىء منه إلا برأى من القاضى[(١)] » .

وكان القضاه فوق ذلك كله يشتركون فى الغزو والجهاد ، يخرجون مع الجند ويحضونهم على التفانى فى القتال ، ويحضرون مجالس الأمير ، يشاورونه فى كل ما يعرض له من شئون[(٢)] ، فلا نعجب إذا كان القضاه فى الأندلس أو المغرب قد عظم نفوذهم ، وكثر مالهم وجاههم ، وارتفعت مكانتهم ، ويتبين ذلك من كتبه ابن عبدون الذى كشف عن سلطة الفقهاء وصور سطوتهم ونفوذهم أصدق تصوير ، وذكر أنهم كانوا يسيطرون على الحياة العامة ، حتى أضحوا حكام البلاد الحقيقيين ، وأضحت سلطة الأمراء الملثمين لا تتجاوز الشئون العسكرية[(٣)] .

وكان كاتب الأمير أو وزيره حلقة الاتصال بين القاضى و بين الأمير صاحب السلطة العليا ، فقد كان القاضى يمثل السلطة الفعلية والأمير يمثل السلطة العليا التى تسيطر وتهيمن من بعيد ، فإذا تعاونت السلطتان صلحت الأحوال ، وإذا تضاربتا وتعارضتا فسد حال المدينة ، وتشب الخلاف بين أهلها[(٤)] .

---

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠

(٢) المرجع السابق ص ١٩٧ .

ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٢٠٩ وجـ ٢ ص ٢٦٠ . أزهار الرياض جـ ٣ ص ١٠٧ .

(٣) Lèvi — Provençal : Seville Musulmane au Début du XIIe Siécle:Le [Traité D' Ibn Adbun sur la vie Urbain et les corps de metiers, p. XII.

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٤ .

كان القاضي في الواقع يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئون المدينة ، حتى في شئون أرباب الحرف والصناعات ، فكان يولي على كل حرفة رجلا من أهلها يفض ما ينشب بينهم من خلاف [١] ، ويحرص ابن عبدون — وهو من الفقهاء — على أن تظل أزمة الأمور بيد القاضي ، فلا يتدخل الأمير في شئونه ، إذ يقول «إذا وقع بينهم الخلاف في شيء من أمورهم لا يبلغون الحاكم، بل يحدهم القاضي ذلك أن يرجع إلى حكمه ورأيه فهو أرفق لهم وأستر لانكشافهم» [٢] .

وكان من أثر هذه المكانة الرفيعة التي تمتع بها الفقهاء أن كثرت أموالهم ، وارتفع قدرهم ، وعظم سلطانهم ، والتف الناس حولهم متزلفين متقربين ، وقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة [٣] ، وحسدهم كثيرون من أهل الأندلس بسبب هذا الجاه العريض ، وهذه الأموال الجمة التي حازوها . يتبين ذلك من قول الشاعر أبي جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني يهجو القاضي أبا عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة ويعرض به .

أهل الرياء لبستموا ناموسكم	كالذئب أولج في الزمان العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك	وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب	وبأصبغ صبغت لكم في العالم [٤]

فما بالك بقضاة الحاضرة المقربين من أمير المسلمين المتصلين به مباشرة ! . يروي المؤرخون أن قضاء سلا كان في بني عشرة ، وكان هؤلاء القوم مقربين من السلطان ، كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع قصدهم الشعراء من الأندلس يمدحونهم ويلوذون بجاههم [٥] .

(١) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢١٤ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) المراكشي : المعجب ص ١١٠ .
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٥) الحميري : الروض المعطار ص ١٩٧ .

ومع هذا السلطان الواسع الذى تمتع به القضاة كانوا يخضعون لأمير المسلمين خضوعا تاما ، بل كان أمراء المقاطعات يعزلون القضاة أو ينقلونهم فى بعض الأحيان ، ويخيل إلينا أن أمير المسلمين كان يعين كبير القضاة ببلاد الأندلس وكبيرهم ببلاد المغرب ، ويترك للأمراء المحليين أمر تعيين القضاة فى المدن والقرى بعد مشاوره قاضى الجماعة فى قرطبة أو مراكش[٢] .

كان أمير المسلمين إذا ولى أحد هؤلاء القضاة كتب له عقد توليته وبعث به إليه[١] ، فيصبح بمثابة دستور على القاضى أن يحترم نصوصه ، ويعمل بموجبه ، فإن جار أو بدل أو خالف ما أشار به ولى الأمر تعرض للعزل . كان ولى الأمر يوصى القاضى بأن يكون حازما لا يشتد فيمقته الناس ، ولا يلين فيستضعفونه ، وأن يكون عادلا لا يميل به الهوى عن جادة الحق ، وأن يسوى بين الناس بين أميرهم وحقيرهم ، لا تأخذه فى الله لومة لائم يؤدب كبيرهم قبل صغيرهم ، إذا أخطأ كبير ضربه وسجنه أو عزله .

يتضح ذلك كله من هذا الكتاب الذى بعث به يوسف بن تاشفين إلى الفقيه قاضى الجماعة بقرطبة أبى عبد الله بن حمدين ، جاء فيه « فاستهدى الله يهدك واستعن بالله يعنك فى صدرك ووردك وتولى القضاء الذى ولاكه الله بجد وحزم وجلد وعزم وامض القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنن نبيه ولا تبالى برغم راغم ولا تشفق من ملامة لائم ، فآس بين الناس فى عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ،

---

(١) أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ١٨٧ . المرقبة العليا ص ٩٧ .
ابن الأبار التكملة ج ١ ص ٢٩ . المراكشى ص ١١٠ . الجذوة ص ٢٣٤ . أزهار الرياض ج ٣ ص ١٠ . الديباج المذهب ص ٢٧٥ . البيان المغرب ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) النباهى : المرقبة العليا ص ٩٨ .

وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام، ولنا وللجماعة المسلمين وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين ، أن يسلموا لك فى كل حق تمضيه ، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه ، ونحن أول وكلهم آخر ، قد صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين فى حق عليك والعمال كافة سواء فى الحق فإن شكت إليك بعامل من رعية خلافه فى الواجب فاشكه منهـا وقومها له ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضرب به واسجنه و إن استوجب العزل فاعزله واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه والأمر فى استكفاء من يكفيك[1] » .

من ذلك يتضح أن القاضى لم يكن عليه سلطان لغير القانون ، يحكم وفق الشرع لا يخالفه أو يخرج عليه ، ينفذ حكمه على الناس فهم سواء أما القانون ، يحكم حتى على ولى الأمر نفسه إذا جار أو بدل . ألم يقل يوسف « نحن أولا وكلهم آخرا » . انظر كيف استطاعت هذه التقاليد الإسلامية السمحة التى بثها عبد الله

---

(١) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٦ . وقد أورد النباهى فى كتابه المرقبة العليا عقد بيعه القاضى موسى بن حماد جاء فيه . وبعد فإنا قد فرغناك برهة من الدهر اشأنك وأرسلنا على جهة الترضية زمانا عنك وحينما علمنا أنك قد أخذت لحظك من الاجماع ودار بدودعك وراحتك دور الأيام خيرناك لحلة القضاء ثانية بزممك وأعدناك الى سيرتك الأولى من لزامك وقلدناك بعد استحارة القضاء بين أهل غرناطة وأعمالها — أمنهم الله وحرسها — للثقة المكينة بإيمانك والمعرفة الثاقبة بمكانك فتقلد معانا مسددا ما قلدناك وانهض نهوض مستقبل بما حملناك وتلق ذلك بانشراح من صدرك وانبساط فى نفسك وفكرك وقم فى الخطبة مقام مثلك ممن إستحكمت منه ورجع حلمة .. وليس هذه بأول ولايتك لها فنبتدىء بوصيتك ونعيد ونأخذ بالقيام بحقهما العهد الموفق السديد . بل قد سلفت فيها أيامك ، وشكر فيها مقامك ، واستمرت على سنن الهدى أحكامك فذلك الشرط عليك مكتوب وأنت بمثله من إقامة الحق مطلوب وانه على ما نعلمه من جميع نظرك واعتدال سيرك . . . . . فلا تنظر فيها إلا من كثر الثناء عليه ، وأشير بالثقة إليه ، ولتكن رقيبا على أعمالهم وسائلا عن أحوالهم ، فمن بطىء به سعية وساء فيما تولاه نظره ورأيه أظهرته سخطتك وأعلنت فى الناس جرحتك ، فذلك يعدل جانب سواه ويشتهر به النصيحة فيما تولاه . أنظر المرقبه العليا ص ٩٨ .

ابن ياسين فى مجتمع الملثمين أن تجعل من هؤلاء البدو الذين كانوا يضربون فى مجاهل الصحراء حكاما متواضعين مخلصين يأمرون بالمعروف وينادون بالمساواة بين الناس و يحترمون القضاء .

٤ — أثر قيام دولة المرابطين فى النظم الحربية .

وكانت الأسس التى قامت عليها الدولة ذات صدى بعيد فى النظم الحربية التى عرفها المرابطون ، ذلك أن الدعوة التى بثها عبد الله بن ياسين قد عملت فى القوم عمل السحر ، فقد ألفت بين قلوبهم ، وفتحت أمامهم آفاق جديدة ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنها بثت فى هؤلاء البدو روحاً جديدة لم تكن مألوفة لديهم من قبل ، فقد نفخ عبد الله بن ياسين فى نفير الجهاد ، وهيأ الأذهان لمعركة طويلة الأمد من الكفاح فى سبيل الدين ، وهيأ النفوس للاستشهاد فى سبيل الله فى غير ما خوف ولا تردد . لا ننكر أن شعب الملثمين كان شعبا محاربا من الطراز الأول ، امتاز بالشجاعة الفائقة والجرأة والاقدام والصبر على تحمل مشاق الحرب وتضحياتها ، ولكن الدعوة الجديدة كانت بمثابة الوقود الذى ألهب فيهم هذه الصفات ، وجعل المرابطين قوة يخشى جانبها فى المجتمع المغربى فى القرن الخامس ، ولسنا بحاجة لأن نوضح أن الروح المعنوية أبلغ أثراً فى الحروب من أمضى الأسلحة وأشدها فتكا ، وأن الجند الذين يقاتلون وقد وحدتهم آمال واحدة ، وجمعتهم أهداف سامية جند ، لا يعرفون التراجع أو التقهقر ، إنما يتقدمون إلى حياض الموت غير هيابين .

ظهرت هذه الآثار واضحة جلية منذ اندفعت جيوش المرابطين من رباط السنغال متجهة صوب الشمال كأنها الصاعقة انقضت على المغرب الأقصى . وتجلت هذه الروح واضحة جلية فى معارك المغرب الأقصى التى خاضوها « كان للمتونة فى قتالهم شدة و بأس ليس لغيرهم بذلك ملكوا الأرض[1] » . كما تجلت هذه

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٠ .

الروح الجديدة فى معركة الجهاد بالأندلس[1] ، إذ لم يهن المرابطون ولم يضعفوا فى جميع المعارك التى خاضوا غمارها ، كان لهم « فى قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف[2] » .

و إذا كان عبد الله بن ياسين هو صاحب الفضل الأول فى بعث المرابطين وخلق هذه الروح الجديدة ، فإن يوسف بن تاشفين صاحب الفضل الأول فى تنظيم هذه الطاقة العظيمة ، وتسخيرها فى معركة الجهاد بحنكة ودربة وشجاعة ، فقد أدرك أن الخطوة الأولى فى سبيل النجاح فى معركة الجهاد هى تنظيم قوى المرابطين لتصبح أداة فعالة فى كفاح يقرر مصير المسلمين فى المغرب والأندلس . فقد اشتهر نصارى الأندلس وحلفاؤهم بأنهم محاربون أشداء ومقاتلون مهرة ، تفوقوا على ملوك الطوائف ، وأصبحت جيوشهم تسيطر على شبه جزيرة إيبريا دون منازع ، فكيف يستطيع الملثمون أن يلقوا هذا العدو الذى تفوق عليهم فى العدد والعدة

---

(١) من شعر ابن حمديس فى الاشادة بشجاعة المرابطين .

ألفت قلوبهم الخضوع لربهم	والبأس فى أسيافهم متكبر
يرمون أغراض الحتوف بأنفس	ووجوههـا بعيونهم تتنمر
وتفور فى هام العلوج جداول	للضرب من أغمادهم تتفجر
من كل وحشى الطباع كأنه	بين القنا الخطى ليث مخدر

ومن قصيدة أخرى :

وآذنت عمار القفار بحربهم	فيا قرب ما شقوا إليك الخضارما
بنو الحرب غذتهم لبان ثديها	ولم يستطيبوا منها إلا العلاقما
يحثون للهيجاء جردا سلاهبا	ويننون فى البيداء بزلا صلادما
إذا طعنوا بالسامرية خلتهم	ضراغم تفرى القلوب أراقما

(٢) يقول المقرى : « ... مع ما ظهر لابطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربات السيوف التى [illegible]د الفارس والطعنات التى تنتظم الكلى فكان لهم بسبب ذلك ناموس ورعب فى قلوب المت[illegible] لقتالهم » . أنظر المقرى نقلا عن .

Dozy : Abbadidarum, Vol. II. p. 236. Vide : Pida[illegible] op. cit I p. 280

انظر كذلك يوسف أشباخ ج ١ ص ٦٩ ، وابن الأبار الحلة السيراء ص ٢٠٩ .

دون أن ينضم صفوفهم، و كمل استعدادهم، لهذا كان العمل الذى قام به يوسف لا يقل فى أهميته وخطورته عن جهاد عبد الله بن ياسين، فكلاهما صاحب فضل فى إقامة صرح هذه الدولة

وكان يوسف وهو يحاول تنظيم هذه القوى المحاربة وتوجيهها نحو الهدف الذى حدده عبد الله بن ياسين متأثراً بطبيعة الدولة التى جمعت بين المؤثرات السودانية والمغربية والأندلسية، لذلك جاءت النظم التى وضع أساسها خليطاً من هذه المؤثرات الثلاثة، فلنحاول إذن أن نعرض لأوجه الإصلاح التى أدخلها يوسف على جيش الملثمين، وأن نتلمس صدى هذه التأثيرات المتعددة فى النظام الذى وضعه.

اعتمد المرابطون فى فتح المغرب على جهودهم الخاصة، وكانت فرق الملثمين من لمتونه وجدالة وحلفائهم هى التى اضطلعت بعبء الكفاح كله. وكانت مهمة يوسف بعد إتمام فتح المغرب أثقل من مهمته قبل هذا الفتح، إذ كان عليه أن يحتفظ بثمر هذا النصر لتحقيق أهداف الدولة فى الجهاد، فكان عليه قبل كل شىء أن يؤلف بين القبائل وأن يحببها فى النظام الجديد، لأن المغرب إذا اتحدت شعوبه وتآزرت أصبحت قوة بعيدة الأثر فى معركة الجهاد، وقد استطاع يوسف بوسائله الخاصة أن يحقق هذه المعجزة، وأن ينجح حيث أخفق من سبقه من الولاة، فقد أقر السكينة فى ربوع البلاد، فآمنت القبائل بالنظام الجديد ووثقت به.

وكان من أهم الوسائل التى استعان بها يوسف على تحقيق هذا الهدف إشراكه أهل المغرب من غير الصنهاجيين فى معركة الجهاد، لأن وحدة الجهاد والكفاح من أجل غرض واحد تؤلف بين القبائل المتباغضة، فتنسى خلافاتها إلى حين، وتلتف حول قائد المعركة، فقد روى أن يوسف استعان بفرق من قبائل المغرب ظهرت فى معارك الاندلس، فاشترك الزناتيون والمصامدة مع

الصنهاجيين فى معركة الزلاقة جنبا لجنب ، ومعنى هذا أن يوسف وضع تحت تصرف الدولة طاقة هائلة بعيدة الأثر ، فقد كان المصامدة وأحلافهم يمتازون بشدة البأس ، ووفرة العدد ، وقد أقبلوا على التطوع فى الفرق الجديدة كسباً لأجر الجهاد ، وطلبا للغنم ، فقد كانت الغنائم والأسلاب توزع على المحاربين فى الميدان .

ولكن الروح القبلية ظهرت بوضوح وجلاء فى معاملة الملثمين لأفراد هذه الفرق ، فكانت صنهاجة تؤلف فرقا مستقلة تشترك فى القتال مستقلة بنفسها لاتدخل المعركة إلا بعدأن تكون الفرق الأخرى قد نالت من العدو وأنهكته. كان المرابطون ينظرون إلى الفرق غير الصنهاجية على أنها فى مرتبة أدنى من فرق لمتونة ، تجلت هذه النظرة بوضوح فى الإسم الذى إطلقه المرابطون على هذه الفرق ، فقد سموها فرق الحشم أو الأتباع[١] ، و يبدو أن أهل الأندلس كانوا يفرقون أيضاً بين هؤلاء الحشم ، و بين غيرهم من جند الملثمين ، يتبين ذلك من قول ابن عبدون «يجب ألا يتلثم صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فإن الحشم والعبيد ومن لايجب أن يلثم يلثمون على الناس و يهيبونهم »[٢] . وكانت الفرق من الحشم لها أعلامها الخاصة و بنودها ، وكان يقودها رجال من لمتونة مثل القائد جرور الذى لقبته المراجع باسم جرور الحشمى[٣] ،وقد أسدت هذه الفرق المرابطين يدا طولى فى معركة الجهاد ، لأن صنهاجة لم تكن تستطيع أن تعتمد على مواردها الخاصة .

استعان يوسف أيضاً بفرق من السودان[٤] ، فقد كانت دولة المرابطين تمتد من حوض السنغال فى الجنوب حتى البحر الأبيض المتوسط فى الشمال ، وكانت

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢١٨ .

(٣) الحلل الموشية نقلا عن Abbadidarum, Vol. 11 p.204.

(٤) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٦٥ .

تستطيع أن تحصل على حاجتها من هؤلاء العبيد ، إما بالشراء[1] وإما بإغرائهم بالاشتراك فى معركة الجهاد ، ولم يكن يوسف بن تاشفين فى هذه الناحية مبتدعا ولا مجددا ، فقد كان أمراء المغرب السابقون يعمدون إلى تجنيد فرق من هؤلاء السود يتخذون منهم حرسا خاصاً يدين لهم بالولاء .

استعان بهم الأغالبة ثم استعان بهم الزيريون ، وقد اشتركوا مع صنهاجة فى قتال عرب بنى هلال[2] ، وكانت هذه الفرق فى جيش المرابطين بمثابة فرق الفدائيين فى الوقت الحاضر ، كان أفرادها يسلحون بأسلحة خفيفة من درق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان[3] ، ويبدو أنهم كانوا يدخلون المعركة فى آخر لحظة لانتزاع النصر من الأعداء انتزاعا ؛ إذ ينقضون كالصاعقة على العدو المهزوم ، فيدخلون الرعب فى قلبه ، ويحملونه على الفرار ويندفعون كأنهم القذائف . وقد وضح ذلك يوم الزلاقة حين أطلق يوسف هؤلاء العبيد فى ختام المعركة ، فارتبك جند الفرنسو وانقض أحدهم على هذا الملك فقتل جواده وطعنه فى ساقه .

وقد أشار المؤرخون[4] إلى أن المرابطين استخدموا طائفة من الجند الصقالب . ولا ندرى بالضبط إلى من يرجع الفضل فى استخدام هؤلاء الجند ؟ أيرجع ليوسف ابن تاشفين أو إلى ولده على ؟ ذلك أن المؤرخ يوسف أشباخ[5] يذكر أن علياً ابن يوسف كان أول من استخدمهم وأكثر منهم واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ،

---

(١) يوسف أشباخ : ج ١ ص ٧١ .

(٢) Marçais (op. cit) p. 155

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨٢ .

(٤) أعز ما يطلب ص ١٩ . ابو بكر الصنهاجى البيذق ص ٨٦و٩٥ .
Lévi—Provencal : p. 130
De Mas Latrie, p. 320. Recherches vol II. p. 437
Terrasse (op. cit) p. 248

(٥) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢٢ —

ولكنه يعود مرة أخرى[١] فيذكر أن يوسف بن تاشفين هو البادىء باستخدام الصقلب فى حرسه الخاص .

ليس من شك فى أن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدم هذا النوع من الجند ، خصوصاً بعد أن اشترك فى معركة الجهاد بالأندلس ، و بعد أن أدال المرابطون ملك الرؤساء ، و بسطوا نفوذهم على بلاد الأندلس . فهل كان هؤلاء الجند من الصقلب أو من المعاهدين أو من المتطوعين من أهل الأندلس ؟ يذكر أشباخ أن يوسف استخدم طائفة من فتيان النصارى المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام ، وأنه كان يحبوهم بعطفه ، ولا يفتأ يغدق عليهم من صلاته وأعطياته كلما اشتد إخلاصهم وتفانيهم فى تحقيق أغراضه[٢]، ويشير دى ماس لاترى[٣] إلى أن هؤلاء الجند كانوا من المتطوعين المرتزقة طلاب المغامرات ، لأن أهل الأندلس المسيحيين لم يجدوا بأسا من خدمة المرابطين ، فقد خدموا ملوك الطوائف من قبل[٤] . لكن يخيل إلينا أنهم كانوا من الأسرى ؛ لأن معارك الأندلس المتعددة كانت تتمخض عن وقوع أعداد لاحصر لها من النصارى فى أيدى المرابطين ، فلم يجدوا بدأ من تجنيدهم فى الجيش ، وتسخيرهم لتحقيق أغراضهم ويبدو أن اللواء كان يعقد لرجل منهم ، فقد كان قائدهم فى عهد تاشفين بن على رجلا يدعى الربيتير[٥] (Riverter) ، كما يبدو أن طائفة كبيرة من هؤلاء الجند كانت لاتزال على دينها الأول ، بدليل ما يروى من أن المرابطين قد تركوا لهم حرية العقيدة ، وأباحوا لهم بناء الكنائس[٦] .

(١) يوسف أشباخ فى ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) De Mas Latrie : Traités de Paix p 320

(٤) Terrasse : Hist. du Maroc, p. 248

(٥) ابو بكر الصنهاجى البيدق ص ٨٦ .
Lévi—Provençal (Introduction) p. 139
Dozy : Recherches vol. II, p. 437
Terrasse (op. cit.) p. 249

(٦) Terrasse (op. cit.) p. 248

فما هى الظروف التى اضطرت المرابطين إلى أن يستخدموا هؤلاء الجند ؟ نحن نعلم أن المرابطين سخروا جميع القوى فى معركة الجهاد فى الأندلس ، وكانوا لايفتأون يقذفون فى اتون المعركة بالفرقة تلو الفرقة ، فكانوا بحاجة إلى طائفة من الجند تملأ هذا الفراغ الذى خلفته الفرق المشتبكة فى القتال، وكانوا بحاجة إلى نوع من الجند يسخرون لحماية مدن المغرب ، وينتشرون فى القلاع والحصون التى اقامها المرابطون فى بلاد المصامدة لحراستهم وارهابهم [١] . استعان المرابطون بالمغاربة فى مقاتلة النصارى ، واستعانوا بالنصارى فى حراسة أهل المغرب واخضاعهم .

ولم يقنع المرابطون بهذه الموارد المتعددة من الجنـــد سواء من الزناتيين أو المصامدة أو الأسرى المسيحيين أو الزنوج ، بل اضطرتهم المعركة التى شنوها فى البر والبحر إلى تسخير جميع الموارد ، والاستعانة بجميع طوائف المجتمع لإدارة دفة الحرب فى الأندلس . فالى جانب هذه الفرق النظامية استعان المرابطون بطائفة كبيرة من المطوعة من أهل الأندلس والمغرب [٢] ، الذين كان تدفعهم حميتهم إلى الانخراط فى سلك المجاهدين طلبا للشهادة فى سبيل الله ، وكانت أعداد المتطوعين فى بعض الأحيان تعد بالآلاف ، [٣] يجتمعون إذا لاحت نذر المعركة ، ثم يفترقون بعد انتهائها . ويبدو أن طائفة من عرب بنى هلال قد اشتركت فى معركة الجهاد ، يتبين هذا من قول صاحب القلائد « وفيهم من اجناده زنجها وعربانها » [٤] .

---

(١) Terrasse (op. cit.) p.248

(٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٩ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) الفتح ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٦٥ .

وإذا كان يوسف بن تاشفين قد عمد فى إصلاح النظم الحربية إلى إدخال نظام التجنيد الشامل لكافة طبقات المجتمع على الصورة التى عرضنا لها ، فإنه عمد إلى إصلاح ناحية أخرى ، عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش ، وطريقة إعداده للقتال ، ذلك أن أسلحة الملثمين كانت فى الواقع أسلحة بدوية ، وكان شأنهم شأن بدو الصحراء يعتمدون على الإبل إعتماداً كبيراً ، ولا يكثرون من الخيل ، ويفضلون القتال وهم راجلون[1] ، وضح ذلك كله حين أخذت جموعهم تطرق أبواب المغرب ، إذ روى المؤرخون أنهم « دخلوا المغرب فى ثلاثين ألف جمل مسرج »[2] ، ولكن الإبل إذا كانت تصلح للقتال فى الصحراء فانها ليست صالحة للقتال فى المناطق الجبلية والهضبية فى المغرب الأقصى ، كما أن فرق الأبالة لا تستطيع أن تصمد أمام فرق الخيالة الممتازة من الزناتيين والمصامدة ، لذلك عمد يوسف إلى الاكثار من الخيل ، وكون فرقا من الفرسان ، ودربهم على هذا اللون من ألوان القتال . ويخيل إلينا أن يوسف استعان بالفرسان الزناتيين على نطاق واسع ، وكانت لهم فى فنون القتال شهرة واسعة ، ولكن يوسف لم يغفل شأن الإبل ، فكان يجعلها تحدق بمعسكره ، حتى إذا احتدم القتال سيقت الإبل للحرب فتدخل الرعب فى قلوب الفرنجة ، وتجنح لمرآها خيلهم فيقع الارتباك فى صفوفهم[3] كما أن الملثمين لم يألفوا السلاح الثقيل[4] من لبس الخوذات والدروع والزرد ، كما كان يفعل أهل الأندلس فى حربهم وقتالهم . كانوا فى الواقع قد اعتادوا على التسلح باسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم البدوية البسيطة ، وكانوا يتسلحون بدرق

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .

(٢) جامع تواريخ فاس ص ٢٤ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ١٤١ .

اللمط والقنا الطوال[١] والمزاريق المسنونة[٢]، ويحمل الرجل منهم عدة مزاريق في آن واحد[٣].

ولم يغير يوسف من هذا النظام فى التسلح ، بل أبقاه على ما هو عليه ، ولكنه استعان بفرق من الرماة بالسهام والنشاب ذاع صيتها فى شدة الفتك واتقان الرماية[٤] ، ويخيل إلينا أنه استعان بمقاتلة من المغرب . ولما التحم المرابطون بالفرنجة ووجدوا أنهم يعتمدون اعتمادا مطلقاً على التسلح الثقيل لم يغفل المرابطون هذه الناحية، وبدءوا يسلحون فرقهم بالتروس،وينسجون الدروع ، ويلبسون البيضات[٥] ، وأصبح الجيش المرابطى تتمثل فيه جميع الأسلحة المستعملة فى عصره سواء كانت أسلحة بدوية أو مغربية أم أندلسية .

أما مسألة استخدام طبول هائلة تصحب الجيش الزاحف فلا ندرى بالضبط أأكثر المرابطون من الطبول متأثرين بالتقاليد السودانية أم بالتقاليد المغربية ؟ وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد أن المؤرخين رووا[٦] أن طبول المرابطين كانت إذا ضربت اهتزت لها الأرض ، وتجاوبت الآفاق ، وارتاع العدو ، وهم يتحدثون عن هذه الطبول حديث من لم يشاهد مثلها من قبل . ولعل أهل الأندلس لم يكونوا قد اعتادوا أن يروا فى جيوش شبه الجزيرة عادة استخدام مثل هذه الطبول الكبيرة .

أما نظام إمرة الجيش فإن يوسف بن تاشفين لم يدخل عليه تعديلا يذكر ، إذ ظلت التقاليد القبلية تتحكم فى هذه النظم وتسيرها ، إذ كان على القبيلة الغالبة أن تخص أبناءها بالقيادة ، فلا تستعين بسواهم ، وكانت القيادة العليا لزعيم القبيلة

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١١ .
(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٧٩ .
(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .
(٤) Terrasse : (op. cit.) p. 223
(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٢ ص ٢٨١ .
(٦) Dozy : Abbadidarum, vol. II, p. 247

المنتصرة يوسف بن تاشفين[١] ، أما فرق الجيش المختلفة فكانت إمرتها تعقد لقواد من أفراد البيت الحاكم ممن يثق بهم أمير المسلمين ، ويطمئن إلى إخلاصهم[٢] حتى قوات الحشم وهى قوات غير صنهاجية[٣] كانت قيادتها لرجال من لمتونة ، ويبدو أن أبناء لمتونة كانوا يؤلفون فرقة قائمة بذاتها يقودها أمير من المقربين من السلطان[٤] .

وكان طبيعيا بعد أن فتحت الأندلس ، وتعددت الجيوش المرابطية المشتركة فى معركة الجهاد أن توحد القيادة فى الأندلس ، وأن يعقد لواؤها لقائد واحد هو حاكم الأندلس من قبل أمير المسلمين[٥] ، وهو حر التصرف يحرك قواته فوق رقعة شبه الجزيرة كيف يشاء . وكان قواد الفرق المختلفة وولاة الأقاليم من رجال لمتونة يجتمعون بالأمير على هيئة مجلس حرب للمشاورة فى مختلف الشئون العسكرية ، ولاتخاذ خطة موحدة فى معركة الجهاد[٦] .

ويبدو أن السياسة التى كانت تملى على أمير المسلمين أن يجرى تنقلات مستمرة بين ولاة الأقاليم حتى لا يستأثر أمير بالسلطة أو يفكر فى الخروج على ولى الأمر هى نفس السياسة التى أملت عليه أن يحدث تنقلات مستمرة فى قيادة فرق الجيش ، حتى لا يطول بقاء القائد فى منصبه فيستبد بالأمر ، ويؤلب الجند على أمير المسلمين .

---

(١) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) الفتح بن خاقان : المطمح ص ١٩٧ . الحلل الموشية ص ٥٩ . أعمال الأعلام ج ٣ ص ٢٠٠ ، ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و ٥٢ و ٥٤ . البيذق ص ٧٩ ، ابن الأثير ج ١ ص ٣٦ .

(٣) الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٤) أعز ما يطلب ص ٤٥ .

(٥) ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و ٥٢ و ٥٤ .

(٦) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ .

ويبدو أن قيادة فرق المرابطين كانت فى غاية الدقة والتنظيم ، مما يدل على أن اليد القابضة على السلطة العليا كانت يد مجرب حكيم ، فكانت الجيوش تتحرك صوب أهدافها فى وقت واحد ، تقاتل فى شرق الأندلس ، وفى وسطها ، وفى غربها ، وفى المغرب الأوسط ، وفى كل منطقة يشتد فيها الخطر . وكان المغرب بمثابة المعسكر الكبير يرسل منه الجند المعدون للقتال لمختلف أرجاء الجبهة ، ويخيل إلينا أن مدينة سبتة وطنجة كانتا بمثابة مراكز أمامية مهيأة لكل طارئ ، يرابط فيها الجنود على استعداد لتلبية أى نداء بالعبور إلى الأندلس ، وقد رأينا كيف أن يوسف بن تاشفين كان ينقل مقر قيادته إلى سبتة وطنجة ليرقب المعركة فى الأندلس عن كثب ، ويرسل أوامره للقائد الأعلى على جناح السرعة .

وقد نجحت سياسة ابن تاشفين نجاحاً بعيد المدى ، واستطاع أن يشغل العدو بقتاله فى أكثر من جبهة واحدة فى البر والبحر ، وأن يشل حركته ، ويوقع الارتباك فى صفوفه . والفضل فى تنظيم هذه القيادة ، ووضع أسسها يرجع إلى يوسف الذى كان خبيراً باختيار الرجال واكتشاف المواهب ، فما من قائد أمره على الجيوش إلا وظهرت مواهبه ، وأظهرت الحوادث أنه من أكفأ القواد وأشجعهم وأقدرهم ، وقد أظهرت معارك المغرب والأندلس طائفة من هؤلاء الأبطال الذين عفروا جباههم بغبار الجهاد ، وجادوا بدمائهم فوق بطاح الأندلس ، وكانوا مصدر رعب وفزع للعدو ، نذكر من هؤلاء سير بن أبى بكر[1] ، وداود ابن عائشة[2] ، وعبد الله بن فاطمة[3] ، وأبو محمد مزدلى فاتح الشرق[4] .

---

(١) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٥٩ .

(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) Dozy : Recherches, vol. II, ap. I

وابن ميمون قائد الأسطول وغيرهم كثير[١] . وكان للعسكر قضاة يقضون بين الجند و يعظونهم و يحضونهم على الجهاد و يؤمونهم فى الصلاة[٢] .

والآن نعرض لفن القتال كما عرفه المرابطون ، وما يتضمنه من طريقة إعداد الجند وتهيئتهم للمعركة ، وترتيب الصفوف ، وتنظيم الفرق المقاتلة ، وطريقة السير إلى المعركة ، وتقاليد الملثمين فى خوض غمار الحرب . كانت للملثمين قبل عهد يوسف بن تاشفين تقاليد معروفة فى إعداد الجند للقتال ، إذ كانوا يعتمدون على صنفين من المقاتلة : يعتمدون على الرجالة ، وعلى الأبالة الذين يقاتلون على النجب التى تقوم فى القتال مقام الخيل ، كانوا يجعلون من المشاه صفوفاً ، يجعلون فى الصف الأول فريقاً من المقاتلة مسلحين بالقنا الطوال ، و يجعلون خلفهم صفاً آخر من المشاه يتألف من رجال بيدهم المزاريق . وكان هؤلاء عادة من مهرة الرماة وحذاقهم « لا يكاد الواحد منهم يخطىء أو يشوى ، يتسلحون بأكثر من مزراق ، و يتناو بون الرماية فى سرعة خارقة ودقة عجيبة ، و بلغ من حسن إعدادهم ، ودقة تنظيمهم أنهم كانوا يجعلون فى مقدمة الصفوف صاحب الراية يرتهن المقاتلون بإشارته ، إذا انتصبت الراية وقفوا و إن أمالها جلسوا[٣] » ، لأنه يرقب تحركات العدو بعين ساهرة يقظة ، يشير بهذه الراية كلما أحس بإقبال الخطر أو دنوه . وتقف خلف هؤلاء الرجال فرق من الفرسان الأبالة على ظهور النجب ، يتحفزون للهجوم إذا آنسوا من عدوهم ضعفاً أو أحسوا تخاذلا .

فهل أبقى يوسف بن تاشفين حين تسلم قيادة الجيش على هذا النظام البدوى فى فن القتال ، أم غيره واستبدله بنظام آخر ؟ يخيل إلينا أن يوسف لم يدخل على هذا النظام تعديلا يذكر ، إذ لم يكن باستطاعته أن يغير طبائع الناس ، وما درجوا

---

(١) انظر اللاحق .

(٢) الذخيرة (قسم ٤) ص ١٢٥ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .

عليه من أساليب القتال . نقف على ذلك من وصف الطرطوشى لفن القتال فى بلاد الأندلس فى عصره . فقد قال « فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو تدبير نفعله فى لقاء عدونا أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الأرض وصدروهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون فى الأرض ، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه ، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذو يمنة ويسرة فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله[1] » .

والطرطوشى كان معاصرا لقيام دولة المرابطين ولتدفقهم إلى الأندلس ، كما أن تقاليد الحرب وفنونها فى عهد ملوك الطوائف كانت لاتكاد تختلف عن تقاليد النصارى فى هذا المضمار ، من الاعتماد على القلاع الحصينة ، واتقان فن الحصار ، والاعتماد المطلق على الشجاعة الفردية ، وعلى فرق من الخيالة الثقيلة المسلحة بالزرد والدروع والسيوف[2] مما يجعلنا نعتقد بأن الطرطوشى فى وصفه ذلك إنما كان يصف نظام القتال فى بلاد الأندلس فى أوائل عهد المرابطين ، وفى أيام يوسف بن تاشفين بوجه خاص ، وتكاد روايته تطابق رواية البكرى فى هذا الصدد[3] .

إذن أبقى يوسف على هذه التقاليد ، لم يغير منها ، ولكنه عمد إلى التجديد ، فأعاد تقسيم الجيش على أسس جديدة لم تكن معروفة من قبل ، إذ جعل أساس

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٧٩ .

Pidal : The cid and his Spain, p. 219 (٢)

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .

تقسيمة قبليا محضا ، بمعنى أن تؤلف الفرق من أفراد القبيلة الواحدة ، حتى تتآلف قلوبهم و يكونوا متآلفين متحابين ، يقاتلون وفق نظام واحد ، و يستوحون تقاليد واحدة[١] ، فكان الحشم وهم من الزناتيين والمصامدة يؤلفون قسما مستقلا بذاته وكان الأندلسيون والمطوعة يؤلفون قسما آخر مستقلا بشأنه ، وكان المجاهدون من أهل الثغور يؤلفون قسما آخر مستقلا ، أما فرق لمتونة وغيرها من أهل اللثام ، فكانت مستقلة عن الفرق الأخرى ، وكانت هذه الفرق جميعها تقاتل على الطريقة البدوية التى عرضنا لها . كانت فرق الحشم فى مقدمة الصفوف ، وكانت فرق الملثمين تصطف فى القلب ، وكان المحاربون من أهل الأندلس يصطفون فى الساقة ، وأهل الثغور وغيرهم يؤلفون جناحى الجيش[٢] . وتقديم فرق الحشم يتفق مع التقاليد القبلية إلى حد كبير ، فقد وضعت فى موضعها ذاك لتصطلى بنار المعركة وتذوق طعمها ، وتكون بمثابة درع يقى زهرة شباب لمتونة وخيرة فرسانها ولا يتقدم الملثمون إلى القتال إلا بعد أن تكون فرق الحشم قد نالت من العدو وأنهكته وأضعفته[٣] ، حينئذ يتقدمون ليجهزوا عليه ، و ينهوا المعركة لصالحهم ، ولكن يوسف لم يعتمد على المشاة وحدهم ، بل أعد طائفة من الفرسان الشجعان من جند لمتونة ، ولا بد أنه سلحهم بالأسلحة الثقيلة ، شأنهم شأن فرسان النصارى[٤] ، وكان يجعلهم فى القلب خلف صفوف المشاة من الحشم[٥] ، وقد أبقى نظام الأبالة ، فكان يقيم منهم صفوفاً تحدق بالمعسكر وتحف به ، تحمى مؤخرتهم وتؤمن طرق مواصلاتهم[٦] ، فلا يعمد العدو إلى قطعها ، وتهديد الجيش المهاجم

---

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣ .

(٣) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣ .

(٦) Gautier (op. cit.) p. 170

فإذا اتخذت كل فرقة موضعها ، وتهيأ الجيش للقتال دقت طبول الحرب ، وتردد صوتها المدوى فى جنبات المعسكر إيذاناً ببدء الهجوم ، فتتقدم فرق الحشم ، ثم تتلوها الفرق الأخرى فى دقة ونظام ، كلما أنهكت فرقة تقدمت إليها فرقة أخرى وهكذا دواليك[1] . أما فرق لمتونة فهى لاتخوض المعركة إلا فى المرحلة الأخيرة لأن المرابطين كانوا يخشون دائما أن يبدأوا بالقتال ، فتفر الفرق الأخرى من خلفهم ، وتتركهم لسيوف الأعداء ، تعمل فيهم عملها ، لذلك كانوا يقدمون الفرق الأخرى حتى لاتنكص على أعقابها ، ثم يتقدمون هم لجنى ثمار النصر والإجهاز على العدو .

على أن الجديد فى فن القتال أن يوسف بن تاشفين كان يحسن تدريب هؤلاء الجند وتنظيمهم ، ويعد كل فريق للدور الذى يصلح له وكان يخضع هذه الجموع الزاخرة لإرادة رجل واحد ، تتحرك وفق مشيئته فى نظام رتيب كأنها قطع الشطرنج ، فتضرب هذه الكتل البشرية المتراصة ضربة رجل واحد ، فتنال من العدو وتخلخل صفوفه فيرتبك ويتعثر . وقد كان لهذا الفن الجديد أثر هائل فى معارك الأندلس ، لأن النصارى كانوا يعتمدون كما قلنا على الشجاعة الفردية ، وعلى الخيالة الثقيلة ، وتتحرك الفرق تحركات مستقلة لا أثر لنظام يجمع شملها أو يوائم بين حركاتها ، لذلك كانت أجنحة العدو تهاض وتتكسر أمام هذا النظام الدقيق[2] .

وكان المرابطون يعتمدون على عنصر المفاجأة ، وعلى الحرب الخاطفة السريعة لمواجهة هذه الحصون المتحركة من الخيالة الثقيلة . كانوا يعتمدون على الصفات الفردية المتمثلة فى سرعة الحركة ، والثبات والشجاعة ، فكان الجند ينقضون على العدو كالصاعقة فى حركات مرسومة ونظام رتيب، تنوشه رماحهم ومزاريقهم

---

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

(٢) Menéndez Pidal : The Cid and his Spain, p. 210

وتطرد سهامهم ، ثم يخرج فرسانهم فى هجوم جرىء مفاجىء[1] ، وقد عمد المرابطون إلى ذلك لأنهم لم يكونوا يعتمدون على السلاح الثقيل ، فكانت خسارتهم فى الساعات الأولى من القتال خسارة فادحة ، فكان من مصلحتهم أن يعجلوا ، وأن ينهوا المعركة بأسرع مايستطيعون ، لذلك كان عنصر السرعة وعنف الهجوم طابعاً مميزا لهم فى جميع المعارك التى خاضوا غمارها .

كانت تقاليد الملثمين تقضى بأن يثبت الفارس فى موضعه لايتقهقر أو يلقى حتفه[2] ، لأنه يجد فى الفرار من الزحف عاراً وأى عار ، فما بالك إذا اعتقد أن هذا الثبات سبيله إلى الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان من تقاليدهم المعروفة حتى فى مجتمعاتهم البدوية ألا يتعقبوا العدو المهزوم الفار ، لأنهم كانوا يأنفون من أن يطعنوا عدواً من الخلف ، وهو يولى الأدبار[3] ، بل يفضلون أن يقاتلوا العدو فى مواجهته . وقد ظهرت هذه التقاليد بوضوح فى معركة الزلاقة ، حين أبى يوسف أن يتعقب الفونسو الذى فر فى جنح الظلام ، وكان ذلك موضع عجب أهل الأندلس ودهشتهم ، لأنهم درجوا على أساليب الخيانة والغدر فى القتال ، يأخذون العدو من مأمنه ، و ينالون منه إذا أدبر أو فر .

ولم يكن المرابطون يعرفون فن الحصار ، وكيف يتأتى لهم أن يلموا به ، وهم البدو الرحل الذين لم يكن لهم بالحصار عهد ، ولكن يخيل إلينا أنهم بعد أن أخفقوا فى معركة لييط تعلموا فن الحصار ، وأتقنوه ، واستعانوا به ، فقد روى صاحب الحلل «أن يوسف شرع فى بناء الأسوار ورم ماتشعث من الأبراج ، وحفر الخفير حولها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكراً نقيا من نخبة رجاله ، وأسكنهم بها»[4] .

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ١٠٩ .

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٦ .

(٤) الحلل الموشية ص ٦٧ — ٦٨ .

وقد ازداد اتقانهم لهذا الفن فى عهد على بن يوسف ، فبرعوا فيه وظهر أثر ذلك فى حصارهم مدينة شنترين واستيلائهم عليها ، فقد كتب سير بن أبى بكر إلى أمير المسلمين يتيه بهذا الظفر ، ويصف له مالاقاه العدو من آلام الحصار ومتاعبه (١) .

وكانت جيوش المرابطين إذا تحركت من موضع إلى آخر سارت وفق نظام خاص . كانوا يسيرون متأهبين للقتال كأنهم على وشك خوض المعركة ، وكانت الأقوات والخيام تحمل على ظهور الإبل ، تسير فى مؤخرة الصفوف ، يتلوها الرماة ، يقودون قطعان الماشية من كل صنف ، فإذا حط الجيش رحاله أقاموا معسكراً تحف به الخنادق والتحصينات (٢) .

وإذا كنا قد فرغنا من التحدث عن الجيش ، فلابد من أن نعرض للاسطول فى عهد المرابطين ، وأهم ما يلاحظ فى هذا الصدد أن المرابطين ، وهم من بدو الصحراء لم يكن لهم عهد بركوب البحر ، حتى قدر لهم أن يفتحوا المغرب الأقصى ، وأن يتدفقوا صوب السهول الساحلية ، وأن يستولوا على موانى الساحلية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، فبدأت تواجههم مشاكل لم يكن لهم

---

(١) رسالة من سير بن أبى بكر إلى أمير المسلمين «أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين اعلامه ؟ نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك وعن نفست على المسلمين والحمد لله رب العالمين حمدا يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ويسبق الألحاظ الطامحة ... وكانت قلعة شنترين أدام الله أمر أمير المسلمين من احصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقد على المسلمين فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه وهديك الذى اكتفيناه نخضد شوكتها ، وتنحت أثلتها ، ونتناولها عدأ بعد نهل ... ونشن الغارات على جميع الجهات ، فترد جيوشنا عليهم خفافا ، وتصدر إلينا ثقالا فتملأ صدور الأعداء أوجالا ، وأيدى الأولياء أموالا ... فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركابها لنا عن صهوتها ... »

Hoogoliet : Specimen e Litteris diversorum Scriptorum Locos de Regia Aphtasidarum . . . pp. 134 — 136

(٢) يوسف أشباخ . تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . ج ٢ ص ٢٣٦ .

بها عهد ، وكان يتعين عليهم أن يجدوا لها حلا . ذلك أن ساحل إقليم المغرب الأوسط والأقصى الممتد من وهران حتى طنجة كان فى حاجسة إلى قوة بحرية تحرسه وتحميه وتقيه شر غارات القراصنة التى بدأت تشتد فى ذلك الوقت غب اختلال التوازن فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى .

ويخيل إلينا أن المرابطين أفادوا من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر ، كما أفادوا من دور الصناعة المنتشرة فى هذه الموانى ، فبدأوا يبنون أسطولا فى عهد يوسف بن تاشفين ، وهو لم يزل أميراً على المغرب . ويبدو أن النواة الأولى لأسطول المرابطين الجديد قد اشتركت فى حصار سبتة ، ومد يد المعونة للقوات البرية التى كان تقاتل سقوت البرغواطى[1] .

وقد أدرك يوسف بن تاشفين بعد انتصاره فى معركة سبتة أهميـــة العامل البحرى فى كسب المعارك ، فبدأ يهتم بأمر الأسطول ، ويوليه من رعاياته الشىء الكثير ، ولعله استعان ببحاره الأندلس ودور صناعتها فى تدعيم الأسطول وتنظيمه ، وقد استطاع الأسطول الجديد أن يمد يد العون لقوات المرابطين وهى تجتاز البحر لأول مرة[2] .

ثم أخذ المرابطون يتوسعون فى بلاد الأندلس ، فاتجهوا صوب الشرق ، ففتحوا المرية وبدأوا يبسطون نفوذهم على كثير من الموانى الساحلية ، وكان هذا الفتح بداية عهد جديد فى تاريخ البحرية فى عهد المرابطين ، ذلك أنهم وضعوا أيديهم على أهم الموانى فى حوض البحر الأبيض المغربى ، واستولوا على دور صناعة كانت ذات شهرة عالمية فى فنون البحر وصناعة السفن . وكان ثغر المرية على الخصوص ودار صناعتها ذات شهرة لا تبارى فى هذه السبيل .

---

(١) الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) يوسف اشباخ . تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٧ .

كان من أثر ذلك أن بدأ الأسطول المرابطي يظهر كعنصر فعال فى معركة النضال من أجل السيادة على بلاد الأندلس ، و بدأ يتخذموقف المهاجم ، و بدأ المرابطون يعدون السفن لا لمجرد نقل القوات بين العدوتين ، بل للحرب والنزال فاشترك الأسطول فى معركة بلنسية التي احتدمت بين القمبياطور والمرابطين ، إذ روى المؤرخون أن بعض سفن المرابطين عاونت القوات البرية فى شرق الأندلس[1] .

ومن أسف أن المراجع لا تتحدث بالتفصيل عن نشاط البحرية المرابطية فى عهد يوسف بن تاشفين ، مما يحمل على الظن أنها كانت لا تزال فى دور البناء والتكوين ، والمستشرق جايانجوس[2] فى ترجمته لكتاب نفح الطيب أشار إلى أن عيسى بن ميمون والد أمير البحر على بن ميمون كان يقود أسطول المرابطين فى قادش ، مما يحمل على الظن بأن عيسى هـذا كان أمير البحر فى أواخر أيام يوسف بن تاشتين ، وقد غدت إمرة البحر وقيادة الأساطيل وراثية فى بنى ميمون هؤلاء .

ومهما يكن من شىء فإن البذور التي غرسها يوسف بن بن تاشفين أينعت وقطف ولده على ثمارها كاملة ، فقد ازدهر الأسطول فى عهده ، و بدأت المراجع تتحدث عنه ، وتسجل له نشاطاً بعيد المدى فى معركة البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن أسطول على بن يوسف كان يتألف من سفن عدة ، وأنه كان يتألف من جملة أقسام يختص كل قائد بقيادة قسم منها ، ويدين بالطاعة لأمير البحر ، فقد روى الإدريسى أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز « كان والياً لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله »[3] .

(١) Pascual de Gayangos : The History of the Mohammedan dynasties in Spain, vol. II, p. 517, Note 4

(٢) الأدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٥٤ — ٥٥ .

وقد ظهر تفوق أسطول المرابطين فى عهد على بن يوسف فى معركة ميورقة ، ذلك أن صاحب برشلونة كان قدحاصر جزر البليار عشرة أشهر ، واستولى عليها فاستغاث صاحبها مبشر بعلى بن يوسف ، فخفت أساطيل المرابطين لنجدته ، وأحدقت بالجزيرة ، وأنزلت بالفرنجة هزيمة ساحقة ، وبسطت عليها سيادة المرابطين ، فأصبحت من أهم قواعدهم فى البحر الأبيض المتوسط ، وولوا عليها عاملا من قبلهم يدعى وانود بن أبى بكر[1] ، كما ظهرت شهرة على بن عيسى ابن ميمون قائد أسطول المرابطين ، وبدأ المؤرخون يتحدثون عنه حديث المعجب بجرأته وشجاعته ، ومن الغريب أن بنى ميمون هؤلاء ملثمون من لمتونة ، فكأن لمتونة لم تشأ أن تولى على أسطولها رجلاً من غير أبنائها[2] .

وباستيلاء الأسطول المرابطى على جزيرة ميورقة يبتدئ عهد جديد فى تاريخ النضال بين المسلمين والفرنجة ، إذ بدأ المرابطون بعد أن عقد لهم لواء النصر فى البر يدخلون معركة البحر بقلوب مطمئنة وأقدام ثابتة ، وأصبح أسطولهم قوة هائلة يحسب لها الأعداء ألف حساب . وكان من آيات تفوق المرابطين فى البحر أنهم دخلوا حومة الصراع بين النرمنديين أصحاب صقلية والزيريين أصحاب إفريقية ، حين استنجد الحسن بن على بن يحيى بأسطول المرابطين ، فخف إلى صقلية ، وأغار على سواحلها ، وعاث فى مدنها ، وقد تعددت غارات المرابطين على صقلية ، حتى ضج روجر بالشكوى ، واعتقد أن بنى زيرى هم الذين يحرضونهم ، ويدفعونهم لاتخاذ هذا الموقف العدوانى ، فأعدوا العدة لتأديب الزيريين بالاستيلاء على المهدية ، وقد اشترك أسطول

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) Pascual de Gavangos : The History of The Mohammedan dynasties, vol. II, p 517, note 4

المرابطين فى معركة المهدية ، وبدأت سفنه تجوس فى أحواز صقلية ، تقتل ، وتأسر ، وتفتك[1] .

ويبدو أن دائرة نشاط أسطول المرابطين بدأت تتسع ، وبدأت غاراتهم تمتد إلى سواحل إيطاليا وسواحل فرنسا ، بل دخلت ميدان البحر الأبيض الشرقى ، وبدأت تصارع أساطيل بيزنطة[2] . ومن أدلة ذلك النشاط الجم أن المراجع الإفرنجية بدأت تؤرخ لغارات المرابطين ، وتتحدث عنها فى شىء من الإسهاب ، وهذه المراجع لا تسجل من أخبار المسلمين إلا الأحداث البارزة ذات الأثر ، فقد خلدت أغنية رولان نشاط المرابطين فى البحر[3] ، وبدأت تتحدث عن على بن عيسى بن ميمون ، كما أن مدونة ألفونسو السابع اختصت هذا الأمير باهتمام كبير[4] ، فذكرت أنه أخذ يغزو جنوب إيطاليا ، بل وصلت غاراته إلى بلاد الشام ، كما وردت إشارات عن نشاط أسطول المرابطين وإغاراته على شواطىء بروفانس وإحراقه كل ما يصادفه من قرى وقصور وكنائس[5] ، بل إن مدونة ألفونسو السابع تمعن فى تسجيل نشاط على بن ميمون ، فتقول أن الجالية المسيحية ببلاد على بن يوسف قد أسرها على بن ميمون أثناء إغاراته بحوض البحر الأبيض ، وأنه قد نقلها إلى مراكش لتدخل فى خدمة أمير المسلمين[6] ، فكأن المرابطين قد أبوا إلا أن يجاهدوا فى البحر والبر على حد سواء .

ولكى يتم القول فى النظم الحربية فى عهد المرابطين وأثر قيام الدولة فى نموها وتطورها لا بد من أن نعرف بناحية أخرى من نواحى هذه النظم ، وهى ناحية

---

(١) رحلة التيجانى ، ورقة ١٤٧ و ١٤٩ .

(٢) Dozy : Recherches, vol. II, p. 410

(٣) I dem

(٤) I bid. p. 437

(٥) I bid, p. 410

(٦) I bid, p. 437

طريقة ظهر فيها صدى التأثيرات القبلية ظهوراً واضحاً . هذه الناحية هى نظام القلاع والحصون التى انتشرت فى جميع أرجاء المغرب الأقصى ، وخصوصاً حول المنطقة الجبلية فى الجنوب والشمال[١] ، وفى المغرب الأوسط[٢] ، وفى أطراف الصحراء ، حتى لقد عدد البيدق منها ما يقرب من عشرين حصناً منبثة فى أرجاء البلاد[٣] ، وذكر مارسيه أن آثار هـذه القلاع والحصون لا تزال باقية حتى اليوم[٤] .

فهل عمد المرابطون إلى هذا النظام ، وأكثروا من هذه القلاع والحصون فى عهد على بن يوسف حين وضح خطر الموحدين ، و بدأوا يهددون الدولة تهديداً خطيرا ، أم أن يوسف بن تاشفين وضع أساس هذا النظام كما وضع أساس النظم المرابطية كلها ؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين هو الذى وضع أساس ذلك النظام حينما أراد أن ينظم بلاد المغرب الأقصى على أسس سليمة ، وأن يقر السكينة فى ربوعة توطئة للاشتراك فى معركة الجهاد . يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن يوسف أقام الحصون فى بلاد الأندلس ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة « ورتب فيها عسكراً نقياً من نخبة رجاله وأسكنهم بها[٥] » .

و إذا كان قد فعل مثل ذلك ببلاد الأندلس أيكون من المعقول أن يهمل بلاد المغرب ، و يتركها عرضة للفتن والاضطرابات . كما روى المؤرخون أيضاً أن يوسف بن تاشفين بنى فى المغرب الأوسط قرب تلمسان مدينة جديدة سميت تاكرارت[٦] ، وتاكرارت فى لغة البربر معناها المحلة أو المعسكر[٧] ، كما بنى

(١) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 249

(٢) E. Lavust : L' Haditation chez les Transhumants du Maroc Centrale, Hésp. 1934, T. XVII

(٣) ابو بكر الصنهاجى البيدق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٨ و١٢٩ .

(٤) G. Marçais : Manuel d' Art Musulmans : L' Architecture, Vol. I, 346.

(٥) عن الحلل الموشية : نقلا عن: Dozy : Abbadidarum Vol. II. p. 193

(٦) E. Lavust : L' Habitation Chez les transhumants du Maroc Centrale, Hespéris. 1934, vol. XVIII.

(٧) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف ج ١ ص ٨٥ .

فى مراكش قلعة حصينة يعتصم بها الجند إذا لاحت نذر الخطر[1] . إذن وضع يوسف أساس هذا النظام الفريد ، وكان يستوحى التقاليد البدوية الصحراوية ، ذلك أن البدو كانوا إذا أناخوا بموضع عمدوا إلى إقامة معسكر يضعون فيه دوابهم وأثقالهم ، ثم حصنوه وحرسوه مخافة أن يتهيه مغير أو يطمع فيه عدو[2] .

وقد وضحت هذه السياسة منذ فجر الدعوة المرابطية ، فما كاد المرابطون يستولون على أودغشت حتى ابتنوا معسكراً على مقربة منها يكون مركزاً لعملياتهم الحربية ، ومستودعاً لأثقالهم وأموالهم ، فلما تدفقوا صوب المغرب الأقصى ، وتخطوا مدينة سجلماسة اتخذوا معسكرات من هذا القبيل قرب أغمات جعلوها مركزاً لعملياتهم الحربية فى إقليم السوس الأقصى ، بل إن بناء مدينة مراكش كان لتحقيق مثل هذه الأغراض الحربية ، فكانت كالقيروان بنيت لتكون معسكراً للقوات الزاحفة ، ونقطة مراقبة أمامية تقع على مشارف جبال أطلس ، ترقب تحركات قبائل مصمودة ، وتترصد لها[3] .

ثم سيطر الملثمون على إقليم المغرب الأقصى كله ، وأخضعوا المصامدة والزناتيين والبرغواطيين ، ودانت لهم جميع شعوبه بالطاعة والغلبة ، وأحسوا منذ اللحظة الأولى أنهم أقلية حاكمة تسيطر على أغلبية محكومة ، وأنهم قبيلة فاتحة تسيطر على قبائل لاحصر لها ، تعترف بقوتهم وتفوقهم ، فكان طبيعياً أن تعمد القبيلة الغالبة إلى أن تصون ما أدركته بعد تضحيات و بعد جهاد ، وأن تضمن ولاء هذه القبائل المسودة ، فلا تنقض من مضاربها فى الجبال والهضاب فتغتصب منها ثمار النصر ، وكانت الدولة المرابطية تتهيأ لجهاد أكبر ، فكيف يتم لها ذلك إلا إذ أمنت ظهر الجيوش المجاهدة ، وضمنت ألا تنكص القبائل

---

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 248

(٣) G. Marçias : Manuel de L' Art Musul. vol. I, p. 346

الموالية على أعقابها ، منتهزة فرصة انشغال زهرة شباب متونة فى معركة الأندلس لتطعنهم من الخلف ، ثم إنه لابد من التوحيد بين إقليم الساحل وإقليم الهضاب والصحراء، فتتعاون هذه الأقاليم الثلاث فى سبيل الاستقرار لينصرف الناس إلى الإنتاج وبعم الرخاء . كل هذه العوامل دفعت يوسف بن تاشفين إلى أن يقيم سلسلة من الحصون ، تحف بمضارب قبائل مصمودة فى الجنوب ، وغمارة فى الشمال ، وزناته بالمغرب الأوسط ، لترقب تحركاتها ، وترصد حركاتها ، وتحول دون عبثهم بالأمن ، حتى تشدد القبيلة المتغلبة قبضتها على البلاد .

ويبدو أن نذر خطر الموحدين قد لاحت لعلى بن يوسف ، وأحس أن الحصون التى ابتناها أبوه لم تحقق الغرض المنشود ، وأنها من القلة بحيث لم تحل دون وثوب الفتنة فى صفوف المصامدة ، فروى المؤرخون أنه استعان ببعض الأندلسيين فى إقامة سلسلة أخرى من هذه القلاع الحصينة[١] . أو بمعنى أدق إقامة خط دفاع يوقف هذه القبائل العاصية عند حدها ، ويتحق خطرها الوليد[٢] فى وقت كانت كل جهود الدولة منصرفة لمعركة الجهاد ، التى جندت فى سبيلها كل مرافق البلاد ، يتضح ذلك كله من قول البيدق الذى أرخ لبواكير حركة الموحدين « أخذ المجسمون الحصون و بنوها فى مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكى ينتصروا بها على الموحدين[٣] » . وكانت هذه القلاع تبنى من الحجر فى مناطق وعرة لا يستطاع التطرق إليها فى يسر وسهولة ، فتصبح كأنها أبراج مراقبة[٤] ، وكان المرابطون يشحنون هذه الحصون بالأقوات حتى تصمد للحصار مدة طويلة ، وكانوا يعهدون بالدفاع عنها لأحد قواد لمتونة ، تعاونه قوة تتألف فى الغالب من مائتى فارس وخمسمائة راجل .

---

(١) Lévi—Provençal: Traduction du Baidac, p. 142

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 249

(٣) ابو بكر الصنهاجى البيدق : أخبار المهدى بن تومرت من ١٢٨ — ١٢٩ .

(٤) GMarçais : Manuel de L' Art Musul .vol. 1, p. 346 .

٥ — أثر قيام دولة المرابطين فى الحياة الاقتصادية :

وقد تركت الأوضاع التى تمخضت عن قيام دولة المرابطين آثارا بارزة فى الميـدان الاقتصادى ، ولا نـكون مغالين إذا قلنا إن الأحوال الاقتصادية فى البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التى أدت إلى قيام الدولة من أى ناحية أخرى من نواحى الحياة فى المغرب فى القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس ، فقد كان التوحيد بين السودان والمغرب والأندلس ذا نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ التجارة الداخلية والخارجية ، فقد عرفنا كيف أن تجارة السودان كانت تمر بديار الملثمين ، وكيف أن هؤلاء الملثمين كانوا يجنون من وراء هـذه التجارة أرباحا ضخمة ، حاولت القبائل الزناتية الضاربة فى المغرب الأقصى والمسيطرة عليه أن تقتسم هذه الأرباح ، وأن تأخذ نصيباً من هذه التجارة الرابحة ، لأن طرق القوافل كان لابد لها من أن تسلك المغرب الأقصى ، إذا أرادت أن تبلغ الموانى الساحلية ، وكانت زناتة تتحكم فى هذه الطرق ؛ وفى هـذه التجارة المارة بالمغرب الأقصى ، فـكان ذلك من أسباب العداء العنيف الذى ثار بين صنهاجة الصحراء ، و بين زناتة المغرب الأقصى ، ذلك العداء الذى أدى إلى تدفق الملثمين صوب المغرب الأقصى ، والاستيلاء عليه ، وطرد الزناتيين إلى المغرب الأوسط ، فـكان معنى ذلك أن طريق المغرب الأقصى قد فتح أمام تجارة السودان على مصراعيه ، وأصبحت القبائل الملثمة حرة طليقة ، تستطيع أن تنقل متاجر السودان إلى موانى البحر الأبيض المتوسط دون رقيب أو حسيب ، وأن يشتد تدفق متاجر السودان إلى أسواق المغرب ، وأن تقوم فى هذه البلاد حركة تجارية نشيطة ، وأن تتضاعف بذلك أرباح الملثمين و يعظم ثراؤهم .

ثم تدفق الملثمون إلى الأندلس على النحو الذى تقدم وتمخض ذلك كله

عن فتح أسوق الأندلس أمام تجارة السودان ، كما فتحت أسواق المغرب من قبل ، وأصبحت هذه التجارة تستطيع أن تتدفق إلى الأندلس كما طاب لها ، تحميها الدولة وتشد أزرها مادامت بلاد الأندلس أصبحت خاضعة لحكومة مراكش ، وغدت فى الواقع مجرد ولاية من الولايات التابعة للمرابطين ، كما أن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان معناه تمهيد الطريق إلى أسواق أوربا عن طريق موانى شرق الأندلس ، إذ أصبح بمقدور السفن أن ترد موانى الشرق وأن تحمل من تجارة المغرب والسودان ما شاء لها أن تحمل .

وكان من أثر هذا النشاط الجم الذى تمتعت به التجارة فى عهد المرابطين أن ظهرت فى بلاد السودان والمغرب والأندلس أسواق ذات شهرة طبقت الآفاق ، قصدها تجار العالم من كل صوب ، فقد أصبحت سجلماسة مركزا من أهم مراكز التجارة عند أطراف الصحراء ، فقصدها التجار من البصرة والكوفة و بغداد ، وكانت تجارتها تحمل إلى الشرق عن طريق موانى المغرب ، أو تحمل عبر الطريق البرى المؤدى إلى إفريقيا[1] . كما برزت مدينة أودغشت عند الطرف الجنوبى من الصحراء كسوق تجارى عظيم نافست سجلماسة فى هذا المضمار ، وحفلت بطائفة من التجار المياسير[2] ، وأصبحت تجارة مدينة نول لاتقل عن سجلماسة أو أودغشت ، إذ أضحت سوقا تجارية عظيمة تمد أسواق المغرب بكثير من السلع الهامة ، فقد كانت تشتهر بصناعة درق اللمط ونسيج الكتان والصوف ؛ ولعل مما يدل على أهمية هذه المدينة فى ذلك العصر أنها أصبحت داراً لسك النقود بسبب وفرة التبر الذى تجلبه القوافل من بلاد السودان[3] .

أما فى بلاد الأندلس فقد نهضت مدينة المرية لتنافس أسواق المغرب

---

(١) Terrasse : Hist. du Maroc, p. 203.

(٢) Idem.

(٣) Annales de L'Institut d'Etudes Orient. (Facul. des Lettres Univers. Alger, t. II, 1936, p. 186.

فى ميدان التجارة الدولية ، قصدتها مراكب التجارة من الإسكندرية والشام[1] ، « فلم يكن بالأندلس أكثر منها مالا[2] » ، بل أصبحت فى أيام الملثمين « مدينة الإسلام[3] » ، حيث ازدهرت فيها صناعات الحرير وآلات النحاس والحديد ، كما كانت فواكهها تحمل إلى بلاد إفريقية والمغرب[4] .

ولعل مما ساعد على ازدهار التجارة الخارجية فى عهد المرابطين نمو البحرية المرابطية ، وظهورها فى ميدان الصراع الدولى ، حتى أصبحت تنافس جمهوريات إيطاليا ، كما أصبحت تنافس النرمان ، واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانى شرق الأندلس وجزر ميورقة ومنورقة أن يبسطوا حمايتهم على الحوض الغربى من البحر المتوسط ، وقام أسطولهم بدور عظيم فى تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس ، أو إلى الأسواق العالمية الأخرى ، ذلك لأن البحرية القوية كان فى مقدورها أن تعلن على القراصنة حرباً شعواء ، فكانت تؤمن الطرق البحرية وتسهر على حراستها .

وهنالك عامل آخر ساعد على نمو تجارة المغرب الأقصى وازدهارها ، وهو أن بلاد إفريقية فى ذلك العصر منيت بغارات عرب بنى هلال ، الذين نشروا الرعب والفزع فى البلاد ، وهددوا السبل ، فأصبحت القوافل لا تأمن على نفسها إذا هى سلكت السبل المؤدية إلى موانىء أفريقية ، فتركزت التجارة فى بلاد المغرب الأقصى ، وأصبحت القوافل المسافرة بين السودان و بين موانىء البحر الأبيض المتوسط ، لا تكاد تسلك سبيلا غير هذه السبيل التى تحف بالبحر المحيط ، والتى تمر بديار جدالة ولمتونة فى طريقها إلى إقليم الريف .

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٤ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

ستطاعت الدولة بعد أن نجحت فى التوحيد بين أقاليم المغرب الأقصى أن تقر الأمن والسكينة فى ربوعه ، وأن تسهر على حماية الطرق ، وتأمين المسالك[١] ، والضرب على يد العابثين بالأمن ، فأمن التجار على أنفسهم ، واطمأنوا ، وأقبلوا بتجارتهم على أسواق البلاد فى طمأنينة وثقة ، خصوصاً وأن الحكومة الجديدة التى نهضت لحماية تراث الإسلام ، و بسط سلطان الدين ، بإحياء السنة القويمة ، و بسط لواء العدل والقانون على الناس على سواء قد كسبت ثقة الناس فى جميع البلاد[٢] ، وعرف ملوكها بالأمانة والاستقامة والعدل ، وإذا وثق التجار بحكومة بلد أقبلوا عليه لا يخافون ظلما ، ولا يخشون عدواناً .

وهنالك عامل آخر كان بعيد الأثر فى تشجيع التجارة الداخليه على الخصوص ، هو أن دولة المرابطين قد ألغت المكوس[٣] التى كانت حكومات زناتة تفرضها على المتاجر التى تسلك أقاليم المغرب الأقصى ، والتى أثقلت بها على الناس ، حتى أدى ذلك إلى كساد سوق التجارة ، وانصرافها عن بلاد المغرب الأقصى ملتمسة موانى أخرى ، وكانت الحال فى بلاد الأندلس فى عهد ملوك الطوائف لا تكاد تختلف عنها فى المغرب فى عهد دولة زناتة ، ذلك أن ملوك الطوائف أثقلوا على الشعب ، وفرضوا المكوس الجائرة على التجارة الداخلية حباً فى المال وحباً

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ص٨٧ ، جذوة الاقتباس ص٣٤٢ . السعادة الأبدية ج ٢ ص٨٩ . يقول الأدريسى . «وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمقازل ، وكانت القبالة على كل شئ يباع دق أو جل كل شئ على قدرة . كما أشار البيدق (ص ٦٧) الى أن المكوس فرضت على المتاجر فى عهد المرابطين فقال « فأردنا الجواز فمنعونا حتى نعطى المكس وهو المكرى ، وقالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا وكذا» ونحن نعرف أن الأدريسى كتب بعد سقوط دولة المرابطين ، كما أن البيدق أرخ للفترة الأولى التى أدت الى قيام دولة الموحدين ، ومعنى هذا أن المكوس قد اعيد فرضها فى أواخر عهد المرابطين ، والا كيف يستقيم ذلك مع ما ذكره الأمير عبد الله بن بلكين وهو معاصر « ورفع أنواع القبالات والخراج إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع » .

فى الترف ، وإرضاء لنزواتهم الخاصة ، وقد ألغى المرابطون هـذه المكوس فى المغرب والأندلس على سواء[١] . وأصبح فى مكنة التاجر أن يحمل تجارته من إقليم إلى آخر ، لا يخشى إرهاقا ولا عسفاً ما دام يؤدى عن أرباحه ما يفرضه الدين من زكاة . فكان طبيعياً أن تؤدى هذه السياسة الحكيمة إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة والمخاطرة وارتياد الأسواق عن طيب خاطر ، كما أن شيوع الاستقرار فى البلاد ، وانصراف الناس إلى الهدوء والطمأنينة والإنتاج قد رفع من المستوى المادى لأفراد الشعب ، وليس من شك فى أن ارتفاع المستوى المادى للناس يمكنهم من أن يقبلوا على الشراء ، وإذا كثر الإقبال على الشراء راجت التجارة فلا تتكدس فى الأسواق .

ويبـدو أن التجارة الدولية فى عهد المرابطين بلغت شأواً عظيما ، وازداد إقبال أوروبا على تجارة المغرب ، وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطى ، فطار ذكره فى الآفاق : فى المغرب ، والأندلس ، والشرق . وليس من شك أيضاً فى أن إقبال الناس على نقد الدولة إنما يدل على حسن ثقتهم بها ، كما يدل كذلك على ارتفاع قيمة هذه العملة بسبب كثرة المعاملات والتداول ؛ حتى لقد قيل إن الدينار المرابطى وصل إلى القسطنطينية ، وكاد أن يصبح عملة دوليـة ، بل أصاب من الشهرة مثلما أصابه الفلورين عملة مدينة فلورنسا فيما بعد[٢] .

هذا وقد تضافرت عوامل عدة على زيادة الإنتاج ومضاعفته فى الميادين الزراعى والصناعى ، ذلك لأن الدولة المرابطية حين بسطت ظلها على المغرب الأقصى جميعه قد وحدت بين منطقتى الإنتاج فى البلاد ؛ وحدت بين منطقة

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) Lavoix (op. cit.) p. XXX, XXXV.

والفلورين لا زال عملة هولنده حتى اليوم .

السهول ، و بين منطقة المراعى ، أعنى أنها نظمت العلاقات بين المستقرين أهل السهول ، و بين البدو الضار بين فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية . وقد أدى وجود هذا التعاون ، وتنظيم هــذه العلاقات على هذا النحو إلى شيوع الاستقرار والطمأنينة بين الناس ، والاستقرار والطمأنينة من شأنهما أن يطمئنا الناس على أن ثمرة الجهد لا تضيع عبثاً ، فيعمدون إلى التوفر على الإنتاج ، ينمونه ويضاعفونه . وقد عملت الدولة جاهــدة على تثبيت دعائم الاستقرار فى المغرب حينما طردت زناتة وشتت جموعها ، وأقامت القلاع والحصون فى ديار المصامدة لترقبهم حتى لا يعبثوا بالأمن والطمأنينة ، أو يغيروا على مواطن الخصب والإنتاج الوفير .

أما فى بلاد الأندلس فقد اطمأن الناس إلى أن الخطر القشتالى قد تضاءل ، وأن النصارى فى الأندلس لم يعودوا بحيث يستطيعون مواصلة سياسة العدوان القديم ، هذه السياسة التى أشاعت فى البلاد جوا من القلق والاضطراب[1] . كما هدأت الأحوال فى بلاد الأندلس بعد أن قضى المرابطون على ملوك الطوائف وأراحوا البلاد من هذه الفتن والمنازعات ، التى كانت لا تفتـأ تثور بين هذه الدويلات المتحاسدة المتباغضة ، فتجعل المجتمع الأندلسى كالمحموم فى حالة فزع ورعب دائمين .

وهناك ناحية أخرى عملت على مضاعفة الانتاج وارتفاع مستوى الرخاء فى البلاد ، ونعنى بها قلة الضرائب المفروضة[2] ، ذلك أن المرابطين قد اكتفوا بالزكاة ، وألغوا غيرها من المغارم التى كانت تثقل كاهل الناس فى المغرب والاندلس ، وليس من شك فى أن تخفيف عبء الضريبة على المنتج يساعد على مضاعفة الانتاج من ناحية ، وعلى زيادة دخل الأفراد ، ويشيع بين الناس لونا من الرخاء والرفاهية .

---

(١) Dozy : Hist. de Musul. d'Espagne, vol. IV, p. 258

(٢) Idem

وقد لجأ المرابطون فى الأندلس إلى تطبيق سياسة كانت ذات أثر بعيد فى مضاعفة الانتاج ، وانعاش الزراعة فى البلاد ، ذلك أن المنصور بن أبى عامر وخلفاؤه عمدوا إلى انتزاع الاقطاعات الزراعية ، التى كانت قد منحت للجند مقابل خدماتهم العسكرية[١] ، «وكان هؤلاء الجند يستغلونها و يرفقون بالفلاحين و يربونهم كما يربى التاجر تجارته ، فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه»[٢] ، فلما انتزع المنصور هذه الأرض من أصحابها من العسكريين فرض عليها الجباة ، وتولت الدولة إدارتها والاشراف عليها ، فلم يحسن العمال معاملة الناس ، بل ساموهم الخسف ، واثقلوا عليهم ، فضعف انتاجهم ، « فتهاربوا وكفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد »[٣] وساءت الأحوال الاقتصادية فى البلاد ، وأمعنت فى السوء فى عهد ملوك الطوائف بسبب الحروب المستمرة والفتن التى لا تكاد تنقطع ، والضرائب الباهظة التى كانت تقصم ظهور الناس .

فلما آل الأمر إلى المرابطين عادوا إلى السياسة القديمة[٤] وأقطعوا الجند أرضا يفلحونها ويستثمرونها ، ويستولون على غلتها ، «فمن ظهرت نجدته وشجاعته وأعانته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده[٥] » ، وكانت هذه السياسة الحكيمة جيدة الأثر فى تاريخ الحياة الاقتصادية فى البلاد ، فقد أقبل الفلاحون على الأرض التى كانوا قد هجروها ، وأكبوا على الكد والعمل بقلوب مطمئنة ، بعد أن شاع فى البلاد الاستقرار والأمن والطمأنينة وخف عبء الضرائب .

ولا ندرى أطبق المرابطون هذه السياسة فى المغرب ، كما طبقوها فى الأندلس أم لا ، ويخيل إلينا أنهم فعلوا بالمغرب مثل ما فعلوه بالأندلس ، واقطعوا جنود

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٢٣ .
(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(٥) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٦٧ .

لمتونه بوجه خاص وجنود الملثمين بوجه عام أرضا يفلحونها وينتفعون بغلتها ، ويعملون على مضاعفة إنتاجها . وقد ذكرنا من قبل أن يوسف بن تاشفين أرسل إلى المتخلفين من قومه بالصحراء يدعوهم إلى الاستقرار بالمغرب ، وكان يقطع الوافدين منهم إقطاعات يشرفون على إدارتها ، وكان من أثر هذه السياسة الحكيمة أن تضاعف الإنتاج الزراعى فى بلاد المغرب والأندلس .

ويبدو أن الصناعة قد أصابت الازدهار والرواج بقدر ما أصابت الزراعة ، فقد توفرت المواد الخام ، وتدفقت من أسواق الأندلس والسودان بعد رواج التجارة ونفاق سوقها . ولا بد أن سعرها قد رخص بسبب كثرة المعروض فى الأسواق ، كما أن نشاط التجارة بين موانى المغرب والأندلس يساعد بدوره على رواج الصناعة التى أصبح من الميسور تسويقها وتصديرها إلى أسواق الاستهلاك فى الخارج ، فأقبل الصناع على مضاعفة الانتاج ، وظهرت فى المغرب والأندلس مراكز صناعية ذاع صيتها وارتفع نجمها ، مثل مدينة نول لمطة[١] التى اشتهرت بصناعة الجلد والمنسوجات ، ومدينة مراكش التى عرفت بصناعة الصابون والمغازل[٢] ، وفاس التى اشتهرت بصناعة الدباغة وتسبيك الحديد والنحاس وصنع الزجاج والكاغد[٣] ، وكذلك المرية التى اشتهرت بصناعة الحرير وآلات النحاس والحديد[٤] ، ويبدو أن تقدم الصناعة ورواجها فى أواخر عهد المرابطين دفع الأمراء إلى التماس المال عن طريق فرض الضرائب على أهل الحرف والصناعات « فكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق

---

(١) Annales des L'institut d'Etudes Orientales (Facultés des Lettres de L'Université d'Alger) t. II, Anneé 1935, p. 186

(٢) الأدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . ص ٧٠ .

(٣) الجزنائى : زهرة الآس ص ٧٠ .

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٤ .

الدخان والصابون والمغازل فكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل ، كل شيء على قدره[1] » .

ومما ساعد على ارتفاع مستوى الدخل بين الأفراد أن فتح الأندلس فتح آفاقا جديدة أمام أهل المغرب ،فوجدوا فيها ميدانا يظهرون فيه تفوقهم ونشاطهم كما فتح ميدان المغرب أمام المجيدين من أهل الأندلس ، ينشرون فيه علمهم وفنهم وثقافتهم،و يعرضون على الأمراء خبرتهم ومهارتهم ، وقد تجمعت الثروات الضخمة على الخصوص في أيدى اللمتونيين خاصة والملثمين عامة . فقد كانت بيدهم أزمة الأمور جميعها ، وكانت الدولة دولتهم والحكم حكمهم . فقد روى صاحب أزهار الرياض أن أبا بكر بن باجة غنى فى حضرة ابن تيفلويت أحد أمراء الملثمين ، فلما سمعه « صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ماأحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالإيمان المغلظة ألا يمشى ابن باجة إلى داره إلا على الذهب »[2] فكيف يستطيع مثل هذا الأمير البدوى الصحراوى أن يفعل ذلك إلا بسبب وفرة الثراء وتكدس الأموال .

وقد ظهر أثر المبادىء التى قامت عليها دولة المرابطين واضحاً جليا فى جانب آخر من جوانب الحياة الاقتصاديه فى البلاد ، ونعنى به السياسة الضريبية للدولة ذلك أن المرابطين وقد التزموا أحكام السنة أحبوا أن يطبقوا أحكامها فى الشئون المالية بدقة متناهية[3] ، فكان معنى ذلك إلغاء مالم يرد به نص فى الكتاب أو السنة . وقد كان المجتمع المغربى أو الأندلسى يحفل بألوان متعددة من الضرائب الجائرة ، التى لا يقرها الشرع ، ولا يرضى عنها الدين ، فقد كان ملوك الطوائف بالأندلس وملوك زناته فى المغرب يفرضون على الناس المعونة[4] ، وهى ضرائب

(١) الادريسى : المغرب وأرض السودان ص ٧٠ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩ . ازهار الرياض جـ ٣ ص ٢٠٩ .

(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس فى من حل من الأعلام مدينة فاس ص ٣٤٢ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

وقتية يفرضها العامل متى شاء ، وكانت المكوس تفرض على التجارة المارة من مدينة إلى مدينة ومن أقليم إلى أقليم[1] ، وهنالك ألوان شتى من المغارم يسميها عبد الله بن بلكين «مغارم الإقطاع» ، وهي الضرائب التي كان ملوك الطوائف يفرضونها على الناس ، إرضاء لنزواتهم ، وتحقيقا لشهواتهم ، وأطماعهم . وقد كانت القبالات[2] شر أنواع الضرائب ، وكان المتقبل هو شر جباة المال جميعاً يرميه ابن عبدون بكل نقيصة حين يقول « المتقبل هو شر خلق الله وهو بمنزلة الزنبور الذى خلق للضرر ولا للنفع فهو يجرى ويسعى لضرر المسلمين فيجب للقاضى أن يستخلفه ويحد له ما يمنع من تصرفه ولا يتركه يتحكم فى أموال الناس باختياره على ما يراه أنه صواب »[3] .

فلما فتح المرابطون المغرب والأندلس ، ونادوا ببطلان هذه الجبايات الجائرة كان لعملهم ذاك وقع عظيم ، وصدى بعيد الأثر فى الحياة ، بل كان إقدامهم على ذلك ثورة بعيدة المدى ، إذ كان معنى ذلك تحرير جمهرة الناس من هذه الأعباء المالية القاصمة ، التى كانت تقصم ظهورهم وتستذلهم وتستنزف أموالهم ، فلا تكاد تبقى فى أيديهم ما يمسك الرمق ، فظهر المرابطون فى كل مكان حلوا فيه بمظهر المنقذ[4] ، فالتف الناس حولهم طائعين ، بل لا نكون مخالين إذا قلنا إن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة كانت من أهم العوامل التى مهدت لهم السبيل ، وفتحت أمامهم أبواب القلاع والحصون على مصاريعها ، فقد ظهر ملوك الطوائف فى نظر الناس بمظهر المتعسفين الجائرين ، فلما خلعهم المرابطون ونفوهم تنفس

---

(١) عبد الله بن بلكين : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى ص ٣٤٠ .

Al-Andalue (vol. III, Fasc. 2, Madrid-Granada ‘ 1935, vol. VI Fasc I. 1941

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) ابن عبدون التجيبى : رسالة فى الحسبة ص ٢٢٠ .

Menéndez Pidal : The Cid and his Spain, p. 265 (٤)

الناس الصعداء ، و باركوا مافعله المرابطون ، وكان الفقهاء أول من مهد السبيل حين أفتوا بخلعهم . لم يفرض المرابطون على الناس « إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة[1] من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة ، وأخماس غنائم المشركين »[2] .

ولكن برغم قلة الضرائب على هذا النحو ، ورغم إلغاء هذه الألوان المتعددة من الجبايات غير المشروعة ، فإن الأموال قد تضاعفت ، وتدفقت على بيت المال وانتشر الرخاء ، وعم اليسر ، وأصبح الأمراء فى الأندلس وفى المغرب يحيون حياة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .

(٢) عبد الله بن بلكين ، التبيان ص ١٢٧ . ابن أبى زرع ص ١٠٠ .

والأنواع التى تجب فيها الزكاة خمسة أشياء :

١ — زكاة النقد (الذهب والفضة) وتجب الزكاة فيهما إذا بلغا النصاب فنصاب الذهب عشرون مثقالا ونصاب الفضة عشرون مثقالا .

٢ — زكاة السوائم وهى الابل والغنم فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة وهكذا فى كل خمس شاه فاذا بلغ خمس وعشرين ففيها بنت مخاض .

٣ — زكاة عروض التجارة وفيها ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول .

٤ — المعدن والركاز وما كان من ركاز فى أرض الحرب ففيه الخمس وما كان فى أرض السلم ففيه الزكاة .

٥ — زكاة الزرع أو الثمار وحكم زكاتها هو أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء .

انظر : حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٧٧ — ٢٨٠ .

أحكام الجزية : فرض الشرع الجزية على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد وذلك على النحو الآتى :

١ — اغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما .

٢ — متوسط الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .

٣ — فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

٤ — ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ولا ممن لا قدره له على العمل ولا من الأعمى ، أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ومن المترهبين فى الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء ولا تجوز إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى .

ميسورة ، يسرفون فى بذلهم ، وفى عطائهم ، فيغدقون على الفقهاء والعلماء[١] وعلى وجوه البر، ينشئون المساجد ، وينفقون فى سبيل الله[٢] ، وعظم ثراء يوسف ابن تاشفين وكثر ماله ، «فقد جبى من المال على وجهه مالم يجبه أحد من قبل»[٣] ، فلما مات وجدوا فى بيت ماله « ثلاثة عشر ألف ربع من الورق ، وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب »[٤] ، حتى لقد قال يوسف أشباخ إن هذه الثروة الطائلة من الذهب والفضة تقوم بعده ملايين[٥] .

وهذه فى الواقع ظاهرة اقتصادية تحتاج إلى تفسير وتعليل ، ولعل أولى الأسباب التى نسوقها لتفسيرها أن قلة الضرائب مع ضمان تحصيلها خير من كثرتها مع العجز عن الوفاء بها ، إذ لا يجدى أن تفرض الدولة ضرائب جائرة تثقل بها على الناس فيتبرمون بها ، ويعجزون عن سدادها والوفاء بها ، بل الخير كل الخير فى أن تفرض ضرائب فى حدود طاقة الناس فلا يتبرمون بها ، إنما يدفعونها عن رضى وطيب خاطر . ويبدو أن هذه السياسة قد احتلت من تفكير المرابطين محلا رفيعاً ، فعنوا عناية فائقة بتحصيل الزكاة والعشور ، وحرصوا على أن لا يفلت منها أحد ، ونجد لهذه الدقة أو لهذه المغالاة فى ضمان تحصيل الزكاة والعشور صدى فيما كتبه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة يندد بالوسائل التى اتخذها المرابطون فى تحصيل أعشار ثمار الزيتون وغيره من المحصولات التى تتوافر فى منطقة أشبيلية[٦] .

(١) ابن الزبير : صلة الصلة ص ٨٢ . الديباج المذهب ص ٤٩ . أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) مفاخر البربر ص ٥٣ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٤) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

(٥) يوسف أشباخ ج ١ ص ١١٩ .

(٦) E. Lévi-Provencal: Séville Musulmane du début du XII Siecle : Le Traité d'Ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de metiers, p. XI.

وقد عهد المرابطون إمعانا فى ضمان تحصيل هـذه الضرائب إلى اليهود فى بلاد الأندلس بأعمال الجباية ،[1] كما جعلوا أعمـال الجباية بالمغرب للنصارى المقيمين فى البلاد[2] ، عمدوا إلى ذلك لأنهم يعلمون أن أمثال هؤلاء يخافون السلطان و يخشون العاقبة و يترددون طويلا قبل أن يقدموا على التلاعب فى هذه الجبايات أو يفرطوا فى أداء الواجب .

وكان للمرابطون بدورهم يراقبون عمال الخراج مراقبة دقيقة ، و يشددون النكير عليهم و يحاسبونهم حسابا عسيراً ، و يعاقبون المقصر عقابا صارماً ، فكانوا يحاسبون العمال إذا اعتزلوا الخدمة ، و يعرضونهم لمصادرة الأموال والسجن[3] ، إذا رأوا منهم تفريطا أو تقصيراً . وكانوا يحاسبون ورثة العامل إذا مات ، و يثقلون عليهم و يصادرون تركة المتوفى إذا لزم الأمر . ولعل هذا الخوف من هذا الحساب العسير هو الذى دفع مؤمل عامل الخراج بقرطبة حين حضرته الوفاة إلى أن يحضر ما كان عنده من مال المستخلص ، وأشهد الحاضرين على دفعة ثم أبرأ جميع عماله وكتابه ، لأنه خشى أن يصيب ورثته مكروه إذا مات دون أن يبرىء ذمته[4] .

كما يجب ألا ننسى أن الدعوة الدينية التى اضطلعت بها الدولة قد أشاعت فى الناس روح الأمانة والثقة ، وكان الأمراء والملوك قدوة للرعية والعمال ، إذا صلحوا واتقوا الله اهتدى الناس بهديهم ، والناس على دين ملوكهم . ولعل أقدام مؤمل عامل الخراج على الأثقال على نفسه ، وهو على فراش الموت ، وحرصه على أن يبرىء ذمته قبل أن يقضى نحبه » ورغبته فى ستر أهله وولده وحرصه على أن

---

(١) أشباخ ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص ١٩٧ .

(٤) عبد الله بن بلـكين : التبيان ص ١٢٩ . (Appendice, II)

يرسل لأمير المسلمين بالمال الذى اكتسبه فى دولته »[1] يعبر عن هذه الروح الجديدة التى فشت بين الولاة والعمال فى أول العهد بالدولة .

وقد ترد زيادة الدخل إلى عوامل أخرى ، مثل قلة النفقات مثلا ، ذلك أن الدولة لم تكن تنفق على الجيش نفقات طائلة ، إذ كان الجند يؤجرون على خدمتهم بإقطاعهم إقطاعات زراعية يستثمرونها ، ويتصرفون فى غلتها[2] . وكان نصيب الفارس لا يزيد على خمسة دنانير فى الشهر بما فى ذلك نفقته وعلف فرسه[3] ، وكان الجند يعتمدون على نصيبهم من الغنائم اعتماداً عظيما ، فقد كانت الحرب مستعرة الأوار ، وكان الجهاد فى سبيل الله لا ينقطع ، وكانت الغنائم كثيرة ، ولابد أن سهم الفرد منها كان كبيراً . وقد عمد المرابطون فى الأندلس إلى ترك الثغور المواجهة للعدو « فى حكم المسلمين الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالها وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم »[4] ، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تخفيف عبء الدفاع عن الثغور عن كاهل المرابطين .

زد على ذلك أن روحا من التقشف والزهد قد شاعت بين الأمراء ورجال الدولة — فى عهد يوسف على الأقل — وكان أمير المسلمين نفسه «زاهدا فى زينة الدنيا متورعا متقشفا على مافتح الله عليه »[5] . ذلك أن الانغماس فى الترف والانكباب على الملذات والإغراق فيها ، واصطناع مجالس اللهو والسمر والشراب والمنادمة يدعو إلى كثرة البذل والإنفاق ، واتخاذ البلاط الزاخر بالجوارى والإماء والصقالبة والحجاب يكلف الدولة مبالغ طائلة .

---

(١) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ١٢٩ .

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٢٣ . الحلل الموشية ص ٦٧ .

(٣) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٦٧ .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٥) التادلى : التشوف ص ١٤٩ . روض القرطاس ٨٧ .

٦ — أثر قيام دولة المرابطين فى الحياة الاجتماعية :

وقد تمخض قيام الدولة عن نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الإجتماعية فى المغرب والأندلس ، فقد ظهرت طبقة جديدة من الملثمين ، طائفة سيدة حاكمة ذات حول وطول وسلطان ، انتشرت فى مدن المغرب وأقاليمه وفى مدن الأندلس وأقاليمه ، يتولون الأعمال ، أو يزاولون التجارة أو الزراعة أو الصناعة ، وقد ظهر صدى ذلك التطور الإجتماعى الخطير فى الأندلس بصورة واضحة ، فبعد أن كان البربر أقلية متغطرسة لا ينظر إليها أهل البلاد نظره الرضا والارتياح ازداد عددهم وتوافدوا على بلاد الأندلس زرافات ووحدانا ، وأصبحوا أصحاب الدولة والسلطان ، وانتشرت هذه الجاليات الملثمة فى المدن والقرى يستعلى أفرادها على أهل البلاد[١] ، ويحيون حياة تكاد أن تكون فى معزل عن طبقات المجتمع الأخرى . بل إنهم كانوا يأنفون من الخضوع لأحكام القضاء مما جعل أمير المسلمين يكتب إلى أحد القضاة قائلا « وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك فى كل حق تقضيه ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه »[٢] . لذلك طالب ابن عبدون بأن يتخذ القاضى أعوانا من البربر ممن هم كلمة مسموعة لدى هذه الجاليات المتغطرسة المتعالية[٣] . كان الملثمون يسيرون فى الطرقات مرتدين اللثم متمنطقين بالسلاح[٤] ، فيدخلون الرعب والفزع فى قلوب السكان الآمنين ، مما جعل ابن عبدون يشترط ألا يسير مثل هؤلاء فى الطرقات بسلاحهم ، مخافة أن يعتدوا على أرواح الآمنين ، لأن « البربر قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا[٥] »

(١) التادلى : التشوف ص ١٢٣ .
(٢) الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ١٠٦ .
(٣) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٢١٨ . المقرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ٨٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٢١٨ .

وكان أهل الأندلس فى الواقع يكرهون المغاربة أشد الكره ، ويعتبرونهم دخلاء[1] ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى البدو الجفاة الغلاظ الذين لا عهد لهم بحضارة ولا مدنية ، كما كان أهل العدوة بدورهم يكرهون أهل الأندلس[2] ، ويسمونهم بميسم الضعف والتخاذل والجشع . ويبدو أن طائفة الحشم والأتباع كانوا يتشبهون بالمرابطين فيتلثمون ويموهون على الشعب ، ويرتكبون الشرور والآثام ، مما أثار امتعاض الكاتب ابن عبدون فقال « يجب ألا يلثم صنهاجى أو لمتونى أو لمطى فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة بسبب اللثام »[3] .

وقد تمخض قيام الدولة أيضاً عن ظهور طبقة جديدة أصبحت ذات حول وطول ونفوذ ، ونعنى بها طبقة الفقهاء والقضاة ورجال الدين . وليس من شك فى أن الفقهاء والقضاة موجودون فى كل عصر ، وفى كل زمان ، ولكنهم فى عهد حكومة المرابطين ظفروا بنفوذ وسلطان لم يكن لهم من قبل . وقد رأينا كيف احترم أمراء المسلمين القضاة والفقهاء ، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة رفيعة أشركوهم فى مجالس الشورى ، واتخذوا بعضهم وزراء ، وشاوروهم فى كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد ، قربوهم وأغدقوا عليهم ، ولم يكن يوسف بن تاشفين أو ولده على يجلسان إلا والفقهاء والقضاة يحفون بهم ، ويسيرون فى ركابهم .

وقد سما قدر القضاة وتمتعوا بسلطان عظيم[4] ، حين أعطاهم يوسف بن تاشفين سلطة مطلقة ، وأصبح حكم القاضى نافذاً لا يرد[5] . وإذا كان ولى الأمر

---

(١) E. Lévi-Provencal : Le Traité d'Ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de metiers, p. 183

(٢) Dozy : Abbadidarum vol. II, p. 234

(٣) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ٢١٨ .

(٤) مشيخه عياض ورقه ٤٩ (ب) .

(٥) الذخيرة : (م بغداد) قسم ٢ ص ١٠٦ .

قد عامل القضاء على هذا النحو ، فلا عجب إذا رأيناهم يتمتعون فى الحياة الإجتماعية فى المغرب والأندلس بمكان مرموق ، قصدهم الناس ، ولجأوا إليهم متقربين مستشفعين ، بل قصدهم الشعراء مادحين مشيدين بفضلهم ، ينتظرون رفدهم وصلاتهم ، تكدست فى أيديهم الأموال ، وأخذوا يعيشون عيشة البذخ والترف[1] .

وقد بلغ من نفوذ القضاة أن حاول أحدهم وهو ابن حمدين أن يستقل بملك قرطبة فى أواخر العهد بالمرابطين ، كما حاول فقيه آخر أن يتسنم مقعد عبد الله ابن ياسين ، وأن يكون له الإشراف الفعلى على شئون الدولة ، يعمل الأمراء بإرشاده وبوحى منه[2] . أصبح الملثمون من ناحية ، والقضاة من ناحية أخرى الطبقة البارزة فى المجتمع التى جمعت بين المال والسؤدد والنفوذ .

وقد صحب قيام الدولة ظهور ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة فى المغرب والأندلس من قبل ، ونعنى بها ظهور المرأة الصنهاجية فى المجتمع ، ومشاركتها فى الحياة العامة ، وتمتعها بنوع من الحرية والمساواة لم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت . وقد سبق أن بينا فى الباب الأول كيف أن النظم الإجتماعية لشعب الملثمين تجعل للمرأة مكانة عالية فى المجتمع ، تتمتع بالمساواة التامة ، وتشارك فى مجالس القبيلة ، تقتنى الثروات ، وتطلب العلم ، وتتمتع فى عشيرتها وقبيلتها بسلطة عظيمة[3] .

فلما نزح المرابطون إلى المغرب والأندلس ، واستقروا فى المدن والقرى ، وصحبوا نساءهم وأولادهم بدأت المرأة الصنهاجية تتمتع فى المجتمع الجديد بمثل

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١١٠ . الروض المعطار ، ١٦٧ . أنظر أيضاً مشيخة عياض ورقة ٥٠ أو ٦٧ أ . نيل الابتهاج ص ١٦٢ .

(٢) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط) ص ١٢٥ .

(٣) Rodd : People of the Viel, p. 168

ما كانت تتمتع به فى المجتمع القديم . وقد رأينا كيف أن زينب زوج أمير المسلمين يوسف كانت تتمتع بمكانة عظيمة ، وكان زوجها يشركها فى مختلف شئون الدولة ويستمع لنصحها وإرشادها .

ويبدو أن نساء الأمراء والنبلاء والقواد والعمال وغيرهم من الملثمين كن يتمتعن بسلطة واسعة ونفوذ كبير ، فقد روى أن تميمة بنت يوسف بن تاشفين كانت تطلب العلم ، وتحفظ الشعر ، وتتخذ الموكلين والكتاب ، وتبرز إليهم فى غير ما حياء أو خجل ، وتحاسبهم دون أن تجد فى ذلك غرابة[١] . ويظهر أن سفور المرأة أو بروزها لمقابلة الناس لم يكن شيئاً مألوفاً فى المجتمع المغربى — على ما نعتقد — فقد روى أن الكاتب الذى لقيته ابنة أمير المسلمين قد بهت فلما نظرت إليه الأميرة ظنت أنه بهت من حسنها الفائق وجمالها ، وظنت أنه يتطلع إليها ويرغب فيها[٢] فأنشدته .

هى الشمس مسكنها فى السما   فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود   ولن تستطيع إليك النزولا[٣]

وقد بلغ من نفوذ بعض الأميرات المرابطيات أن قصدهن الشعراء يمدحون ويتقربون ، وجاءهن أصحاب الحاجات يلتمسون الشفاعات ، فقد كتب الشاعر ابن خفاجة إلى الأميرة مريم بنت ابراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبى الطاهر تميم ابن يوسف[٤] ، ويبدو أن الحجاب الذى كان مألوفاً فى أغلب البيئات الإسلامية

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) ديوان ابن خفاجة ص ١١٤ .

فى ذلك الوقت لم يكن مألوفاً فى هذه البيئة الجديدة التى سيطر عليها المرابطون ، فقد روى المؤرخون أن أميراً من الملثمين يدعى أبا بكر بن إبراهيم دخل على ابن عمه فى خبائه ، وكانت زوجته فى موضع تمشط شعرها ، فلم تنسحب من المجلس أثر قدومه ، بل بقيت فى مكانها لا تبرحه[١] . ومن أسف أن النصوص التى كان من الممكن أن نستعين بها فى إعطاء صورة أوفر حظاً لهذه المكانة الفريدة التى تمتعت بها المرأة الصنهاجية قليلة جداً ، لا تمكننا من أن نوفى هذا الموضوع الطريف حقه من البحث والدراسة .

مهما يكن من شىء فقد نظر المعاصرون إلى هذه الظاهرة الاجتماعية نظرة المنكر[٢] ، واعتبرها بعض المتزمتين من أهل الأندلس والمغرب خروجا على التقاليد الدينية والاجتماعية ، وكانت من الأمور التى نقمها الموحدون على المرابطين ، واستغلوها فى النيل منهم والطعن فيهم وتشويه سمعتهم . فقد قيل إن ابن تومرت المهدى لقى أخت على بن يوسف بمدينة من مدن المغرب ، وقد خرجت إلى السوق تمشى سافرة غير محجبة ، فما زال بها حتى ردها على أعقابها منددا بمسلكها[٣] .

وهنالك طبقة أخرى من طبقات المجتمع تأثرت بالأوضاع التى تمخضت عن قيام الدولة ، ونعنى بها طبقة أهل الذمة فى الأندلس والمغرب ، من النصارى المعاهدين واليهود . ذلك أن النصارى المعاهدين كان قد ارتفع شأنهم فى بلاد الأندلس فى عهد ملوك الطوائف ، ونبه تذكرهم ، وأصبحوا يتمتعون بحرية قلما ظفر بها أجدادهم من قبل ، وذلك بسبب الضعف والتخاذل والانقسام الذى أصاب المجتمع الأندلسى فى ذلك العهد ، وما كان من ظهور قوة قشتالة وليون فى عهد ألفونسو السادس ، الذى عمل على النيل من المسلمين فى الأندلس ،

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٢) Dozy : Recherches, vol. I, p. 278

(٣) Idem

والتنكيل بملوك الطوائف وإذلالهم . وكان النصارى المعاهدون المنبثون فى المدن والقرى فى بلاد الأندلس عيون قشتالة ، يكشفون للعدو عن عورات المسلمين ، ويمدون للقوات النصرانية الزاحفة يد المساعدة . وكانت ببلاد الأندلس جاليات يهودية تخدم النصارى والمسلمين على سواء ، لا يعنيها إلا الإثراء بأية وسيلة ، كانوا يشتغلون بأعمال الجباية للمسلمين أو للنصارى ، فقد خدموا بنى زيرى ملوك غرناطة ، وكان رسول الفونسو إلى المعتمد واحداً منهم . وكان التهود قد انتشر فى ربوع المغرب الأقصى منـذ القدم[١] ، وقد رأينا كيف أن دين موسى قد انتشر بين ربوع صنهاجة قبل اعتناقها الإسلام ، وبقيت جاليات يهودية كبيرة العدد ، تنزل بمدن المغرب مثل فاس وأغمات ايلان[٢] .

ولـكن قيام دولة المرابطين وبسط لوائها على المغرب والأندلس قلب هذه الأوضاع رأساً على عقب ، فقد أوقف المرابطون قشتالة وليون عند حدها ، ووقفوا للقوات الصليبية فى البحر والبر بالمرصاد ، وخلعوا ملوك الطوائف ، وبسطوا لواءهم على ما بيد المسلمين من بلاد الأندلس ، فتغيرت أوضاع أهل الذمة تغييراً كبيراً .

ولم يكن من المعقول أن يحتفظ النصارى المعاهدون بهذه المـكانة الرفيعة التى كانوا قد وصلوا إليها . وما دامت الدولة قد رفعت لواء السنة وأعلت كلمتها كان طبيعياً أن يلتزم المرابطون احـكام السنة فى معاملة النصارى واليهود على حد سواء[٣] .

ويبدو أن حال النصارى المعاهدين فى الأندلس قد ساء كثيراً فى ظل الدولة الجديدة ، إذ يبدو أن المرابطين خيروهم بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية ،

---

(١) De la Chapelle : Esquisse d'une histoire de Shara, Occid. Année 1930, t ; XI, p. 52

(٢) دائرة المعارف الاسلامية « الطبعة الانجليزية » مادة مراكش Pierre de Chenival

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

فمن دخل فى الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه وما عليهم ، ومن اختار الجزية « دفعها عن يد وهو صاغر » . ويبدو أن كثيرين من هؤلاء المعاهدين قد ارتضوا دفع الجزية عن طيب خاطر ، هذه الجزية التى أصبحت فى الواقع من أهم موارد بيت المال فى ذلك العهد[١] .

ولم يقتصر أمر النصارى على مجرد دفع الجزية ، إذ يروى أن الفقهاء أفتوا بهدم كنيسة المعاهدين بغرناطة ، فأرسل يوسف من هدمها . ويبدو أن المرابطين هدموا كنائس كثيرة كانت للمعاهدين فى ديار المسلمين[٢] ، وليس من شك فى أن سيطرة فقهاء مالك على الشئون العامة فى البلاد ، وخضوع الأمراء لرأيهم وعملهم وفق مشورتهم . قد نشر جواً من التزمت والمغالاة فى معاملة أهل الكتاب ، الذين ظلوا دهراً طويلا أصحاب جاه ونفوذ . ومن الإسراف أن يفرط دوزى فى لوم المرابطين ولوم الفقهاء على موقفهم هـذا[٣] ، فقد نسى أن روح العصر كانت روح جهاد وحرب وعداء مستعر الأوار بين الإسلام والنصرانية . أججت الحروب الصليبية نار ذلك العداء . وكان نصارى الأندلس أنفسهم لا يكفون عن التنكيل بمن يقع فى قبضتهم من المسلمين ، فقد استولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ، وجعـل مسجدها الجامع كنيسة برغم تعهده بأن لا يمس عقائد المسلمين أو يتعرض لمساجدهم . وكانت أعمال السيد القمبيطور فى بلنسية شاهداً على صدق ما نقول ، فقد أحرق الفقهاء وانتهك حرمة المساجد .

ولم يكن من المعقول أن يترفق المرابطون باليهود الذين شربوا من نفس الكأس التى شرب منها النصارى ، وطولبوا باعتناق الإسلام أو دفع الجزية . وقد روى دوزى أن أحد الفقهاء عثر فى مخلفات ابن مسرة على حديث منسوب

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

(٢) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne, vol. IV, p. 255—266

(٣) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne vol. IV, p. 255—266

للرسول صلى الله عليه وسلم يقول بأن اليهود كانوا قد تعهدوا بأن يعتنقوا الإسلام إذا مرت خمسة قرون دون أن يظهر مسيحهم المنتظر[١] ، فطالب الفقهاء اليهود بالوفاء بالوعد الذى وعد به أجدادهم من قبل . وينحى دوزى باللائمة على المرابطين لأنهم وقفوا من اليهود هذا الموقف[٢] ، ولـكنه يعود فيذكر أن المرابطين ارتضوا أخذ الجزية من اليهود الذين صدوا عن اعتناق الإسلام[٣] . ولم يكن من المعقول أن يكره المرابطون اليهود على الدخول فى الإسلام إكراهاً ، فيخرجوا عن تعاليم السنة القويمـة والعقيدة السمحة التى تقول بأن لا إكراه فى الدين . ولـكن دوزى يسرف فى لوم المرابطين لقبولهم الجزية ، وكأنما أراد أن يبقى المرابطون أهل الذمة على حالهم لا يطالبون بإسلام أو بجزية ، إذ يعتقد أن الملثمين قبلوا الجزية طمعاً فى المـال ليس إلا[٤] . ويبـدو أن يهود المغرب الأقصى كانوا يقيمون فى مدن معينة ، فلم يكن يسمح لهم بدخول مراكش إلا نهاراً ، حرم عليهم المبيت فيهـا ، وإلا تعرضت أموالهم وأرواحهم للخطر[٥] .

وقد أدى اتساع رقعة الدولة وبسط نفوذها على بلاد الأندلس إلى ظهور عوامل جديدة تركت فى الحياة الإجتماعية فى الأندلس والمغرب آثاراً واضحة ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنهـا كادت تغيرها تغيراً تاماً ، ذلك أن الأموال بدأت تتدفق إلى بيوت المـال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها[٦] ، وبدأ الأمراء ينفقون عن سعة ، وأخذ الولاة ينثرون النضار على الناس نثراً ،

---

(١) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne vol. IV, p. 255 — 256

(٢) Idem

(٣) Idem

(٤) Idem

(٥) الادريسى : المغرب وأرض السودان ص ٦٩ .

(٦) Dozy : (op. cit.) vol. IV, p. 261

فقد روى أن عامل دكالة رغب فى أن ينقطع أحد الفقهاء إلى صحبته ، فلما أبى الفقيه « ضمن له أن يعطيه ألف دينار ذهب مرابطية »[1] .

وقد صحب تكدس الأموال على هذه الصورة اندماج هؤلاء الأمراء والسادة فى الحياة الإجتماعية فى الأندلس ، هـذه الحياة التى كانت قد بلغت شأواً عظيما من الرقى والأبهة فى أواخر أيام ملوك الطوائف ، وتألق نجم الحضاره فى الأندلس بصورة لم تكن معهودة من قبل . وقد تفوق أهل الأندلس فى الأدب والفن والفلسفة وغيرها من ألوان الحياة العقلية والرقيعة . فلما فتحت بلاد الأندلس التقت حضارتان أو لونان من ألوان الحياة الاجتماعية : لون أندلسى رفيع ولون مغربى صحراوى أقل رقياً وتفوقاً . وكان منطق الأشياء يقضى بأن تتغلب الحياة الأكثر رقياً فتصرع الحياة الأكثر ضعفاً ، وهذا هو ما حـدث بالضبط فقد صارعت الحياة الأندلسية الرفيعة هـذه الحياة الاجتماعية المغربية فتغلبت عليها وأثرت فيها .

غير أن التعاليم التى بثها الإمام عبـد الله بن ياسين وسار عليها خلفاؤه من الأمراء خلقت جيلا من الولاة حـديثى عهد بحياة الصحراء البسيطة الخشنة غير المتكلفة ، وحديثى عهد بحركة الزهد والتقشف التى بثها ابن ياسين وخلفاؤه من بعده[2] . وقد استطاع هذا الجيل الصالح أن يقاوم مؤثرات المـال الوفير والحياة الأندلسية الراقية ، وظلوا فى عهد يوسف بن تاشفين قدوة صالحة للأمراة المتزهدين العزوفين عن متع الحياة ، مثل سير بن أبى بكر وأبى عبد الله ابن عائشة « الذى لم يكن من قواد يوسف مثله بأساً وجداً فى نصرة الدين واستبصاراً فى أداء الطاعة[3] » .

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩ . السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٢) Dozy : (op. cit.) vol. IV, p. 261

(٣) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٥٥ .

ولكن هذه المؤثرات لم تستطع أن تصمد طويلا بعد وفاة يوسف ، إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعها وبهجتها ومسراتها ، ولم يكن من الممكن أن يقاوم المرابطون هذه المتع طويلا ، فقد عاشوا فى ظلها وانغمسوا فى لجتها ، واضطروا أن يعيشوا كما كان الناس يعيشون فى الأندلس . ظهرت هذه المؤثرات الجديدة فى أوائل عهد على بن يوسف ، فلم يكن هذا الأمير الذى ولد فى بحبوحة العز والترف متقشفا كأبيه ، ولم يكن من الممكن أن يكون كذلك ، وهو الذى ولد فى حجر العز والسلطان ؛ كان إذا رحل إلى الأندلس نزل بأشبيلية فى معرش غاية فى الحسن والجمال ، وصفه الفتح بن خاقان أبلغ وصف ، فقال « خرجت بأشبيلية مشيعا لأحد الزعماء المرابطين فلما انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين ، أدام الله تأييده . الذى ينزل به عند حلول أشبيلية وهو موضع مستبعد كأن الحسن فيه مودع ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم وروض كما وشت البرود يد راقم وزهر يحسد الماء رياه ويتمنى الصبح أن يسم به محياه »[1] .

فى هذا القصر الجميل الوارف الظل كان ينزل أمير المسلمين كلما حل بالأندلس ، فيستمتع بطايب هذه الحياة الأندلسية الرفيعة ، فلم يكن بدعا أن ينسج الأمراء والقواد على منواله ، وأن يعيشوا فى مقاطعاتهم عيشة رفيعة مترفة ، فيها رخاء ، وفيها متعة ، فتأنقوا فى المأكل والملبس ، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين والندماء ، وبدأوا يحيون حياة لا تكاد تختلف عن الحياة التى كان ملوك الطوائف يحيونها[2] ، فروى المقرى أن أبا بكر بن الروح الأشبيلى مدح الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وكان يدل عليه وينادمه بقصيدة مطلعها :

أنا شاعر الدنيا وأنت أميرها ... فمالى لا يسرى إلى سرورها[3]

---

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١١ .

(٢) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne, vol. IV, p. 261

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١١٦ . المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٢٧ .

وكانوا أيضا يستمعون إلى المغنين ويجالسونهم ويطربون لشعرهم وغنائهم ، فقد جالس أبو بكر بن باجة ابن تيفلويت صاحب سرقسطة ، فألقى على بعض قيانه موشحة أولها :

جرر الذيل أيما جـــر

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله :

عقـــد الله النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت[1] . وهذه الرواية تصور لنا تصويرا صادقا لونا من هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة التي كان يحياها الأمراء في الأندلس ، والتي وضحت فيها المؤثرات الأندلسية أتم وضوح .

ويبدو أن الحياة الاجتماعية في المغرب قد أصابت من هذه المؤثرات الشيء الكثير ، فقد كان الأدباء والشعراء والمغنون يعبرون البحر إلى العدوة ، ويلمون بفاس أو تلمسان أو مراكش وغيرها ، يمدحون الأمراء ، ويجالسونهم ، ويتغنون بمحامدهم . وليس ببعيد أن أمراء المغرب كانوا يحيون مثل هذه الحياة المترفة ، وخصوصا أن الدولة كانت تنقل أمراء الأندلس إلى المغرب ، وأمراء المغرب إلى الأندلس ، وكان الأمير المنقول إلى المغرب يصحب بطانته ووزراءه وكتابه . وقد اتخذ الأمراء القصور الحسان[2] ، وتفنن فنانوا الاندلس في بنائها وزخرفتها ، وبدت مراكش في أواخر العهد بالمرابطين زاخرة بهذه الحياة المترفة الرفيعة ، وانتشرت بها قصور الأمراء والقواد وخدام الدولة[3] ، وكلما أمعنت الدولة في

---

(١) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) التادلى : التشوف ص ١٢٣ .

(٣) الادريسى : المغرب وأرض السودان والاندلس ص ٦٨ .

الترف كلما تناست رسالتها ، واطرحت المثل التي وضعها عبد الله بن ياسين ، فذكر البيدق «أن الحوانيت كانت مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وأربية وكيتارات وجميع اللهو»[1] .

* * *

٧ — أثر قيام دولة المرابطين فى حضارة المغرب والأندلس :

أما الآثار التي خلفها قيام الدولة فى حضارة المغرب والأندلس فقد كانت عظيمة حقا . إذ تركت أثارا واضحة فى الحياة الثقافية فى المغرب والاندلس ، وفى الفن الأندلسى المغربى ، وقبل أن نعرض لهذه النتائج ، ونتلمس صدى هذه التأثيرات فى الميدان الحضارى ، يجب علينا أن نعرض الاتجاهات التى خلفها قيام الدولة ، هذه الاتجاهات التى كانت بمثابة حجر الزاوية فى هذا الصرح الحضارى المنيف ، الذى شيده المرابطون ، سواء فى المغرب أو فى الأندلس .

فقد تمخض قيام الدولة عن توحيد المغربين الأوسط والأقصى وظهورهما فى عالم شمال أفريقية بمظهر القوى المتماسك ، وكان نمو قوة المرابطين وظهورهم بهذا المظهر القوى الرائع عاملا عظيما فى وقف توسع عرب بنى هلال ، والحيلولة بينهم و بين التدفق إلى المغرب الأوسط ، وتهديد المغرب الأقصى . فقد عرفنا كيف استطاع عرب بنى هلال أن ينالوا من دولة بنى زيرى ، ويهزموا صنهاجة بقيادة المعز بن باديس[2] ، وأن يدكوا صرح القيروان ، وأن يعيثوا فى أفريقية فسادا ، يغيرون على المدن الزاهرة ، ويحملون علم الدمار والخراب فى طول البلاد وعرضها[3] .

---

(١) أبو بكر الصنهاجى ، البيدق : أخبار المهدى ابن تومرت ص ٦٥ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٩ .

فلما استقر هؤلاء العرب فى افريقية يتابعون هذه السيسة الحمقاء ، تفرق علماء افريقية أيدى سبا ، وانتهت القيروان كجامعة ذات شأن فى الحياة الثقافية فى المغرب و الأندلس[١] ، هذه الجامعة التى شد إليها المغاربة والمشارقة الرحال ، ونهلوا من عمها ما طاب لهم ، وظلت تغذى الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى طيلة أربعة قرون . وقد أقفرت مدارس القيروان بعد غارات عرب بنى هلال ، ونجا العلماء من مدن إفريقية بعلمهم وفنهم ، وتركوا إفريقية نهباً للعرب يعيثون فيها كيف شاءوا[٢] . وكان طبيعياً أن يعتصم هؤلاء العلماء بإقليم بعيد عن متناول هؤلاء العرب حيث يستطيعون أن يؤدوا رسالتهم ، ويتابعوا نشاطهم الثقافى ، فالتجأ أغلبهم إلى مدارس المغرب الأقصى ، إلى فاس وسبتة وطنجة وأغمات وتلمسان ، فكأن نكبة القيروان ، وكارثة الحضارة فى إفريقية قدعملت على تفوق مدارس المغرب الأقصى ، وبروزها فى ميدان الحضارة ، وتألق نجمها فى عالم الثقافة .

وفى هذه الآونة بالذات أسدى المرابطون للحضارة يداً طولى ؛ ومكنوا لمدارس المغرب الأقصى وعلمائهـا من متابعة الرسالة المقدسة بعيدين عن كل ما يهددهم أو يقطع عليهم جهودهم الموفقة ، فقد وقف المرابطون للعرب بالمرصاد ، وحموا المغرب الأوسط والأقصى من شرهم ، وحينما راح بنو حماد الدين تنكروا لتراث قبيلتهم وخانوا بنى عمومتهم يجمعون الأعراب ويؤلبونهم ، ويجنـدونهم للإغارة على المغرب الأوسط ، وطعن المرابطين من الخلف ، وهم فى معركة الجهاد ، وقف لهم يوسف بن تاشفين بالمرصاد ، وشحن المغرب الأوسط والأقصى بالمقاتلة والسلاح ، وفوت على بنى حماد غرضهم[٣] ، وحال بين الأعراب و بين العبث

---

(١) سويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ ص ١٤٨ .

(٢) الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١٠٦ .

بالمغرب الأقصى ، كما عبثوا بافريقية من قبل ، وبذلك صان المرابطون تراث الحضارة ، و بسطوا ظل حمايتهم على العلماء ، وأخذت مدارس المغرب الأقصى فى كنفهم تزداد تفوقها ، و يتألق نجمها حتى لقد قيل إن جامعة فاس ، ورثت تقاليد القيروان ، وخلفتها فى مضمار الثقافة الإسلامية .

إلى جانب ذلك كله عمل المرابطون على إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، وأوجدوا نوعا من التعاون بين طبقات السكان ، ووجهوا المجتمع كله صوب معركة الجهاد ، فنامت الفتنة ، وشاع الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد[1] ، وانصرف الناس إلى الانتاج المادى ، وتقدمت الزراعة والصناعة ، وراج سوق التجارة ، وارتفع مستوى الدخل بين جمهرة أهل البلاد . وليس من شك فى أن الاستقرار إذا اقترن بالرخاء كان من أهم الأسباب التى تمكن للحضارة من أن يذكو نبتها وتنضج ثمارها ، إذ ينصرف العلماء إلى أداء رسالتهم السامية فى هدوء وطمأنينة وأناة . نعم صان المرابطون تراث الحضارة فى المغرب بسبب هذه السياسة الإصلاحية العظيمة التى وضع أساسها يوسف بن تاشفين حين أوصى ولده « ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة[2] » .

أما تدفق المرابطين إلى الأندلس فقد أنقذها مما كانت تعانيه من فوضى واضطراب وعدم استقرار ، فقد كان المجتمع الأندلسى فى ظل ملوك الطوائف مجتمعاً عزت فيه الطمأنينة وعدم الاستقرار ، وأصبحت هذه الفتن المتأججة التى كانت تتزايد باستمرار لا تطمئن العلماء على أنفسهم ، فتقض مضاجعهم ، وتؤرقهم ، وتدفعهم إلى الهجرة بأنفسهم وعلمهم فراراً من هذا الاضطراب والفساد .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

(٢) الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ص ٦٧ .

وهنالك أمر آخر كان له شأن وأى شأن فى تشجيع الحياة الثقافة والفنية فى ذلك العصر ، هو أن القبائل التى أقامت الدولة لم تكن قبائل هدم إنما كانت قبائل بناء . كانوا بدوا مافى ذلك شك ، ولكنهم كانوا من ذلك الصنف من البدو الذى يغير لا ليخرب ويدمر ، ولكن ليقوم ويصلح ، وقد سبق أن أشرنا فى الباب الأول إلى أن هذه القبائل كانت قبائل قبل تدفقها صوب المغرب ذات تراث حضارى قديم ، وأن البيئة هيأتها لتعلب فى تاريخ الحاضرة دوراً عظيما ، وعقدنا مقارنة بين صنهاجة وبين زناتة ، أو بين صنهاجة وبين عرب بنى هلال ، ولسنا فى حاجة إلى أن توضح الفرق بين عهدين متباينين : عهد سادت فيه زناته فعاثت وأفسدت ونهبت ، وعهد استظل بظل صنهاجة فاستقر واطمأن وهدأ وتألق نجم ثقافته وفنه ، وهذا أمر بعيد الأثر فى تاريخ الحضارة فى ذلك العهد يجب أن لا نقلل من أثره أو نغض من شأنه ، فالفرق واضح بين البدو الذين يهدمون ويخربون وبين البدو الذين يصلحون ويبنون كالفرق بين المغول والعرب مثلا .

وهنالك عامل آخر أبرزه تدفق المرابطين صوب الأندلس ، فقد وحدوا بين العدوتين ، وبسطوا ظلهم على القطرين ، وكان هذا التوحيد ذا أثر عظيم فى تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية ، إذ أن معناه اختلاط المؤثرات المغربية بالمؤثرات الأندلسية ، واختلاط حضارة راقية بحضارة أقل رقيا وازدهارا[١] ، وسوف يتمخض هذا المزج بين الحضارتين عن تألق نجم الثقافة والفن فى المغرب[٢] .

لانستطيع أن ننكر أن المغاربة وردوا موارد الأندلس قبل عهد المرابطين ، ولا نستطيع أن ننكر أيضا أن المؤثرات الأندلسية تدفقت إلى المغرب فى عهد سيادة الأمويين ، وبعد سقوط الخلافة ، ولكن الحقيقة التى يجب أن تظل

---

(١) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 251—252

(٢) Idem

مائلة فى الأذهان هى أن المؤثرات الأندلسية قد انتشرت فى إقليم الساحل ، هذا الإقليم الزراعى الذى انتشرت فيه المدن ذات الماضى المجيد فى تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس ، ولكن هذه التأثيرات ظلت فى عصور الاضطراب والفتن لا تكاد تتخطى هذا النطاق إلى الجنوب[١] . فقد اشتد الصراع بين المستقرين والبدو ، وعدم التعاون بين اقليم السهول و إقليم المراعى ، وأصبح هذا التباين بين قسمى المغرب الأقصى عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية ، وبين أن تعم المغرب الأقصى كله ، فلما بسط المرابطون لواءهم على المغرب كله ، وأضافوا اليه الأندلس انطلقت المؤثرات الأندلسية تعم البلاد دون أن تعترضها عقبة ، أو يقف فى طريقها عائق ، بل استطاعت هذه المؤثرات المغربية الأندلسية أن تتخطى نطاق جبل درن فى الجنوب موغلة فى إقليم الصحراء . كان المرابطون إذن حلقة اتصال فى تاريخ الحضارة بين عدين : عهد ملوك الطوائف ، وعهد الموحدين ، فمهدوا السبيل أمام عصر الموحدين الزاخر بعلمه وفنه وحضارته[٢] . وأقام الموحدون صرح مدارسهم وثقافتهم على الأسس التى بنها المرابطون ، وأفادوا من العوامل التى شجعها المرابطون وشدوا ازرها .

وقد وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية من يشجعها ويشد أزرها ، فقد عمل ملوك المرابطين وأمراؤهم على تشجيع هذه المؤثرات ، وشد أزر العلماء بكل سبيل ، فقد استقدم على بن يوسف منهم طائفة ممتازة جاءوا إلى مراكش فاستكتبهم أو استوزرهم ، ومهد لهم السبيل ليشيعوا فى البلاد هذه الألوان الأندلسية فى الفن والأدب[٣] . وكان الفنانون والصناع من أهل الأندلس

---

(١) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 251—252

(٢) Marçais : Manuel d'Art Musul. voi. I, p. 300—301

(٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٦١٢ . المقرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦٠ ، ابن القاضى جذوة الاقتباس ص ١٥٩ .

يلقون من ملوك المرابطين وأمرائهم الشيء الكثير من الحماية والتشجيع والتعضيد[1] ، وكان الملوك يستقدمون أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بنيهم[2] ، وحضور مجالس مشورتهم ، وتعليم أهل المغرب وتأديبهم ، « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمرته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك » ، كما كان المرابطون يشجعون الأطباء والفلاسفة[3] ، وكان كل أمير أو قائد يقلد أمير المسلمين في تشجيعه للعلم والعلماء ، اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا الفقهاء والعلماء والفلاسفة[4] واغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة ، وعملوا على استقدام جلة العلماء من أهل الأندلس[5] . وقد صور ابن خلدون ذلك كله أصدق تصوير حين قال « وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم والاستفتاء في فروض أعيانهم ، واقتناء الأئمة للصلوات في بواديهم وتدارس القرآن بين احيائهم ، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم ، ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم ، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومقاما إلى سلطانهم وملكهم[6] » .

وتصور كتب الطبقات هذه العلاقات التي نشأت بين المغرب والأندلس ، والتي توثقت في عهد المرابطين فتتحدث في إسهاب عن أهل المغرب الذين وفدوا على الأندلس ، وألموا بمدارسة ، وجلسوا إلى فقهائه وعلمائه ، وأدبائه وشعرائه

---

(١) Marçais : Manuel d'Art Musul., vol. I, p. 301

(٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤١ . جذوة الإقتباس ص ٦٩ .

(٣) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٥ و ج ٢ ص ٩٢٥ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) ابن بشكوال : ص ٥٤٨ ، السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣ .

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٥ .

وعادوا إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس . وتتحدث كتب الطبقات أيضاً[١] عن أعلام الفكر من أهل الأندلس ، ورحيلهم إلى المغرب ، و إلمامهم بمدنه و إحاطة الطلاب بهم يروون عنهم ، و يأخذون منهم ، ويتعلمون على أيديهم ، يمهد لهم الأمراء السبيل ، و يحوطونهم بالرعاية والتكريم[٢] . أنعجب بعد هذا كله إذا كانت مدارس الثقافة فى المغرب والأندلس قد تألق نجمها فى البلاد ، وطار ذكرها فى الآفاق .

و إذا أردنا أن نعطى صورة واضحة للحياة الثقافية فى عهد المرابطين فلا بد من الرجوع إلى كتب الطبقات ، فهى المراجع التى تؤرخ للنهضة الثقافيـة ، وتتحدث عن المدارس المنبثة فى البلاد ، وتتناول العلماء ، وتترجم لهم ، وتكشف عن آثارهم العلمية وتعرف بهم ، وتفصل أمر شيوخهم ، وتعرض لمذاهبهم ، ولمن ورد مناهلهم ، وتتلمذ عليهم . ومن حسن الحظ أن أغلب هـذه المراجع قد ألفت بعد سقوط دولة المرابطين[٣] . فلم يتأثر أصحابها بما يتأثر به المعاصرون عادة من تملق القائمين بالأمر ، أو تعمد المبالغة طمعا فى التقرب من السلطان ، أو إخفاء الحقائق خوفا من بطش ولى الأمر ونقمته . نستطيع إذن أن نعتمد على ما كتبه المؤرخون المتأخرون لأنهم كتبوا مجردين عن الهوى ، ملتزمين جادة الحق فهم يبينون ما للدولة وما عليها .

ومن الغريب أن ترسم كتب الطبقات لعصر المرابطين صورة زاهية وتبرزه للناس عصراً حافلا بالحركة والحياة ، يفيض بالعلماء الثقات المتفرغين لدراسة كل

---

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٥٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٩٦ و ٢٥٠ و ٢٩٠ و ٢٨٣ و ٣٨٤ و ج٢ ص ٥٣٠ . ابن بشكوال ص ٢٩٢ . المطرب لابن دحية ورقة ٣٤ (أ) . المرقبة العليا ص ١٠١ . صلة الصلة لابن الزبير ص ٥٣ .

(٢) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط) ص ١٢٥ . التشوف ص ١١٧ . ابن الأبار ج ١ ص ٥٠ .

(٣) التكملة لابن الأبار والصلة لابن بشكوال والمراقبة العليا للنباهى وغيرهم —

لون من ألوان الحياة العقلية ، وتكاد تحس من ثنايا ما يكتبون مقدار ما أسدته هذه الدولة للثقافة الإسلامية فى المغرب من خدمات جليلة ، حتى بدأ علماء المغرب والأندلس ينافسون علماء المشرق فى هذا المضمار ، ويتفوقون عليهم فى كثير من النواحى[1] . فقد تتلمذ المغرب على المشرق دهرا طويلا ، وظلت أمهات الكتب التى ألفها المشارقة تدرس فى مدارس الأندلس والمغرب ، يفسرها الأساتذة ويرويها الطلاب ، حتى إذا تمكن المغرب من نفسه ، وزخرت مدارسه بالحياة واطمأن إلى مقدرته بدأ يخرج ألوانا اندلسية مغربية تفوق ماعرف من الألوان المشرقية . بدأ التفوق فى الشعر وفى النثر وفى الفلسفة والطب وعلوم الحديث والقرآن واضحاً جليا .

وأول ما تكشف كتب الطبقات النقاب عنه هذه المدارس الثقافية المتعددة التى انتشرت فى بلاد المغرب والأندلس فى عهد المرابطين ، وبعض هذه المدارس قديم النشأة ، وبعضها حديث أسس فى ذلك العصر بالذات ، ولكن المؤرخين أجمعوا على أن المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت فى هذا العصر تفوقا ظاهراً .

ومن أهم المدارس مدرسة فاس التى بلغت فى عهد المرابطين والموحدين من بعدهم «من الغبطة والرفاهية والدعة والأمن مالم تألفه مدينة من مدن المغرب»[2] . قصدها العلماء من الأندلس وأفريقية . ومن مدارس المغرب الأقصى أيضا مدرسة سبتة[3] ، التى تقع على مضيق جبل طارق ، فتتلقى المؤثرات الأندلسية والمغربية على سواء ، وقد أنجبت عالما فذا من أعلام عصر المرابطين هو القاضى عياض اليحصبى ؛ وانتشرت المدارس أيضا بطنجة[4] ، وأغمات[5] ، وسجلماسة[6]

---

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٣ .
(٣) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٧٣ .
(٤) ابن الأبار : ج ١ ص ٣٨٣ .
(٥) ازهار الرياض : ج ٣ ص ٦١ .
(٦) ابن الأبار : ج ١ ص ٣٨٣ .

وتلمسان[١]، ويبدو أن مدرسة مراكش[٢] ، وهى حديثة النشأة قد تفوقت تفوقا ظاهرا ، فقد كانت حاضرة الدولة ، ومقر السلطان ، وكعبة القصاد ، وفد إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريبا من الأمراء ، فينالوا رفدهم وعطاءهم .

ويبدو أن مدارس الأندلس قد نهضت نهضة موفقة فى عهد المرابطين ، بعد أن اطمأن العلماء وهدأوا ، واستقرت أحوالهم . ومن أهم مدارس الأندلس مدرسة قرطبة[٣] ، ومن أعلامها فى عصر الموحدين الفيلسوف ابن رشد ، كما ازدهرت مدارس مرسية[٤] والمرية[٥] ، ودانية[٦] ، واشبيلية[٧] ، وبلنسية[٨] وطرطوشة[٩] ، وغرناطة[١٠] ، وبطليوس[١١] ، وشاطبة[١٢] ، وسرقطة[١٣] ، وشلب[١٤] .

ولم تتحدث كتب الطبقات عن المدارس فحسب ، بل عرضت للعلماء من كل فن فعددت مناقبهم ، وبينت مكانتهم من العلم ، فذكرت مشايخهم ومن أخذ عنهم من الطلاب ، وكشفت النقاب عن تفوق علم الفقه والرواية والحديث

(١) ابن الأبار جـ ١ ص ٣٢١ .
(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص٤٩ .
(٣) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٨٨ .
(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(٥) ابن خير : الفهرسة ص ٩١ .
(٦) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٨٩ .
(٧) ابن خير : الفهرسة ص ١٢١ .
(٨) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٩٣ .
(٩) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(١٠) المرجع السابق جـ١ ص ٢٦٩ .
(١١) المرجع السابق جـ٢ ص ٣٢٤ .
(١٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٩٧ .
(١٣) ابن الزبير : صلة الصلة ص ٨٢ .
(١٤) المرجع السابق ص ٩٩ .

فى ذلك العصر تفوقا عظيما ، وقد برع من العلماء فى هذه الناحية علمان من أعلام مدارس الأندلس : هما أبو على الصدفى[١] ، وأبو على الغسانى[٢] . كان الصدفى يروى السنن لأبى داود ، والدارقطنى ، وجامع الترمذى ، وتاريخ البخارى ، ورياض المتعلمين لأبى نعيم ، كما كان « دينا فاضلا معنيا بعلم وسماعة وكتب بخطه على وقته علما كثيرا »[٣] . أما الغسانى فقد انفرد بالإمامة بعد وفاة الصدفى « فكان آخر المسندين بقرطبة ، واضبط الناس وكثر الراحلون إليه »[٤] .

وبرز فى هذا الميدان أيضا أبو العباس الخزرى ، وأبو الوليد الباجى ، وأبو جعفر ابن حجر وأبو عامر بن حبيب ، وأبو عمران بن أبى تليد ، وأبو بحر الأسدى ، وأبو العباس بن ذروة[٥] . أما القاضى عياض فقد تألق نجمه فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وأصبح من أعلام مدرسة سبتة وجلة فقهائها . تعلم بالأندلس وتتلمذ على شيوخها الثقات حتى أصبح « من أهل اليقين فى العلم والذكاء واليقظة والفهم »[٦] . وإذا تحدثنا عن الفقه فيجب ألا يفوتنا ذكر أبى الوليد محمد بن أحمد ابن رشد ، فقد كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره ، وكان من أقطاب مذهب مالك بالأندلس ، وقد برع فى علم الفرائض والأصول ، وألف كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل ، واختصار المبسوطة ، واختصار مشكل الآثار للطحاوى[٧] ، وكان محمد بن حيدره المعافرى خاتمة الحفاظ بالأندلس ، وأعرفهم

(١) ابن الأبار ج ١ ص ٨٩ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٧٨ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٨٩ .
(٤) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٧٨ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٦٩ .
(٦) النباهى : المرقبة العليا ص ١٠١ .
(٧) المرجع السابق ٩٨ — ٩٩ .

بعلله ، وأكثر المبرزين فى صناعته ، ومعرفته معانيه وحفظ أسمائه[١] ، وممن تألق نجمه فى الفقه والحديث كما تألق فى الأدب والبلاغة الوزير أبو عبد الله محمد بن مسعود بن فرج بن خلصة أبى الخصال الغافقى . فقد ألف كتاب المنهج فى معارضة المبهج ، وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة فى مناقب من خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحابته بالكرامة ، وكان الناس يروون جميع كتبه وكلامه من منثور ومنظوم وخطب[٢] .

أما علوم العربية فقد نفقت سوقها ، وراجت بضاعتها ، وظهرت فى بلاد الأندلس فى ذلك العهد طائفة من الكتاب المجيدين برعوا فى الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة ، فتهافت عليهم الملوك والرؤساء ، يستخدمونهم فى دواوين الإنشاء « يجمعون إلى براعة الفقهاء براعة الشعراء النبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين ويتكلمون بالسنة المجيدين[٣] » . ومن أئمة هؤلاء الكتاب الأعلام والأدباء الثقات عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى ، ومحمد بن سليمان الكلاعى المعروف بابن القصيرة « رأس أهل البلاغة فى وقته من أهل الأدب البارع والتفنن فى أنواع العلم[٤] » ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن السقاط[٥] ، وعبد الملك ابن أبى الخصال[٦] ، وعبد العزيز بن سعيد بن القيطورنة[٧] ، ومحمد بن عيسى ابن محمد اللخمى المعروف بابن اللبانة « كان من جلة الأدباء وفحول الشعراء واسع الذرع غزير الأدب قوى العارضة متصرفا فى البلاغة[٨] » ، ألف كتبا

---

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٩٤ .
(٢) ابن خير : الفهرسة ص ٣٨٦ و ٤٥٠ .
(٣) الذخيرة : قسم ٤ « مخطوط » ص ١٢٥ .
(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٥١٢ .
(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٥٩ .
(٦) جذوة الاقتباس ص ٢٧٢ .
(٧) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٦٢٤ .
(٨) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٥ .

تناقلها الناس مثل كتاب مناقل الفتنة ، وكتاب نظم السلوك فى وعظ الملوك ، وكتاب سقيط الدرر ولقيط الزهر[1] ، ومن هؤلاء أيضاً إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن ينق[2] ، وجعفر بن إبراهيم المعافرى المعروف بالفتح ابن خاقان صاحب كتاب قلائد العقيان[3] ، ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى بن الصيرفى المؤرخ[4] .

وقد برع فى علوم اللغة طائفة من الأساتذة الاعلام مثل أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميرى[5] ، ومحمد بن أغلب بن أبى الدوس[6] ، ومحمد ابن حسين بن محمد بن غريب الانصارى[7] ، وعبد المجيد بن عبدون الفهرى اليابرى[8] ، أما علوم النحو فقد برع فيهما محمد بن حكم بن محمد بن باق الجزابى[9] ، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خاطب بن زاهر الباجى الأندلسى[10] .

أما فى ميدان الشعر فقد تحدثت كتب الطبقات عن طائفة من الشعراء الفحول الذين تألقوا فى سماء ذلك العصر ؛ مثل ابراهيم بن أبى الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهوارى الشاعر[11] ، صاحب الديوان المعروف الذى

---

(١) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص ٢٤٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٦٩ .

(٤) ابن الزبير : صلة الصلة ص ١٨٣ .

(٥) ابن الأبار : التكمله جـ١ ص ١٤٨ .

(٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٥٦ .

(٧) ابن الأبار : التكملة جـ١ ص ١٤٦ .

(٨) الذخيرة (م : بغداد) قسم٢ ص ٢٦٤ ، مشيخة عياض ورقة ٥٧ (أ) .

(٩) ابن دحية : المطرب ورقة ٣٤ (أ) . بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٩ .

(١٠) السيوطى : بغية الوعاة ص ١٦١ .

(١١) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ص ٥٩ .

مجد أمراء المرابطين ومدحهم وتغنى بشمائلهم ونال رفدهم وعطاءهم . وقد تفوق فن الموشحات فى عصر المرابطين تفوقا عظيما على يد الشاعر أحمد بن عبد الله القيسى أبى العباس الملقب بالأعمى التطليلى ، و يحيى بن بقى وأبى بكر بن الأبيض [(١)] ، كما تفوق فن الزجل على يد الزجال المعروف ابن قزمان .

وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر ، تألق نجم علوم الفلسفة والطب . وكان من أئمة فلاسفة ذلك الوقت مالك بن وهيب وزير على بن يوسف وأقرب المقربين إليه ، أخذ من كل فن بطرف و برع فى علوم اللغة ، وتفوق فيها ، وألف كتابا سماه قراضة الذهب فى ذكر أيام العرب فى الجاهلية والإسلام [(٢)] ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب ، فجاء الكتاب فريداً فى فنه . وكما ألف ابن وهيب فى اللغة كذلك ألف فى الفلسفة ، إذ درس كتاب الثمرة فى الأحكام لبطليموس وكتاب المجسطى فى علم الهيئة [(٣)] . أما الفيلسوف أبو بكر بن باجة فحدث عنه ولا حرج ، فقد ذاع صيته فى الأندلس وأوربا فى العصور الوسطى حيث عرفه الناس باسم « Avenpace » ، وهو صاحب مدرسة الشك . تأثر بالفلسفة اليونانية وأشاع هذا المذهب بين شعراء ذلك العصر الذين فشا فى شعر بعضهم لون من ألوان التحرر من قيود الدين [(٤)] . وقد برع ابن باجة فى الموسيقى كما برع فى الفلسفة . أما الطب فمن أعلامه أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، «كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه» [(٥)] ، برع فى الأدوية المفردة والمركبة وشاع ذكره فى الأندلس وفى غيرها من البلاد [(٦)] ، وقد ألف كتاب الاقتضاء فى إصلاح

---

(١) المقرى : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) اعز ما يطلب ص ٧ . المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٩٢٥ .

(٣) اعز ما يطلب ص ٧ .

(٤) المقرى : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ Marçais: Manuel D' Art. Vol, i, p. 269

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٥ .

(٦) ابن أبى اصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٦

الأجساد للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين[١] ، وقد قربه المرابطون وأجلوه وأغدقوا عليه من النعم والأموال الشيء الكثير[٢] ، و بلغ من إهتمام المرابطين بفن ابن زهر ومؤلفاته أن علياً بن يوسف أمر بجمع مصنفاته بعد وفاته « فجمعت بمراكش وسائر بلاد العدوة والأندلس ونسخت[٣] ». نعم قرب المرابطون مالكا بن وهيب ، وأبا بكر بن باجة ، وأبا العلاء بن زهر ، أفيقال بعد ذلك إن المرابطين حاربوا العلم ، وكانوا أعداء حرية الرأى ؟ وهل يعتبر عدواً لحرية الرأى من يقرب ذلك الفيلسوف المتحرر ابن باجة ؟ و يكفى فى إثبات تشجيع المرابطين للعلم والعلماء أن نورد ما قاله المراكشى فى هذا الصدد « إنقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له بولايته من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار[٤] ».

وقد تركت هذه الحياة العقلية الرفيعة أثرا بعيداً فى شعب الملثمين فاقبلوا على الثقافة يردون مواردها و ينهلون منها ما طاب لهم . وكان الملثمون على إستعداد تقبل هذه الثقافة الجديدة والافادة منها ، فقد كانت القبيلة ذات حضارة قديمة ، أفادت فى تاريخها القديم من الحضارات الوافدة على المغرب ، وأصبحت عقول بنيها أكثر إستعداداً لحياة علمية رفيعة لو أحسن توجيههم . وكان عبد الله بن ياسين قد فتح عقولهم للثقافة الإسلامية والتراث العربى ، وتركت تعاليمه فى نفوسهم أبلغ الأثر ، و بدأوا منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامهم أرض المغرب يقبلون على المدارس فى شغف ، لم يتخلفوا عن الركب ليتابعوا حياة الاغارة والعدوان

---

(١) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٦٩٦ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ١٠٤ .

شأنهم شأن القبائل البدوية الأخرى ، بل انكبوا على الثقافة والعلم وأخذوا منهما بنصيب موفور .

ولما فتحوا الأندلس تفتحت أمامهم آفاق جديدة فى ميدان العلم ، واحتكوا بحضارة الأندلس الرفيعة وثقافتها المزدهرة ، فأفادوا منها فائدة جلى ، فاختلفوا إلى شيوخها وصحبوا علماءها ، وسمعوا من رواتها ومحدثيها ، حتى شاع العلم بين أفراد القبيلة من عامة ونبلاء ، وأقبل الجميع على التعلم بنفوس راضية وعقول واعية ، حتى إذا انقضى على تدفقهم إلى المغرب والأندلس نصف قرن بدأت نتائج الثقافة الجديدة تظهر آثارها فيهم . أخذنا نسمع بجيل من هؤلاء الملثمين تمكنوا من العلم ، وبرعوا فيه ، واحتلوا مكان الشيوخ المعلمين الذين جلسوا يحدثون الناس ويفقهونهم ، وأخذ التلاميذ يختلفون إلى مجالسهم ، ويروون عنهم .

ونحن إذ نقول ذلك لا نرسل القول إرسالا ، ولكن نعتمد على كتب الطبقات التى تكشف لنا عن هذا البعث العلمى الذى فشا فى صفوف القبيلة صاحبة الدولة ، وتذكر طائفة من هؤلاء الملثمين الذين ذاع صيتهم فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مما يشهد بصدق ما نقول ، ويدل فى وضوح وجلاء على أن هذا الشعب الملثم لم يكن عدوا للعلم ، يقف فى سبيله ، بل كان ينصره ويأخذ منه بنصيب ويشارك فيه ، وقد اشتهر من هؤلاء الملثمين فى ذلك الوقت زاوى بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجى المعروف بابن تقسوط ، الذى كان من أعلام مدرسة دانية وجله شيوخها[1] ، وأحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى ، الذى استوطن المرية وذاع صيته[2] ، وخلوف بن خلف الله الصنهاجى الذى سمع بقرطبة ، وولى قضاء غرناطة[3] ، وموسى

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٨٩ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ص ٨٥ . ابن الأبار ج ١ ص ١٠٩ . التشوف ص ١١٧ .

(٣) ابن القاضى : الجذوة ص ١١٥ .

ابن حماد الصنهاجى[١] ، بل عكف كثير منهم على الزهد والتقشف ، وعرفوا بالتقى والورع ، وذكر صاحب كتاب التشوف فى عداد الأولياء أبا عبد الملك مروان اللمتونى[٢] ، وأبا محمد عبد الجليل بن ويجلان[٣] ، وأبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى[٤] .

أقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة كما أقبل عليها عامة الملثمين ، وظهر فيهم فريق عرف بالتقوى والعلم الغزير ، وقد تحدثت عنهم كتب الطبقات وسجلت أعمالهم فى تقدير وإكبار ، مثل عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجى أمير المرية الذى تتلمذ على الشيخ أبى على الصدفى ، وبلغ من علمه أن سمى بالفقيه القائد[٥] ، والمنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجى اللمتونى ، الذى سمع بقرطبة من أبى محمد بن عتاب وأبى بحر الأسدى ، وبمرسية من أبى على الصدفى ، وبرغم أنه كان من رؤساء لمتونه وأمرائها إلا أنه برع فى معرفة الأخبار والسنن والآثار وصحب العلماء للسماع ، بل « نافس فى الدواوين والأصول العتيقة وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه وهو فخر صنهاجة ليس لهم مثله[٦] » ومن هؤلاء الأمراء أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجى اللمتونى ، الذى قدم إلى المرية ورحل إلى مكة وحدث بالأندلس وسمع الناس منه بأشبيلية[٧] ، وأبو بكر سير الصنهاجى ، الذى برع فى العلم ، وتبحر فيه ، فلما توفى كتب على شاهد قبره « هذا قبر الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبو بكر الصنهاجى »[٨] .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٥٤ .
(٢) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٥٠ .
(٣) التادلى : التشوف ص ١٩٨ .
(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(٥) إبن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٦٩ .
(٦) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٣ .
(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٦ .
(٨) Lévi — Provençal : Inscriptions Arabes d' Espagne, p 123
مقاطعة المرية رقم ١٣٧ .

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والاختلاف إلى العلماء يرسلون فى طلب العلماء إلى قصورهم فيجلسون إليهم ، ويأخذون عنهم ويتعلمون منهم . ومما يروى فى هذا الصدد أن عليا بن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله ابن حرزهم جاء مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للأخذ عنه والقراءة علية ، فدخل أبو الحسن عليه وهو على سريره « فجلس أبو الحسن تحته فقال له هكذا تفعل مع من كنت تتعلم منه فقال نعم فقال له أبو الحسن انزل انت إلى مكانى وأكون أنا مكانك . فأجابه الأمير إلى ذلك ولازمه»[1] . وكان ابراهيم بن يوسف بن تاشفين يرسل فى طلب الفقيه الجليل الشيخ أبى على الصدفى ليسمع عليه الحديث و ينتفع بعلمه وفضله[2] . وكان ابراهيم هذا مثال الأمير المثقف المتواضع يشجع العلماء و يأخذ بناصرهم، وقد بسط ظل حمايته على الفيلسوف عبد الملك بن زهر الذى ألف له كتابا فى الطب أهداه إليه اعترافا بفضله وتخليدا لذكره[3] .

وقد ضرب كثيرون من هؤلاء الأمراء المتفقهين مثلا فى التواضع والزهد ، فقد روى عن مزدلى أمير تلمسان أنه أنزل عن فرسه فبسط له غلامه برنسا قعد عليه ، فقال له الشيخ عبد الله التونسى الزاهد ، ما هذه الأخلاق يامزدلى اين تجد غدا برنسا تقعد عليه فاستحيا من قوله وقام[4] . بل إن أميرا منهم قد ارتضى تواضعاً منه لله و إمعانا فى إذلال نفسه أن يذهب إلى الجبل و يحتطب و يدخل رحبة القصر ، وحزمة الحطب على ظهره[5] . ومالنا نذهب بعيداً وهذا ولى

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٩٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ج : ج ٢ ص ٦١٦ .

(٤) التادلى : التشوف ص ١٠٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١٢٣ .

الأمر نفسه على بن يوسف أمير المسلمين بلغ من علمه وصدق روايته « أن استجاز الراوية أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولانى جميع روايته لعلو إسناده فأجاز له[1] ».

ولعل هذه الإشارة التى سقناها تؤيد صدق ما نذهب إليه من إخلاص الملثمين للعلم والعلماء . نعم كان الأمراء يقدرون رسالتهم حق قدرها ، ويعرفون أنهم ممسكون بزمام أمة ضربت فى الثقافة العربية بسهم وافر . فحرصوا على إعداد جيل من بينهم يلم بالثقافة الجديدة ، ويرد منهلها ، فكانوا يستقدمون خيرة العلماء والفقهاء لتأديب بنيهم[2] . اختير احمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميرى ليؤدب أبناء السلطان[3] ، فلم يكن غريبا أن نرى جيلا جديداً من شباب الملثمين يعرفون العربية ويفهمون أسرارها ، ويلمون بمكنوناتها ، ونص ما رواه صاحب الجذوة[4] من أن تميمة بنت يوسف كانت تفهم الشعر وتقرضه ليس مبالغاً فيه .

لا ننكر أن الرعيل الأول من قادة الملثمين وأمرائهم لم يكونوا فى الغالب ملمين بالثقافة العربية إلماما دقيقاً ، وعهدهم بالحياة فى الصحراء قريب ، كما أن انغماس الدولة فى معركة الجهاد ، واشتغالهم بأعمال القيادة والإدارة صرفهم بعض الشىء عن التجويد والإتقان . ولكن مما لا شك فيه أن أبناء الجيل التالى كانوا يتقنون الثقافة العربية إتقاناً تاما ، وكان أبناء هذا الجيل الذى يسمعون الشعر والغناء فيسيغونه ويفهمونه ويطربون له ، مصداق ذلك ما رواه المقرى من أمر الفيلسوف أبى بكر بن باجة الذى لحن موشحاً غنى فى حضرة الأمير ابن تيفلويت فما كاد ذلك التلحين يطرق سمع الأمير حتى صاح « وأطربه وشق ثيابه[5] » .

---

(١) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤١ . ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٩ و ١٤٦ .

(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٥) المقرى : ازهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

وكان الشعراء يمدحون الأمراء والقواد بقصائد من عيون الشعر ، فكانوا يستجيدون ما يقولون و يصلونهم و يغدقون عليهم ،فقد مدح ابن سارة الشنتريني أبا بكر بن إبراهيم اللمتوني[١] ،كما لزم ابن خفاجة الشاعر أبا اسحق ابن أمير المسلمين ومدحه فى غرر قصائده[٢] ، كما مدحه الشاعر أبو بكر محمد بن الروح الشلبي فى قصيدة عصماء[٣] ، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه كان يسمع الغناء و يطرب له برغم ما يرو يه دوزى من جهله بلسان العرب ، فقد روى المقرى أن يوسف أهدى المعتمد جارية حسنة الصورة جيدة الغناء سمع منها وطرب لغنائها[٤] .

وكان طبعيا أن يبلغ على بن يوسف الذى نشأ كما نشأ الجيل الثانى من أبناء المرابطين من الثقافة العربية شأوا عظيما ، فقد روى أنه كان يسمع الشعر الجيد ، و يطرب له، مدحه القاضى أبو الحسن بن أضحى بشعر جيد فأمر بترفيعة فى المجلس،[٥] كما مدحه الوشاح المعروف بالأعمى التطيلى[٦] ، بل كان يقبل على الغزل رغم اشتهاره بالتقوى والورع و يطرب له ، أرسل إلى الشاعر ابن خفاجة وزيراً يقول له « إن السلطان يريد أن تقول شعراً تفتتحه بالغزل[٧] » ، فكتب ابن خفاجة فى هذا الفن قصيدة رفعها إليه . مهما يكن من شيء فقد كان القرن الخامس الهجرى ، وأوائل السادس عصر نهضة شاملة فى الحياة الثقافيـة عمت المغرب والأندلس على سواء ، فقد ظهر فى ذلك العصر أبو على الحسن بن رشيق القيراونى فى أفريقية وابن حمديس الصقلى « وتدفقت بالبلاد بحور الأدب وطامت فيها نجوم الـكتاب

---

(١) الفتح : قلائد العقيان ص ٢٦٤ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢٠ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٢٧ .
(٤) المقرى نقلا عن . Dozy : Abbadidarum, vol II, P. 234
(٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٢١٠ .
(٦) الضبي : بغية الملتمس ص ١٧٥ .
(٧) ديوان ابن خفاجة ص ١١٦ .

فعمت أقاصي البلاد[١] » ، وقال ابن الآبار وهو قائل صدق في دولة على بن يوسف « نفقت العلوم والآداب وكثر النبهاء وخصوصا الكتاب[٢] » .

ومع هذه الصور الواضحة التي رسمناها للحياة الثقافية في المغرب والاندلس في عهد المرابطين وما سقناه من أدلة على مساهمة الدولة بنصيب وافر في حماية العلوم ، وعمل الأمراء على شد أزر العلم والعلماء ، فإن المؤرخ دوزى يرسم للثقافة في الأندلس في عهد المرابطين ، صورة غير براقة ، ويظهر المرابطين بمظهر البدو الجفاة الغلاظ الذين أشاعوا في البلاد جواً من التعصب والرجعية حتى أقفرت سوق الأدب ، وكسدت بضاعته ، فقد تحكم الفقهاء في رقاب العباد ، وأحاطوا بأمير المسلمين ينفثون في صدره سموم الرجعية فيحاربون أهل الفكر الحر ، وينكلون بكل من يتصل بالفلسفة بسبب بعيد أو قريب ، فهذا مالك بن وهيب وزير على بن يوسف يشتغل بالفلسفة ، فلما خشى أن يصيبه مكروه طرح الفلسفة جانباً وأكب على الفقه ، وعكف على كتب المذهب . وقد تجاوز الفقهاء — كما يروى دوزى — الحدود في تعصبهم لمذهبهم ، إذ يرون أن مذهب مالك هو المذهب الذى لا يعلى عليه ، بل تمادوا في تعصبهم فافتوا بإحراق كتب الغزالي . ويمضى دوزى في حملته على المرابطين فيقول إن إعلام الكتاب الذين استخدمهم المرابطون في ديوان الإنشاء دخلوا في خدمتهم طلباً للعيش ، وانهم ما لبثوا أن اكتشفوا أنهم أصبحوا ألعوبة في أيدى طائفة من الفقهاء المتعصبين والقواد الجفاة الغلاظ ، فلم يخفوا تبرمهم بالدولة . أما أهل الأدب فقد عز من يشد أزرهم بعد دوال ملك الرؤساء ، وراحوا ينعون انحطاط الذوق الأدبى ، ويامنون الظروف التى

(١) الذخيرة (القسم الرابع مخطوط) ص ١٧٢ .

(٢) المضرب لابن دحية ورقة (أ) ، الخريدة للعماد الأصبهانى ج١١ ص٧٠ — ٧٢ .

Péres: La Poesie a Fés Sous Les Almoravides et les Almohades ' Hesperis 1934, T. XVIII, p. 9 — 16

جاءت بهذه العصبية من البربر للتحكم فى رقاب أهل الأندلس . أما الشعراء فقد ساء حالهم واضطر بعضهم إلى أن يهيم على وجهه متنقلا من مدينة إلى أخرى طلبا للعيش ، واضطر بعضهم الآخر إلى مدح الفقهاء التماساً للكسب[1] . وقد جاوزت حملة دوزى على المرابطين كل حد ، فرماهم فى كتابه Recherches بكل نقيصة ، حتى لقد قال « كان مجيء المرابطين إلى بلاد الأندلس نذيرا بانقلاب بعيد المدى فقد دالت دولة الحضارة ، وقامت الهمجية على أنقاضها أما حسن الإدراك فقد حلت محله الخرافات، ذهب التسامح وسيطر التعصب وأصبحت البلاد ترزح تحت نير الفقهاء والقواد ، وبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء فى دور العلم ومناقشاتهم فى الفلسفة ونشيد الشعراء وغناء أهل الموسيقى ، بدأنا لا نسمع إلا أصوات الفقهاء وصليل السيوف[2] » .

لا ننكر أن مجيء المرابطين إلى شبه الجزيرة قد صحبه كساد فى سوق الشعر إلى حد كبير ، فقد كان عهد يوسف فى الأندلس عهد جهاد وكفاح وحرب ، وليس بعهد ترف ورفاهية ، وإقبال على الملذات ، وانغماس فى الشهوات ، صور ذلك كله صاحب الذخيرة أبلغ تصوير ، إذ قال « فلما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس طوى الشعر على عزة وبرىء من حلوه ومره إلا نفثة مصدور والتفاتة مذعور ، وهو اليوم ببلد يابرة يرتشف فضل ثماره ويأكل من بقية زاده »[3] .

ولكن عزوف أمراء الرعيل الأول من المجاهدين المرابطين عن الانغماس فى الحياة الاجتماعية فى بلاد الأندلس ، واتخاذ الندماء والقيان وإحاطة أنفسهم بهالة من الشعراء ليس معناه كساد سوق الأدب ، وليس من شك فى أن تشجيع الأمراء والولاة يحفز همم الشعراء ويدفعهم إلى الإجادة فى القول ، ولكن من ينشد

---

(١) Dozy : Histoire des Musul. d' Espgne, vol. IV, p. 248 — 252

(٢) Dozy : Recherches, vol. I. p. 348

(٣) الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٤ ، وقسم ٣ ص ٢٠٤ .

الفن للفن والجال للجمال ، ويتغنى بالشعر « تحبباً لا تكسباً ويعمر المجالس وفاء لا استجداء » يجد أبواب الإنتاج مفتوحة أمامه على مصاريعها أما من يتكسب بالشعر و يرتزق منه فقد كسدت سوقه و بارت تجارته .

على أن هذا الكساد — إن صحت الرواية — لا يصدق إلا على عهد يوسف بن تاشفين ، فما كاد على ابنه يتولى الأمر حتى بدت الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى صورة زاهية براقة ، وعادت مجالس الأمراء حافلة بالشعراء الذين عادوا سيرتهم الأولى من التكسب بالشعر ، وأقبلوا على الأمراء يمدحون و يتملقون ، ملتمسين الرفد والعطاء ، ومن الغريب أن دوزى يعترف بإقبال المرابطين فى عهد على بن يوسف على هذه الحياة الأدبية الرفيعة ، و يعترف بأن الأمراء عملوا على تقليد ملوك الطوائف ، واتخذوا السمار والندماء ، واستمعوا إلى الشعر والموسيقى ، و بسطوا ظل حمايتهم على أهل الفلسفة ، ولكنه يرى أنهم لم يعمدوا إلى ذلك إلا حباً فى التقليد ليس غير ، وأنهم لم يقبلوا على ذلك بقلوب راضية وعقول واعية ، ولم يأخذوا من الحضارة الأندلسية إلا أسوأ ما فيها [1] .

مهما يكن من شيء فإن أحكام دوزى لا تصدق إلا على الفترة الأولى من حكم المرابطين ، كما لا تصدق على بلاد المغرب ، إذ أن دوزى لم يعرض لبلاد المغرب على الإطلاق . أما قول دوزى بتحكم المالكية فى الحياة فى الأندلس فقول لا يصدق على عصر المرابطين وحدهم ، فالمالكية يتحكمون فى الحياة فى الأندلس والمغرب منذ عهد بعيد ، وقد لقى الفيلسوف ابن مسرة من اضطهاد الفقهاء الشيء الكثير ، كما حارب المالكيون فى المغرب أهل الرأى محاربة لا هوادة فيها ، ولكن هذه الحرب لم تقض على الحياة العقلية ، ولم تكبح جماح أهل الفلسفة وأصحاب الفكر الحر .

---

(١) Dozy : Histoire des Musul d' Espagne, vol. IV, p. 262

وقد حورب المعتزلة وأهل الرأى فى المشرق ، ولكنهم ظلوا يتابعون نشر آرائهم ، وينادون بتعاليمهم غير مبالين بتعذيب أو اضطهاد ، ولم يكن ينتظر من الفقهاء وهم قوم من أهل الجادة أن يتسامحوا فى أمور دينهم .

أما تهمة إحراق كتاب الإحياء للغزالى ، فلا نستطيع أن نبرىء على بن يوسف منها ، فقد خضع لرأى الفقهاء ، وانساق وراءهم ، لأنهم اعتبروا الغزالى من أهل الرأى ، كما نقموا عليه حملته على الفقهاء الذين عكفوا على الفروع دون الأصول ، فألبوا أمير المسلمين ، فأمر بإحراق هذا الكتاب[(١)] برغم معارضة بعض فقهاء المالكية فى المغرب[(٢)] ، مع أن الغزالى كان معجباً بيوسف بن تاشفين ، وكان يريد أن يحضر إلى المغرب ، لولا أن عاجلته المنية ، فحالت بينه و بين ما يريد .

ويخيل إلينا أن إسراف دوزى فى هذا الرأى يرجع إلى أنه اعتمد على طائفة من الكتاب الأندلسيين ، الذين كانوا يكرهون المغاربة أشد الكره ، و يندون بتعصبهم ، وجهلهم ، ولا يرون فيهم إلا دخلاء مغتصبين ، كما أنه اعتمد على كتاب من عصر الموحدين ؛ والموحدون كما نعلم كانوا يكرهون المرابطين كرهاً شديداً ، و يعملون على تشويه سمعتهم ، ورميهم بكل داهية ، كما لا ننسى أن دوزى كان يعطف على ملوك الطوائف أشد العطف ، ويكاد يتعصب لبنى عباد ، أصحاب أشبيلية ، فمن الطبيعى أن يسخط على المرابطين ، الذين أدالوا دولة بنى عباد ، ونفوهم إلى المغرب . وليس ببعيد أن يكون دوزى قد اعتمد اعتماداً كبيراً على رسالة الشقندى ، وهى الرسالة التى تعصب فيها صاحبها للصقلب ، وراح ينتقص من العرب ، ومن البربر على سواء ، وقد رمى الشقندى المرابطين بالجهل والتعصب[(٣)] .

---

(١) التادلى : التشوف ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) رسالة الشقندى عن المقرى : انظر Abbadidarum, vol. II, p. 221. =

هذه المؤثرات المختلفة التى وجهت الثقافة الإسلامية فى عصر المرابطين وجهت الفن الأندلسى المغربى ، وتركت فيه آثاراً ظاهرة . ولكن قبل أن نوضح الدور الذى اضطلع به المرابطون فى تاريخ الفن يجب أن نبين أنه بعد أن تم للعرب فتح المغرب والأندلس ظهرت فى الحياة الفنية مدرستان تختلفان فى منهجهما ، وفى اتجاهاتهما ، وفى إنتاجهما : المدرسة الأندلسية التى أخذت توائم بين المؤثرات الفنية الوافـــدة من المشرق ، وبين المؤثرات المحلية القائمة مثل القوطية والمسيحية الهللينية . بدأت هذه العوامل الثلاثة تتفاعل فى مدرسة الأندلس ، وبدأت تتمخض بالتدريج عن نشأة فن أندلسى إسلامى ، يبرز فيه أثر هذه الموجهات جميعها ، وكان ساعد هـذا الفن الأندلسى يشتد كلما اشتد ساعد الدولة الأموية ، وخلت من متاعبها السياسية ، وركنت إلى حياة من الإستقرار تتيح لها أن ترعاه وتشد أزره ، وتأخذ بيد رجاله . وقد بلغ إنتاج هذه المدرسة الأندلسية الأوج فى عهد عبد الرحمن الناصر[1] .

= وبالله أما سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية أبسقوت الحاجب أم بصالح البرغواطى أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكرا ، ولا رفعوا للملك قدرا وبعد ما ذكره بواسطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له وقد انشدوه أيعلم أمير المسلمين ما قالوه قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء يطلب منا جوارى سودا وبيضا فقال له : يا مولانا لا ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالى السرور بيض فعاد نهاره ببعده ليلا لأن أيام الحزن ليالى سود ، فقال والله جيد أكتب له فى جوابه أن دموعنا تجرى عليه ورؤسنا توجعنا من بعده .

(1) Terrasse : L'Art Hispano-Mauresque, p. 44

أما المدرسة الأخرى فقد نشأت فى القيروان ، و بدأت تتلقى المؤثرات الشرقية ، وتتأثر بها إلى حد كبير . وفدت إليها أنماط الرقة و بغداد ، وسامراء ، وجاء الفن الأغلبي متأثراً بهذه الاتجاهات جميعها ، حتى لا تكاد تميزه عن الفن الشرقى ، ولم يكن من الممكن أن ينفرد الأغالبة بطابع خاص فى الفن ، وهم عمال بنى العباس ، يفد إليهم الفنانون من أقطار الشرق ، من مصر ، والشام ، والعراق[1] .

وقد بدأ المغرب الأقصى بعد أن ذاق ألوانا من الاستقرار فى ظل الأدارسة يتجه نحو الفن ، يأخذ منه بنصيب موفور ، ووقفت بلاد المغرب الأقصى حيرى بين مدرستين راقيتين مدرسة القيروان ، ومدرسة الأندلس ، فلم تستطع أن تخلص من آثار مدرسة القيروان ، ولا من آثار مدرسة قرطبة[2] . ولكن مؤثرات القيروان كانت هى الغالبة ، وكان الأدارسة أنفسهم يتجهون وجهة شرقية ، يستخدمون العرب ، و يشدون أزرهم ، و يكثرون من استخدام العناصر الشرقية[3] ، فقد كانوا برغم معيشتهم فى بيئة مغربية شديدى الاحساس بأصلهم الشرقى ، يعتزون به ، و يتطلعون إلى المشرق دائما . فلما قامت الدولة الفاطمية بافريقية وبدأت تتطلع إلى المغرب ، تنبه الأمويون إلى الخطر الداهم الذى يحيق بهم ، فأهتمو بالمغرب الأقصى ، وبدأوا يظاهرون أمراء زناته ، ويمدونهم بالعون والمساعدة للوقوف فى وجه صنهاجة صديقة الفاطميين ، و بدأت الصلة بين المغرب والأندلس يشتد ساعدها و يتضح أثرها ، و بدأ زعماء البربر يفدون على قرطبة ، و يعجبون بآيات الفن الأندلسى وروائعه ، فلما قامت إمارات زناته التى تدين بالولاء لبنى أميه بدأت المؤثرات الأندلسية تفد على المغرب بصورة أوضح[4] ،

---

(١) Terrasse : L'Art Hispano-Mauresque, p. 163

(٢) Ibid, p. 205

(٣) Ibid, p. 163

(٤) Marçais : Manuel d' Art Musul. vol. 1, p. 301

ولو كان المجتمع المغربى فى ظل زناته قد أصاب لونا من ألوان الاستقرار لظهرت آثار هذا الاتصال الفنى واضحة ! ولكن زناته كانت عدو الاستقرار ، وظلت الخلافات الناشبة بين بطونها تنال من استقرار البلاد وطمأنينتها ، وتصرف الناس عن الانتاج الفنى ، ولا تتيح لبذور هذا الفن الأندلسى أن تزدهر .

ولم يبذل العامريون جهدا واضحا فى بث دعائم الفن الأندلسى بالمغرب الأقصى ، إذ كانوا يعنون بالمشاكل السياسية ، ولم يكونوا منصرفين للشئون المغربية انصرافا تاما ، ولولا خوفهم من بنى زيرى ، واشفاقهم من أن يهدد الزيريون بلاد الأندلس لما احتلوا المغرب ، أو ظاهروا زناته ، فقد كانت معركة الأندلس فى حاجة إلى عنايتهم ، وإذا كانت المؤثرات الأندلسية بدأت تظهر بجلاء فى المدن الساحلية مثل سبته وطنجة ، وفى مدن اقليم الريف مثل فاس[1] ، فإن غالبية مدن المغرب الأقصى ظلت بعيدة عن هذة المؤثرات الراقية المزدهرة ، حتى تدفق المرابطون إلى المغرب ، ونجحوا فى إقامة دولة توحد بين العدوتين ، فاشتد ساعد المؤثرات الأندلسية أكثر من ذى قبل ، ولم تعد قاصرة على مدن الساحل ، وإقليم الريف ، بل لقد نفذت حتى إقليم الصحراء إلى أغمات ، ومراكش ، وبدأ الفن المغربى الأندلسى يتألق نجمه ، لأن هؤلاء البدو عمدوا إلى حمايته والإفادة منه بقدر الطاقة[2] . فطن يوسف بن تاشفين إلى هذه الحياة الفنية الزاهرة ، وأفاد منها ، واستقدم صناع الأندلس ، وخيرة فنانيها إلى بلاد المغرب للإفادة من خبرتهم ومهارتهم فى بناء المساجد والحصون وغيرها من المؤسسات[3] . وقد اشتد ساعد هذه المؤثرات الأندلسية فى عهد على بن يوسف

---

(١) Marçaisl : Manuel d' art Musnl. Vol, l p. 307

(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٢ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

ابن تاشفين ، فقد تتلمذ على الحضارة الجديدة ، وأعجب بها ، وفهمها أصدق الفهم ، وامعن في استقدام الفنانين الأندلسيين ، فانتشروا في طول البلاد وعرضها[١] ، و بدأت مدن المغرب وأقاليمه وقراه تحفل بمؤسسات بلغت من الروعة والفخامة حدا بعيدا ، وأصبحت مؤسسات فاس ومراكش وتلمسان تكاد تضارع مؤسسات قرطبة وأشبيلية ، وكان الفن في عهد المرابطين هو فن أندلسي في أرض مغربية[٢] .

وهنالك ناحية أخرى أثرت في الفن في العهد المرابطي تأثيرا كبيرا هي هذا الاستقرار الذي أشاعه المرابطون في البلاد ، وهذا الأمن وهذه الطمأنينة التي أظلت البلاد في عهدهم ؛ لأن الفوضى والاضطراب من أعدى أعداء الفن ، لا تستطيع النهضة الفنية أن تثمر وتؤتي أكلها في بيئة مضطرب به غير مستقرة ، وما يقال من أن تاريخ الفن مرتبط بالتاريخ السياسي يصدق في المغرب الأقصى أكثر من صدقة في أية بيئة أخرى ، لأن الدولة إذا بسطت رواقها وأفلحت في قهر أعدائها ، استقرت الأحوال ، وانصرف الناس إلى الإنتاج ، أما إذا انطلقت القبائل من عقالها تدمر وتخرب وتشيع الفتنة لم يستطع الفن أن يقف على قدميه[٣] .

وقد شهدت بلاد المغرب في عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد علي أمناً وطمأنينة واستقراراً ربما لم تشهده في أي عصر سابق . وانتشرت الآثار الفنية في مدن المغرب الأقصى . ولكن الحاضرة كانت أشد تألقاً في سماء الفن بسبب بلاط السلطان ، وأبهته وفخامته ، و بسبب تنافس الأمراء والقواد والعمال ورجال الدولة[٤] ، فحفلت بالعمائر المدنية والدينية ، كما أصبحت مدينة فاس من أهم مراكز الفن في المغرب في عهد المرابطين .

---

(١) الادريسي : المغرب وأرض السودان ص ٦٩ .

(٢) Terrasse : L' Art Hispano-Mauresque, p. 243

(٣) Terrasse et Hainaut : Les Arts Decoratifs au Maroc, p. 45

(٤) Idem

وثمة ناحية أخرى لا تقل عن الاستقرار أثراً ، ونعنى بها الرخاء ذلك أن الاستقرار يؤدى إلى زيادة الأنتاج ، وإلى رواج التجارة والصناعة فتتوفر المادة الخام ، ويستطيع الفن أن يجد حاجته منها فى يسر وسهولة ، كما يؤدى الرخاء إلى زيادة دخل الدولة ، وبقدر ثراء الملوك والسلاطين تعظم آثارهم ، وقد ازداد ثراء المرابطين ، وعظم جاههم بعد أن جمعوا بين أموال الأندلس والمغرب ، وأصبح من الميسور أن ينفقوا أموالاً ضخمة فى إقامة الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد الجامعة . روى أن علياً بن يوسف أنفق فى بناء مراكش ٧٠ ألف دينار[١] ، كما أنفق فى إصلاح جامع القرويين بفاس ما يقرب من ثمانين ألف دينار[٢] ، كما كان يصل أهل الفن والصناعة بصلات سخية تدفعهم إلى الإتقان والتجويد ، لذلك تجلت فى مبانيهم ضخامة الثروة وروعة الفن .

وهنالك ناحية أخرى كانت لها نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الفن فى العهد المرابطى تتمثل فيما قامت به الدولة من أحياء تقاليد الإسلام ، ورفع لواء السنة ، واتسام الأمراء والولاة بالتقوى والصلاح ، والإقبال على العبادة والانقطاع لذكر الله ، فقلت العمارات المدنية فى عهدهم قلة أثارت دهشة مؤرخى الفن[٣] ، إذ لم يكثروا من القصور المنيفة ، إنما أقبلوا على المساجد يعمرونها ويكثرون منها ، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد فى مدينة فاس ، وكان يلوم أهلها على تقصيرهم فى هذا الشأن[٤] ، كما بنى مسجداً جامعاً فى مراكش[٥] . ويخيل إلينا أن التقاليد التى وضعها عبد الله بن ياسين من معاقبة تارك الصلاة كانت لا تزال سارية فى عهد يوسف على الأقل ، وإذا كانت الدولة تعاقب على ترك الصلاة

---

(١) ابن المؤقت المراكشى : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .

(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٥٧ :

(٣) Marçais : Manuel de L'Art Musul. vol. I, p. 307

(٤) الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٢ .

(٥) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

فلا بد أن الناس قد أقبلوا على المساجد إقبالاً منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الإكثار منها . نعم أقبل ملوك الطوائف على بناء القصور وتأنقوا فى زخرفتها و بنائها بينما وجه المرابطون عنايتهم إلى المساجد يتأنقون فى بنائها و يعلون من صرحها . .

وقد تجلت روائع الفن المغربى الأندلسى فى جامع القرويين بفاس الذى تم إصلاحه فى عهد على بن يوسف ، وأنفق فى ذلك نحوا من ثمانين ألف دينار(١) واستجلب خبرة الصناع المهرة المهندسين حتى جاء آية فى روعة الفن و بهــائه ، يتضح ذلك من قول صاحب كتاب زهرة الآس «أخذ فى عمل الطبقة التى بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصل بهما فعلى ذلك بالجص المقربس الصنعة والنقش على المحراب ودوائر القبلة التى عليه ورقش ذلك كله بورق الذهب واللازورد وأضاف الاصبغة ، وركب فى الشماسات التى بجوانب القبة أشكالا متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ، ثم أخــذ فى تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحــكم والشكل المتقن(٢)» . ويتجلى ذلك الفن أيضاً فى جامع تلمسان الذى بنى سنة ٥٢٠ هجرية فى عهد على بن يوسف ، وظهرت فيه آثار الفن الأندلسى واضحة حتى لقد شبه بجامع قرطبة فى الروعة والأبهة(٣) . ومن الآثار المنسوبة للمرابطين أيضا جامع الجزائر وهو يشبه جامع تلمسان فى روعة الفن وأبهة البناء(٤) ، ولو كان فى مقدور الموحدين أن يهدموا هذه الآثار لفعلوا ، لأنهم هدموا قصور المرابطين فى المغرب ومحوا آثارهم ، فلم يجد العلماء من الآثار المنسوبة إليهم ما يتفق وروعة فنهم وضخامة ملــكهم وعظم ثرائهم .

---

(١) الجزنائى زهرة الآس ص ٣٢ و ٤٢ . جذوة الاقتباس ص ٤١ .

(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٥٧ . ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٤٢ .

(٣) Marçais : Manuel de l' Art Musul. vol 1, p. 305

(٤) Terrasse : L'Art Hispano – Mauresque p. 227

وقد حرص المرابطون على تثبيت سيادتهم فى المغرب الأقصى و إخضاع القبائل المغلوبة على أمرها حتى تستكين لحكمهم ، فلا تحدثهم أنفسهم بالخروج عن الطاعة ، وقد نجحوا فى هذه السياسة نجاحا بعيد المدى ، فأكثروا من القلاع وأقاموا صفا من الحصون حول جبال أطلس لإخضاع المصامدة والسيطرة عليهم . وكانت هذه القلاع تتألف من جدران سميكة غليظة تنهض سامقة فى الجو تتخللها أبراج على هيئة نصف دائرة وتحيط بها الخنادق الواسعة[1] ، وقد تأثر المرابطون بالفن الأندلسى فى بنائها كما تأثروا بالفن الإفريقى . وقد حصن المرابطون المدن كما حصنها أهل الأندلس ، واضطر على بن يوسف إلى أن يقيم سورا حول مراكش استخدم فى بنائه صناعا من أهل الأندلس[2] . ولم يهمل المرابطون القناطر والجسور ، وقد أقاموا بمراكش قنطرة على نهر تانسيفت ، وجلبوا المياه من جبال أطلس[3] .

---

(١) Terrasse : L'Art-Hispano — Mauresque p: 225

(٢) مفاخر البربر ص ٥٣ . السعادة الأبدية جـ ١ ص ١٤ .

(٣) الادريسى : المغرب وأرض السودان ص ٦٩ .

Marçais : Manuel d'Art Musul, I, p. 350

الملاحق

١ — ملوك المرابطين .

٢ — عمال المرابطين بالأندلس .

٣ — عمال المرابطين بميورقة .

٤ — عمال المرابطين بالمغرب .

٥ — الكتاب والوزراء .

٦ — قواد الجيش .

٧ — أمراء البحر .

٨ — مواضع القلاع والحصون .

٩ — القضاء .

ا — قضاة الأندلس .

ب — قضاة المغرب .

١ — ملوك المرابطين

يحيى بن إبراهيم الجدالى } قبل سنة ٤٤٧ = ١٠٥٥
يحيى بن عمر اللمتونى }

١ — أبو بكر بن عمر اللمتونى (توفى سنة ٤٨٠) ... ٤٤٨ = ١٠٥٦

٢ — يوسف بن تاشفين ... ... ٤٨٠ = ١٠٧٨

٣ — على بن يوسف ... ... ٥٠٠ = ١١٠٦

٤ — تاشفين بن على (توفى سنة ٥٤٠) ... ... ٥٣٧ = ١١٤٢

٥ — إبرهيم بن تاشفين بن على ... ... ٥٤٠ = ١١٤٥

٦ — إسحق بن على بن يوسف (توفى سنة ٥٤١) ... ٥٤٠ = ١١٤٥

يحيى بن غانية (آخر ولاة المرابطين بالأندلس توفى سنة ٥٤٣) .

٢ — عمال المرابطين بالأندلس

قرطبة	أسبيلية	غرناطة
أبو محمد تاشفين بن سليمان	ابراهيم بن يوسف بن تاشفين	ابو بكر بن ابراهيم
الزبير بن عمر اللثم	أبو بكر بن على بن يوسف	أبو بكر بن ابى محمد
أبو محمد عبد الله بن جنون	أبو بكر بن مزدلى	أبو بكر بن على بن يوسف
أبو عبد الله المعروف بأبن عواد	الأمير باسنجور	تاشفين بن على
أبو محمد عبد الله بن مزدلى	تميم بن يوسف بن تاشفين	تميم بن يوسف بن تاشفين
أبو عبد الله بن نوتان	أبو جعفر عمر	الزبير بن عمر
أبو عبد الله محمد بن أبى زنفى	سير بن أبى بكر	سير بن الحاج
أبو عبدالله محمد بن الحاج داود	طلحة بن العنبر	أبو محمد عبد العزيز بن يلمان
أبو محمد مزدلى بن سلنسكان	عبد الله بن أبى بكر بن جنونه	عبد بن مزدلى
المنصور بن محمد بن الحاج	أبو محمد عبد الله بن فاطمة	عثمان بن بدر اللمتونى
أبو زكريا يحيى بن تاشفين	عثمان بن عمر	على بن الحاج بن محيون
	المنصور بن محمد بن الحاج	على بن يوسف بن تاشفين
	أبو زكريا يحيى بن على بن عجون	موسى بن الحاج
	أبو زكريا يحيى بن اسحق انجبار	مزدلى بن سلنسكان
	يحيى بن سير	يحيى بن واسينو
	أبو يعقوب بن على	

تابع عمال المرابطين بالأندلس

مرسية	بلنسية	سرقسطة
إبراهيم بن تاعياشت	إبراهيم بن تاعياشت	أبو بكر بن ابراهيم بن تيفلويت
أبو بكر بن تيفلويت	أبو بكر بن ابراهيم بن تيفلويت	أبو عبد الله محمد بن الحاج
أبو عبد الله محمد بن تاشفين	أبو الطاهر تميم بن يوسف	
أبو زكريا يحي بن غانية	عبد الله بن فاطمة	
أبو عبد الله بدر بن ورقاء	على بن محيون	
أبو عبد الله ينتان بن على	أبو عبد الله محمد بن الحاج	
	مزدلى بن سلنكان	
	أبو زكريا يحي بن تاسورة	
	أبو زكريا يحي بن على	
	بدر بن ورقاء	
	أبو يعقوب بن ينتان بن على	

٣ — عمال المرابطين بميورقة

١ — محمد بن على بن اسحق بن غانية

٢ — وانود بن أبى بكر اللمتونى

٣ — يحيى بن على بن اسحق بن غانية

٤ — عمال المرابطين بالمغرب

فاس وسبتة	تلمسان	بلاد السويس
أبو بكر بن إبراهيم أبو عبد الله محمد ابن الحاج	تاشفين بن تينامر مزدلى بن سلنكان	أبو بكر بن محمد اللمتونى

إقليم الصحراء	سجلماسة	
أبو بكر بن ابراهيم	إبراهيم بن أبى بكر بن عمر أبو عبد الله بن أبى زنقى	

٥ — الكتاب الوزراء

١ — أبو بكر بن الصائغ .

٢ — أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة .

٣ — أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعى .

٤ — أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى.

٥ — ابن باجة (أبو بكر) .

٦ — جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى .

٧ — أبو جعفر بن البنى .

٨ — أبو الحسن غلام البكرى .

٩ — طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوس .

١٠ — عبد الرحمن بن أحمد بن إبراهيم .

١١ — عبد الرحمن بن أسبط .

١٢ — عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى .

١٣ — أبو عبد الله بن أبي الخصال .

١٤ — أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهرى اليابرى .

١٥ — عبد الملك بن أبي الخصال مسعود بن فرح بن خلصة الغافقى .

١٦ — أبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب .

١٧ — مالك بن وهيب .

١٨ — محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن السقاط .

١٩ — ومحمد بن سليمان الكلاعى المعروف بابن القصيرة .

٢٠ — محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز .

٢١ — يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، أبو بكر ابن الصيرفى .

٢٢ — يحيى بن همام السرقسطى .

٦ — قواد الجيش

١ — ابن تافلويت

٢ — أبو الطاهر تميم بن يوسف

٣ — جرور الحشمى

٤ — داود بن عائشة

٥ — أبو سليمان بن تارشنا

٦ — سير بن أبي بكر

٧ — سير بن واربيل

٨ — أبو عبد الله بن الحجاج

٩ — عبد الله بن فاطمة

١٠ — عثمان بن يحيى بن إبراهيم

١١ — على بن الحاج

١٢ — أبو عمران بن تارشنا

١٣ — أبو محمد مزدلى

١٤ — مسعود بن ورنيغ

١٥ — أبو يحيى بن إبراهيم

١٦ — يحيى بن سير

١٧ — يحيى بن كانجان

١٨ — أبو زكريا يحيى بن واسينوا

٧ — أمراء البحر

١ — على بن عمر ، الموسوم برقم الأوز

٢ — على بن عيسى بن ميمون

٣ — عيسى بن ميمون اللمتونى

٦ — مواضع القلاع والحصون

١ — تاسعيموت .
٢ — آنسا .
٣ — نافركـكوت .
٤ — آسكابو .
٥ — تارودانت .
٦ — آيـكيليز .
٧ — تاسنولت .
٨ — آصكا آن كات .
٩ — تارولولت أن يكدميون .
١٠ — الجاغة .
١١ — نفيس .
١٢ — هيلانة .
١٣ — هسكورة .
١٤ — تادلا .
١٥ — تاكزرورت .
١٦ — داى .
١٧ — تاكرارت .
١٨ — آجرو .
٢٠ — تاسغمارت .
٢١ — تونـكطيان .
٢٢ — الولجة .
٢٣ — تازغدرا .

٩ — القضـــاء

(أ) قضاة الأندلس

غرناطة	قرطبة	اشبيلية
أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر	أبو بكر بن منظور	أبو بكر بن العربى
أحمد بن محمد بن عمر التميمى	عبد الملك بن مسرة بن خلف	أحمد بن محمد بن عمر التميمى ابن شبرين
خلوف بن خلف أبو سعيد	عيسى أبو الاصبغ بن سهل	شريح بن محمد بن شريح
عبد العظيم بن زيد بن يحي	عيسى بن الماجوم	عبد الله بن خليفة
أبو عبدالله بن حسون الـكلبى	أبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن خلف التجيبى	أبو عبد الله محمد محمد بن داود ابن عطيه
عبد الله بن على بن عبد الملك ابن سمجون اللواتى	أبو الوليد محمد بن رشد	أبو القاسم بن داود
عبد المنعم بن مروان بن عبد الملك	محمد بن عبدالرحمن بن ابراهيم ابن الوزان	أبو القاسم بن منظور
على بن عبدالرحمن بن سيدابية		محمد بن اسماعيل بن عبد الملك
على بن محمد بن عذره بن هانىء		محمد بن داود بن عطيه بن سعيد
عياض اليحصبى		
عيسى أبو الاصبغ بن سهل		
أبو بكر محمد بن أحمد القليعى		
محمد بن عبد الله بن حسن بن حسنونة		
محمد بن على الأزدى		
محمد بن هشام بن أحمد بن موسى بن محمد		
هشام بن احمد بن هشام الهلالى		

تابع : قضـــاة الأندلس

شرق الأندلس	الجزيرة الخضراء	بلنسية
محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود الغساني	أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن السكتاني عبد الله بن علي بن عبد الملك ابن سمجون	اسماعيل بن مهلهل

مرسية	إشنتمرية الشرق	مالقة
أبو الحسين بن محمد بن سكره عاشر بن محمد بن عاصر أبو علي الصدفي	لب بن عبد الجبار بن عبد الرحمن	الحسين بن عبيد الله بن حسين السكي

جيان	المرية	اليونت
عبد العظيم بن يزيد الخولاني	أبو الحسن بن أضحى عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن عبد المنعم بن مروان بن عبد الملك	محمد بن عبد العزيز بن سعيد ابن عقال

حصن مرجيق	لاردة	استجة
ابن شبرين	أحمد بن هذيل الانصاري	أحمد بن محمد بن هذيل الانصاري

مالقة	شلب	شاطبة
عبد الرحمن بن قاسم الشعبي	ابن شبرين	عاشر بن محمد بن عاشر أبو بكر محمد بن خلف

ب — قضاة المغرب

قاس	مراكش	سبتة
خلوف بن خلف الله الصنهاجي عبدالحق بن معيشة الغرناطي عبد الله بن أحمد بن وشون عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى عبد الملك بن بيضاه القيسى عيسى بن الملجوم محمد بن حكم السرقسطى محمد بن داود بن عطيه الجزولى محمد بن عبد الرحمن الكتامى محمد بن عيسى بن حسين التميمى محمد بن عيسى أبو عبد الله	خلوف بن خلف الله الصنهاجى عبدالرحمن بن محمد الكتامى عبد الله بن إسماعيل الإشبيلى أبو عبد الله بن حسنون عبد الله بن محمد بن اللخمى موسى بن حماد الصنهاجى عبد الملك المصمودى يوسف بن عيسى بن الملجوم	إبراهيم بن أحمد البصرى عبد الله بن حمو عبد الله بن محمد بن إبراهيم رياض اليحصبي محمد بن داود بن عطيه محمد بن عيسى بن حسين التميمى مروان عبد الملك اللواتى محمد بن محمد الأموى مروان بن عبد الملك اللواتى

طنجة	اغمات	تلمسان
مروان بن عبد الملك بن سمجون عيسى بن سهل الأسدى	خلف بن عمر بن خلف التجيبي عبد الله بن اسماعيل الإشبيلى عبد الله بن على بن احمد اللخمى	على بن عبد الرحمن بن سمجون محمد بن داود بن عطية

مكناسة	سلا	وجدة
عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدى ، ابو موسى بن الملجوم	عبدالرحمن بن محمد الكتامى	عبد الله بن سعيد الوجدى

أركى	دكاله	سجلماسة
محمد بن الحسن الحضرمى	عبد العظيم بن يزيد بن هشام	عبد العظيم بن يزيد ابن هشام

المراجـع

أولا: المراجع العربية

المراجع العربية . —

١ — ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٩هـ) .
» » كتاب التكملة لكتاب الصلة، جزءان، (مدريد ١٨٨٦ م) .

٢ — » » الحلة السيراء .

٣ — » » المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، (مدريد ١٨٨٥ م) .

٤ — أبو بكر الصنهاجي البيدق .
كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، (باريس ١٩٢٨)

٥ — ابن الأثير — أبو الحسن علي بن أبي الكرم (٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ — عشرة اجزاء — (بولاق) .

٦ — أحمد بابا التمبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر (من علماء أول القرن الحادي عشر)
نيل الابتهاج بتطريز الديباج (القاهرة ١٢٣٩ هـ)

٧ — الادريسي — محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى (٦٤٩ هـ) .
المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، (ليدن ١٨٩٤) .

٨ — اسماعيل رأفت .
التبيان في تخطيط البلدان — جزء واحد، (القاهرة ١٩١٥) .

٩ — أشباخ — يوسف .
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين — جزءان — (القاهرة ١٩٤٠) .

١٠ — الأصبهاني — أبو عبد الله محمد بن حامد بن عبد الله (ت ٥٩٧ هـ) .
خريدة القصر وجريدة العصر — الجزء الحادي عشر — مخطوط بمكتبة الجامعة

١١ — ابن أبي صيبعة — موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٧٧هـ) .
عيون الانباء في طبقات الأطباء — جزءان — تعبره موللر (القاهرة ١٨٨٢) .

١٢ — الأعمى التطيلي .
الديوان — مخطوط بدار الكتب المصرية .

١٣ — اعز ما يطلب مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت مما أملاه أمير المؤمنين
عبد المؤمن بن علي — نسخة ليس بها ما يدل على سنة الطبع أو مكانها .

١٤ — أماري .
مكتبة صقلية العربية — جزءان — (ليبزج سنة ١٨٨٧) .

١٥ — ابن بسام — أبو الحسن علي الشنتريني — (ت ٥٤٢ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . —
القسم الأول المجلد الأول والثانى — القاهره ١٩٣٩ — ١٩٤٢ .
القسم الثانى والثالث — مخطوط بغداد — مكتبة الجامعة .
القسم الرابع المجلد الأول — القاهرة ١٩٤٥ .
القسم الرابع المجلد الثانى — مخطوط بقلم مغربى — مكتبة الجامعة .
١٦ — ابن بشكوال — أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٨٧ هـ)
كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم (مدريد١٨٨٢م).
١٧ — ابن بطوطة — أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى (٧٧٩ هـ)
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
١٨ — البغدادى — أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد (٤٢٩ هـ) .
الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم (القاهرة ١٩١٠ م) .
١٩ — البكرى أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز — (٤٨٧ هـ).
المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب — دى سلان — (الجزائر ١٨٥٧) .
٢٠ — التادلى — أبو يعقوب بن يوسف بن يحيى بن عيسى (حول ٦١٧ هـ).
التشوف إلى رجال التصوف — مخطوط بدار الكتب المصرية .
٢١ — التيجانى — من أعيان القرن الثامن الهجرى .
الرحلة التيجانية — مخطوط بدار الكتب المصرية .
٢٢ — جامع تواريخ فاس — طبع بمدينة بالرم سنة ١٨٧٨ .
٢٣ — ابن جبير — أبو الحسين محمد بن أحمد (٦٢٤ هـ).
الرحلة — (ليدن سنة ١٩٠٧) .
٢٤ — الجزنائى — أبو الحسن على .
زهرة الآس فى بناء مدينة فاس — (تلمسان ١٩٢٢) .
٢٥ — جلد تسيهر . —
العقيدة والشريعة — (القاهرة) .
٢٦ — حسن ابراهيم — الدكتور .
النظم الاسلامية — (القاهرة ١٩٣٩) .
٢٧ — ابن حزم — أبو محمد على بن أحمد — (٤٥٦ هـ) .
كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل — ٤ اجزاء — (القاهرة ١٣١٧هـ) .
٢٨ — الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . لمؤلف مجهول الاسم — نشره أحمد علوش رباط ١٩٣٦ .
٢٩ — ابن حمديس — عبد الجبار أبى بكر محمد السرقوسى (٥٢٧هـ).
الديوان — (روما ١٨٩٧)
٣٠ — الحميدى — أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (٤٨٨ هـ) .
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر — (القاهرة ١٩٥٢) .
٣١ — الحميرى — أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (٨٦٦هـ) .

صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار — (القاهرة ١٩٣٧) .
٣٢ — ابن حوقل — أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى (أواخر القرن الرابع) .
المسالك والممالك — (ليدن ١٨٧٣) .
٣٣ — ابن خاقان — أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى (٥٣٥ هـ) .
قلائد العقيان — (القاهرة ١٢٧٣) .
٣٤ — « « : مطمح الأنفس ،القاهرة ١٣٢٥
٣٥ — الخشنى — محمد بن الحارث بن أسد
كتاب طبقات علماء افريقية — (الجزائر ١٩١٤) .
٣٦ — ابن الخطيب — الوزير محمد لسان الدين (٧٧٦ هـ)
« « الإحاطة فى أخبار غرناطة — جزءان — (القاهرة — ١٣١٩ هـ .)
٣٧ — « « : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام —
(رباط الفتح — ١٩٣٤) .
٣٨ — « « : رقم الحلل فى نظم الدول — (تونس ١٣١٦ هـ) .
٣٩ — ابن خفاجة — أبو اسحق ابراهيم بن أبى الفتح الاندلسى (٥٣٨ هـ) .
الديوان — القاهرة (١٢٨٦ هـ) .
٤٠ — ابن خلدون — عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر — الجزء السادس — (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
٤١ — ابن خلكان — شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم (٦٨١ هـ) .
وفيات الأعيان وأنباء الزمان .
٤٢ — ابن خير — أبو بكر محمد بن عمر .
فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم —
(سرقسطة ١٨٨٤) .
٤٣ — الدباغ — عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى (٦٩٦ هـ) .
معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان — ٤ اجزاء — (تونس ١٣٢٠) .
٤٤ — ابن دحية — أبو الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبى على (٦٢٣ هـ) .
« « كتاب النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس — بغداد ١٩٤٦ .
٤٥ — « « — المطرب من أشعار أهل المغرب — مخطوط بدار الكتب (طبع الآن)
٤٦ — الدمشقى — شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب (٥٢٧ هـ) .
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر — (بطربورغ ١٨٢٠) .
٤٧ — رينو — بول .
تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ترجمه
وعلق عليه شكيب أرسلان — (القاهرة ١٣٥٢) .
٤٨ — ابن الزبير — أبو جعفر أحمد (٧٠٨ هـ) .
كتاب صلة الصلة — (الرباط ١٩٣٧) .
٤٩ — ابن أبى زرع — أبو الحسن على بن عبد الله (٧٢٦ هـ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس —

(أوبسالة ١٨٤٣) .
٥٠ — الزركشى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤى .
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية — (تونس ١٢٨٩هـ) .
٥١ — ابن زيدان — عبد الرحمن .
إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس — ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩)
٥٢ — السقطى — أبو عبد الله محمد ابن أبى محمد المالقى الأندلسى .
آداب الحسبة .
٥٣ — السيوطى — أبو بكر بن محمد المغربى .
كتاب فى نسب بعض الصحابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين
مخطوط بدار الكتب المصرية .
٥٤ — السيوطى — جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر الشافعى (٩١١ هـ)
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة — (القاهرة ١٣٢٦) .
٥٥ — الشريف العلمى — أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب .
الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب — مطبوع بالحجر بقلم مغربى
٥٦ — الشهرستانى — أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨ هـ) .
كتاب الملل والنحل — (ليبزج ١٩٢٣) .
٥٧ — الضبى — أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (٥٩٩ هـ) .
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس — (مدريد ١٨٨٤) .
٥٨ — الطرطوشى — أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى (٥٢٠هـ)
سراج الملوك — (القاهرة ١٢٨٩هـ) .
٥٩ — عبد الله بن بلكين (كان حيا فى القرن الخامس الهجرى) .
التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة نشره بروفنسال . انظر
Revue al — Andalus, 1935, 1941
٦٠ — ابن عبدون — محمد بن أحمد التجيبى (من رجال القرن الخامس) .
رسالة فى الحسبة — نشرها بروفنسال وعلق عليها .
٦١ — ابن عذارى المراكشى .
البيان المغرب — الجزء الأول والثانى والثالث ، ليدن (١٨٤٨ — ١٨٥٠ وباريس
١٩٣٠) .
٦٢ — أبو العرب — محمد بن أحمد بن تميم التميمى .
طبقات علماء تونس — (الجزائر ١٩١٤) .
٦٣ — ابن العماد الحنبلى — أبو الفلاح عبد الحى بن العماد (١٠٨٩هـ) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — الجزء الثالث — (القاهرة ١٣٥٠ هـ)
٦٤ — عياض اليحصبى (٥٤٤هـ) .
ترتيب المدارك وتقريب المسالك . مخطوط بدار الكتب فى أربعة أجزاء .
٦٥ — مشيخة القاضى عياض — مخطوط بقلم مغربى بدار الكتب المصرية .
٦٦ — الغرناطى — محمد بن عبد الرحيم المعروف بأبى حامد الأندلسى (٥٦٠هـ)
تحفة الألباب ونخبة الأعجاب .

٦٧ — الغزالى — محمد بن محمد بن أحمد (٥٠٥هـ) .
أحياء علوم الدين .
٦٨ — أبو الفدا — الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة (٧٣١هـ) .
المختصر فى أخبار البشر — ٤ أجزاء — (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) .
٦٩ — ابن فرحون — برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى (٧٩٩هـ) .
الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب .
٧٠ — ابن القاضى — أحمد بن محمد بن أبى العافية .
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، بقلم مغربى طبع الحجر .
٧١ — ابن القلانسى — أبو يعلى حمزة (٥٥٥هـ) .
ذيل تاريخ دمشق — (بيروت ١٩٠٨) .
٧٢ — القلقشندى — الشيخ أبو العباس أحمد (٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى — الجزء الخامس — (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧) .
٧٣ — الكتانى — أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الحسنى .
الأزهار العاطرة الأنفاس — بقلم مغربى طبع الحجر .
٧٤ — المالكى — أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله .
رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم .
نشره وعلق عليه وقدم له الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥١ .
٧٥ — مالك بن أنس .
الموطأ (دلهى ١٣٠٢ هـ) .
٧٦ — أبو المحاسن — جمال الدين يوسف تغرى بردى (٨٧٤هـ) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٤هـ) .
٧٧ — المراكشى — محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى (٦٦٩هـ) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، (القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٤٢) .
٧٨ — ابن مريم — أبو عبد الله محمد ابن محمد المديونى .
البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، (الجزائر ١٩٠٨) .
٧٩ — نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الإسم ، ألفه سنة ٧١٢ هـ . نشرها بروفنسال ، (رباط ١٩٣٤) .
٨٠ — المقرى — شهاب الدين محمد بن التلمسانى (١٠٤) .
« « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض — ٣ اجزاء — (القاهرة ١٩٤٠) .
٨١ — « « : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطب — (القاهرة) .
٨٢ — المقريزى — تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥ هـ) .
« « جنى الأزهار من الروض المعطار — مخطوط بدار الكتب المصرية .
٨٣ — « « : شذرات العقود فى ذكر النقود .
٨٤ — ابن المؤقت — محمد بن محمد بن عبد الله المراكشى .

السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية — مجلدان قلم مغربي طبع الحجر

٨٥ — مؤنس — حسين الدكتور.

« « الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين — مجلة كلية الآداب م ١١٠ — ج ٢ — ١٩٤٩ .

٨٦ — « « السيد القبيطور وعلاقاته بالمسلمين — مجلة كلية الآداب — العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠ .

٨٧ — النباهي — أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي (٧٧٦ هـ) .
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا — (القاهرة ١٩٤٨) .

٨٨ — نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى — اشرها بروفنسال — باريس ١٩٤٨

٨٩ — النويري — شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم .
نهاية الأرب — الجزء ٢٢ — (غرناطة ١٩١٩) .

ثانياً — المراجــع الأوروبية

1 — **Altamera :**

" " Spain (1031-1248)

" " Cambridge Medieval History, vol. VI Chapter XII.

2 — Annales de L'Institut d'Etudes Orientales (Faculté des Lettres de L'Université d'Alger) Tome I, Anneé 1934-1935, Tome II.

3 — **Bassset(R.) :**

" " Melanges Africains et Orientaux, Paris, 1915.

4 — " " Mission au Senegal 1, Paris 1918.

5 — **Barth (H.) :**

Travels and discoveries in North and Central Africa in the years 1809-1855, London 1858, 5 vols.

6 — **Bel (A.) :**

Almoravide : Encycl. of Islam.

7 — " " Alí Ben Youssof : Encycl. of Islam.

8 — " " Les Benou Ghanya, Paris 1903.

9 — " " La Religion musulmane en Berbérie, etablissement et developpement de l'Islam en Berbérie du VII au XX Siecle, Tome I, Paris 1938.

10 — **Ben Cheneb (M.) :**

Etude sur les Personnages mentionnés dans l'Idjaza du Cheikh Abd El Qadir El Fasy, Paris 1907.

11 — **Bjorkmann (W.) :**

Litham : Encycl. of Islam.

12 — **De Cenival (P.) :**

Marrakoch : Encycl. of Islam.

13 — **Cedera (F.) y Zaidin :**

Tratado de Numismatica Arabigo-Espanola, Madrid, 1879.

14 — **Colin (G. S.) :**

" " Lamta : Encycl. of Islam.

— " " Lamtouna : Encycl. of Islam.

16 — **Cooley (W D) :**
The Negroland of the Arabs, London 1841.

17 — **Delafosse (M.) :**
" " Chroniques du Fauta Sènegalais, Revue du Monde Musulman ' Tome 25, 1913.

18 — " " Senegal : Encycl. of Islam.

19 — **Demombynes (G.) :**
Masalik El Absar Fi Mamalik el Amsar, L'Afrique moins l'Egypte, traduit et annoté avec une introduction et Cartes, Paris 1927.

20 — **Doutté (E.) :**
" " Notes sur l'Islam Maghribin "Les Marabouts", Paris 1901.

21 — " " Abdallah Ibn Yasain : Encycl. of Islam.

22 — " " Encycl. of Islam.

23 — **Dozy (R.) :**
" " Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leyde 1861.

24 — " " Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1846.

25 — " " Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne pendant le moyen age, Leyde 1881, 2, vols,

26 — **Duruy (V.) :**
Histoire du Moyen age depuis la chute de l'empire d'Occident jusqu'au milieu du XV Siécle, Paris 1884.

27 — **Duveyrier (H.) :**
Exploration du Sahara : Les Touareg du Nord, Paris 1864.

28 — **Fournel (H.) :**
Les Berbéres, Tome I, Paris, 1875.

29 — **Gautier (E. F) :**
" " La conquéte du Sahara, Paris 1915.

30 — " " Les Siécles Obscurs du Maghreb, Paris 1927.

31 — **Gayangos (P.) :**
The History of the Mohammedan dynasties in Spain, extracted from the Nafhu-t-tib, 2 vols, London MDCCCXL.

32 — **Goldziher (I) :**
Mohammed Ibn Toumart et la theologie de l'Islam dans le Nord de l'Afrique au XI Siecle, Alger 1903.

33 — **Hamet (I.) :**
La civilisation Arabes en Afrique Centrale, Revue du Monde Musul. Avril, 1911, Tome XIV.

34 — **Hoogoliet (M.) m :**
Specimen e litteris orientalibus diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia de Ibn Abdune pœta (ex. MSS. codicibus) bibliotheca Leidensis.

35 — **Juan de dios de la Radá :**
Catalogo de Monedas Arabigos-Espanolas que se conservan en el museo arquelogica National, Madrid 1892.

36 — **Julién (A.) :**
Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1931.

37 — Katalog der Orientalischen Münzen (Konigliche Museum zu Berlin) 2 vols., Berlin 1898.

38 — **De la Chapelle (F.) :**
" " Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental, Hespéris, anneé 1930, Tome XI.

39 — " " Note presenté au congrés par le Colonel Asensie au nom de la delegation du gouvernment Espanol, Hespéris, Anneé 1930 t. XI.

40 — **Lane-Poole (S.) :**
Catalogue of the collection of Arabic coins in the Khedivlal Libary at Cairo, London 1897.

41 — **Lavoix (H.) :**
Ctalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Nationales de Paris DCCCXCI.

42 — **Lavust (E.) :**
L'Habitation chez les transhumants du Maroc Centrale, Hésperis, Tome XVIII, 1934.

43 — **Lemann (A.) :**
L'Origine de l'Idée de la Croisade, Hésperis, 1937, T. XXIV.

44 — **Lévi-Provençal :**
" " Un manuel Hispanique de Hisba sur la surveillance des corporation et la repression des fraudes en Espagne, Musulmane, Paris DCCCXXXI.

45 — " " Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.

46 — **Lévi-Provençal**

" " Séville Musulmane au début du XIı Siécle:Le Traité d'Ibo Abdun, Paris 1947.

47 — " " La Mora Zaida, femme d'Alphonse VI, Hésperis, 1934, t. XVII.

48 — " " Le Cid : Encycl. of Islam.

49 — " " Sous : Encycl. of Islam

50 — **Marçais (G.) :**

Les Arabes en Berbérie du XIe au XIV Siecle, Paris 1913.

51 — " " Manuel d'Art Musulmane:L'Architecture, Tome I,Paris 1926.

52 — " " Sanhaja : Encycl. of Islam.

53 — " " Ribat : Encycl. of Islam.

54 — **Macdonald (D. B.) :**

Djihad : Encycl. of Islam.

55 — **Du Mas Latrie (M. L.) :**

Traités des paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chretiens avec les Arabes de l'Afrique Sep. Paris, 1866.

56 — **Muller (M. J.) :**

Geschichte der westlischen Araber herausgegoben, Muchen, 1866,

57 — **Perés (H.) :**

La poésie a Fés sous les Almoravides et les Almohades, Hesperis 1934, Tome XVIII.

58 — **Pidal (M.) :**

The Cid and his Spain, London, 1934.

59 — **Pirenne (H) :**

Mahomet et Charlemagne, Paris 1937.

60 — **Prieto y Vives (A.) :**

Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

61 — **Rodd (F. R) :**

People of the Viel, London 1926.

62 — **De la Roncière :**

La déconverte de L'Afrique au moyen age.

63 — **Scott (S. P.) :**
History of the Moorish Empire in Europe, vol. II, London 1904.

64 — **De Slane (M.) :**
Histoire des Berbéres et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale : Introduction, Alger 1852.

65 — **Stevenson (W. B.) :**
The First Crusade : Cambridge Medieval History, vol, V, Chapter VII.

66 — **Strothmann (R.) :**
Tachbih : Encycl. of Islam.

67 — **Terrasse (H.) :**
" " L'Art Hispano - Mauresque des origines au XII Siecle, Paris MCXXXII.

68 — " " Les Arts decoratifs au Maroc, Paris 1924.

69 — " " Histoire du Maroc, des origines a L'etablissement du Protectorat Français, Casablanca, 1946.

70 — **Van Berchem (M.) :**
Titres Califien d'Occident. J.A.S., X serie, Tome IX, 1907.

71 — **Vives (A.) :**
Monedas de las dinastias arabigo-Espanola, Madrid 1893.

72 — **Yver (G.) :**
Adrar : Encycl. of Islam.

کشاف

(ا)

(ح)

(خ)

(د)

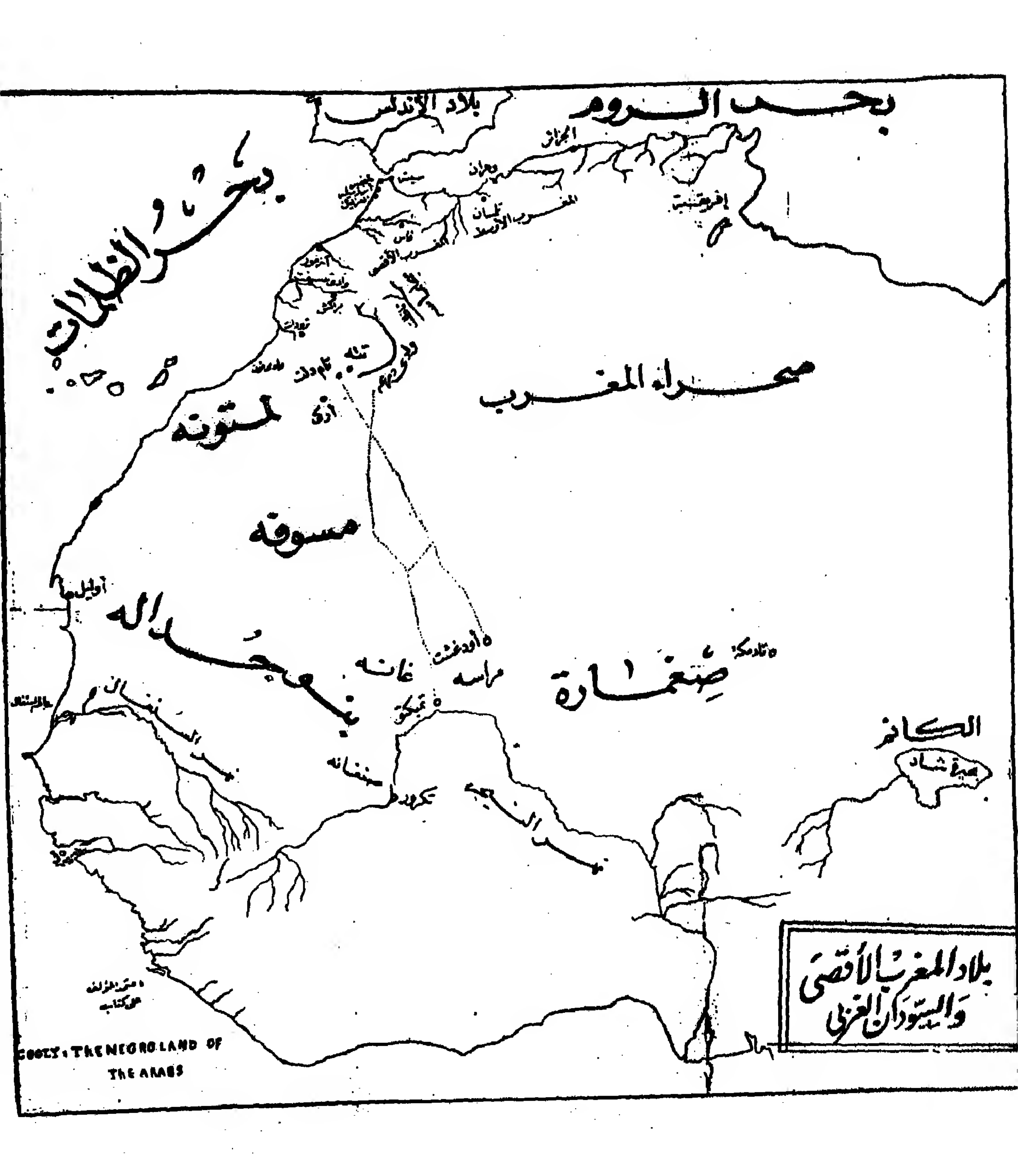
(ر)

(ع)

(غ)

(ف)

(م)


بحر الروم
بلاد الأندلس
بحر الظلمات
إفريقية
المغرب الأوسط
صحراء المغرب
لمتونة
مسوقة
بنو جدالة
صنغارة
الكانم
غانه
تمبكتو
بحيرة شاد
بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي
THE NEGRO LAND OF THE ARABS